

محمد بن عبد الله بن عبد الوهاب

أمة الفقه
السنة

حلي
النون

طبعة دار الشروق الأولى
١٤١١ هـ - ١٩٩١ م

جميع حقوق الطبع محفوظة

© دار الشروق

القاهرة : ١٦ شارع جواد حسني - هاتف : ٣٩٣٤٥٧٨ - ٣٩٣٤٨١٤
بروكينا : شروق - تليكس : 93091 SHROK UN
بيروت : ص. ب. : ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣
بروكينا : داشروق - تليكس : SHOROK 20175 LE

عبد الرحمن الشوقاوى

أُمَمُ الْفَقْهَةِ الشَّيْخَةِ

الإمام زيد بن علي زين العابدين
الإمام جعفر الصادق
أبو حنيفة النعمان
مالك بن أنس
الليث بن سعد
الإمام الشافعي
الإمام أحمد بن حنبل
الإمام ابن حزم
العز الدين عبد العزيز بن عبد السلام

دار الشروق

الغلاف للفنان حلمي الترنبي

المحتويات

٧ المقدمة
١٣ زيد بن علي زين العابدين
٣٥ الإمام جعفر الصادق
٥٣ أو حنيفة النعمان
٧٣ مالك بن أنس
٩٣ الليث بن سعد
١٢١ الإمام الشافعي
١٦٣ الإمام أحمد بن حنبل
٢٢٥ الإمام ابن حزم
٢٨٩ العزيز بن عبد العزيز بن عبد السلام

المقدمة

الإسلام عقيدة وشرعة

فأما العقيدة فقوامها التسليم لله ، والإيمان به وحده لا شريك له ، وملائكته وكتبه ورسله ، وتستند على أركان الإسلام الخمسة ، وهى تنظم العلاقة بين الله تعالى والناس وتطهرهم وتزكّيهم فيصبح العبد المؤمن حراً أمام الآخرين بقدر عبوديته لله ، غنياً عن الناس بقدر فقره إلى الله ، عزيزاً على نفسه وعلى سواه بقدر إيمانه أن العزة لله جميعاً .

أما الشريعة فهدفها تحقيق مصالح البشر، وهى المبادئ التى تنظم المعاملات ، وتصوغ الحياة الأفضل ، وتتمم مكارم الأخلاق ، وتؤلف القلوب على التراحم والمودة ، وتصوغ العقول لعمران الأرض وتحقيق السعادة فيها ، وتدريب الإنسان على الصالحات من الأعمال ، ليصبح الإنسان بحق أخاً للإنسان .. !

وإذا كانت العقيدة والشريعة ، هما العنصران اللذان يشكلان الدين ، فهما عنصران متلازمان لا انفكاك لهما ، كالضوء ومصدره .. ولكن العقيدة مع ذلك تعنى المسلمين وحدهم ، أما الشريعة التى تنظم التعامل بين البشر، فهى تعم بأحكامها كل الناس مسلمين وغير مسلمين .

وقد أثر الإسلام على نغوماً ، فى جميع الذين يعيشون على أرض الإسلام ، فهو ميراثهم العظيم ، مهما تكن دياناتهم .. فقد ترسبت قيمه الفاضلة فى نفوسنا ، بلا استثناء ، وما زالت أعماق كل واحد منا تشرق فجأة بالروعة ، عندما نذكر الأيام الباهرة الذاهبة المضية من تاريخ الإسلام ، حين أظلت رحته ، وشكلت عدالته مجتمعات كثيرة عبر التاريخ ، حين كانت راياته تحقق على الدنيا من ساحل الأطلسى فى الأندلس ، إلى أقصى الشرق .

وقد تدرّبت مبادئ الإسلام على أن تواجه بيئات جديدة غير التى نشأ فيها ، وظلت هذه

المبادئ قادرة على العطاء ، وتعودت تقديم الإجابات على كل ما يواجهها من أسئلة ، وبذل الحلول لكل ما يستحدث من المشاكل ...

ألف الإسلام هذه القدرة على حل مشاكل البشر وتحقيق مصالحهم عبر أربعة عشر قرناً منذ نشأ أول مجتمع إسلامي في المدينة المنورة تحت قيادة الرسول صلى الله عليه وسلم .

زحف الفرسان الأوائل ليحرروا الشعوب المستعبدة في الامبراطوريات القديمة ورأوا رعايا تلك الإمبراطوريات يدخلون في دين الله أفواجا ، تخلصا للنفس من الهوان ، وذل الاستعباد ، وآلام الظلم .

كانت هذه الفتوحات تحمل في أحشائها جنين حضارة جديدة . فقد كان أولئك الفرسان المسلمون محاربين بواسل هذا حق ، وكانوا أيضا دعاة عدل وحضارة وحرية ، وكانوا علماء .. فقد كانوا من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أو من التابعين ..

وكانت نضارة الدين الجديدة بكل عنفوان تعاليمه تعمق قلوبهم .. وما فتحوا البلاد باحثين عن مغام ، ولكن محررين وهداة ورعين ، وحملة مبادئ نشروها بين الناس . وهذا كله كان ميلاد عصر جديد . وجاء من بعدهم خلف عظيم ، من أهل الجزيرة العربية أو من أهل البلاد المفتوحة ، أحسنوا نشر التعاليم وبرعوا في استنباط الأحكام الشرعية لمستحدثات الأمور ، متأثرين بالبيئات الجديدة ، محترمين الأعراف والعادات السائدة عندما لا تتعارض مع نصوص الشريعة الإسلامية أوروح تلك الشريعة السمحة .

على أن الإسلام لم ينتشر بالفتح وحده ، بل أدى التجار - ومنهم علماء - دورا كبيرا في نشر الإسلام في كثير من أقطار الأرض ، وكان العلماء في ذلك الزمان يعملون بالتجارة والصناعة والزراعة وغيرها من الحرف ليكسبوا من كد أيديهم ، ويؤدوا دورهم في نشر تعاليم دينهم ومبادئه في الوقت نفسه .

وقد نشأ من أهل البلاد المفتوحة علماء وفقهاء أثرى بهم الفقه الإسلامي .

وقد أحسست أن من الواجب على أن أنشر صفحات نضال هؤلاء العلماء والفقهاء ، وأن أنقصى مواقفهم من الحياة والناس ، وأرسم بقدر ما وسعني الجهد صورة لهم أضعها أمام قراء هذا العصر ، عسى أن يجدوا فيها المثال الحى ، وعسى أن تثير فيهم الهمة ، لينهضوا ببعض مانهض به السلف الصالح .

وهؤلاء الذين كتبت عنهم ، هم الذين انفعلت بجياتهم وفكرهم وافتحاماتهم الجسور ، ونضالهم في سبيل حياة أفضل ، ومواقفهم فهؤلاء اذن ليسوا هم كل أئمة الفقه الإسلامى .

منهم من أوجزت فى الكتابة عنه ، ومنهم من أطنبت . وما ذلك لفضل أحد منهم على الآخر ، فكلهم أصحاب فضل ولكنى وجدت بعضهم قد ظلمه التاريخ ، فلم يعرفه الناس كما ينبغى ، فأضطرت إلى الإفاضة فى الكتابة عنه ، ومنهم من أساء إليه بعض أتباعه فصوروه على غير صورته ، فكان محمداً على أن أجلو صورته الصادقة .. أما الآخرون فما يعرفه الناس عنهم كثير ، فما تناولت الا مواقفهم التى لم تنشر من قبل على نحو كاف .

ولست أنكر أنى لقيت فى الكتابة عن هؤلاء الأئمة نصبا .. وبعضهم تندر المراجع عنه ، وبعضها قد اختفى .. ولقد أذكر أنى ذهبت إلى جامع الإمام الليث بن سعد ، عسى أن تكون فى الجامع مكتبة بها بعض الكتب عنه .. واستقبلنى القائمون على الجامع أكرم استقبال ، وقالوا إن الإمام كان كريماً ، ومن التقاليد إكرام من يزور جامعهم . وسألت عن المكتبة فقال لى أحدهم على استحياء : كانت تقام هنا أذكار مرة فى الأسبوع ، ومنعت ، وأهل الجامع والمكتبة ، فتسلل الماعز فأكل ما فى المكتبة من كتب ، منها مخطوطات وكنوز علمية نفيسة !!

ولقد أردت أن أضع أمام القارئ الذى لا يستطيع أن يشتري الموسوعات ، صورة من فقه هؤلاء الأئمة العظام ، ومواقفهم من الحياة وأود أن أذكر بالخير والعرفان تلك الجهود التى بذلها أستاذنا المرحوم الشيخ أبوزهرة رحمه الله ، وجهود المستشار عبد الحلیم الجندى قواه الله ومد فى عمره فكلاهما ألف كتبا موسوعية عظيمة عن عدد من أئمة الفقه الإسلامى .. كما أذكر بالخير والعرفان اهتمام المرحوم العالم الشيخ محمد شاكر بشرح الأحكام فى أصول الأحكام لابن حزم الأندلسى .. وأوجه الشكر إلى كل الذين كتبوا عن أئمة الفقه الإسلامى

وأنا بعد أشكر القراء الذين اهتموا بهذا الكتاب قبل أن ينشر كاملاً ، عندما كنت أنشره موجزاً تحت عنوان شخصيات إسلامية فى السنوات الثلاث الماضية خلال شهر رمضان المعظم وإن كنت قد قصرت أو نسيت أو أخطأت فى بعض هذه الصفحات ، فإنى لأدعو الله ربنا لا تؤاخذنا بما نسينا أو أخطأنا ..

نفعنا الله جميعاً بعلم هؤلاء الأئمة وهياً لنا أن نتعظ بمواقفهم وجسارتهم فى الحق ، وشجاعتهم على الباطل ، وأن نعمل بما شرحوه وجلوه من مبادئ الإسلام .

والله ولى التوفيق .

عبد الرحمن الشرفاوى

الإمام زَيْد بن عَلِيّ زَيْنُ الْعَابِدِينَ
الفقيه الفارِس

عاش فى ذلك العصر المدوى بطبول الانتصارات ، ورنين الأبواق العزافة ، وصهيل الخيول الزاحفة ، وصليل السيوف .. فى أوج الفتوحات الإسلامية التى رفعت راية الإسلام على أسوار الصين فى أقصى الشرق إلى الأندلس فى أقصى الغرب ، وخفقت على جنوب فرنسا وعلى جزر البحر الأبيض المتوسط ، فارتفعت منارات الدين الجديد على الجزء الأكبر من العالم الذى عرفه إنسان ذلك الزمان ..

وهو عصر باهر مفعم بالغنى والمتاع ، وبكل ما يثير الزهو.

وهو مع ذلك عصر مشوب بالحنين إلى عدالة المسلمين الأوائل وصدقهم وورعهم ..

عصر مفعم بالأسى ، وجلال الذكريات ، وبالأشواق إلى الحرية ..

ينساب فى دوى انتصاراته أنين حزين مكتوم ، ونفثات غيظ كظيم .. وتبيل راياته الخفاقة دماء المظلومين ودموع لا تجف أبداً ، وتمزق أنغام الانتصارات فيه أصدااء النحيب والعويل .. !

كانت الدولة الأموية تواصل الفتوحات وترسى قواعد الإمبراطورية الإسلامية ، ولكن الخلفاء مع ذلك كانوا يضطهدون مخالفيهم وحتى ناصحيهم ، ويتتبعون آل بيت الله ومن يتشيعون لهم ليقتلوههم بلا رحمة !!

كان الخليفة الأموى لا يطيق نصيحة ، حتى لقد أعلن هشام بن عبد الملك وهو فى بيت الله الحرام أنه سيقطع رأس من يقول له « أتق الله » .. !

وما كان المسلمون فى ذلك الزمان يحبون أن يرفعوا الرأس بالعصيان فى وجوه الخلفاء طلباً للعدل أو نهياً عن المنكر ، لكيلا يتصدع بنيان تلك الجيوش الموجهة لفتح بلاد جديدة تنشر فيها الاسلام !

ومن هنا نبعت مأساة الإنسان فى ذلك الزمان : ذلك أنه يجب أن يوافق على مايرفض ، و يقبل مايكره ، ويسكت على مايدين ، لأن جيوش الدولة مشتبكة فى حروب مع غير المسلمين ! ..

وهكذا استغل الخلفاء هذا الإحساس المرهف بالمسئولية ، فقهروا كل من يخالفهم أو يعلن عدم الرضا عنهم ..

وهكذا آثر الصمت عدد من علماء المسلمين نجاة بأنفسهم من بطش الحاكمين .. ومامن شىء كان يزعج الحكام مثل حنين الناس الى عصر النبوة ، وزمن الخلفاء الراشدين ، وحب المسلمين الصادق لآل بيت رسول الله (ص) .. وندم الذين تخلوا عن الحسين بن على . كانوا يخافون كل شىء حتى الندم .. !

فى هذا الجو المضطرب الذى يمزقه التناقض بين مايجبه الإنسان ومايكرهه . ، بين مايسر ومايعلن ، ولد زيد بن على زين العابدين بن الحسين بن على بن أبى طالب .

ولد فى المدينة عام ثمانين للهجرة ، ومازال رجع الأثنين على الحسين شهيد كربلاء يلاً الأذان ، ومازالت الفجيرة تغص الخلق وتحرق الأكباد !!

ولد ومازالت دماء كربلاء تغشى عيون صناع الفجيرة والمفجوعين على السواء .. ومازالت ذكريات نكبة آل البيت تفرى صدور قوم مؤمنين !

مامن شىء بعد يطفىء النار التى فى الصدور .. حتى القصاص الذى ثأرفيه بعض أشياع الحسين من كل من شاركوا فى مقتل الشهيد العظيم وآل بيته .. حتى هذا القصاص لم يشف غيظ القلوب ! .

استمر الاضطهاد ، وسارت الدولة الأموية على إقصاء آل البيت وألزمهم المدينة ، فالتزموها لا يبرحونها إلا إلى الحج .

وكان عميد آل البيت بعد استشهاد الإمام الحسين رضى الله عنه هو ابنه على زين العابدين .

وقد اختار على زين العابدين بن الحسين أن يعلم الناس وأن يفقههم بأمر دينهم ، وأخذ أولاده بالنظر فى علوم الدين ، وأعدهم ليكونوا من بعده أئمة صالحين .

وقد كان على زين العابدين هو أصغر آل البيت فى كربلاء .. أنقذه مرضه واستماتة عمته السيدة زينب دفاعاً عنه ، وكان القتلة قد ذبحوا آل البيت من الذكور ولم يرحوا أحداً حتى الأطفال ، وشردوا نساء رسول الله فى الفلوات .. ثم ساقوه فى موكب وحشى من كربلاء إلى دمشق تتقدمهن رأس سيد الشهداء على سن حربة !!

كل تلك الذكريات الفاجعة ظلت تعيش حية فى أعماق على زين العابدين ، وصورة أبيه لا تفارق عينيه . عبد صالح خرج يطلب العدل للناس ، و يناضل لاسترداد حقوقهم وحريرتهم ، وبايعوه على أن ينصروه ليسترد لهم شرفهم وكبرياءهم ، وإذا بهم يخذلونه ويسلمونه وآل بيته الى ظالمهم .. !!

من أجل ذلك رفض على زين العابدين طلب شيعة آل البيت فى العراق أن ينهض من المدينة كما نهض أبوه .

وصرف زين العابدين عنه أولئك الذين استنهضوه فقد وعى ماحدث لأبيه فى العراق .. وظل يوضي ولديه محمدا الباقر، وزيدا ألا ينخدعا باستنهاض أهل العراق ، ففى مأساة الحسين عبرة !!

وحين توفى الإمام على زين العابدين ، وترك تلك الحياة المعبدة بكل ما فيها ، ترك للناس علما غزيرا ، وترك ابنه الأكبر محمدا راعيا وأستاذا لابنه الأصغر زيد ..

وزيد إذ ذاك فى مقتبل العمر، يتطلع إلى كل شىء بهذا النوع من الدهشة التى نعرفها عندما سب السنون بنا إلى الشباب ، وتطالعنا الحياة بما لم نعرفه من قبل ! ..

وجد المدينة من حوله تضىء بالقراء ، ورواة الحديث ، وعلماء الدين .

وكانوا يتذاكرون فيما بينهم ، ويتلقون طالبى العلم من مختلف أرجاء الأرض .. ولكنهم يسكون ألسنتهم عن جور الحكام ، اتقاء لعسف هؤلاء الحكام الذين ألفوا أن يبطشوا بكل من عرف عنه أنه لايرضى عن سيرتهم .. !

وهكذا كان علماء المدينة منصرفين عن السياسة إلى الدين .

وكلهم مع ذلك يضيق صدره ولاينطق لسانه ! ..

وعجب الفتى زيد كيف يسكتون عن المنكر، ولا يأمرؤن بالمعروف !!

وتحدث إلى جعفر ابن أخيه الأكبر محمد .. وكان فى مثل سنه ولكن جعفر بن محمد طلب منه أن يصبر ويصمت ، وبهذا نصحه أخوه وأستاذه محمد .. فقد رخص الله تعالى للمسلم أن يسكت على الظلم ولاينهض لمقاومة البغى والفساد ، إن هو خشى على نفسه أو عرضه أو ماله !

وانصرف زيد إلى الدراسة عدة سنين .

على أن زيدا لم يسكت بعد ! ..

مات أخوه الأكبر محمد الباقر، وبقي هو وابن أخيه جعفر يتذاكران .

وحفظا علوم آل البيت وكل مآلديهم من أحاديث ، وكل ما وصل إليهما من علماء المدينة .

ثم رأى زيد أن يترك المدينة بحثا عن الحقيقة في مدائن أخرى .. وكان قد سمع أن في العراق مدارس وفلسفات جديدة .

وكان عدد من الصحابة والتابعين قد تفرقوا في الأمصار.

لقد سمع خلال الحج والعمرة من رجال يعيشون في البصرة والكوفة فأراد أن يطلب علمهم ..
وسمع منهم أنه في خارج المدينة يلعب الإمام على كرم الله وجهه وزوجه فاطمة الزهراء رضى الله عنها
على منابر المسلمين بأمر حكام الدولة ! !

وعلم أن هؤلاء الحكام يرتكبون كل المظالم والمعاصي التي نهى عنها الإسلام ، والتي جاء الإسلام
ليخلص منها شرف الإنسان !

ما صبره على هذا كله ؟ !

ولكن ماحيلته والناس في المدينة يتقون مواجهة الحاكم المستبد الباطش الباغي ؟ !
على أن المدينة لم تكن هي كل المجتمع الإسلامي .. والمسلمون ليسوا هم كل الناس .. وأمة محمد
(ص) ليسوا هم المسلمين وحدهم فقد أرسله الله للبشر كافة .

ورحل زيد إلى البصرة والكوفة .. وهناك وجد مجتمعا آخر غير مجتمع المدينة المنورة .

كانت النفوس تغلى بالسخط والرفض .. وقد نشأت فرق انتشرت إلى أطراف الدولة تنهم معاوية
بالكفر، وتدين الذين أيدوه وتحكم على الفقهاء الذين ناصروه وأيدوا ورثته في الخلافة بأنهم ليسوا من
الله في شيء ، وبأنهم باعوا دينهم بدنيا الحكام وأنهم مرتزقة متنطعون ، وجبناء منافقون ، سكتوا عن
الظلم وعن سب علي وفاطمة على المنابر منذ أمر بذلك معاوية ! !

وأى مسلم هذا الذى يسكت وخطباء المساجد ينفذون أوامر حكام بنى أمية ويلعنون من على
المنابر فاطمة بنت الرسول صلى الله عليه وسلم ، وزوجها على بن أبى طالب الذى كرم الله وجهه
والذى دعا له الرسول (ص) : « اللهم وال من والاه وعاد من عاداه » ؟ ! ..

أمسلم يصح إسلامه ، هذا الذى يسكت عن حكام ظلّموا الرعية ، واستباحوا مالها ، وعدوا
مصلحتها وهم أجراؤها ، ويلعنون فاطمة وعليها من فوق المنابر كل جمعة ويؤمنون المسلمين في الصلوات
بعد هذا .. ؟ ! !

لم يكن من الممكن أن تمر سيرة حكام بنى أمية فى عدائهم الأعمى لآل البيت ، وعدوانهم الباغى على حقوق الآخرين ، دون أن تثير ثائرة القلوب مهما يكن سلطان البطش والقهر ! ...

من أجل ذلك نشأت جماعات سرية اتجهت إلى أطراف الدولة ، تعمل على الإطاحة بحكم الأمويين . وكانت أقواها تلك التى نشأت فى العراق واتجهت إلى خراسان ..

تفجرت تيار السخط فى البصرة والكوفة وسائر الأمصار ، وأخذ أحفاد الذين أسلموا الحسين وبخلوه يستعدون للنهوض ضد حكام بنى أمية .. واعتبروا ثورتهم توبة إلى الله مما فعلوه بالحسين .. واندسوا بزید بن على زين العابدين ، وهو فى البصرة والكوفة يختلف إلى العلماء .

على أن زيدا بن على زين العابدين بن الحسين كان ما يزال يذكر تحذير أبيه ، وما زالت صور ما صنعه أهل الكوفة بجده الحسين تطوف أمام عينيه .. !

إنه فى أعماق نفسه ليؤمن بأنه مطالب بأن ينهض للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وأنه يجب أن يقاوم البدع وأن يحى السنن .. ولكن كان فى نفسه شيء ما .. لم يأت الوقت بعد .. وليس لديه من القوة والعدة والعديد ما يواجه به سلطان الأمويين ..

عندما يأتى الوقت سيمحق العصبة الباغية ويدعو لنفسه إماما للمسلمين .

ولن يأتى الوقت حتى يكون لديه ما يكفى من الرجال الصادقين الشجعان .. رجال لا يخذلونه ولا يسلمونه كما صنع أجدادهم مع جده الحسين ! !

وها هو ذا يضطرب بين الكوفة والبصرة والمدينة .. فتى فى نحو الثلاثين فارع مهيب صبوح الوجه ، ضاحك السن ، محب لطيبات الحياة التى أحلها الله لعباده ، عازف مع ذلك عن زخرف الدنيا ، طالب للحقيقة ، مولع بالحكمة ، باتر فى جسمه ، فارس بأسل من فرسان الحق !

وفى العراق وجد جماعات مختلفة متطرفة من شيعة آل بيته اضطرتهم جور الحكام وظلمهم لآل البيت إلى المبالغة والتطرف .. والتفوا حوله .. منهم جماعة تدعى أن الوحي كان سينزل على الإمام على بن أبى طالب ولكنه أخطأ ! ! وآخرون يواجهون لعن على من على المنابر يصب اللعنات على الشيخين أبى بكر الصديق والفاروق عمر بن الخطاب ! ! ومنهم جماعة تعتقد أن على بن أبى طالب لم يمت ، ولكنه رفع إلى السماء كعيسى بن مريم عليه السلام ! . وكما تعلم من أبيه وأخيه الأكبر محمد الباقر ، حاول أن يرد تلك الجماعات إلى الصواب فلم يستطع ، وحاوّر رؤساءهم فأنكروا عليه رأيه ، واتهموه بناصر جده الإمام عليا العداء ، فأعلن براءته منهم جميعا .. كما فعل أخوه الأكبر وأبوه من قبل .

وأقبل على الذين اختلفوا إلى دروسه يوضح لهم مزايا الشيخين ، و يذكر بفضلها على الإسلام ،
و يعد أن توليها الخلافة مشروع وصحيح .. وأعلن على الناس : « كان علي أفضل الصحابة إلا أن
الخلافة قُوضت إلى أبي بكر وعمر رضي الله عنهما لمصلحة رأوها ، وقاعدة دينية راعوها ... فإن عهد
الحروب التي جرت في أيام النبوة كان قريبا وسيف أمير المؤمنين (علي) في دماء المشركين من
قريش لم يجف بعد ، والضغائن في صدور القوم من طلب الثأر كما هي . فما كانت القلوب تميل إليه
كل الليل ولا تنقاد له الرقاب كل الانقياد .

وهكذا تابع أباء وأخاه الأكبر في توقيف الشيخين وعثمان ، وأعلن أن المفضل قد يقدم على الأفضل
إذا اقتضت ذلك مصلحة الأمة ، وأنه لا يشترط أن يكون الإمام من أولاد علي وفاطمة بل يشترط فيه
الصلاح ...

وفي البصرة وجد خلافا حادا بين الفقهاء حول موقف مرتكب الكبيرة .. أكافر هو أم فاسق
منافق ؟

وحاور هناك عددا من أفاضل العلماء منهم واصل بن عطاء وأبو حنيفة النعمان ، وقامت بينهم مودة
ونشأ احترام متبادل .. حتى لقد صرح أبو حنيفة أنه ما وجد في البصرة أفضل من زيد بن علي

وفي العراق عرف فيمن عرف فرقا تتحاور فيما بينها حول القضاء والقدر .. وحول الإنسان .. أعير
هو يختار ما يفعله ، أم أنه مسير مقضى عليه بما يفعل بلا إرادة منه ولا اختيار ! .

ووجد آخرون يبحثون عن مصادر الأحكام .. من أين يأتون بالحكم إذا عرضت قضية أو مادة أو
حالة ولم يجدوها حكما في القرآن أو السنة .

وكان زيد قد تعود عن أبيه وأخيه أن يتلقى العلم من كل مصادره ، وألا يكتفى بعلم شيوخه من
آل البيت ، وأن يفتح عقله وقلبه لتحصيل كل الآراء ..

كان في تلك البيئة الثقافية المضطربة بالتيارات الفكرية المتعارضة من يرى أن مرتكب الكبيرة
كافر ، مخلد في العذاب

وآخرون يقولون إن مرتكب الكبيرة منافق يظهر غير ما يبطن ، فلو كان مؤمنا ما ارتكبها .

وآخرون من رأيهم أنه لا يضر مع الإيمان معصية ، وأن أمر مرتكب الكبيرة يرجأ إلى أن يحاسبه
الله ..

وقد أغرى هذا الرأي بعض الناس باقتراف الكبائر ..

وفرة أخرى رأيت مرتكب الكبيرة يستحق العقاب وأمره راجع إلى ربه ..

ولكن الإمام زيد رأى أن اقتراف الكبيرة منزلة بين الكفر والإيمان .. و يسمى مرتكبها فاسقا .. وهو مسلم لا كافر ، ولكنه ليس مؤمنا ، لأن المؤمن ولى الله ومرتكب الكبيرة يعصى الله . ثم إن الإيمان يقتضى الطاعة ، ومرتكب الكبيرة عاص ، ولكن لا يخلده الله فى العذاب ، بل يعذبه الله بقدر ذنبه !

أما عن القضاء والقدر وحظ الإنسان من الجبر والاختيار فالإمام زيد يعتبر الإنسان حرا مختارا فيما يفعل وفيما يأخذ أو يدع من طاعة وعصيان ، ذلك أن المعصية ليست قهرا من الله . ولولا هذه الحرية لسقط التكليف ، ولسقط الثواب والعقاب . فالإنسان إذن مسئول عما يفعل . وبمقتضى حريته فى الاختيار يستحق الثواب أو العقاب ، ولكن على الإنسان أن يؤمن بالقضاء والقدر وهذا الإيمان لا يلغى حرية الإنسان . وقد روى عن عمر أنه سأل سارقا : « لم سرقت » فقال : « قضى الله على بذلك » . فأمر عمر بقطع يده وبجلده قائلا : « القطع للسرقة والجلد للكذب على الله » !

والقدر هو تقدير الله فى علمه الأزلى ، والقضاء هو حكمه التكليفى . والإنسان حر فى أن يعمل أولا يعمل وهو بحاسب بعمله .

وكان الإمام زيد يوضح للناس ما روى عن الرسول (ص) .. فقد شبه الرسول قضاء الله وقدره بوجود الإنسان بين السماء والأرض لا يستطيع منها فكاكا . وشبه حرية الإنسان فى العمل بحريته على الأرض ، فلا السماء والأرض تمليان عليه ما يصنع ! !

وشرح موقف الإمام على بن أبى طالب من هؤلاء الذين يحسبون أن أعمال الإنسان هى قضاء لازم وقدر محتوم .. فقد قال الإمام على : « لو كان ذلك لبطل الثواب والعقاب ، والوعد والوعيد ، والأمر والنهى ، ولم تأت لائمة من الله لمذنب ، ولا عمدة لمحسن ، ولم يكن المحسن أولى بالمدح من المسىء ، ولا المسىء أولى بالذم من المحسن . »

ورأى الإمام زيد فى القضاء والقدر شبهة برأى حسن البصرى الذى عرفه الإمام زيد فى العراق .. يقول حسن البصرى : « من لم يؤمن بالله وقضائه وقدره فقد كفر ، ومن حل ذنبه على الله فقد كفر » ..

أما رأى فى الأمور الجديدة التى تعرض والأقضية التى تستحدث وليس فى الكتاب أو السنة حكم لها ، فقد ذهب الإمام زيد إلى وجوب النظر فى تشابه هذه الأمور الجديدة مع الأمور التى وردت لها أحكام فى الكتاب أو السنة ، فإن تشابهت جميعا ، وتوفرت فيها لم يرد حكمه فى الكتاب أو السنة ذات علة الحكم المنصوص عليه ، طبق الحكم نفسه .. وهذا هو القياس .

على أنه إذا تعارض قياسان أحدهما ظاهر ضعيف ، والآخر قوى غير ظاهر ، وجب الأخذ بما هو أقوى وهذا هو الاستحسان ..

ومهما يكن من شيء فالعبرة في إجراء الحكم هو رعاية مصالح الأمة لأن تحقيق المصلحة هو قصد الشارع وهدف الشريعة .. وتلك هي المصالح المرسلة .

والإمام زيد في كل هذا يدعو إلى إعمال العقل فإن لم يمكن الوصول إلى حكم بعد هذا ، فما من سبيل إلى الوصول إلى حكم عادل إلا بإعمال العقل .. فالعقل وحده هو الذي يحكم على الأفعال بالحسن أو القبح ، وبما يقتضيه اقتراف أيها من ثواب أو عقاب !!

وكان الحكام يحاولون أن يخنقوا الفكر والرأى ، وأن يعطلوا عمل العقل ، ليفرضوا على الأمة قبول ما يفعلون ، زاعمين أنهم خلفاء الله في الأرض ، مستندين في تبرير المظالم على بعض المرتزقة من أشباه الفقهاء . وأشياء الرجال ، ممن وضعوهم في قاعات الملك كأنهم بعض الزينة الزائفة !! .. ثم رفعوهم على المنابر يلعبون فاطمة بنت الرسول صلى الله عليه وسلم وزوجها الإمام على بن أبى طالب كلما نودى على الصلاة من يوم الجمعة !!

وبقدر ما كانت الأمة تحتقر صناع الزيف هؤلاء ، كانت تكبر الفقهاء والعلماء الشرفاء والمفكرين الأحرار من أمثال واصل بن عطاء ، وأبى حنيفة النعمان ، وزيد بن على وابن أخيه جعفر بن محمد الذى عرف بجعفر الصادق .

وكان الخليفة هشام بن عبد الملك بن مروان وعماله على الأمصار يتربصون بهؤلاء جميعا ..

فأما جعفر الصادق وأبو حنيفة وواصل بن عطاء فقد ابتعدوا عن السياسة ، وإن لم يسلموا من أذى هشام وعماله !

ولكن زيد بن على زين العابدين سلك طريقا آخر ..

كان يعرف أن هشام بن عبد الملك يتربص به كما يتربص بالآخرين ، و يضيق بآرائه فى الفقه ، وبدعوته إلى إعمال العقل وتحرير الفكر ، وحماية إرادة الإنسان ، كما يضيق بدعوة الآخرين !

وعلى الرغم من كل ذلك فقد خرج الإمام زيد ليجعل من الفكر حركة .. ومن الثقافة عملا !!

من الحق أنه ظلل كالآخرين متقيا بطش السلطة الغاشمة ، مكتفيا بالاجتهاد فى أمور الدين ، وبالدعوة إلى سيادة سلطان العقل .. ولكنه شعر أن الوقت قد جاء !! جاء الوقت لتتحول الكلمات إلى خطوات على طريق الحقيقة !

وأعلن أنه لا يحق لمسلم أن يقبل هدية أو عطاء من حاكم مالم يكن هذا الحاكم عادلا يحقق مصالح الأمة . فأخرج بذلك عددا من فقهاء العصر وعلمائه كانوا لا يجدون حرجا من قبول الهدايا والعطاء ..

ثم أذن فى الناس بأن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر واجب شرعى وأصل من أصول الدين .

وهكذا انطلق يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويدين كل تصرف يخالف الشريعة ويطالب بالتغيير والإصلاح ، ويهيب بالأمة أن يشحذ كل فرد فيها عقله ليتعرف على الحسن والقبيح وليرفض قبول ما ياباه عقله !

وصحبه أحد شيعة آل البيت وهو أبو خالد ، ليدون أقوال الإمام زيد ، وإجاباته على كل ما يسأل عنه .

فأمر هشام بن عبد الملك بن مروان بسجن أبى خالد .

وظل أبو خالد فى محبسه حتى مات . على أن حبس أبى خالد لم يرهب الذين التفوا حول الإمام زيد ، والذى بهرتهم شجاعته فى الحق وقوته على الباطل !

لقد التفوا حوله بكل حبهم لآل بيت رسول الله (ص) ، وبكل ندمهم لأن أسلافهم خذلوا جده الحسين ، وبكل أحلامهم فى أن تعود للناس من جديد تلك الأيام الجميلة الذاهبة المفعمة بالفضائل ، حين أصبح الإمام على أمير المؤمنين ، فإذا الناس لا يمتاز أحدهم عن الآخر إلا بالعمل الصالح ، وإذا بعلى يحى سنة رسول الله (ص) ليجعل الناس سواسية كأسنان المشط لافضل لعربى على أعجمى ، ولا بالتقوى ، وإذا به يأخذ من الأغنياء ما زاد عن حاجة العام ، ليسد به حاجة الفقراء إلى الطعام ، وليبلغ بهم حد الكفاية لاحد الكفاف ..

تلك الأيام الباهرة المشحونة بالخطر ووثبات الأطماع التى شعر فيها الإنسان بحق أنه خليفة الله فى الأرض .

تلك الأيام النبيلة التى كان فيها القرآن والسنة ثم إجماع الصحابة هى موازين العلاقات الإنسانية ودستورها بكل ما جاء به الدين الجديد من مكارم الأخلاق .. وبكل ما قصد إليه الشارع الحكيم من تحقيق مصلحة الأمة ..

التف أتباع آل البيت ، والفقهاء الصالحون ، والحر يصبون على دينهم ، والزاهدون ، والخالون بالعدل والمجتمع الفاضل والطهارة .. وكل أعداء الزيف .. التفوا جميعا حول الإمام زيد .. وأخذ بعضهم يطالب الإمام زيد بأن يتقدم ليسترد الإمامة وليكون هو الخليفة .. ولينتزع من أظفار البغى حق آل البيت فى إمارة المؤمنين .

ولقد ظن هشام أن الناس إنما فتنوا بزيد لفصاحته ..
وفى الحق أن زيدا كان يملك تلك البلاغة التي امتاز بها آل البيت ، والتي يمنحها الصديق قدرة
خارقة على التأثير .

فكتب هشام إلى والى العراق : « امنع أهل الكوفة من حضور مجلس زيد فإن له لسانا أقطع من
السيف وأحد من الأسنة وأبلغ من السحر » .

ولم يمتنع الناس عن لقاء زيد على الرغم من كل شيء ! .

وظل زيد يتجول فى أنحاء العراق ، فيرى صورا من المظالم لم يرها من قبل وهو فى المدينة ..
واستغاثات المظلومين تستنهضه ، ليدفع عنهم البطش ، وينقذهم من غاشية الفساد ، وليذود عن حرم
الدين .

وكان الإمام زيد قد صرح برأيه فى شروط الخلافة وجاهر بأن الخليفة لا يكون خليفة لرسول الله
وأмира للمؤمنين وإماما للأمة إلا إذا توفرت له شروط ثلاثة :

— الشورى أى ألا ينفرد بالرأى ويستبد فى الحكم
— والمبايعة أى أن يختاره الناس بإرادة حرة غير مكرهين ولا خائفين أو تحت الإغراء ، فهذا كله
يعطل حرية الإرادة . التى لا تصح البيعة أو الاختيار إلا بها ..
— وثالث الشروط هو العدل .. فيقيم الخليفة المجتمع على قواعد الشرع ، ويحقق المساواة بين الناس
فى الحقوق والواجبات والفرص ، ولا يحكم بهواه ، بل يكون معيار المفاضلة بين الأفراد هو ما يقدمون من
عمل حسن ..

ولقد أدرك هشام أن هذا الرأى يهز عرشه ويكاد يدكّه دكا .. فحكمه كحكم أسلافه من بنى
مروان وبنى سفيان وكل الأمويين لا يقوم على الشورى بأصولها الشرعية .. والبيعة لم تصح شرعا لأحد
منهم لأنها ليست نتيجة إرادة حرة بل هى بيعة إكراه تحت ضغط القهر أو الإغراء ، ثم إنه لايجرى
العدالة كما فرضتها الشريعة !

وها هو ذا الخليفة يظلم الناس بلا حساب .. فاذا يصنع زيد ! .. ماصمته وواجبه الشرعى أن
يُحق الحق ويحارب الباطل ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ؟ !

ما زالت استغاثات المظلومين تستصرخه لينهض ذا نداء عن حوض الشريعة وحُرّمات المسلمين
ومصالح الأمة .

واستشعر الخليفة الخطر، وخشى إن هو وثب على زيد أوبطش به أن تشتعل الثورة على بنى مروان .. وكان زيد قد جمع حوله الفقهاء والشباب والصالحين وأهل التقوى والفقراء .. جمع الأمة كلها ولم يبق مع الخليفة غير المرتزقة والمنفعين والجواري والندامي والمضحكين وأشباه الرجال !! ورأى هشام أن خير ما يبطل به تأثير زيد هو اقتلاع ماله في قلوب الناس من احترام وتقدير .. وتوقير ومهابة !

وإذن فيجب أن تُشوه صورة زيد في عيون المعجبين به .

أفاضل هو؟ !

أطاهر قنوع نزيه فوق الدنية؟ !

إذن فلتلطخ بالأحوال كل هذه النصاعة التي بهرت الآخرين !

فلْيُسيِّط هشام بكل الحيل هيبة زيد أمام الناس ! ..

ألم تقم أركان هذه الدولة على الخديعة منذ التحكيم بين علي ومعاوية ؟ .. ألم يكن المكر السيء قواعدا ؟ !

فليُنصب هشام الفخاخ لزيد .. فإن لم يقع فيها فليختلق عليه ، ولتكن الأكذوبة ضخمة حتى تذهل الناس فلا يجروا أحد على تكذيبها !

وواتت هشام بن عبد الملك بن مروان فرصته ، حين اختلف زيد مع بعض أبناء عمه حول وقف على بن أبي طالب لا يُتهم تكون الولاية .

فأصدر هشام أمره إلى والي المدينة بأن يستدعي المتنازعين أمامه في المسجد ، وأن يشعل الخصومة بينها ويطيلها ، وأن يحشد أهل المدينة ليروها ..

وصدع الوالى لأمر الخليفة .. وحضر الناس وجاء الخصمان فأغراها الوالى بأن يتشاتا ، ليرى الناس الإمام الطاهر وآل البيت كيف يتخاصمون على المال والمنصب وعرض الحياة الدنيا .

ولكن الإمام الطاهر زيد بن علي أدرك الخديعة فترك النزاع ، وقال لابن عمه إنه متنازل عن حقه وإنه لن يخاصمه إلى هذا الوالى أبدا .

ثم قال زيد للوالى : « أجمعت ذرية رسول الله لأمر ما كان يجمعهم عليه أبوبكر وعمر؟ »

وبدلاً من أن ينتهى الأمر بتنازل زيد عن الدعوى أشار الوالى إلى أحد المرتزقة من أشباه الرجال وأراذل أتباع بنى أمية ليحرضه بأن يعرّب على الإمام الطاهر زيد عف اللسان .

قال الوالى وهو يغرى صنيعة بياهانة زيد : « أما لهذا السفه أحد ؟ » .. فقال صنيعة الوالى : « يا ابن أبى تراب وابن حسين السفه ، أما ترى لوال عليك حقاً ولا طاعة ؟ » فرد زيد كاظماً غيظه : « اسكت فإننا لا نجيب مثلك .. » فقال الرجل : « ولم ترغب عني ، فوالله إنى لخير منك ، وأبى خير من أبيك وأمى خير من أمك » فتضاحك زيد وقال : « يامعشر قريش هذا الدين قد ذهب ، أفذهبت الأحساب ؟ فوالله إنه ليذهب دين القوم وماتذهب أحسابهم . » فانتفض من بين القوم عبد الله بن واقد بن عبد الله بن عمر بن الخطاب بكل حمية جده الأكبر عمر بن الخطاب وانقض على صنيعة بنى أمية قائلاً : « كذبت والله .. لهو خير منك نفساً وأباً وأماً ومحتداً » فقال الصنيعة : « دعنا منك » . فأخذ حفيد عمر بن الخطاب كفاً من حصى فضرب به الأرض وهو يقول للوالى .. « والله مالنا على هذا صبر ! » ..

وترك زيد المدينة مرة أخرى .. وسافر إلى العراق ، حيث شيعه آل البيت وفقهاء العراق ومثقفوها ينصرونه ويمنعونه ، ولا يسمحون لوال كوالى المدينة بأن يهينه أو يغرى به بعض الأراذل المرتزقة .

وكان فى صحبة زيد حين قدم العراق هذه المرة نفر من قرابته من بنى هاشم .. وحسب الخليفة هشام بن مروان بن عبد الملك أن والى العراق سينتجز الفرصة ليهين زيدا أمام أقربائه .. وانتظر هشام ماسيغله والى العراق بزید تشويهاً لصورته أمام الذين جاوزوا فى إعجابهم به كل الحدود .

ولكن والى العراق خالد بن عبد الله القسرى بدلاً من أن ينصب الفخاخ للإمام زيد أقام له مآذب التكرم .. !

فأمر الخليفة بعزل خالد وسجنه ، وولى بدلاً منه يوسف بن عمر الثقفى وهو فظ غليظ القلب سيء المكر .. فعذب خالد فى سجنه عذاب شديداً لم يكف عنه ، حتى أذعن خالد لما يريد الوالى الجديد .. أن يدعى على زيد أنه خان الأمانة ! !

واستدعى الإمام إلى الوالى العراقى الجديد .. وقال الوالى الجديد لزيد : « إن خالد يزعم أنه أودعك مالا . » قال زيد : « كان خالد والياً على العراق مكلفاً بأن يشتمنى ويشتم آبائى على منبره فكيف يودعنى مالا ؟ » فأرسل إلى خالد فأحضر من مجلسه فقال له الوالى : « هذا زيد قد أنكرك أنك أودعته شيئاً » فقال خالد للوالى الجديد : « أتريد أن تجمع مع إثمك إثماً فى هذا ؟ .. كيف أودعه وأنا أشتمه وأشتم آباءه على المنبر ! » وغضب الوالى الجديد يوسف الثقفى وأعاد خالد إلى سجنه ليعذب أشد عذاب ، بعد أن أفسد محاولة الإيقاع بالإمام زيد وتشويه صورته أمام الناس ! ! :

وتصايح أهل العراق مستنكرين ما يحدث للإمام زيد ، وتعجلوا نهضته لإسقاط الخليفة ودولة بنى أمية جميعا ، ووعده أن يجمعوا له مائة ألف مقاتل يبايعونه إماما وخليفة للمسلمين وأميرا للمؤمنين ! وحملت جواسيس هشام إليه هذا النبأ ، فأرسل هشام يطلب زيدا ..

ولما ذهب زيد إلى قصر الخليفة لم يستقبله أول الأمر .. بل أبقاه أياما خارج القصر يطلب اللقاء فلا يجاب إليه .. وحسب الخليفة أنه بهذا السلوك يهين الإمام ويزرى عليه أمام الناس .. !

وأخيرا أذن له فى دخول القصر ، وأمر الخليفة أحد عيونه أن يتبعه وأن يحصى عليه مايقول ..

ورأى زيد قصرا منيفا باهر الغنى فاخر الرياش محلىً بعقود مذهبة ، فزحفت من أعماقه أصدااء أنين المطحونين واستغاثات المظلومين . وتنايلت أمام عينيه صور الفقر التى رآها فى كل بلد نزل به ! .

هنا يهدر الدين إذن ! !

أين هذا القصر الباذخ ذو الزخرف والترف الخرافى من بيت الخلافة بالكوفة فى الزمن القديم ، حيث حكم أمير المؤمنين الإمام على دولة عظمى نحو أربعة أعوام ، من بيت صغير من طين هو أذى بيت من بيوت المسلمين ! ؟ .

إنه لا يحق لأحد من المسلمين أن يعيش فى مثل هذا الترف ، قبل أن يحصل كل فرد فى الدولة من مسلمين وغير مسلمين على الكفاية لا الكفاف : المطعم والملبس والمسكن والمركب والدواء والعلم والأمن كل ما يكفى حاجاته المشروعة .. وهذا هو الإسلام الحق ! !

أما هنا فتنتهك الشريعة ، وَيُهْدَر كل ما جاء به الدين القيم ! ! .. ولكن . ولكن الذى يملك كل هذا المتاع ذليل .. فهو عبد لما يتمتع به ! !

وقال زيد لنفسه بصوت سمعه الحاجب الذى يحصى كلماته : « والله لا يحب الدنيا أحد إلا ذل » ..

ورجل الخليفة يحصى مايقول ، ويحصى حركات الدهشة والاستنكار ..

ثم صعد زيد إلى هشام ، فلما دخل عليه لم يجد موضعا يجلس فيه ، ولم يفسح له هشام ، فجلس ز . حيث انتهى به المجلس . وسأله هشام عن شىء فحلف له زيد ، فقال هشام : « لا أصدقك » فقال زيد : « إن الله لم يرفع قدر أحد عن أن يرضى بالله ولم يضع قدر أحد عن أن يرضى بذلك منه . » فقال له هشام مغلظا : « اسكت لا أم لك ! .. بلغنى أنك تذكر الخلافة وتتمناها وأنت ابن أمة » ..

إن الخليفة ليذكره بجده أم أبيه علي زين العابدين و يزرى بها ! .. وأم علي زين العابدين بن الحسين كانت من بنات كسرى سبيت وأختان لها في عهد عمر بن الخطاب .. فكانت هي للحسين ابن علي فأولدها علي بن زين العابدين وكانت الثانية لمحمد بن أبي بكر والثالثة لعبد الله بن عمر .. وعندما استشهد الحسين ، انقطعت امرأته الفارسية تلك لتربية ولدها علي زين العابدين بن الحسين ورفضت الزواج . وكانت صغيرة السن ، فأنقه الجمال ، حميدة الخصال .

قال زيد لهشام : « إن لك جوابا فإن أحببت أحببتك به ، وإن أحببت أمسكت » .. فقال هشام : « بل أنجب » فقال زيد : « إن الأمهات لا يقعدن بالرجال عن الغايات . وقد كانت أم إسماعيل أمة لأم أخيه إسحق ، وأخوه ابن صريحة مثلك ، فأختاره الله عليه فأخرج من صلبه خير البشر محمد صلى الله عليه وسلم . فتقول هذا لى وأنا جدى محمد ؟ وأنا وابن فاطمة وعلى ! » قال له هشام محنقا : « أخرج » . قال زيد : « أخرج .. ثم لا ترانى إلا حيث تكبره .. » .

ومنذ طرده هشام من قصر الخلافة ما رآه هشام بعد إلا حيث يكبره ..

فقد عرف الناس بما دار بين الخليفة وزيد فجهروا بالسخط على الخليفة ، وأخذوا على الرغم من كل شيء يلعنونه فى أسواق الكوفة هو وأسلافه من الملوك الأمويين ! !

يقول الطبرى : ثم رجع زيد إلى الكوفة فاستخفى فقال له محمد بن علي بن أبي طالب حيث أراد الرجوع إلى الكوفة أذكرك الله يا زيد لما لحقت يأهلك ولم تقبل قول أحد من هؤلاء الذين يدعونك إلى ما يدعونك إليه فإنهم لا يفون لك .. فلم يقبل منه ذلك .. وقرر أن يقيم بالكوفة على الرغم من نصيحة أخيه محمد الباقر .

ويقول الإمام الطبرى .. قال أبو مخنف :

فأقبلت الشيعة لما رجع إلى الكوفة يحتفلون إليه و يبأيعون له حتى أحصى ديوانه خمسة عشر ألف رجل فأقام بالكوفة بضعة عشر شهرا إلا أنه قد خرج منها إلى البصرة نحو شهرين ثم أقبل إلى الكوفة فأقام بها وأرسل إلى أهل السواد وأهل الموصل رجالا يدعون إليه . وتزوج حيث قدم الكوفة ابنة يعقوب ابن عبد الله السلمى أحد بنى فرقد . وتزوج ابنة عبد الله بن أبى العنيس الأزدي . وكان سبب تزوجه إياها أن أمها أم عمرو بنت الصلت كانت ترى رأى الشيعة ، فبلغها مكان زيد فأتته لتسلم عليه . وكانت امرأة جسيمة جميلة لحيمة قد دخلت فى السن إلا أن الكبر لا يستبين عليها . فلما دخلت على زيد بن علي فسلمت عليه ، ظن أنها شابة فكلمته ، فإذا هى أفصح الناس لسانا وأجله منظرا ، فسألها عن نسبها فانتسبت له ، وأخبرته من هى . فقال لها « هل لك رحمك الله أن تتزوجينى . » قالت :

« أنت والله رحمك الله رغبة لو كان من أمرى التزويج » . قال لها : « وما الذى يمنعك من ذلك ؟ »
قالت : « يمنعنى من ذلك أنى قد أسننت . »

فقال لها : « كلا قد رضيت . ما أبعدك من أن تكونى قد أسننت . »

قالت : « رحمك الله . أنا أعلم بنفسى منك وبما أتى على من الدهر . ولو كنت متزوجة يوما من الدهر لما عدلت بك . ولكن لى ابنة أبوها ابن عمى وهى أجل منى وأنا أزوجهها إن أحببت . »

قال : « رضيت إن تكن مثلك »

قالت : « لكن خالقها ومصورها لم يرض أن يجعلها مثلى ، حتى جعلها أبيض وأوسم وأجسم ، وأحسن منى ذلاً وشكلاً »

فضحك زيد وقال لها : « رزقت فصاحة ومنطقاً حسناً فأين فصاحتها من فصاحتك ؟ »

قالت : « أما هذا فلا علم لى به لأنى نشأت بالحجاز ، ونشأت ابنتى بالكوفة فلا أدرى لعل ابنتى أخذت لغة أهلها »

ثم أوعدها موعداً فأتاها فتزوجها ، ثم بنى بها ، فولدت له جارية ، ثم إنها ماتت بعد وكان بها معجبا انتهى حديث الإمام الطبرى .

وكان زيد بن على ينزل بالكوفة منازل شتى فى دار امرأته فى الأزرد مرة ، ومرة فى دار أصحابه المسلمين .. وفى دور عديد من شيعة آل البيت مرات أخرى .

وظل طوال إقامته بالكوفة يبايعه الناس و يبايع الناس وكانت بيعته : « إنا ندعوكم إلى كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وجهاد الظالمين ودفع المستضعفين وإعطاء المحرومين وقسم هذا الفىء بين أهله بالسواء ، ونصرة آل البيت »

وروي عددٌ من أبناء عمه ما هو مقدم عليه ، وتذاكروا مأساة جدهم الحسين : بيعة أهل الكوفة له ثم تخليهم عنه .. ثم قتله هو ومن معه على أرض كربلاء !

على أن الناس تداعوا إلى بيعته حتى وصلوا أربعين ألفاً فى السلاح والعتاد

وقال له أحد أولاد عمه من خلال الدمع إشفاقاً عليه :

« يا بن عم .. إن هؤلاء يفترونك عن نفسك . أليس قد خذلوا من كان أعز عليك منهم ؟ جدك على

ابن أبى طالب حتى قتل ، والحسن من بعده بايعوه ثم وثبوا عليه ؟ أو ليس قد أخرجوا جدك الحسين ، وحلفوا له وخذلوه وأسلموه ، ولم يرضوا بذلك حتى قتلوه ؟ فلا ترجع إليهم وإنى خائف إن رجعت إليهم ألا يكون أحد أشد عليك منهم . وأنت أعلم » ..

ثم أتاه رجل من أصدقائه محبى آل البيت فقال له : « نشدتك بالله : » « كم بايعك ؟ » قال زيد : « أربعون ألفا » . فقال الرجل : « فكم بايع جدك الحسين ؟ » قال زيد : « ثمانون ألفا » . فسأله الرجل : « عن عدة من ثبت مع جدك ؟ » . فقال زيد « ثلثمائة » وأضاف الرجل إن الزمن الذى مضى فيه جده الحسين كان أفضل من هذا الزمن وإن جده الحسين كان خيرا منه ومع ذلك خذله أهل الكوفة .

ونصح الرجل زيدا أن يعود إلى المدينة فيلزمها فلن يفى له هؤلاء وقد غدروا بجده . فقال زيد : « قد بايعونى ووجبت البيعة فى عنقى وأعناقهم » .

قضى الأمر فقد نهض زيد وما من شىء يمكن أن يقعه بعد !

لقد عزم فليتوكل على الله . ومضى يرد على كل من يعظه أو يحذره بقول الشاعر العربى القديم :

بكرت تخوفنى المنون كأنى
أصبحت عن عرض الحياة بمعزل
فأجبتها إن المنية منهل
لابد أن أسقى بكأس المنهل
فأثنتى حياءك لا أبالك واعلمنى
أنى أمرؤ سأموت إن لم أقتل

واتفق زيد مع من بايعوه على أن يخرجوا لجهاد الظالمين فى أول صفر سنة ١٢٢ هـ .

ولكن جواسيس الخليفة هشام بن عبد الملك حملوا إليه النبأ ، فأرسل إلى والى العراق كتابا يؤنبه فيه :

« إنك لغافل . وإن زيد بن على بالكوفة يبايع له . فألح فى طلبه وأعطه الأمان وإن لم يقبل فقاتله » .

فنشط والى العراق فى طلب زيد بن على ومن معه ، ليثبت للخليفة أنه يقظان لا غفلة به .

وأخذ الوالى يلتمس زيد بن على فى كل البيوت التى يظن أنه ينزل بها فلم يجده ، فقبض الوالى على زعماء مؤيديه وضربهم ، ففرغ الباكون ، وإذ ذاك ظهر مضطرا من استخفاؤه .

وعرف بقية زعماء المؤيدين أن والى العراق يوسف الثقفى لن يتركهم ، وأنه يدس إلى زيد ويستبحث عن أمره ، ويتحرى رؤوس المؤيدين لينكل بهم .

وبدأ زعماء المبايعين يتخاذلون عن الإمام زيد خوفا وطمعا .

ثم اجتمعت جماعة من الرؤوس فقالوا لزيد : « رحمك الله ماقولك فى أبى بكر وعمر ؟ » . قال زيد : « رحمهما الله وغفر لهما ، ماسمعت أحدا من أهل بيتى يتبرأ منها ولا يقول فيها إلا خيرا » . قالوا : « فلم تطالب إذن بدم أهل البيت إلا أن يكونا وثبا على سلطانكم فنزعه من أيديكم ؟ » . فقال لهم زيد : « إن أشد ما أقوله فيما ذكرتم إنا كنا أحق بسلطان رسول الله صلى الله عليه وسلم من الناس أجمعين وإن القوم استأثروا علينا به ودفعونا عنه ولم يبلغ ذلك عندنا بهم كفرا . قد ونوا فعدلوا فى الناس وحكموا بالكتاب والسنة » . قالوا : « فلم يظلمك هؤلاء إذا كان أولئك لم يظلموك . فلم تدعوا إلى قتال قوم ليسوا لك بظالمين ؟ » فقال : « إن هؤلاء ليسوا كأولئك . إن هؤلاء ظالمون لى ولكم ولأنفسهم . وإنما ندعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم وإلى السنن أن تحيا وإلى البدع أن تطفأ فإن أجبتمونا سعدتم وإن أنتم أبيتم فليست عليكم بوكيل » .

ففارقوه ونقضوا البيعة ، ودعوا الآخرين إلى الانصراف عنه !

ثم إن زيدا جمع من بقى من رؤوس مؤيديه ، وأزمع الخروج كما وعدهم فى أول صفر ، غير أن والى العراق بعث إلى هؤلاء قبل الموعد المحدد بشهر ، فحبسهم بالمسجد الكبير بالكوفة ، وأغلق أبواب الأسواق على من فيها ، واختار أوسع أصحاب زيد نفوذا فضرب عنقه على باب القصر .. وفزع الباكون . وهكذا اضطر زيد إلى القتال قبل الموعد المحدد بشهر ..

وبث فى الناس شعار القتال المتفق عليه : « يامنصورأمت » فلم يجبه إلا نحو مائتين وكان قد بايعه من قبل أربعون ألفا ! .. مائتان من الفقهاء والمثقفين الأحرار ..

وظل منادى زيد بيناديهم « اخرجوا من الذل إلى العز أخرجوا إلى الدين ، فإنكم لستم فى دين ولا دنيا » .

فلم يخرج إليه أحد ..

وتذكر مأساة جده الحسين !

فقال : « أخاف أن يكونوا قد فعلوها حسينية ، أما والله لأقاتلن حتى أموت » ..

وفى الحق أن أهل العراق فعلوها حسينية ! .

وكان قدره معهم هو قدر جده الحسين .. خذلوه فلم ينخذل .. وقرر أن يقاتل حتى الموت دفاعا عن حقوق المضطهدين حتى أولئك الذين خذلوه ، وعن قيم الإسلام ، وشرف الإنسان ! ..

وتقدم الإمام زيد الفقيه الفارس يقود نحو مائتين من فرسان الحقيقة ، وهم بلا مدد ، يقاتلون جيشا كثيفا موصول الأمداد !

وفى بداية المعركة هزموا جناح جيش الأمويين حتى تمزق ، وأوشك الجيش أن ينهزم عنهم ولكن قائدهم أمرهم بأن يرموا زيدا وصحبه بالنبال والسهم عن بعد ، وألا يشتبكوا معهم فى قتال ! ! .. لكأنهم يخشون مواجهتهم !

ورشقوا جماعة زيد بالنبال ، وخرج رجل على فرس من جيش الأمويين فى حماية السهم وسب فاطمة الزهراء بنت رسول الله (ص) سبا قبيحا ، فبكى الإمام زيد حتى ابتلت لحيته وهو يصيح : « أما أحد يغضب لفاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ أما أحد يغضب لرسول الله صلى الله عليه وسلم ؟

فبرز رجل من أصحاب زيد فقتل الفاجر من على فرسه . وحاول الأمويون قتله بالسهم ولكن أصحاب زيد حملوا عليهم حملة باسلة حتى أنقذوا الرجل ، وأحدثوا فى الأمويين مقتل عظيم .. فاحتضنه زيد وقبل ما بين عينيه وهو يقول : « أدركت والله ثأرنا ، أدركت والله شرف الدنيا والآخرة وذخرها » .

ولكن الآلاف من عسكر الأمويين انقضوا يرمون زيدا وصحبه المائتين بالسهم ، حتى نالوا منهم ، وقضوا عليهم . وكان أحد هذه السهام قد أصاب الإمام الفقيه الفارس الطاهر فى جبهته ، فمات وصحبه ينتزعون السهم .

ودفن من بقى من صحبه جثمانه فى ساقية وردموها .

ولكن الأمويين نبشوا القبر ومثلوا بجثمانه وصلبوه على جذع نخلة .

كانت هذه هى نهاية فقيد عظيم .. نهاية فاجعة كتبت على كثير من آل البيت .. كما كتبت على جده أبى الشهداء الحسين بن على .

نهاية فاجعة رائعة مهيبة !

وقضى زيد شهيداً

ولقد كانت ثورته على الظلم والاستبداد هي ثورة الفقهاء المتقين والمثقفين الأحرار المستنيرين .

قال الإمام الأعظم أبوحنيفة عن ثورة زيد : « لقد ضآها (شابه) خروج الرسول يوم بدر » فقيل له : « ولم تخلفنت عنه ؟ » فرد أبوحنيفة : « حبسني عنه ودائع الناس ، عرضتها على ابن ليلى فلم يقبل . ولو علمت أن الناس لا يخذلونه كما خذلوا جده لجاهدت معه لأنه إمام حق ، ولكني أعتته بآلى فبعثت إليه بعشرة آلاف درهم وقلت للرسول ابسط عذرى »

وبعد أن استشهد زيد بن علي زين العابدين أصبح عميد آل البيت هو جعفر الصادق .. الذى كان يحض الناس على نصرته عمه زيد .. والذى تولى بعده عبء الإمامة ، ووزع من ماله على ورثة زيد وصحبه ..

« لك الله يا جعفر الصادق ! !

ما أفدح هذا الحمل المثقل بالأحزان ! !

« لك الله يا جعفر الصادق ،،،

الامام جعفر الصادق

لم يجمع الناس على حب أحد في ذلك العصر كما أجمعوا على حب الإمام جعفر بن محمد
الذى اشتهر فيهم باسم جعفر الصادق

ذلك أنه كان صافي النفس ، واسع الأفق ، مرهف الحس ، متوقد الذهن ، كبير القلب ،
يلتمس في غضبه الأعداء للآخرين ، حاد البصيرة ، ضاحك السن ، مضىء القسمة ، عذب
الحديث حلو المعشر ، سباقا إلى الخير ، بڑا طاهرا .

وكان صادق الوعد ، وكان تقيا .

هو من العترة الطاهرة عترة رسول الله صلى الله عليه وسلم .. جده لأمه هو أبو بكر الصديق
وجده لأبيه هو الإمام علي بن أبي طالب .. وهونسب لم يجتمع لأحد غيره !

ولد في المدينة سنة ٨٠ هـ ومات فيها سنة ١٤٨ هـ .

وخلال هذا العمر المديد أغنى الحياة والفكر بحسن السيرة ، والعلم الغزير ، وإشراقته
الروحية ، واستنباطه العقلي .

وكان مع جلال هذا الحسب متواضعا لله ، يلتقي في أعماقه علم الصالحين العظميين وصلاحتها
وحسن بلائها ، وتراث تقواهما ، ولا يزدهيه على الرغم من ذلك كبرياء من يجمع في نفس واحدة
أطراف ذلك المجد كله ، وتلك الروعة كلها .. !

وعى منذ طفولته نصيحة أبيه الإمام محمد الباقر « ما دخل في قلب امرئ شيء من الكبر إلا نقص
من عقله مثل ما دخله »

تعهدده وهو صغير جده لأمه القاسم بن محمد بن أبى بكر بقدر ما تعهدده جده لأبيه على زين العابدين ابن الحسين بن على بن أبى طالب .. فإذا به هو صبى يحفظ القرآن و يتقن تفسيره ، ويحفظ الأحاديث والسنة من أوثق مصادرهما عن آل البيت ، تواترا عن الإمام على بن أبى طالب كرم الله وجهه وعن الصديق رضى الله عنه وعن سائر الصحابة من رواة الأحاديث الصادقين .

وأتاح له توفر هذه المصادر جميعا أن يتقن دراسة الحديث وفهمه ، وأن يكشف ما وضعه المزيفون تزلفا للحاكمين أو خدمة لهذا الطرف أو ذاك من أطراف الصراع السياسى .

ثم نشر من الأحاديث ما حاول الحكام المستبدون إخفاءه لأنه يزلزل أركان الاستبداد ! فقد كان حكام ذلك الزمان يجهدون فى إخفاء ما رواه على بن أبى طالب من السنة .

وانتهى نظر الإمام جعفر إلى أنه لا يوجد حديث شريف يخالف أو يمكن أن يخالف نصوص القرآن الكريم .. وأن كل ما ورد من أحاديث مخالفا لكتاب الله فهو موضوع ينبغى ألا يعتد به .

وكان عصره متوترا مشوبا بالأسى ، تخضب الرايات المنتصرة فيه دماء الشهداء من آل البيت ، ويطفى الأنين الفاجع على عريضة الحكام !

كان عصر الفتوحات الرائعة ، والفرع العظيم والدموع .

فالدولة الأموية تضع العيون والأرصاء على آل البيت منذ استشهاد الإمام الحسين بن على فى كربلاء ..

وهى تضطهدهم وتضطهد أنصارهم ، وتخشى أن ينهض واحد منهم لينتزع الخلافة .

استشهد عمه زيد فى مقتلة بشعة تشبه ما حدث لجده الحسين أبى الشهداء وبكاه الإمام جعفر أحر البكاء .

وكان الإمام جعفر من بين آل البيت هو الإمام الذى تتطلع إليه الانظار: أنظار الذين يكابدون استبداد الحكام ، وأنظار الحكام على السواء !

عرف منذ مطلع صباه أن الإمام على بن أبى طالب رئيس البيت العلوى يلعن على المنابر فى مساجد الدولة فى صلاة الجمعة .. وعلى الرغم من أن أم المؤمنين أم سلمة كانت قد أرسلت الى معاوية تنهيه عن تلك البدعة البشعة وتقول له : « إنكم تلعنون الله ورسوله إذ تلعنون على بن أبى طالب ومن يحبه . وأشهد أن الله ورسوله يحبانه » .. على الرغم من تلك النصيحة ، فقد ظل الإمام على يلعن

على المنابر، وتلحن معه زوجه فاطمة الزهراء بنت رسول الله عليه الصلاة والسلام .

وسمع جعفر هذه اللعنات طيلة صباه وجزءا من صدر شبابه ، حتى جاء الخليفة الأموي العادل عمر بن عبد العزيز فتبرأ إلى الله من هذا العار، وكان يحمل للإمام علي بن أبي طالب ما يحمل لغيره من الخلفاء الراشدين الثلاثة من إجلال وتوقير.. وأمر الخطباء أن يتلوا — بدلا من لعن علي في ختام خطبة الجمعة — الآية الكريمة التي مازالت تتلى إلى الآن : « إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون »

وطابت نفس جعفر كما طابت نفوس الصالحين وأهل التقوى والعلم بما صنعه الخليفة العادل عمر ابن عبد العزيز، وأعلن الإمام جعفر في مجلسه إعجابه بالخليفة عمر.. سبط عمر بن الخطاب رضى الله عنه .

وكان الإمام جعفر منذ رأى بطش الحكام بآل البيت وأنصارهم وبالباحثين عن الحقيقة ومقاومى الاستبداد ، كان قد أخذ بمبدأ التقيّة فلم يجهر بالعداء لبني أمية ، اتقاء شرهم ، وحذر الفتنة ، وهم إذ ذاك غلاظ شداد على من لا يوالونهم .

فأثر أن يهب نفسه للعلم ، وألا يفكر فى النهوض والانقضاض على السلطان الجائر، حقنا لدماء المسلمين ..

ورأى أن خيرا ما يقاوم به البغى هو الكلمة المضيئة تنير للناس طريق الهداية ، وتزكّيهم وتحركهم إلى الدفاع عن حقوق الإنسان التى شرعها الإسلام وإلى حماية مصالح الأمة التى هى هدف الشريعة .

وكان قد تعلم من جده الإمام على زين العابدين بن الحسين عن جده الرسول صلى الله عليه وسلم أن طلب العلم ونشره جهاد فى سبيل الله ، وأن الله تعالى جعل للعلماء مكانة بين الأنبياء والشهداء .

وكان قد رأى جده الإمام زين العابدين رضى الله عنه يخطوفى المسجد حتى يجلس فى خلقة أحد الفقهاء من غير آل البيت . فيقول له أحد الحاضرين : « غفر الله لك . أنت سيد الناس . وتأتى تتخطى خلق الله وأهل العلم من قریش حتى تجلس مع هذا العبد الأسود » فيرد زين العابدين : « إنما يجلس الرجل حيث ينتفع وإن العلم يطلب حيث كان » .

ولقد وعى الصغير دلالة هذا كله ، وانتفع به طيلة حياته .

ثم إن جديه ماتا وتركاه صبيا ليتولى تثقيفه أبوه الإمام محمد الباقر وهو أعلم زمانه بالقرآن وتفسيره

وبالحديث والفقہ فنقل إلى ابنه جعفر كل معارفه ، ونقل إليه توقيرا خاصا للشيخين أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب .

وكان أبوه الإمام محمد الباقر يقول : « من جهل فضل أبي بكر وعمر فقد جهل السنة . وأن قوما من العراق يزعمون أنهم يحبوننا و يتناولون أبا بكر وعمر رضى الله عنها . والذي نفسى بيده لو وليت لتقربت إلى الله بدعائهم . لا نالتي شفاعة محمد صلى الله عليه وسلم إن لم أكن أستغفر لها وأترحم عليها . إن أعداء الله عنها لغافلون . »

كما وروث جعفر عن أبيه توقيره لعثمان بن عفان ذى النورين .. وكل صحابة رسول الله رضى الله عنهم .

ولقد مات محمد الباقر وابنه جعفر فى نحو الخامسة والثلاثين ، وقد أتقن معارف آل البيت وأهل السنة وترسبت فى عقله نصائح أبيه « إياك والكسل والضعف فإنها مفتاح كل شر . إنك إن كسلت لم تؤد حقا ، وإن ضجرت لم تصبر على حق » .. « إن طلب العلم مع أداء الفرائض خير من الزهد » .. « إذا صحب العالم الأغنياء فهو صاحب دنيا ، وإذا لزم السلطان من غير ضرورة فهو لئس » .. ثم وصيته ألا يصحب خسة ولا يجادلهم ولا يرافقهم فى طريق : الفاسق والبخيل والكذاب والأحمق وقاطع الرحم لأن الفاسق يبيعه بأدنى متعة ، والبخيل يقطع المال حين الحاجة ، والكذاب كالسراب يبعد القريب ويقرب البعيد ، والأحمق يريد أن ينفع فيضر وقاطع الرحم ملعون فى كتاب الله » .

مضى الإمام جعفر الصادق - وقد وروث الإمامة عن أبيه - بكل ما تعلمه من أبيه وجديه يخوض غمرات الحياة المضطربة .. وفى تلك الأيام عرفت المساجد وندوات العلم فى المدينة المنورة شابا ورعا يتفكر فى خلق السموات والأرض بكل ما أتيح له من معرفة وإشراق روحى ، يرفض الاشتغال بالسياسة اتقاء البطش ، على وجهه شعاع من نور النبوة ..

هداه عكوفه على دراسة القرآن والحديث إلى أن واجب المسلم أن يؤمن عن اقتناع وتدبر وتفكر فى ظواهر الحياة والكون ، فهى دليله إلى الإيمان بوحداية الله .

وهدها هذا التفكير إلى الاهتمام بعلوم الطبيعة والكيمياء والفلك والطب والنبات والأدوية لأنها علوم تحقق مصالح الناس ، وتحرر الفكر ، وتهديه إلى الإيمان العميق الحق الراسخ .

وتتلمذ عليه جابر بن حيان ، وكان أبوه شيعيا قتل دفاعا عن الحقيقة وفي حب آل البيت ، فاصطنع الإمام محمد الباقر والد الإمام جعفر ذلك الفتى اليتيم ، وفقهه في الدين حتى إذا ورث جعفر الأمانة أخذ بيد جابر بن حيان وتعهده وحثه على دراسة علوم الحياة وذوده بمعمل وأمره أن ييسر كتاباته لينتفع بها الناس .. وخصص له وقتا في كل يوم يتدارسان فيه علوم الطبيعة والكيمياء والطب ، وكشف له من تبصره بالفقه كثيرا من المعارف العلمية وهذه بالمعارف العلمية إلى التمكن من الفقه .

وعلم وهو في المدينة أن في العراق مذاهب تدعو إلى الإلحاد والزندقة .. فخرج يناقش زعماء هذا المذهب .. لم يقعد مكتفيا بالحكم عليهم بالكفر ، أو يصب اللعنات عليهم ، بل ناقشهم بمنطقهم ، ليثبت لهم وجود الله ، وقادهم مما يعلمون إلى ما لا يعلمون .

واشتهر في ذلك الزمان طبيب هندي برع في علوم الطب والصيدلة فحرص الإمام جعفر على أن يلتقى به ويتعرف إلى علمه . وتبادلا المعارف معا ثم أخذ يحاوره في الإسلام وفي إثبات وجود الله .

بهذه الحكمة والموعظة الحسنة عاش الإمام جعفر يدعو إلى سبيل ربه فأقنع كثيرا من الزنادقة والملحدين والمنكرين والوثنيين بالاسلام فاسلموا وحسن إسلامهم وأضافوا بفكرهم ثراء إلى الفقه وإلى العلوم في ذلك الزمان ..

آمن بالتجربة والنظر العقلي والجدل طريقا إلى الإيمان وسلحته معرفته الواسعة العميقة بالعلوم في الاستدلال والإقناع ، وجذب أصحاب العقول المبتكرة إلى الدين .. وهو مع انشغاله بكل ذلك ، كان يتحرى أحوال الناس ، ويحمل على كتفه جرابا فيه طعام ومال فيوزع على أصحاب الحاجة ، دون أن يدع أحدا يعرف على من يتصدق !

ولكم أساء إليه بعض صنائع الحكام الذين خشوا التضاف الناس حوله فما قابل الإساءة إلا بالإحسان وهو يردد قول الله تعالى ! « ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم » .

وفي الحق انه أستطاع أن يحول كل الذين دُشُوا عليه ليسيئوا إليه إلى أولياء حميمين .

كان يزدري الانتقام ويعلم الناس فضيلة العفو مرددا قول جده رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما زاد عبد بالعفو إلا عزاً »

ولكن أقارب جعفر لم يتركوه لما هو فيه من علم ودراسه ليؤدى دوره فى تنوير العقول .

فقد حاولوا أكثر من مرة أن يقحموا عليه السياسة .

ودعوه إلى الثورة على الدولة الأموية ، واجتمعت عليه الألسنة تلح ليتولى أمر الخلافة ، فرفض وصرفهم عما هم آخذون فيه .

فعادوا يطالبونه بالبيعة لواحد منهم ولكنه لم يوافق ..

وكانت الثورة ضد حكم الدولة الأموية تشتد ، وميض النار خلل الرماد يوشك أن يكون له ضرام .

وكان بعض المنتسبين إلى الفقه والثقافة وعلوم الدين ، قد صانعوا حكام بنى أمية وزينوا لهم الاستبداد وأفتوا لهم بأنهم ظل الله فى الأرض ، وأنهم لا يسألون عما يفعلون ! ..

وقد ساء رأى الناس فى هذه الفئة من المنتسبين إلى الفقه والعلم ، لأنهم باعوا شرفهم بالمناصب والجاه .

وكان الصادق من أكثر الناس حرصا على حماية الأمة من سموم هؤلاء المرتزقة

وفى الحق أن الحكام الأمويين كانوا يحسنون مكافأة هؤلاء المتملقين ، فيجزلون لهم العطاء ويولون بعضهم .

وكان بعض هؤلاء الولاة يحب أن يبدو فقيها عالما على الرغم من جهله المركب ، وقد تعود أحد هؤلاء المرتزقة المنافقين أن يتقرب إلى الخليفة الاموى بلعن الإمام على بن أبى طالب كرم الله وجهه ، وسب فاطمة الزهراء رضى الله عنها .. بعد أن كان الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز قد أبطل تلك الأحدثوة الشائنة : سب على وفاطمة !! ولكن عمر بن عبد العزيز كان قد مات بكل عدله وحزمه وصفائه ، وما بقى فى الدولة من رجال إلا هذا الصنف من الضالين وصناع الضلال !!

وعرف الصادق أن ذلك الفقيه المرتزق الذى كان قد كوفىء بتعيينه واليا ، مازال يسب عليا وفاطمة ويهدد الناس إن خالفوه . والناس قد أسكتهم الخوف !

وإذ بالامام الصادق يذهب ويستمع له ثم ينتفض مقاطعا المنافق المرتزق ويكشف للناس جهله ونفاقه ، ويوضح للناس وهويعظهم أن مثل هذا المنافق الذى يبيع شرفه وضميره بالمنصب أو بالجاه أو المال ، و يبيع آخرته بدنياه ، إنما هو ضال مضلل وهو أبين الناس خسرانا يوم القيامة ، وأن محض افتراءاته وكشف جهله واجب .

حقا .. ما كان الإمام الصادق يستطيع أن يسكت عن كل هذا التزييف على أنه ما من شيء كان يوجع الإمام الصادق مثل انحذار الذين ينتسبون إلى العلم والثقافة والفقه والدين إلى حضيض النفاق ، والمرأاة ، والانحناء ، وبيع الضمير!!

وما كان أنشط النخاسين فى التقاط من ارتضوا أن يصبحوا عبيدا وإماء .. لقد شعر الإمام الصادق منذ استشهاده عمه الإمام زيد أنه يعيش فى نهاية عصر!
إنها نهاية عصر .. حقاً ..!

وانتهى العصر ..

سقطت دولة بنى أمية وأرسل الثوار الى جعفر الصادق رسالة يطالبونه فيها أن يقبل البيعة ليصبح هو الخليفة

وجاءته الرسالة وهو مشغول فى تأملاته ودراساته وتجاربه فأحرق الرسالة ولم يرد ..

كان يخلق فى سماء المعرفة ، يضرب فى أغوار العلم ، ويشعر أنه أقوى من الملك .. أى ملك فى الأرض !! وأنه باستمراره فى دوره العلمى أنفع للناس !

كان يقول : « من طلب الرياسة هلك » على أن الرياسة ظلت تطلبه .. وهويرفض !

وإذ رفض الخلافة .. بايع الناس أبا العباس حفيد عبد الله بن عباس بن عبد المطلب وبنو العباس هم بنو عمومة العلويين وتأمل الإمام الصادق فيمن يحيط بالخليفة الجديد!!

لقد انتهى عصر .. هذا حق ..

انتهى بكل خير وشره ، وجاء عصر جديد يتطلع فيه الناس إلى الحرية ، والنظافة ، والطهارة والعدل ، فإذا بالمنافقين الذين زينوا الاستبداد لبعض الأمويين وشرعوا لهم العدوان والطغيان يحيطون بأبى العباس مؤسس الدولة الجديدة .. الدولة العباسية .

ومات أبو العباس .. وورثه الخليفة المنصور وإذ بهؤلاء المنافقين يحيطون بالخليفة الثانى فى العصر الجديد !! وإذ بهم يوسوسون له بالآراء نفسها ، وإذ بهم يوهونه أنه فوق الحساب لأنه ظل الله فى الأرض !! حتى لقد جعلوا المنصور يحمل الناس على تقبيل الأرض بين يديه !! إنهم أشباه رجال اشتهر

عنهم الجهل والتخلف والغباء والحمق ووجهوا كل نشاطهم للنفاق !! نفوس كرهية زرية مهينة محترقة !!

وحكم الصادق على العهد الجديد بمن يمثلونه و يفيدون منه !!

أى أمل للناس فى الخليفة وقد أصبحت الشورى لذوى الضمائر المتهرئة والألسنة المستهلكة ؟ لقد مضوا يدعون إلى التمشف باسم الإسلام ويحببون الفقر إلى الناس باسم الدين ، لينصرف المستبدون إلى جمع المال ، وينصرفوا هم إلى الارتزاق !!

لقد شرعوا للبنى وأحدثوا خرقا فى الاسلام !!

لقد أرادوا من الأمة أن تواجه إسراف الطبقة الحاكمة لا باستخلاص الحق المعلوم الذى شرعه الله ، بل بالزهد فى كل شىء ! والانصراف عن كل حق !

ثم وصل فجور هؤلاء المرتزقة إلى آخر مدى فوضعوا الأحاديث النبوية لخدمة الطبقة الحاكمة ! حتى الأحاديث الشريفة لم تسلم من تزيفهم !!

وعلى الرغم من كل هذه المظالم ، وعلى الرغم مما عاناه الإمام جعفر من آلام وهوى عيش محنة خيبة الأمل فى النظام الجديد ، فانه ظل آخذا بالتقية قائلا : « التقية دينى ودين آبائى » والتقية ألا يجهر المرء بما يعتقده اتقاء للأذى أو حتى تتحسن الظروف . والأصل فى التقية هو قول الله تعالى : « لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين .. ومن يفعل ذلك فليس من الله فى شىء إلا أن تتقوا منهم تقاة » .

وكان الخليفة المنصور قد غالى فى القسوة على مخالفيه .. ومنهم بعض آل البيت من العلويين

والإمام الصادق يسكت تقية .. ولكنه آثر مع ذلك أن ينصح الخليفة بالحسنى فقال له : « عليك بالحلم فإنه ركن العلم . فإن كنت تفعل ماتقدر عليه كنت كمن أحب أن يذكر بالصولة . واعلم أنك إن عاقبت مستحقا لم تكن غاية ماتوصف به إلا العدل .

وهكذا مضى الإمام الصادق يؤدى دوره فى تنوير الناس حكاما ومحكومين .. والخصومة تشتجر حول القضاء والقدر ، والجبر والاختيار ، فيقول الإمام للناس : « إن الله أراد بنا أشياء ، وأراد منا

أشياء .. فما أراد الله بنا طواه عنا ، وما أراد منا أظهره لنا .. فما بالتنا نشتغل بما أراد بنا عما أرادنا منا ؟! »

وكان هذا لا يروق للطبقة الحاكمة ، ولا للمتطعين والمرتزقة من المنتسبين إلى العلم والفقه .
ذهب الإمام جعفر الصادق إلى أن القول بالجبر ضد الشرع ، لأنه لا حساب ولا عقاب إذا لم يكن للمرء حرية اختيار ما يفعل ..

ولإفن أين تنبع المسؤولية إن لم تكن للإنسان حرية الفعل ؟!

وهكذا مضى الإمام الصادق بكل إيمانه بدوره ، يعلم الناس بعض ما خفى عنهم من تفسير القرآن ووجد أن الامراء والولاة يقتربون الظلم ، وياكلون ما ليس لهم من حقوق الرعية ثم يستغفرون الله !!
ومحسبون أن الله سيتوب عليهم !! فمضى يشرح معنى الاستغفار مفسرا بضع آيات من سورة نوح :
« فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا يرسل السماء عليكم مدرارا ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا » فالاستغفار إذن يجلب السعادة والغنى .

ولكن الاستغفار الحق ليس هو ترديد الكلمة باللسان ، ولكنها توبة القلب ، وإعمال العقل ، والعمل الصالح الذي يحقق خير الأمة ..

الاستغفار أن تمتثل لأمر الله تعالى بالعدل والإحسان .

ذلك أن المرء يجب أن يفكر في الله بكل ما يملك العقل من قدرات ، ليعرف الله و يعرف كيف يتقيه وكيف يحقق أهداف شرائعه .. وما أهداف الشرائع إلا تحقيق المصلحة للبشر وإعمار الأرض ..

ولقد سأله أحد الناس : يا ابن بنت رسول الله . لقد قال تعالى « أدعوني أستجب لكم فما لنا ندعوه فلا يجيب ؟ فقال له الإمام : « لأنك تدعو من لا تعرف .. »

إنه يطالب الناس أن يفكروا ليعرفوا الله .. أن يعرفوا الله بعقولهم ليستقر إيمانهم على أساس وطيء .

كان الإمام على غزارة علمه متواضعا رقيقا مع كل من يعرف ومن لا يعرف .. وكم تلقى من إساءات من بعض الحمقى والأغبياء وذوى النفوس المعقدة أو الضمائر العفنة أو ذوى الفظاظة ، فما قابلها إلا بالابتسام أو الصبر ! . كان يتمثل قول الله تعالى : وأعرض عن الجاهلين » .

وكان يكره الخصومة وسمى جهده إلى الصلح فإن عرف أن هناك خصومة على مال تبرع من ماله خفية ليعطى طالب المال .. وكان يقول : « لا يتم المعروف إلا بثلاثة بتعجيله وتصغيره ومستره » .

ناضل الإمام الصادق لإقرار التسامح الدينى ولإرساء قواعد شريفة للتعامل بين المسلمين وأهل الكتاب من نصارى ويهود ، وكان حربيا على التعصب الذى يسىء إلى الشريعة وإلى إنسانية الإنسان !!

ذلك أنه وجد بعض المتنطعين والأراذل يحاولون أن يسيثوا معاملة المسيحيين ، فأثبت عليهم مخالفة قواعد الشرع وأوامر الرسول صلى الله عليه وسلم ، لأن الاسلام أمر المسلمين بأن يتعايشوا مع المسيحيين ، إخوانا متحابين ، وألا يكرهوا الناس على أن يكونوا مسلمين ، فلا إكراه فى الدين .

يجب أن يترك أهل الكتاب وما يدينون به فقد نهى الإسلام عن إثارة الفتنة فى الدين والفتنة أشد من القتل ولقد أمر الرسول عليه السلام باحترام حرية العقيدة واحترام أهل الكتاب فن لم يتعامل معهم كما أمر الرسول صلى الله عليه وسلم فليس من الإسلام فى شيء ، ولو زعم فى تنطعه وتعصبه أنه رجل شرع أو أنه أفقه الناس !!

ولقد أعادت هيبة الإمام الصادق ، كثيرا من الذين انحرفوا إلى حظيرة الدين .. فتعايش المسلمون والمسيحيون إخوانا متحابين كما أمر الله ورسوله .

وهذا التسامح الذى ينبع من فهم عميق للإسلام كان صفة أصيلة فى الإمام .. فقد كان يدعو الله أن يغفر لمن أساء إليه .. وما عرف عنه أنه انتقم من أحد فقد كان يرى فى الانتقام مع القدرة ذلا .. وأن الصبر عفويثاب عليه المرء .. من أجل ذلك ما غضب من إساءة أو من اغتيال ..

وقد امتدت سماحته إلى الذين يخدمونه .. تلك السماحة التى تخالجها الرقة والعذوبة .. كان له غلام كسول يحب النوم ، فأرسله يوما فى حاجة فغاب وخشى الإمام أن يكون الغلام قد أصابه مكروه ، فخرج يبحث عنه ، فوجده نائما فى بعض الطريق .. فجلس الإمام عند رأسه ، وأخذ يوقظه برفق حتى استيقظ فقال له ضاحكا « تنام الليل والنهار . ؟ ! لك الليل ولنا النهار ! »

لكل هذا الصدق والصفاء فى التعامل مع الحياة والناس والأشياء .. لكل هذه السماحة والعذوبة والرقة والتسامح ، وإشراقه الروحى الرائع ، وذكائه المتوقد الحارق وبجسارته فى الدفاع عن الحق ، وقوته على الباطل ، وبكل ما تمتع به من طهارة وسمو وخلق عظيم .. التف الناس على اختلاف آرائهم حول الإمام الصادق جعفر بن محمد وكما كان حكام بنى أمية يراقبون التفاف الناس حوله بفزع ، أخذ الخليفة العباسى « المنصور » يراقب الامام جعفر متوجسا من جيشان العواطف نحوه ، وإعجاب الناس به .. !!

كان المنصور يعرف بتجربته الخاصة أن الامام جعفر بن محمد عازف عن الاشتغال بالسياسة ، وكان يعرف أن الامام رفض إهابة الشيعة به أن ينهض ، ورفض إلحاحهم بالبيعة ، ولكن المنصور مع ذلك ما كان ليسترىح لالتفاف الناس حول الصادق في كل مكان . في المدينة حيث يقيم وفي العراق حيث يلم ليعلم الناس أو ليحاور الزنادقة والملحدون وأصحاب الآراء الذين يخالفونه في أمور الدين ..

نقل الناس إلى الخليفة أن أحد فصحاء الزنادقة وفجارهم قد التقى بالإمام جعفر، فعجز، الرجل عن الحوار، فسأله الإمام الصادق : « ما يمنعك من الكلام ؟ » فقال الرجل إجلالا لك ومهابة . وما ينطق لساني بين يديك . فإني شاهدت العلماء وناظرت المتكلمين ، فما داخلني هيبتك » .

أخذ المنصور يتربص بالإمام جعفر . وعرف أن الامام يحارب الزهاد .. وكانت جماعات الزهاد تحبب إلى الناس الفقر، وتدعوهم إلى العزوف عن الدنيا ، وإلى عدم التفكير في شؤونهم .. وقد شجع حكام بنى أمية هذه الجماعات ليصرفوا الناس عن التفكير في المظالم ، و يصرفوهم عن المقارنة بين غنى الحكام وفقير المحكومين .. وشجع بنو العباس هذا الاتجاه إلى الزهد حتى لقد قويت الدعوة إلى الانصراف عن هموم الحياة ..

ورأى الإمام جعفر أن هذه الدعوة تزيد الأغنياء غنى والفقراء فقرا وأنها ليست من الله في شيء .. فهي تزين للفرد ألا يهتم بمصلحة الأمة ، وألا يحاسب الحكام ، وتتيح للحكام أن يعطلوا الشورى وهي أساس الحكم في الاسلام .

ولقد انخدع بعض الصالحين بهذا الاتجاه إلى تمجيد الفقر، فنادوا بتحريم الطيبات من الرزق وزينة الحياة التي أحلها الله لعباده ، حتى أن أحد الصالحين من الفقهاء رأى الإمام الصادق في ثوب حسن فأنكره قائلا : « هذا ليس من لباسك » فقال له الإمام الصادق : « اسمع مني ما أقول لك . فإن خير لك آجلا أو عاجلا إن أنت مت على السنة والحق ولم تمت على البدعة . أخبرك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان في زمان مقفر مجذب فأما إذا أقبلت الدنيا فأحق أهلها أبرارها لا فجارها ، ومؤمنوها لا منافقوها » .

ومضى الإمام الصادق يناقش الزاهدين فالزهد كما يفهمه الإمام الصادق هو « الاكتفاء بالحلال لا التجرد من الحلال » .

ورأى المنصور في الدعوة ضد الزهد والفقر تحريرا لعامة المسلمين على أن يستمتعوا بحقوقهم في المال ، ودعوة إلى إثارة التمرد ..

ولكن المنصور سكت وظل يراقب الإمام جعفر بن محمد .. ما عساه يصنع بعد ؟ ! لعله يسكت !!

ولكن الإمام جعفر ظل يناضل بالكلمة دفاعا عن كل آرائه وعن حرية العقل والإرادة وشرف المثقفين .. ورأى التنصاف بعض الطيبين الفقهاء حول الحكماء من غير ضرورة ، خوفا أو طمعا فقال للناس : « إذا رأيتم الفقهاء قد ركبوا للسلطين فاتهموهم .. » وتخوف كثير من الفقهاء بعد هذا من مخالطة السلطين والحكام من غير ضرورة .. !

ثم إنه أخذ ينشر من فتاوى الإمام على وأفضيته ما حرص الحكام والمستغلون على إخفائه .. فأفتى بأنه لا يحق للمسلم أن يدخر أكثر من قوت عام إذا كان فى الأمة صاحب حاجة .. حاجة إلى طعام أو مسكن أو كساء أو علاج أو دواء أو ما يركبه !! ..

وأفتى بأن السارق إذا اضطر إلى السرقة لأنه لا يعمل ، فولى الأمر هو المسئول وهو الآثم .. فإذا سرق السارق لأنه لا يحصل على الأجر الذى يكفيه هو وعياله ، فالذى يستغله أولى بقطع اليد !

وكان استبداد المنصور قد استشرى ، وكما فعل الحكام الأمويون من قبل ، بطش المنصور بكل من يخالف رأيه ووجه بطشه إلى آل البيت .. فقد ناهضه بعض أقربائه من آل البيت ، فقتلهم شر قتلة .. واتهم جعفر بن محمد بأنه يحرّض عليه ، وبأنه يطمع فى الخلافة على الرغم من أنه يعلم أن الإمام لا طمع له فى الملك .

وخشى المنصور أن يصنع مع الإمام جعفر كما صنع الخليفة الأموى مع عمه الإمام زيد بن على !

وآثر المنصور أن يناقش جعفر فاستدعاه إلى العراق واتهمه بأنه يريد الخلافة .. فقال له الصادق : « والله ما فعلت شيئا من ذلك ولقد كنت فى ولاية بنى أمية وأنت تعلم أنهم أعدى الخلق لنا ولكم وإنهم لا حق لهم فى هذا الأمر فوالله ما بغيت عليهم ولا بلغهم عنى شيء مع جفائهم الذى كان لى فكيف أصنع هذا الآن وأنت ابن عمى وأمس الخلق بى رحما . »

فقال المنصور : « أظنك صادقا »

وعاد الإمام الصادق إلى المدينة مكرما ..

كان ما يفيظ المنصور حقا هو فكر الإمام الصادق والتفاف الناس حوله ، وتوقيرهم إياه ..

والمنصور لا يجهل أن أحد كبار فقهاء العصر دخل على الخليفة وإلى جواره الصادق فاهتم بالخليفة ، وجعل كل اهتمامه بالإمام الصادق ، وقال الرجل : « أخذنى من هيبة جعفر الصادق ما لم يأخذنى من هيبة الخليفة » .

على أن الصادق عاد إلى المدينة لا يسكن ، بل ليواصل دوره الثقافى الجليل ومن عجب أن المنصور ، على الرغم من ضيقه بآراء الإمام ما كان يملك إلا أن يحلة ، ويقول عنه أنه : « بحر مَواج لا يدرك طرفه ولا يبلغ عمقه » .. ولكن المنصور حاول أن يخرج الإمام الصادق ، فاستدعى أبا حنيفة النعمان وقال له : « فتن الناس جعفر بن محمد فهبىء له من المسائل الشداد » .. ثم استدعى الإمام الصادق وأبا حنيفة وجلس الناس وما انفك أبو حنيفة يسأل الإمام فى أربعين مسألة ، والإمام يجيبه عن كل مسألة ، فيقول فيها رأى فقهاء الحجاز ، ورأى فقهاء العراق ، ورأى فقهاء آل البيت ورأيه هو .

وطرب أبو حنيفة وقال عن الإمام جعفر « أنه أعلم الناس فهو أعلمهم باختلاف الفقهاء »

وصحبه أبو حنيفة النعمان بعد ذلك مدة سنتين يتلقى عنه العلم ..!

ما كان توجس المنصور وشكوكه هو كل ما يعانى منه الإمام الصادق فقد كابد تطرف بعض فرق الشيعة وسبهم للشيخين أبى بكر وعمر ولعثمان بن عفان ، وشططهم فى تمجيد بعض آل البيت وفى تمجيده هونفسه إلى حد العبادة ، وتحللهم من التكاليف الدينية .. فأعلن البراءة منهم واتهمهم بالشرك بالله ، وأثبت عليهم الكفر ودعا الناس إلى نبذهم .. كان هؤلاء من المتعصبين ضعاف العقول ، أو من المندسين لتشويه آل البيت أو من أعداء الاسلام وآل البيت جميعا !

على أن الإمام الصادق على الرغم من شدته على هؤلاء كان رفيقا فى تعامله مع الفقهاء الذين يختلفون معه مهما تكن مذاهبهم واتجاهاتهم ، داعيا إلى التقريب بين الآراء ، مقاوما بأسلا للطائفية ، وكم بذل من جهد للقضاء على الخصومة فى الدين ، وعلى التعصب بكل صوره وأشكاله !

وكان يعتمد فى حوارهِ على الأدلة العلمية ، وعلى الاستقراء والاستنباط ، لا على المسلمات ..

نادى بتحكيم العقل حيث لا يوجد حكم فى الكتاب أو السنة .. فبما أن هدف الشريعة هو تحقيق المصلحة للبشر ، وبما أن العقل قادر على معرفة الخير والشر وتمييز الحسن من القبيح ، فإن العقل يهذى إلى ما فيه المنفعة والخير فيؤخذ ، وإلى ما فيه الضرر فيترك .

وهو يعتمد على العقل والتدبر ليصل المسلم الى الإيمان .

لقد أمر الله بالعدل والإحسان ونهى عن الفحشاء والمنكر والبغى .. والعقل هو الذى يحدد للإنسان كيف يجرى العدل والإحسان ، وكيف يقاوم الفحشاء والمنكر والبغى ، وكيف ينفذ التكليف الشرعية بما يرضى الله ، وهو الذى يقر الإيمان فى القلوب ..

والعقل هو الذى يقود الانسان إلى معرفة ما هو مباح عندما لا يوجد نص ، وإلى معرفة المصلحة التى هى هدف الشريعة .. ليكون تحقيق المصلحة هو أساس الحكم ومناطه ..

وقد هداه نظره وتأمله الى القول بحرية الإرادة ، وإلى الدفاع عن حرية الرأى التى هى أساس قدرة الانسان على تنفيذ أمر الله تعالى بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر! ..

وحرية الانسان ، هى أساس مسؤوليته .. مسؤوليته أمام الله تعالى ، يحاسبه على ما يفعله لا على قضاء الله فيه .. فالله تعالى يسأل الإنسان « لماذا كفرت ؟ لماذا أذنبت ؟ ولكنه لا يسأله لماذا مرضت ؟ .. »

وهكذا عاش الإمام فى المدينة يعلم الناس ويبحث فى استنباط أصول الفقه .

وعلى الرغم من أن كل هذه الآراء لم تكن تروق الخليفة المنصور، فقد كان الخليفة حريصا على أن يقرب منه الإمام جعفر.. ولقد أرسل إليه الخليفة يوما يسأله : « لم لا تغشانا كما يغشانا الناس ؟ » فكتب إليه الإمام جعفر: « ليس لنا ما نخافك من أجله ، ولا عندك من أمر الآخرة ما نرجوك له ، ولا أنت فى نعمة فنهنتك ، ولا نراها نقمة فنعزيك » .. فكتب إليه المنصور: « تصحبنا لتصحنا » .. فأجابه الإمام الصادق : « من أراد الدنيا لا ينصحك ومن أراد الآخرة لا يصحبك » .

ولم يرق هذا للمنصور، فاستدعاه واثمه بأنه يجمع الزكاة وجع الزكاة حق للخليفة وحده فهو إذن يدعولتفسه!.. وشهد ضد الإمام شاهد زور.. فكذب الإمام أقوال الشاهد ، فطلب المنصور من الإمام أن يحلف بالطلاق ، ولكنه رفض فقد كان يفتى بأن الحلف بالطلاق لا يجوز. وقال إنه لن يحلف بغير الله فقال له الخليفة محتدا ، « لا تتفقه على » .. فقال الإمام هادئا مبتسما : « وأين يذهب الفقه منى ؟ » ثم إن الإمام طلب من الشاهد أن يحلف على دعواه فحلف شاهد الزور.. وكان الخليفة قد اقتنع بأن الإمام صادق فى قوله .. فقد عرفه الجميع بالصدق .. وروع شاهد الزور وكبر عليه أن يفترى على هذا الإمام الطاهر،

وكبر عليه أن يحلف كذبا .. وها هو ذا آخر الأمر يجد الخليفة غاضبا عليه !! فما كسب شيئا بعد ! وسقط الرجل ميتا .. وحمل عن مجلس الخليفة .. أما الإمام فقد دعا للرجل بالرحمة ، وحطت ذبابة على وجه الخليفة لم يفلح فى إبعادها إذ كانت تعود فتحط على وجهه .. فسأل : «لماذا خلق الله الذباب ؟» فقال الإمام : «ليذل به الجبابرة» .

فقال له الخليفة متلطفا وجلا : «سرمن غذك إلى حرم جدك إن اخترت ذلك ، وإن اخترت المقام عندنا لم نال فى إكرامك وبرك فوالله لا قبلت قول أحد فيك بعدها أبدا»

وخرج الإمام إلى حرم جده فى المدينة المنورة .. وهو إذ ذاك شيخ قد جاوز الخامسة والستين .. وأقام بالمدينة لا يبرحها ، يعلم الناس ويفقههم ، ويواصل وضع أصول الفقه ويشرع للفقهاء كيف يستنبطون الأحكام عندما لا يجدون الحكم فى الكتاب أو السنة .

وفى الثامنة والستين مات الإمام الصادق .

وعندما عرف الخليفة المنصور ، أخذ يبكى حتى اخضلت لحيته ، وهو يقول : «إن سيد الناس وعالمهم وبقية الأخيار منهم توفى .. ان جعفر من قال الله فيهم : ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا ..»

مات الإمام جعفر الصادق إمام الشيعة وشيخ أهل السنة بعد أن ترك ثروة من الفقه والعلم والتأملات ، وأنشأ فى الحياة الفكرية تيارا جديدا خصبا أعلى فيه العقل والنظر والتأمل والعلم .. وجع المعارف كلها وعلوم الدنيا والدين .

عادت النفس مطمئنة إلى ربها راضية مرضية ، وقد خلف الإمام فى كل البلاد مئات الفقهاء السنيين يروون عنه ويعلمون الناس فقهه وشروحه وآراءه ، فضلا عن فقهاء الشيعة توفى الإمام جعفر الصادق الذى درس عليه الإمام مالك وروى عنه أبو حنيفة النعمان وتعلم منه ، وصحبه سنتين كاملتين قال عنها أبو حنيفة النعمان : لولا السنتان لهلك النعمان .

أبو حنيفة النعمان
الإمام الشهيد

لم يختلف الناس على رجل كما اختلفت آراؤهم فى أبى حنيفة النعمان ..
تعالى البعض فى تقديره حتى زعم أنه أوتى الحكمة كلها ، وأنه يتلقى علمه عن الرسول صلى الله
عليه وسلم فيما يشبه الرؤيا أو الرؤية !
واشتط الآخرون فى كراهيته ، حتى لقد اتهموه بالمروق عن الدين ، وبالإلحاد والزندقة ،
وباستيراد المبادئ الهدامة من الديانات الوثنية ومن عباد النار ..
وأعمى العداء آخرين ، فأذاعوا عنه أنه مجوسى مدسوس على الإسلام ليحدث خرقا فى الإسلام !!
كان هذا التصرف فى الأحكام المتناقضة هو طابع العصر الذى عاش فيه أبو حنيفة ، وهو فى
الوقت نفسه نتيجة سلوك الشيخ وسيرته واقتحاماته الفكرية الجسور ..
ذلك أنه كان يدعو إلى الأخذ بالرأى لا يبالى فى رأيه بأحد ..
فقد كان عارفا بأحوال الحياة ، مستوعبا كل ثقافة من سبقوه ومن عاصروه ، خبيرا بالرجال ،
شديدا على أهل الباطل ، مرير السخرية بالمزيفين ، لاذعا مع المنافقين من متعاطى الفقه والعلم
والثقافة فى عصره ..
وهو عصر غريب حقا .. عصر ملئ بالتطرفات ..
هو ذلك العصر الباهر من الفتوحات والثراء الفكرى .. عصر الأئمة العظام : محمد الباقر وزيد بن
على وجعفر الصادق ومالك بن أنس والليث بن سعد .. وهو فى الوقت نفسه عصر الصعاليك الكبار ،
والمنافقين والمزيفين !! ..

عصر عامر بالبطولات والأحلام والخطر والفنى الروحى والاقتحام ، والمتاع ! ..

عصر يدوى على الرغم من كل شىء بأصداء المأساة ، تفعمه الأحزان ، ملتهب بالأشواق الى العدل وبالحنين إلى الرحمة والصدق والإحسان والشجن ! ..

فى ذلك العصر ولد أبو حنيفة النعمان بالكوفة سنة ٨٠ هـ من أسرة فارسية ، وسمى النعمان تيمنا بأحد ملوك الفرس ...

من أجل ذلك كبر على المتعصبين العرب أن يبرز فيهم فقيه غير عربى الأصل .. حاول بعض محبيه أن يفتعل له نسبا عربيا .. ولكنه كان لا يحفل بهذا كله فقد كان يعرف أن الاسلام قد سوى بين الجميع ، وأن الرسول صلى الله عليه وسلم احتضن سلمان الفارسى وبلالا الحبشى ، وكانا من خيرة الصحابة حتى لقد كان الرسول يقول « سلمان منا أهل البيت » وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول عن بلال : « سيدنا بلال » .

ولقد شهد أبو حنيفة فى طفولته فظائع الحجاج والى العراق وبطشه بكل من يعارض الأمويين حتى الفقهاء الأجلاء ، فدخل فى نفسه منذ صباه عزوف عن الأمويين واستنكار لاستبدادهم ، ورفض للطغنيان .. ثم إنه ورث عن أبيه وأمه حبا لآل البيت فما كان فى ذلك العصر رجال ينبذون التفرقة بين المسلمين العرب وغير العرب إلا آل البيت .

وقد تمكن حب آل البيت من قلبه عندما تعرف على أئمتهم وتلقى عنهم ، وعندما عاين أشكال الاضطهاد التى يكابدونها فى كل نهار وليل ! .. حتى لقد شاهد الإمام الصادق واقفا يستمع إليه وهو يفتى فى المدينة فوقف قائلا : « يا بن رسول الله ، لا يرانى الله جالسا وأنت واقف » .

وكان أبوه تاجرا كبيرا يعمل معه وهو صبي ، وأخذ يختلف إلى السوق ويحاور التجار الكبار ليتعلم أصول التجارة وأسرارها ، حتى لفت نظر أحد الفقهاء فنصحه أن يختلف إلى العلماء فقال أبو حنيفة : « إنى قليل الاختلاف إليهم » فقال له الفقيه الكبير : « عليك بالنظر فى العلم ومجالسة العلماء فإننى أرى فىك يقظة وفطنة » .

ومنذ ذلك اليوم وهب الفتى نفسه للعلم ، واتصل بالعلماء ولم تنقطع تلك الصلة حتى آخر يوم فى حياته .. ولكم عانى وعانى منه الآخرون فى هذا الميدان الجديد الذى استنفر كل مواهبه وذكائه وبراعته !!

وانطلق الفتى الأسمر الطويل النحيل بحلة فاخرة ، يسبقه عطره ، ويدفعه الظمأ إلى المعرفة ، يرتاد حلقات العلماء فى مسجد الكوفة .. وكان بعضها يتدارس أصول العقائد (علم الكلام) ، وبعضها للأحاديث النبوية ، وبعضها للفقهاء وأكثرها للقرآن الكريم ..

ثم مضى ينشد العلم فى حلقات البصرة .

وبهرته حلقة علماء الكلام ، لما كان يثور فيها من جدل مستعير يرضى فتونه .

ولزم أهل الكلام زمنا ثم عدل عنهم إلى الحلقات الأخرى .. فقد اكتشف عندما نضج أن السلف كانوا أعلم بأصول العقائد ولم يجادلوا فيها ، فلا خير فى هذا الجدل . ومن الخير أن يهتم بالتفقه فى القرآن الكريم والحديث .

وانتهت به رحلاته بين البصرة والكوفة إلى العودة إلى موطنه بالكوفة ، وإلى الاستقرار فى حلقات الفقهاء ، لمواجهة الأقضية الحديثة التى استحدثت فى عصره ، ولدراسة طرائق استنباط الأحكام .

وكان أبوه قد مات ، وترك له بالكوفة متجرا كبيرا للحريير يدر عليه ربحا ضخما ، فرأى أبو حنيفة أن يشرك معه تاجرا آخر ، ليكون لديه من الوقت ما يكفى لطلب العلم وللتفقه فى الدين ولإعمال الفكر فى استنباط الأحكام ..

ودرس على عدة شيوخ فى مسجد الكوفة ثم استقر عند شيخ واحد فلزمه .. حتى إذا ما آلم بالشيخ ما جعله يغيب عن الكوفة ، نصب أبا حنيفة شيخا على الحلقة حتى يعود .. وكانت نفس أبى حنيفة تنبازعه أن يستقل هو بحلقة ، ولكنه عندما جلس مكان أستاذه سئل فى مسائل لم تعرض له من قبل ، فأجاب عليها وكانت ستين مسألة

وعندما عاد شيخه عرض عليه الإجابات ، فوافقه على أربعين ، وخالفه فى عشرين .. فأقسم أبو حنيفة ألا يفارق شيخه حتى يموت .

ومات الشيخ وأبو حنيفة فى الأربعين ، فأصبح أبو حنيفة شيخا للحلقة ، وكان قد دارس علماء آخرين فى رحلات إلى البصرة وإلى مكة والمدينة خلال الحج والزيارة ، وأفاد من علمهم ، وباد لهم الرأى ، ونشأت بينه وبين بعضهم مودات ، كما انفجرت خصومات .

ووزع وقته بين التجارة والعلم .. وأفادته التجارة فى الفقهاء ، ووضع أصول التعامل التجارى على أساس وطيد من الدين ..

كان أبو بكر الصديق رضى الله عنه هو مثله الأعلى فى التجارة : حسن التعامل ، والتقوى ،

والريح المعقول الذى يدفع شبهة الربا ..

جاءته امرأة تباع له ثوبا من الحرير وطلبت ثمنه له مائة .. وعندما فحص الثوب قال لها « هو خير من ذلك » فزادت مائة .. ثم زادت حتى طلبت أربع مائة فقال لها : « هو خير من ذلك » فقالت : أتزأ بى ؟ فقال لها : « هاتى رجلا يقومه » فجاءت برجل فقومه بخمسمائة ..

وأرادت امرأة أخرى أن تشتري منه ثوبا فقال « خذيه بأربعة دراهم » فقالت له : « لا تسخر منى وأنا عجوز ، فقال لها « إننى اشتريت ثوبين فبعت أحدهما برأس المال إلا أربعة دراهم ، فبقى هذا الثوب على أربعة دراهم » .

وذهب إلى حلقة العلم يوما ، وترك شريكه فى المتجر ، وأعلمه أن ثوبا معيننا من الحرير به عيب خفى ، وأن عليه أن يوضح العيب لمن يشتريه .

أما الشريك فباع الثوب دون أن يوضح العيب ! ..

وظل أبو حنيفة يبحث عن المشتري ليدلّه على العيب ، و يرد إليه بعض الثمن ، ولكنه لم يجده ، فتصدق بثمان الثوب كله ، وانفصل عن شريكه ..

بهذا الحرج كان يتعامل فى تجارته مع الناس ، وفى فهمه للنصوص ، وفى استنباطه للقواعد والأحكام ..

وعلى الرغم من أنه كان يكسب أرباحا طائلة ، فقد كان لا يكتز المال .. فهو ينفق أمواله على الفقراء من أصدقائه وتلاميذه .

يحتفظ بما يكفيه لنفقة عام و يوزع الباقي على الفقراء والمعسرين .. فإذا عرف أن أحدا فى ضيق ، أسرع إليه ، وألقى إليه بصرة على بابه ، ونبهه إلى أنه وضع على بابه شيئا ، ويسرع قبل أن يفتح صاحب الحاجة الصرة ..

وكان على ورعه وتقواه واسع الأفق مع المخطئين .. كان له جار يسكر فى الليل و يرفع عقيرته بالغناء :

أضاعونى وأى فتى أضاعوا

ليوم كربة وسداد ثغر

وكان صوت الجار يفسد الليل على أبى حنيفة .. حتى إذا كانت ليلة سكنت فيها صوت الجار

السكير، فلما أصبح الصباح سأل عنه فعلم أنه فى السجن متبها بالسكر.. وركب أبو حنيفة إلى الوالى فأطلق سراح السكير.

وعندما عادا معا سأله أبو حنيفة « يا فتى هل أضعتاك ؟ » فقال له « بل حفظتني رعاك الله » .
ومازال به أبو حنيفة حتى أقلع عن الخمر. وأصبح من رواد حلقات العلم ثم تفقه وصار من فقهاء الكوفة .

وكان أبو حنيفة يدعو أصحابه إلى الاهتمام بمظهرهم .. وكان إذا قام للصلاة لبس أفخر ثيابه وتعطر، لأنه سيقف بين يدي الله .

ورأى مرة أحد جلسائه فى ثياب رثة ، فدس فى يده ألف درهم وهمس : أصلح بها حالك « فقال الرجل « لست أحتاج إليها وأنا موسر وإنما هو الزهد فى الدنيا فقال أبو حنيفة : أما بلغك الحديث : إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده ؟

وكان شديد التواضع ، كثير الصمت ، يقتصد فى الكلام ، ولا يقول إلا إذا سئل ، وإذا أغلظ إليه أحد أثناء الجدل صبر عليه . وإذا دخلت إليه امرأة تستفتيه قام من الحلقة وأسدل دونها سترا ، ليحفظها من عيون الرجال ، وأجابها عما تسأل .. نبع هذا التقدير الكبير للمرأة من حبه العميق لأمه ، وحرصه الدائب على أن يرضيها ، ثم من فهمه الواعى للإسلام ، واتباعه اليقظ للسنة ، واجتهاداته الذكية .. وقد قاده اجتهاده إلى الإفتاء بأن الإسلام يبيح للمرأة حق تولى كل الوظائف العامة بلا استثناء .. حتى القضاء !

ولقد كان فى حرصه على إرضاء أمه . يحملها على دابة ، ويسير بها الأميال ، لتصلى خلف أحد الفقهاء يرى هون نفسه أن أبا حنيفة أفضل منه ، لأن الأم كانت تعتقد بفضل ذلك الفقيه !

وكانت الأم لا ترضى بفتوى ابنها أحيانا ، فتأمره أن يحملها إلى أحد الوعاظ ، فيقودها إليه عن طيب خاطر.. ولقد قال لها الواعظ يوما : « كيف أفيتك ومعك فقيه الكوفة ؟ »

ومع ذلك فقد ظل أبو حنيفة حريصا على إرضائها ، لا يرد لها طلبا ، حتى إذا عذب فى سبيل رأييه ، طلبت منه أمه أن يتفرغ للتجارة وينصرف عن الفقه وقالت له : « ما خير علم يصيبك بهذا الضياع ؟ » فقال لها : « إنهم يريدوننى على الدنيا وأنا أريد الآخرة وإننى أختار عذابهم على عذاب الله . »

ولكم تحمل أبو حنيفة من عذاب !!

كان مخالفوه فى رأى يفرون به السفهاء والمتعصبين والمتهوسين و يدفعونهم إلى اتهامه بالكفر، وإلى التهجم عليه ، فيقابلهم بالابتسام .

ولقد ظل أحد هؤلاء السفهاء يشتمه ، فلم يتوقف الإمام ليرد عليه ، وعندما فرغ من درسه وقام ، ظل السففيه يطارد به بالسباب ، والإمام لا يلتفت إليه ، حتى إذا بلغ داره توقف عند باب الدار قائلا للسفيه : « هذه دارى فأتم كلامك حتى لا يبقى عندك شيء أو يفوتك سباب فأنا أريد أن أدخل دارى » ..!

كان خصوم أبى حنيفة صنفين : بعض الفقهاء ممن وجدوا انصراف الناس عن حلقاتهم إلى حلقة أبى حنيفة ، وحكام ذلك الزمان .

أما أعداء أبى حنيفة من الفقهاء فقد كان على رأسهم ابن أبى ليلى وتابعه شبرمة .

كان أعداؤه فقهاء للدولة فى العصر الأموى ، حتى إذا جاء العصر العباسى تحولوا إلى الحكام الجدد ، واحتالوا عليهم بالنفاق حتى أصبحوا هم أهل الشورى ، يزيتون للحكام الجدد كل ما زينه للحكام السابقين من طغيان وعدوان وبغى واستغلال و بطش بالمعارضين .. واصطنعوا من الآراء الفقهية ، وقبلوا من الأحاديث الضعيفة أو الموضوعية ما يسند الطبقة الحاكمة والمستغلين ، وما يصرف الناس عنهم عن أمور الدنيا ، وعن سياسة حياتهم ، لينقطع الناس إلى التقشف ، و يتركوا مستغليهم يستبدون و يعمهون !

وكان أبو حنيفة يحتفظ باستقلاله أمام الحكام فيحترمه الحكام .. وهويلبس أغلى الفراء فى الشتاء ، ويتحلى طوال العام بثياب فاخرة ، ويتعطر ، ويتنعم بالطيبات من الرزق ، وبزينة الحياة التى أحلها الله لعباده ..

وكان يقاوم كما قاوم أستاذه وصديقه الإمام جعفر الصادق من قبل بدعة تزوين التقشف والانصراف عن هموم الحياة ، وترك الأمر كله لطبقة بعينها تملك وتستغل وتحكم وتستبد !

على أن ميل أبى حنيفة إلى الأئمة من آل البيت أو غر عليه صدور الأمويين والعباسيين على السواء .

ففى العصر الأموى قالوا « أن تكون كافرا أو مشركا خير من أن تكون علويا » ..

وفى العصر العباسى توالى المحن على العلويين ، وأبو حنيفة يفتى بأن العلويين أصحاب حق ..

على أنه مال إلى العباسيين أول الأمر ، وتوسم فيهم الخير ، ولكنه إذ وجد الفقهاء الذين نافقوا الأمويين وزينوا لهم العدوان ، هم الذين يشيرون على الخلفاء العباسيين ، أصابته خيبة الأمل فيهم .. ثم إن العباسيين بطشوا بأبناء عمومتهم العلويين ، فساء رأى أبى حنيفة فى العباسيين .

وأبو حنيفة على الرغم من سماحته لا يسكت عن خطأ الفقهاء من الذين جعلوا كل همهم نفاق الحكام وإرضاءهم .. كان بعضهم يفتى فى المسجد إلى جوار حلقة أبى حنيفة ، فإذا أخطأ انبرى له أبو حنيفة يكشف ذلك الخطأ ، و يعلن الصواب على الناس .

وكان ينتقد أخطاء ابن أبى ليلى نقداً أوغر عليه صدر الرجل .. حتى نقد حكماً فاحش الخطأ فانفجر غضب ابن أبى ليلى .. « وذلك أن امرأة مجنونة قالت لرجل : « يا بن الزانيين » فأقام عليها ابن أبى ليلى الحد فى المسجد ، وجلدها قائمة ، وأقام عليها حدّين حدّاً لقذف الأب وحدّاً لأبويه الأم .

وبلغ ذلك أبا حنيفة فقال : أخطأ ابن أبى ليلى فى عدة مواضع : أقام الحد فى المسجد ولا تقام الحدود فى المساجد . وضربها قائمة والنساء يضربن قعوداً . وضرب لأبيه حداً ولأمه حداً ولو أن رجلاً قذف جماعة كان عليه غير حد واحد ، فلا يجمع بين حدين . والمجنونة ليس عليها حد . وحدّ لأبويه وهما غائبان ولم يحضرا فيدعيان ..

وذهب ابن أبى ليلى إلى الخليفة يشكو أبا حنيفة ، واتهمه بأنه لا يفتأ يهينه ، و يظهره للناس بمظهر الجاهل ، وفى ذلك إهانة للخليفة نفسه لأن ابن أبى ليلى إنما عن الخليفة فى القضاء ويحكم بين الناس .. !

وأصدر الخليفة أمراً بمنع أبى حنيفة من التعليق على أحكام القضاة ، ومنعه من الفتوى .. حتى إذا احتاج الخليفة إلى رأى فى أمر معتد لا يطمئن فيه إلى فتاوى الفقهاء من متلقيه ، أرسل يستفتى أبا حنيفة ، فامتنع عن الفتوى إلا أن يأذن الخليفة له فى أن يفتى للناس جميعاً . فأذن له .

وعاد يفتى ، وعاد ينتقد الأحكام ! .

وأراد الخليفة المنصور أن يكتب عقداً محكماً فلم يسعفه الفقهاء الذين يصانعون ، فلجأ إلى أبى حنيفة فأملى العقد من فوره فأزرى الفقهاء من بطانة الخليفة بما صنعه حسداً من عند أنفسهم . ولكن الخليفة زجرهم ، وصرح بأن أبا حنيفة هو أفقه الجميع ، وإن كان ليكره مواقفه وآراءه .

وعندما وقع خلاف بين الخليفة المنصور وزوجته لأنه أراد أن يتزوج عليها ، أراد أن يحتكما إلى

فقيهه ، فرفضت الزوجة الاحتكام إلى قاضى القضاة ابن أبى ليلى أو إلى تابعه شبرمة أو إلى أحد الفقهاء من بطانة المنصور!

وطلبت أبا حنيفة .

وعندما حضر أبو حنيفة أبدى الخليفة رأيه أن من حقه الزواج لأن الله أحل للمسلم الزواج بأربع ، والتمتع بمن يشاء من الإماء بما ملكت يمينه .

فرد أبو حنيفة : « إنما أحل الله هذا لأهل العدل . فمن لم يعدل فواحدة . قال الله تعالى : (فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة) . فينبغى علينا أن نتأدب بأدب الله ونتعظ بمواعظه .

وضاق الخليفة بفتواه . ولكنه أخذ بها .

وخرج أبو حنيفة إلى داره . فأرسلت له زوجة الخليفة خادما ومعه مال كثير وأحمال من الثياب الفاخرة النادرة ، وجارية حسناء ، وحمار مصرية فاره هدايا لأبى حنيفة .

فقال أبو حنيفة للخادم : « أقرئها سلامى . وقل لها إنى ناضلت عن دينى وقت بذلك المقام لوجه الله . لم أرد بذلك تقربا إلى أحد ولا التمس به دنيا . ورد الجارية الحسناء والثياب والمال والحمار المصرى جميعا .

كان أبو حنيفة لا يقف عند النصوص ، وإنما يبحث فى دلالاتها ، ويحاول أن يواجه بالأحكام ما يقع من أحداث ، وما يتوقع حدوثه من الاقضية والحالات .

الواقع والمتوقع هما ما كان يعنى باستنباط الأحكام لمواجهتها إن لم يجد نصا فى الكتاب أو السنة أو الإجماع

وكان يناظر الفقهاء ببديهة حاضرة يقلب رأى على وجوهه ، ويفترض ، ويستقرئ ويستنبط ، ويحسن الخلوص إلى الغاية ، والخلاص من المأزق ، ويلزم المناظر الحجة .

وهو مع ذلك يقول : « ربما كان ما قلته خطأ كله ، لا الصواب كله » .

ولقد اقتحم عليه الحلقة فى يوم عدد من الخوارج على رأسهم قائدهم وفقههم ، وكان الخوارج يقتلون مخالفيهم . وكانوا يقتلون من أقر على بن أبى طالب على التحكيم . وكان أبو حنيفة يؤيد عليا ويقره على التحكيم . وخبّره شيخ الخوارج بين التوبة أو القتل ، فسأله أبو حنيفة أن يناظره ، فرضى ،

فقال له « فإن اختلفنا ؟ قال الخارجى نحكم بيننا رجلاً .. فضحك أبو حنيفة قائلاً : أنت بهذا تحيز التحكيم . »

فانصرف عنه الخوارج وتركوه سالماً .

وكم من مرة خرج من المأزق بسرعة بديته وسعة حيلته وقوة حجته .. !

ولكنه لم يستطع أن يفلت من مصائد أعدائه من المرتزقة فى بلاط الأمراء ..

كانت صلابته ، واحترام الحكام له ، وإيثارهم إياه على الفقهاء المرتزقة من بطانتهم ، تأثير هؤلاء الفقهاء وتحرك حسدهم .. فأوغروا صدور الحكام حتى أوقعوا به . وحاولوا أن يقتنصوه بفضائله .

إنه لشجاع فى الحق .. وإذن فلينبصوا له شركا من جسارته وتقواه .. !

إن مواقفه فى تأييد آل البيت لتؤجج غضب الحكام عليه .

ثم كانت آراؤه تزيد سخطهم عليه اشتعالا : فقد نادى بالرأى إن لم يكن هناك نص فى الكتاب أو السنة ، واتجه فى استنباط الأحكام إلى إلحاق الأمور غير المنصوص على أحكامها بما نص على حكمه فى حدود ما يحقق مصلحة الأمة ويتسق مع عرف البلد وعاداته ، إن لم تخالف هذه العادات والأعراف روح الشريعة أو نصوصها .

أما عن مواقفه فى تأييد آل البيت فقد أعلن أن العلويين أولى بالحكم من العباسيين ، وجاهر بالانحياز الى العلويين . ولم يكتف هذا الميل قط ، وظل يذيعه بلا تريب !

على أن الموقف ليس جديدا عليه . فقد أيد ثورة الإمام زيد بن على زين العابدين بن الحسين أيام الحكم الأموى . وسمى خروج زيد جهادا فى سبيل الله ، وشبهه بيوم بدر وحاول أن يخرج مع الإمام زيد ، ولكن كانت لديه ودائع للناس أراد أن يسلمها لابن أبى ليلى فرفض . ولم يجد أبو حنيفة إلا ماله يجاهد به فأرسل إلى الإمام زيد مالا كثيرا يديره جيشه ويقويه .

وحين ولى العباسيون أيدهم أول الأمر ، ولكنهم بطشوا بمعارضتهم ، وصادروا حرية الرأى ، ونكّلوا بالعلويين ، ونكّلوا عن العدل الذى بايعهم عليه ، فأعلن عدم رضاه عنهم فى حلقات الدروس .. وكان المنصور قد جمع رؤس العلويين وسجنهم . وصادر أموالهم وأراضيهم ،

ثار العلويون بقيادة محمد النفس الزكية وأخيه إبراهيم بن عبد الله ، فبعث المنصور جيشا ضخما

ليحصل العلويين .

أعلن أبو حنيفة تأييده للثورة ، وبكى مصائر العلويين بعد أن نجح المنصور فى إخماد الثورة والقضاء على قائديها وفتك بأهل المدينة المنورة الذين أيدوا الثورة ..

وكان عبد الله بن الحسن شيخ أبى حنيفة والد محمد النفس الزكية وإبراهيم فى سجن المنصور يعذب حتى الموت ،

وحين مات أعلن أبو حنيفة فى حلقة أن واحدا من أفضل أهل الزمان قد استشهد فى سجنه . وبكاء وأبكى عليه .

وأما آراؤه التى أشعلت سخط الحاكم وحاشيته عليه فهى تلك التى استنبطها بالقياس حتى لقد اتهمه بعض الفقهاء من خصومه بأنه يفضل القياس على الحديث .

وما كان هذا صحيحا فقد رأى أبو حنيفة ظاهرة خطيرة ، فأراد أن ينجو بدنه منها ، وينجى معه الناس : ذلك أنه خلال الصراعين السياسى والاجتماعى ، انتشر وضع الحديث خدعة لهذا الجانب أو ذاك ، وتأييدا لهذه المصلحة أو تلك ، فوقف أبو حنيفة من الحديث موقف أستاذه وصديقه الإمام جعفر الصادق .. تحرى الرواة وصدقهم ، وتحرى معانى الأحاديث ، ورفض منها ما يشك فى صدق روايتها وتقواهم ، أو ما يخالف نصا قرآنيا ، أو سنة مشهورة ، أو مقصدا واضحا من مقاصد الشريعة . وقد فحص الأحاديث الموجودة فى عصره وكانت عشرات الآلاف فلم يصح فى نظره منها إلا نحو سبعة عشر .

وذهب إلى أن القياس الصحيح يحقق مقاصد الشارع ، ويجعل الأحكام أصوب وهو خير من الاعتماد على أحاديث غير صحيحة .. وللقياس ضوابط هى تحقيق المصلحة وهذا هو هدف الشريعة .

لقد كان تخرج أبى حنيفة وذمته وتقواه هى العوامل التى دفعته إلى الحذر فى قبول الأحاديث إذا شك فى صحتها على أى نحو ، وكان عليه إذن أن يجد طريقا آخر لاستنباط الأحكام الجديدة قياسا على أحكام ثابتة فى القرآن الكريم أو السنة الصحيحة أو أقوال الصحابة السابقين من أهل الفتيا كعمر ابن الخطاب وعلى بن أبى طالب وعبد الله بن مسعود .. وكان عبد الله بن مسعود يفضل أن يفتى باجتهاده بدلا من أن يسند إلى الرسول صلى الله عليه وسلم حديثا لا يرى عين اليقين أنه حديث صحيح .

وقد جد فى عصر أبى حنيفة كثير من الحوادث والأقضية والأحوال ، بعد اتساع الدولة وتشابك الأمور ، وظهور ألوان كثيرة خصبة من النشاط التجارى والاجتماعى ، وواجه الإمام هذا كله بالاجتهاد

لاستنباط الأحكام التي تضبط العلاقات

وما كان يبتدع في قياسه كما رماه خصومه ، وما كان يهدر السنة كما حاول ابن أبي ليلى وتابعه شبرمة أن يصوراه كيدا له ، بل كان منهجه هو قياس « المسألة على أخرى ليردها إلى أصل من أصول الكتاب والسنة واتفاق الأئمة .. فيجتهد » . وقد لخص هو منهجه في استنباط الأحكام في وصية لأحد تلاميذه ممن تولوا القضاء .. قال : « إذا أشكل عليك شيء فارحل إلى الكتاب والسنة والإجماع ، فإن وجدت ذلك ظاهرا فاعمل به ، وإن لم تجده ظاهرا فرده إلى النظائر واستشهد عليه بالأصول ، ثم اعمل بما كان إلى الأصول أقرب وبها أشبه » .

وقاده هذا الاجتهاد إلى عديد من الآراء الحرة : الدعوة إلى المساواة بين الرجل والمرأة ، في عصر بدأت المرأة فيه تتحول إلى حريم للمتاع !

فأفتى بأن للبالغة أن تزوج نفسها .. وهي حرة في اختيار زوجها

كما أفتى بعدم جواز الحجر على أحد ، لأن في الحجر إهدار للأدمية وسحقا للإرادة ..

وأفتى بعدم جواز الحجر على أموال المدين ، حتى لو استغرقت الديون كل ثروته . لأن في هذا مصادرة لحرية ..

وفى كل أمر من أمور الحياة تتعرض فيه حرية الإنسان لأي قيد ، أفتى الإمام أبو حنيفة باحترام الحرية وكفالتها ، لأن في ضياع حرية الإنسان أذى لا يعدله أذى ..

لقد أفتى بكل ما ييسر الدين والحياة على الإنسان فذهب إلى أن الشك لا يلغى اليقين ، وضرب لذلك مثلا بأن من توضحا ثم شك في أن حدثا نقض وضوئه ، ظل على وضوئه ، فشكه لا يضيع يقينه .

وأفتى بأنه لا يحق لأحد أن يمنع المالك من التصرف في ملكه .

ولا يحق لأحد أن يحكم على مسلم بالكفر ما ظل على إيمانه بالله ورسوله حتى لو ارتكب المعاصي . ومن كفر مسلما فهو آثم .

وأفتى بأن قراءة الإمام في الصلاة تغني عن قراءة المصلين خلفه ، فتصح صلاتهم دون قراءتهم إكتفاء بقراءة الإمام وحده

ولقد أثار هذا الرأي بعض الناس ، فذهبوا إلى الإمام ليحاوروه في رأيه فقال لهم « لا يمكننى مناظرة الجميع فولوا أعلمكم » فاختاروا واحدا منهم ليتكلم عنهم . وسألهم أبو حنيفة إن كانوا يوافقون على أنه إذا ناظر من اختاروه يكون قد ناظرهم جميعا ، فوافقوا ، فقال لهم أبو حنيفة : « وهكذا نحن اخترنا الإمام فقراءته قراءتنا وهوينوب عنا » فانصرفوا مقتنعين .

ودعا إلى ضرورة العفو عن المخطئ إن لم تثبت عليه أدلة الإدانة ثبوتا قطعيا لا يشوبه الشك أو الظن ، اعتمادا على أن الرسول صلى الله عليه وسلم أمر بדרء الحدود قدر المستطاع .. فالحدود تدرأ بالشبهات « فإن كان للمذنب مخرج أخلى سبيله . وأن يخطئ الإمام فى العفو خير من أن يخطئ فى العقوبة » .

وهو يطالب الناس بأن يسألوا فى العلم بلا حرج ، على أن يُحسنوا السؤال . وكان يقول : « حسن السؤال نصف العلم »

وهو فى اجتهاده يعترف مكانته ، إن كان واثقا بنفسه ، معتزا بكبريائه العلمى على الرغم من تواضعه الشديد .

ولقد سئل : « إذا قلت قولاً وظهر خبر لرسول الله يخالف قولك ؟ قال : « أترك قولى بخبر رسول الله وكل ما صح عن رسول الله فهو على العين والرأس . فقال السائل : فإذا كان قول الصحابى يخالف قولك ؟ » . قال : أترك قولى بقول الصحابى « فقال السائل : « فإذا كان قول التابعى يخالف قولك ؟ . قال أبو حنيفة : « إذا كان التابعى رجلا فأنا رجل » .

ويروى عنه أنه ذهب إلى المدينة المنورة فجادل الإمام مالك بن أنس يوما فى أمور اختلفا عليها وحضر المناظرة الإمام الليث بن سعد إمام مصر وهو الإمام الذى عاش فى عصر الإمام جعفر الصادق وأبى حنيفة والإمام مالك وقال عنه أحد الفقهاء المتأخرين إنه حقا أفقه الناس ولكن المصريين أضاعوه فلم يحفظوا فقهه واستمرت المناظرة طويلا حتى عرق الإمام مالك . وعندما خرج أبو حنيفة قال مالك لصديقه الليث : إنه لفقيه يا مصرى !

قام فقه الإمام أبى حنيفة على احترام حرية الإدارة ذلك أن أفدح ضرر يصيب الإنسان هو تقييد حريته أو مصادرتها .. وكل أحكامه وآرائه قائمة على أن هذه الحرية يجب صيانتها شرعا ، وأن سوء استخدام الحرية أخف ضررا من تقييدها !

فإساءة الفتاة البالغة فى اختيار زوجها أخف ضررا من قهرها على زواج بمن لا تريده . وسوء

استخدام السفينة لماله ، يمكن علاجه بإبطال التصرفات الضارة به ، أما الحجر على حرته فهو إهدار لإنسانيته ، وهو ضرر لا يصلحه شيء !! وعلى أية حال فأذى الحجر أخطر من أذى ضياع المال - فالحجر إيذاء للنفس ، وإهدار للإرادة ، واعتداء على إنسانية الإنسان !!

وأبو حنيفة لا يميز الوقف إلا للمساجد لأن الوقف أو الحبس يقيد حرية المالك في التصرف .. بل إن الإمام إمعانا منه في الدفاع عن الحرية لا يميز للقاضي أن يقيد حرية المالك ، حتى إذا أساء التصرف على نحو يهدد الغير .. وهو يطالب بأن يترك هذا كله للشعور بالتعاون الاجتماعي الذي يجب أن يسود أفراد الأمة .. فيحترم كل منهم حرية الآخرين ، ويمارس حرته بما لا يمس مصالح الغير أو حرته هذا أمر يجب أن يترك للناس فيما بينهم ولا سبيل للحاكم أو القضاء إلى التدخل لتقييد حرية المرء في التصرف مهما يكن من شيء !

ولقد جاءه رجل يشكو جاره لأنه حفر بئرا بجوار جداره مما يؤثر في بيت الشاكي ، فطلب أبو حنيفة من الشاكي أن يحدث جاره ليهدم البئر ، ويحفرها في مكان آخر ، فقال الرجل : « حدثته فامتنع ظالما » . فقال أبو حنيفة : « فاحفر في دارك بالوعة في مقابل بئره » وفعل الرجل ، فاندفع ماء البئر إلى البالوعة ، فاضطر الجار أن يهدم البئر ، ويحفرها في مكان بعيد عن جدار الشاكي .

وهكذا مضى أبو حنيفة يوضح للناس ما في تعاليم الإسلام من احترام للحرية والإرادة ، معتمدا على الكتاب ، والسنة الصحيحة ، والرأي الذي يستنبطه بالقياس ، مراعيًا تحقيق المصلحة ، أو الأعراف التي لا تتعارض مع قواعد الإسلام ومبادئه

وقد أغنت آراؤه في الفقه وجدان الناس ، وأيقظت ضمائرهم ، وحركتهم للدفاع عن حرياتهم في التصرفات ، متمسكين في ممارستهم للحرية بمبادئ الدين وأصوله ..

وكانت هذه الآراء كلها تناقض روح العصر الذي عاش فيه وهو عصر يقوم نظام الحكم فيه على تكفير الخصوم ، وإهدار دمائهم ، وتقييد الحريات ، وإطلاق يد الحاكم ، وتمكين ذوى السطوة من الضعفاء .

من أجل ذلك اتهمه خصومه من الفقهاء أصحاب المناصب بالخروج عن الإسلام ..!

ثم إنه أفتى بتحريم الخروج لقتال المسلمين والفتك بهم .

وهذا صرف بعض قواد الجيش في عصره عن حرب العلويين وخصوم الحكام ومعارضى آرائهم !

ومن ذلك ان الحسن بن قحطبة أحد قواد المنصور دخل على أبي حنيفة يسأله : « أيتوب الله على ؟ »

وكان الحسن هذا قد قاد جيوشا للمنصور فقتل العلويين وخصوم العباسيين فقال له أبو حنيفة: «إذا علم الله تعالى أنك نادم على ما فعلت ، فلو خيرت بين قتل مسلم وقتل نفسك لاخترت ذلك على قتله ، وتجعل مع الله عهدا على ألا تعود لقتل المسلمين ، فإن وفيت فهي توبتك » ، فقال القائد إنى فعلت ذلك وعاهدت الله على ألا أعود إلى قتل مسلم » ثم ثار العلويون فأمر المنصور القائد أن يفتك بهم ، فجاء القائد إلى أبي حنيفة يسأله الرأي فقال له أبو حنيفة « فقد جاء أوان توبتك . إن وفيت بما عاهدت فأنت تائب وإلا أخذت بالأول والآخر » .

فامتنع القائد عن تنفيذ أمر المنصور ، وسلم نفسه إلى العقاب وهو القتل ، إذ دخل على المنصور فقال انه لن يقتل المسلمين بعد ! فغضب الخليفة عليه وأمر بقتله ، حتى استشفع له أخوه قائلا « إننا لننكر عقله منذ سنة ، وأنه قد جن »

وسأل الخليفة عن مخالط القائد المتمرّد فقيل : إنه يتردد على أبي حنيفة !

وأسرّها الخليفة لأبي حنيفة .

على أن خصوم أبي حنيفة انتهزوا الفرصة فأوغروا صدر الخليفة وأوحوا إليه أن يقضى على أبي حنيفة واتهموه بإثارة الفتنة ، وتشبيط قواد الجيش ، وتآليب العامة على ولى الأمر ، وتكوين حلقة من الفقهاء كلهم يدعو إلى الثورة على الخليفة .

وكان من هؤلاء الخصوم فقيه للناس بأن تلاميذ أبي حنيفة خارجون على ولى الأمر ومرتدون عن الإسلام فأن يقال إن بالحى تحمّاراً خير من أن يقال إن فيه أحدا من أصحاب أبي حنيفة ..

وكان منهم فقيه آخر عرف وهو فى الحج أن أحد أصحاب أبي حنيفة سيصلى بالناس فلم يستطع كظم غيظه وصاح : « الآن يطيب لى الموت » .. !

ورفض أبو حنيفة أن يقبل المناصب .. عرض عليه الأمويون منصب القاضى ، فرفضه فسجنوه وعذبوه فى السجن .. وظلوا يضربونه كل يوم بالسياط حتى ورم رأسه .. ومع ذلك فلم يقبل المنصب .. لأنه كان يرى أن تحمل المسؤولية فى عهد يعتبر هو حاكميه ظالمين مغتصبين ، إنما هو مشاركة فى الظلم وإقرار للاغتصاب ..

وفى السجن تذكر أمه الحزينة فبكى .. وسأله جاره فى السجن عما يبكيه وهو الفقيه الجليل الصلب ، فقال من خلال دموعه : « والله ما أوجعتنى السياط . بل تذكرت أمى فألمتنى دموعها . »

وساءت صحته فى السجن . وبدأت الثورة تتجمع ضد الخليفة الأموى احتجاجا على ما يحدث لأبى حنيفة فأطلق سراحه

ولم يعد له مقام فى الكوفة التى شهدت عذابه .. فترك مسقط رأسه ، ومرح شبابه ، بكل ما فيها من ذكريات عزيزة وآمال عذبة ، وأقام بالحجاز حتى سقطت الدولة الأموية ، فعاد إلى موطنه !

ولكن العباسيين لم يتركوه .. فنذ شعربخية الأمل فيهم لبغيتهم واضطهادهم للعلويين ، واصطناعهم المرتزة من الفقهاء ، بدأ يبهر برأيه فى استبدادهم وطغيانهم .

ورفض كل هداياهم ، كما رفض هدايا الأمويين من قبل .

وعرضوا عليه منصب قاضى القضاء فأبى .. وتمسك بالتفرغ للعلم

قالوا له أنه قد حصل من العلم ما يجعله فى غنى عنه فرد : « من ظن أنه يستغنى عن العلم قلبيك على نفسه .

بعد أن فرغ من بناء بغداد ، وأقام فيها معتزا بها ، حرص على أن يجعل أكبر فقهاء العراق قاضى القضاة فيها . وكان أبو حنيفة قد أصبح أكبر الفقهاء بالعراق حتى سماه أتباعه ومريدوه : الإمام الأعظم . ولكن الإمام صمم على الرفض .

كان يعرف ما ينتظره .. فابن أبى ليلى لا يكف عن الكيد له ، وهو لا يغفل لأبى حنيفة ما يوجهه من نقد لاذع لأحكامه .

وقد ضم ابن أبى ليلى إليه حاجب الخليفة ووزيره الأول ، وكان أبو حنيفة قد أخرجته وكشف أكاذيبه أمام الخليفة فى معامرة حاول فيها الوزير الأول أن يوقع بالإمام ففضحه الإمام وأفسد حيلته .

وقد أفتى أبو حنيفة بأن الوزير لا تصح شهادته لأنه يقول للخليفة أنا عبدك « فإن صدق فهو عبد ولا شهادة له . وإن كذب فلا شهادة لكاذب » !!

وقد أخذ أحد تلاميذ أبى حنيفة بهذا النظر فيما بعد حين ولى القضاء فرد شهادة الوزير الأول للخليفة آخر ، لأنه قبل الأرض بين يدي الخليفة قائلا له : أنا عبدك !

اتسعت الفتوحات حتى أصبح البحر الابيض المتوسط بحيرة إسلامية ، وحتى ارتفعت الراية الإسلامية فوق شرق أوروبا وجنوبها والأندلس ، وكل بلاد العالم التى عرفها إنسان ذلك العصر ..

وعلى الرغم من ازدهار الحضارة ، فقد شغل رجال الحاشية بالكيد لأبى حنيفة يظاهروهم بعض الفقهاء أصحاب المناصب وأهل الخطوة عند الخليفة .

وأخذ الوزير الأول يكيد عند الخليفة لأبى حنيفة . وانتهاز فرصة خروج أهل الموصل على الخليفة ، وكانوا قد شرطوا على أنفسهم إن هم خرجوا على الخليفة أن تباح دماؤهم وأموالهم . وأرسل الخليفة إلى ابن شبرمة وابن أبى ليلى ليسألها رأى الدين فى أهل الموصل ، وكان قد أعد جيشا للفتك بهم . واقترح الوزير الأول على الخليفة أن يدعو أبا حنيفة وكان يعرف أن تقواه وشجاعته وكل فضائله ستقوده إلى مخالفة رأى الخليفة . وحضر الفقهاء الثلاثة فسألهم عن حكم الشرع فى أهل الموصل . وسكت أبو حنيفة وأفتى الآخرون بأن أهل الموصل يستحقون الفتك بهم !..

وأفتى أبو حنيفة بأن الخليفة لا يحق له الفتك بأهل الموصل ، لأنهم بإباحتهم أرواحهم وأموالهم إنما أباحوا ما لا يملكون .

وسأل : « لو أن امرأة أباحت نفسها بغير عقد زواج أتحد لمن وهبته نفسها ؟ فقال له الخليفة « لا » .. فطلب الإمام أبو حنيفة منه أن يكف عن أهل الموصل فدمهم حرام عليه ، وأن يوجه الجيش إلى حاية الثغور ، أو إلى فتح جديد لنشر الإسلام ، بدلا من أن يضرب به المسلمين .

وضاق به الخليفة وأمره أن ينصرف .. ومن حول الخليفة أعداء الإمام يستفزون للبطش به وفى مقدمتهم ابن أبى ليلى قاضى القضاة وتابعه شبرمة

ومضى أبو حنيفة إلى داره وهو يقول لصحبه : « إن ابن أبى ليلى ليستحل منى مالا أستحله من حيوان ! »

وفى الحق أن ابن أبى ليلى وشبرمة والعصبة المعادية لأبى حنيفة فى قصر الخليفة زينت للخليفة أن يقهر أبا حنيفة على قبول ما يعرضه عليه من مناصب ، فإذا أبى فقد امتنع عن أداء واجب شرعى فحق عليه العقاب ، ووجب أن يشهر به فى الأمة ، لأنه يتخلى عن خدمتها !.

واقترحوا على الخليفة أن يبدأ فيمتحن ولاه ، فيرسل إليه هدية

وكانوا يعرفون سلفا أن الإمام أبا حنيفة لن يقبل الهدية !..

وأرسل له الخليفة مالا كثيرا وجارية .. فرد الهدية شاكرا ..

ثم أرسل الخليفة إليه يلح عليه فى ولاية القضاء أو فى أن يكون مفتيا للدولة يرجع إليه القضاء فيما يصعب عليهم القضاء فيه .. بما أنه يكثر من لوم القضاء على أحكامهم ، ويكشف للعامة جهل شيخهم

ابن أبى ليلى وتابعه شبرمة !

ورفض أبو حنيفة .. فاستدعاه الخليفة يسأله عن سبب رفضه فقال له : « والله ما أنا بأمون الرضا فكيف أكون مأمون الغضب ؟ ولو اتجه الحكم عليك ثم هددتنى أن تغرقنى فى الفرات أو الحكم عليك لاخترت أن أغرق . ثم إن تلك حاشية يحتاجون إلى من يكرمهم لك ، فلا أصلح لذلك . »

وكانت الحاشية كلها تحيط بالخليفة ، وعلى رأسها وزيره الأول والفقيهان ابن أبى ليلى وابن شبرمة ، فأبدوا التمرور بان عليهم استنكار ما يقوله الإمام أبو حنيفة ، فقال الخليفة محنقا : « كذبت » .

فقال أبو حنيفة فى هدوء قد حكمت على نفسك . كيف يحل لك أن تولى قاضيا على أمانتك وهو كاذب ؟!

وبعد قليل سأله الخليفة عن سبب رفض هداياه .. فقال له أبو حنيفة أنها من بيت مال المسلمين ولا حق فى بيت المال إلا للمقاتلين أو الفقراء أو العاملين فى الدولة بأجر وهو ليس واحدا من هؤلاء ! فأمر الخليفة بحبسه . وبضربه بالسياط حتى يقبل منصب قاضى قضاة بغداد .

وها هو شيخ فى السبعين أثقلته المعارك والدسائس والهموم ، ومكابدة الفقه والعلم والتحرر .. ها هو ذا يضرب ، ويظل يضرب بالسياط فى قبوسجن مظلّم ، ورسل الخليفة يعرضون عليه هدايا الخليفة ، ومنصب القضاء والإفتاء .. وهو يرفض .. فيعاد إلى السجن ليعذب من جديد .. ويكررون العرض ، وهو يكرر الرفض داعيا الله : « اللهم أبعد عني شرهم بقدرتك » .

وظل فى سجنه يعرضون عليه الجاه والمنصب والمال فيأبى .. ويعذب من جديد !

وتدهورت صحته ، وأشرف على الهلاك .

وخشى معذوبه أن يخرج فيروى للناس ما قاسى فى السجن ، فيثور الناس !

وقرروا أن يتخلصوا منه فدسوا له السم ،

وأخرجوه وهو يعانى سكرات الموت ، وما عاد يستطيع أن يروى لأحد شيئا بعد !!

وحين شعر بأنها النهاية أوصى بأن يدفن فى أرض طيبة لم يفتصبها الخليفة أو أحد رجاله . وهكذا مات فارس الرأى الذى عرف فى السنوات الأخيرة من حياته باسم الإمام الأعظم .

وشيعه خمسون ألفا من أهل العراق واضطر الخليفة أن يصلى على الإمام الذى استقر الى الأبد فى ركن هادئ من الدنيا لم يشبهه غضب ، والخليفة يههم : « من يعذرني من أبى حنيفة حيا وميتا ؟ » .

وهكذا مضى بطل الفكر الشجاع شهيدا لحرية الرأي فى محنة من العذاب لم يعرفها أحد من
الفقهاء من بعده حتى كانت محنة الإمام أحمد بن حنبل إمام أهل السنة .. فى عصر زرى كذلك
العصر .. عصر تحككه الدسائس والسموم وسياط الجلادين ، على الرغم من روعة الفتوحات
العسكرية ، وانتصارات العقل الإنسانى ، ويطش فيه المزيفون برهبان الحرية وفرسان الفكر ..

وتنظل المنارات الشاعمة فيه مضيئة على الرغم من كل شيء ، تقدم للإنسانية جيلا بعد جيل عطاء
خالدا من شعاع المعرفة ، والقوة ، وجسارة الكلمة الصادقة الأبية الفاضلة .. !

مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ
عاشق المدينة.. وإمام الحرمين

اجتمعت الاسرة الصغيرة ذات مساء ، كما تعودت بعد كل صلاة عشاء ، تتذاكر أمور الحياة والدين ، فيحكى الأب عما صادفه وجه النهار فى متجره الصغير الذى يبيع فيه الحرير،وعما عرض له خلال البيع والشراء من واقعات ، ويشرح لأولاده ولأم البنين ما حفظه عن أبيه عن جده الصحابى من أحاديث وآثار، ويأخذ الأسرة باستيعاب ما يقول .

وفى تلك الليلة ألقى الأب سؤالاً فى الدين على أفراد أسرته فأحسنوا الإجابة الا ولده الاصغر مالكا ..

كان فى نحو العاشرة ، قد حفظ القرآن وبعض الأحاديث ، وامتلأت آفاقه بنور الكلمات ، ولكن عقله لم يكن قد استطاع أن يعى ما فيها .. وكان مالك لنضارة سنه يجب أن يرتع ويلعب .

وغضب أنس على ولده الصغير مالك لأنه أخطأ فى الإجابة على سؤال فى الدين ، ونهره لأنه مشغول باللعب مع الحمام ، وهذا يلهيه عن العلم ! .

وبكى الصبى كما لم يبك من قبل ، وفزع إلى أحضان أمه يسألها الحماية والنصيحة ، ويستعينها على ما هوفيه .

ونشطت أمه من غدها بعد صلاة الفجر فأدخلته الحمام ، وطيبته وألبسته أحسن ثياب وعممته ، ودفعت به إلى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلتقى العلم ، واختارت له حلقة « ربيعة » من بين سبعين حلقة تلتف حول أعمدة المسجد النبوى يقوم عليها سبعون من أساطين العلم .. « ربيعة » هو حينذاك أكبر فقيه يجتهد رأيه ليستنبط الحكم عندما لا يجده فى نص قطعى الدلالة .. وهو أكثر العلماء دعوة إلى الاجتهاد والأخذ بالرأى من أجل ذلك سمي ربيعة الرأى .

و يتعود الصبى بعد ذلك طيلة حياته أن يستحم و يتطيب و يلبس خير ثيابه كلما جلس يتعلم أو ليعلم ؛

ولكم عجب رواد المسجد لذلك الصبى الأشقر يفوح منه الطيب فى عمامة الشيوخ وهو يسك بلوح يكتب فيه كل ما يقوله « ربيعة » و يشرب بعينه وأذنيه مسائل صعبة من اجتهد ربيعة الذى لم يكن يروى أحاديث يمكن أن تحفظ ، بل يلقى بفتاوى واستنباطات يحتاج فهمها إلى عقل ناضج ، ورأس كبير جدير بالعمامة التى يحملها .

ومنذ ذلك اليوم من أوائل القرن الثانى للهجرة أخذ مالك نفسه بالمشقة فى طلب العلم ..

نصحته أمه أن يذهب إلى المسجد النبوى ، فيجلس إلى « ربيعة » ليأخذ من علمه قبل أده .. وكان ربيعة مشهوراً فى المدينة بفقته الرأى .. ولكن الصبى لم يمكف على ربيعة وحده ، فقد بهر ما فى الحلقات الأخرى من فنون المعارف .. فتنتقل بين حلقات الفقهاء .. يحفظ القرآن و يصغ إلى تفسيره فى هذه الحلقة أو تلك .. ثم ينتقل إلى حلقات أخرى فيحفظ منها الأحاديث النبوية و يستوعب تأويل الأحاديث . و يتلقى فتاوى الصحابة من شيخ ، والرد على ما يثار من أفكار وآراء فى العقائد من شيخ آخر .. ثم يعود إلى ربيعة أو غيره من الشيوخ الذى يجد لديهم علماً أغزر .

كان يحمل معه حشيه تقيه برد المسجد إذا كان الشتاء ، وما كان يكتفى بما يتعلم فى المسجد بل يلتبس الشيوخ دورهم يستزيد من علمهم و يصبر على ما فى بعضهم من حدة .. ولقد ينتظر أحد الشيوخ فى الطريق ساعات ما يجد فيها شجرة تقيه الهاجرة حتى إذا رأى الشيخ يعود إلى داره انتظر لحظة ثم قرع عليه بابه . ولقد يملأ أكمامه بالتمريده لجارية أحد الفقهاء لتكنه من الخلوص الى المعلم المنشود .

وكان مالك إذا جلس ليستمع للأحاديث وهو صبى يحمل معه خيطاً فيعقد مع كل حديث عقدة .. حتى إذا كان آخر النهار ، أعاد على نفسه الأحاديث وعد العقد ، فإن وجد نفسه قد نسى شيئاً قرع باب شيخه الذى سمع منه الأحاديث فيحفظ منه ما نسى .

انقطع مالك لطلب العلم ، ومات عائلته وشب الفتى وأصبح عليه أن يعول نفسه وزوجته وبنته .. وكانت به تجارة بأربعمائة دينار ورثها عن أبيه ، ولكنه كان مشغولاً عنها بطلب العلم فكسدت تجارتها ، واضطر إلى أن يبيع خشباً من سقف بيته ليعيش هو وأسرته بثمنه ، وكان الجوع يعضه و بعض زوجته وابنته فتصرخ الطفلة من الجوع طيلة ليلها . فيدير أبوها الرحى ولا يسمع الجيران صراخها ..

ولما قد بلغ أوج شبابه ، وجد نفسه عاجزاً عن توفير ما يكفى أهل بيته إلا أن يضحي بطلب العلم ..

فانفجرت أول صرخاته اجتهداه وناشد الحاكمين أن يكتفوا أهل العلم من التفرغ للعلم ، وأن يجروا عليهم رواتب تكفل لهم الحياة الكريمة ..

غير أن أحدا لم يلتفت إليه ، فقد كانت الدولة الأموية التي عاش شبابه في ظلها مشغولة بتثبيت أركانها ، وبتألف قلوب شيوخ أهل العلم دون شبابهم .

والتقى به في تلك الفترة طالب علم شاب من أهل مصر هو الليث بن سعد .. كان قد ألف أن يحج ما بين عام وعام ويزور المدينة ويجلس إلى حلقات الفقهاء في الحرم النبوي ، وقد أعجب كل واحد منها بذكاء صاحبه ونشأت بينها علاقة احترام متبادل ، وألقى الله في قلبها مودة ورحمة ... ولاحظ الليث بن سعد أن صديقه - على الرغم من أناقة ثيابه ونظافته ، وعلى الرغم من رائحة المسك والطيب التي تسبقه فقير جهد الفقر ، وإن كان ليدارى فقره تعففا وإباء ! ..

وكان الليث واسع الغنى ، ففتح صاحبه مالا كثيرا وأقسم عليه أن يقبله .

وعاد الليث إلى وطنه مصر وظل بها يصل صاحبه مالك بن أنس بالهدايا بالمال ، حتى أصلح الله حال مالك ووجد من الخلفاء من يستجيب إلى ندائه المتصل أن تجرى الرواتب على أهل العلم .

ولقد سئل مالك عن عدم السعى في طلب الرزق والانقطاع إلى العلم فقال :
« لا يبلغ أحد ما يريد من هذا العلم حتى يضربه الفقر ويؤثره على كل حال . ومن طلب هذا الأمر صبر عليه » .

وفي الحق أنه ظل طالب علم بعد أن أصبح فقيها كبيرا يسعى إليه الناس من كل أقطار الأرض وإلى أن توفي سنة ١٧٩هـ وهو في نحو السادسة والثمانين

ولقد ظل يعلم الناس ، عندما جلس للعلم ، أن يتخرجوا في الفتيا وفي إبداء آرائهم ، فإذا كان الفقيه غير مثبت مما يقول فعليه في شجاعة أن يعترف بأنه لا يدري . ذلك أن الفتيا لون من البلاء لأهل العلم .

فمن حسب نفسه قد أوتي العلم كله ، فهو الجاهل حقا .. وشر الناس مكانا هو من يضع نفسه في مكان ليس أهلا له . وإن رأى الناس غير ذلك ، فصاحب العلم أدري بنفسه ، وللرأى أمانته .

ويحكى أن رجلا جاءه من أقصى الغرب موفدا من أحد فقهاءها ، ليسأل مالك بن أنس عن مسألة .. فقال مالك : « أخبر الذي أرسلك ألا أعلم لى بها » فأخبره الرجل أنه جاء من مسيرة ستة أشهر ليسأل عن هذه المسألة . فقال مالك : « ما أدري وما ابتلينا بهذه المسألة في بلدنا وما سمعنا

أحدا من أشياخنا تكلم فيها ولكن تعود غدا» . وظل مالك يفكر فى المسألة و يقرأ ما يمكن أن يتصل بها حتى إذا كان الغد جاءه الرجل فقال له مالك : «سألتنى وما أدرى ماهى» فقال الرجل « ليس على وجه الارض أعلم منك وما جئتك من مسيرة أشهر إلا لذلك » فقال مالك : لأحسن .

هذه الأناة والتحرج كان مالك يعالج الفتيا .

ولقد عاش، فى المدينة المنورة طيلة حياته منذ ولد فيها نحو سنة ٩٣ هـ إلى أن توى تحت ثراها آخر الدهر. لم يبرحها قط إلا لحج أو عمرة ..

كان مالك يجد فى المدينة ريح النبوة، ونفحات علوية من أنفاس الرسول حتى لكأنه يستنشق كل خفقه من أنسام مدينة الرسول جلال الأيام الباهرة الخالية : أيام النور والوحى والبطولات والفرقان .

ومازال أهل المدينة يصغون كما كانوا يصغون فى زمن رسول الله « صلى الله عليه وسلم » والصحابة الأوائل .. إنهم ليتوارثون سنته الشريفة فى القول والعمل الآباء عن الاجداد .. آلافا عن آلاف حتى لقد صح عنده أن عمل أهل المدينة فى عصره سنة مؤكدة ، وأنه أولى بالاعتبار عند الفتيات والقضاء من أحاديث الآحاد ..

إنه لعاشق لمدينة رسول الله كما لم يعشق أحد مدينة من قبل ولا من بعد ، يكاد يحمل لها من التعظيم ما يحمله للرسول « صلى الله عليه وسلم » نفسه ولصحابه . حكى الشافعى أنه رأى على باب مالك هدايا من خيل خراسانية وبغال مصرية فقال الشافعى « ما أحسن هذه الأفراس والبغال » فقال مالك : « هى لك فخذها جميعا » قال الشافعى : « ألا تبقى لك منها دابة تركبها ؟ » قال مالك : « إنى لأستحى من الله تعالى أن أطأ تربة فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم بحافردابة » .

وفى الحق أن الحياة فى المدينة كانت تناسب طبيعة مالك .. فقد ظلت المدينة بعيدا عن مضطربة التيارات الفكرية التى تصطبغ غيرها من مدائن المسلمين ، فهى تعيش على السنن المتوارثة وتناهى بنفسها عن صراع العقائد ، والجدل الفلسفى ، وكلام الباحثين فيما وراء الغيب ، وكل ما انتجته ترجمة الفلسفات اليونانية والهندية والفارسية إنها حقا قرية مؤمنة ورب غفور .. ومالك بن أنس رجل يحب الدعة وينشد السكينة ، ويعكف على الدرس المطمئن . وهويكره الجدل واللجاج والصخب والمناظرة ، والكلام فيما لا ينفع الناس فى حياة كل يوم .

وكان يقول لمن سافر لمن يريدون الجدل فى العقائد « تجادلوا .. وكلما جاء رجل أجدل من

رجل تركنا مانزل به جبريل ، وغير الإنسان دينه » .

وكان مالك لا يحب أن يخوض غمرات الصراع السياسى .. وكانت المدينة بالقياس إلى غيرها من بلاد المسلمين أكثرهم بعدا عن الثورات والفتن ومناهضة الحكام .

ولقد بلغ نفوره من الجدل حدا جعله يصد عنه هارون الرشيد عندما لقيه فى المدينة وطلب منه أن يناظر أبا يوسف صاحب أبى حنيفة .

فقال مالك مغضبا : « إن العلم ليس كالتحريش بين البهائم والديكة » ..

كان مالك يعتقد أن الجدل فى الدين مفسدة للدين . وقال : « إن الجدل يبعد المتجادلين عن حقيقة الدين . إن المراء والجدل فى الدين يذهبان بنور العلم من قلب المؤمن » « وسئل » « رجل له علم بالسنة ألا يجادل عنها ؟ فقال » « يخبر بالسنة فان قبل منه ، والا سكت . »

على أن الافكار الجديدة اقتحمت على مالك وأهل المدينة حياتهم ، وفرضت عليهم النظر فيها ، فقد كان أصحابها يذهبون إلى الحجاز للحج والعمرة وللزيارة .. وكان على مالك وأهل العلماء فى المدينة ان يناظروا فيما هو مطروح من أفكار وكلام . صفات الله . كيف يرى يوم القيامة وخلق القرآن .. والقدر والجبر والاختيار . وفرضت القضايا نفسها على فقهاء الحجاز ... أما مالك فقال : « الكلام فى الدين أكرهه وأنهى عنه ولم يزل أهل بلدنا (المدينة) يكرهونه وينهون عنه .. نحو الكلام فى القدر والجبر ونحو ذلك ولا أحب الكلام الا فيما تحته عمل . » « وما تحته عمل من الدين هو ما يفيد الناس فى دنياهم وآخرتهم .. هو الفقه الذى يحكم أعمال الناس ويرد الفروع إلى الأصول . أما العقائد فقد نهى عن الجدل فيها وقد فسر مالك كل آية تتحدث عن العداوة — والبغضاء التى تقع بين عباد الله ، بأنها الخصومات للجدل فى الدين .

وكان مالك يتساءل عن جدوى هذه الأفكار المبتدعة عن ذات الله وصفاته والجبر والاختيار؟ وخلق القرآن ؟

وما عساها تحقق من مصالح أو تدفع من مضار؟

إنه لأولى بأهل العلم أن يشتغلوا بالحكمة ... والحكمة التى جاءت كثيرا فى القرآن هى — فى رأى مالك — فى دين الله والعمل به ..

ولقد أطلق مالك على أصحاب الكلام فى العقائد والجبر ونحو ذلك من أصحاب بدع وقال عنهم إنه

ما عرف أشد منهم سخفاً ولا حقاً .. فما جدوى الكلام فيما يتكلمون فيه ؟ ماذا يحقق جدل كهذا من مصالح للعباد ؟ ..

إن المعتقادات يجب ألا تكون موضع كلام وعلى المسلم العاقل أن يسلم بها تسليماً مطلقاً ، وإن يجعل همه إلى ما وراء ذلك مما ينفع الناس ، ويكث في الأرض يدفع عنهم الضرر والمفاسد ، ويضبط لهم علاقاتهم وحياتهم ومعاشهم بما يستنبط به من أحكام الشريعة

فليسأل أهل العلم أنفسهم ما هو مقصد الشريعة الإسلامية وما هدفها ؟ وليتقوا الله حق تقاته وهم يجيبون على هذه المسألة ... أهو في الشريعة الإسلامية أن يتخاصم الناس و يتمارون حول القدر وخلق القرآن ورؤية الله والجبر والاختيار ؟ ... وهذا تنصرف العقول عن التفكير فيما ينفع الناس ؟ .. لا بل إن هدف الشريعة هو إقامة العمران في هذا العالم وتحقيق مصالح العباد في الدنيا والآخرة ..

من أجل ذلك فقد وجب على العلماء والفقهاء أن يبصروا الناس بما يحقق المصلحة و يقيم عمارة العالم . وبما يدرك عنهم المفاسد وبما يضبط أمورهم على أركان ركنية من العدل والتقوى وصلاح الأمور .

والأحكام التي تحقق مقاصد الشريعة منصوص عليها في القرآن والحديث ، ويجب التعرف عليها بكل طرائق الفهم والتفسير ، وتدبر ما وضع وما خفى من دلالات النصوص ، فإن لم يسعف النص في مواجهة ما يستجد من أحداث ، فليُنظر الفقيه في إجماع الصحابة ليستخلص الحكم ، ففي إجماع الصحابة حجة كالسنة المؤكدة ، فإن لم يجد الفقيه ما يشفى فليُنظر في عمل أهل المدينة لأنهم تلقوه آلافاً عن آلاف عن الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته .. فإن كان ما استجد من قضايا لاحقاً له عند أهل المدينة فليُقاس الفقيه ليطبق على القضية الجديدة حكم قضية سابقة وأورد به نص إن توفرت العلة في القضيتين فإن تعارض هذا القياس مع مصلحة فليُفضل الحكم الذي يحقق المصلحة استحساناً له .. فهو الأحسن . وإن لم يسعفه القياس فليُنظر في عرف الناس وعاداتهم إن لم يكن مخالفاً لما أحله .. فإن لم يجد فليُنظر أين المصلحة .. وليجعل تحقيق المصلحة هو مناط الحكم .

على أن مالك بن أنس لم يوفق إلى هذه الأفكار و يدلى إلا بعد أن أصبح صاحب حلقة يدرس فيها ..

فها هو ذا مالك بن أنس تجرئ به السنون لتعدو الأربعين ، وقد يلزم الفقهاء نحو ثلاثين عاماً ، فتلقى عنهم الأحاديث النبوية ، وعصها وحقق إسنادها وتدارس معهم ما ينبغي لاستنباط الأحكام التي تواجه قضايا لم تعرض من قبل ، وتعلم منهم الكتاب والحكمة ، وتفكر في خلق السموات والأرض وأحوال العباد ، وتدارس معاملات الناس ، فتكون له رأى خاص ، واستقل بنظره في كل أمور الدنيا

والآخرة اتبع فى بعضه السنة وأفكار السلف الصالح وعمل أهل المدينة وأعرافها وعاداتها .

واستنبط الأحكام فى بعضه الآخر بما يحقق المنفعة ويدرأ المفسدة .

جاء الوقت الذى ينبغى له فيه أن يجلس إلى أحد أعمدة الحرم النبوى ، ويجعل له حلقة خاصة يفتى فيها للناس و يعلمهم مما علم رشدا و يطرح عليهم ماتكون له من فقهه وما استقر عنده من تأويل الأحاديث .

وكان مالك قبل أن يجلس ليعلم الناس و يفتيهم ، قد اختلف مع استاذه ربيعة ، فرأى مالك أن يستقل بحلقة ، اقترحها عليه مشايعوه ، غير أنه لم يفعلها من فوره بل طلب على سبعين من أصحاب الحلقات والشيوخ فى المسجد النبوى ، يعرض عليهم فقهه ، و يستأذنهم فى أن يجلس ليعلم الناس .

وأجازه له أساتذته لم يختلف على إجازته أحد ، اختار المكان الذى كان يجلس فيه عمر بن الخطاب ليستروح منه جلال الأيام الرائعة الماضية ، حين كان كل الصحابة يعيشون فى المدينة المنورة .. أمسكهم فيها عمر لا يرحونها إلا بإذنه ، لكى يعلموا الناس ، ولكى يستشيرهم إذا احتاج الامر ، ولكى لا يفتن بهم أهل الاقطار الأخرى من حديثى العهد بالإسلام .

وكان أنس بن مالك من قبل قد اختار سكنا له دار الصحابى عبد الله بن مسعود ، ليخفق منه القلب بنبضات عصر النبوة .. ذلك العصر المضى بنور الإيمان والمعرفة والشوق المقدس العظيم إلى صياغة عالم جديد من الطهارة والإخاء والنبل والعدالة والحرية والسكينة والنعم ..

ولقد أثنى مالك بن أنس داره بأجل أثاث ، وزينها بأحسن زينة وملاً أجواءها بعرف البخور المعطر . ذلك أن الحياة أقبلت عليه .. فنال راتبا كبيرا من بيت المال ، ثم توالى عليه هدايا الخلفاء فقد اقتنع الخلفاء برأيه فى أن أهل العلم يجب ألا يشغلوا عنه بالسعى فى طلب الرزق ، بل يجب أن يكون لهم نصيب من بيت المال ، فينالوا منه رواتب منتظمة كبيرة ، كما ينال قواد الجيش الذين يقومون على حماية الأمة وسد الثغور ... فنشر العلم سد للثغور الروحية أمام الجهل ، والتوفير على نشر العلم جهاد . وإذن فينبغى أن يكون لكل من العالم وطالب العلم جزاء المجاهدين كل بقدر ما يكفيه .

إن العلماء ليحمون أرواح الناس وعقولهم من الضلال ، فن واجب ولى الأمر أن يوفر لهم من المال ما يكفل لهم الحياة الكريمة والمظهر اللائق الحسن كخير ما ينعم به الولاة والأمراء وحماة الثغور .

على أنه كان يغدق من راتبه ومما يتلقى من هدايا على الفقراء من طلاب العلم يعطيهم ما تيسر من المال و يطعمهم أشهى طعام .. وكان حفيا بما كله يختار الأطايب من كل صنف وكان مولعا بالفاكهة وخاصة الموز ويقول عنه : « لاشيء أكثر شها بثمرات أهل الجنة منه ، لا تطلبه فى شتاء ولا صيف إلا

وجدته .. قال تعالى « أكلها دائم وظلها » .

وكان يحض تلاميذه على الاهتمام بحسن التغذية ، فالغذاء الجيد يبني الجسم السليم ..
والعقل السليم فى الجسم السليم . ومكابد العلم تحتاج إلى عقول نشطة تصونها أجساد قوية ..

وهكذا عاش منذ بدأ يجلس للإفتاء والتدريس : جسد قوى ، وعقل نفاذ .. طعام حسن
ومسكن جيد وثياب أنيقة بيضاء من خير ما تنتجه مصر وخراسان وعدن .

وألّف الناس كلما دخلوا المسجد النبوى بعد صلاة الفجر أن يجدوا رجلا مهيبا طويلا فارعا أشقر ،
أبيض الوجه ، واسع العينين ، أشم الأنف ، كبير اللحية ، مفتول الشارب ، يتخذ مكانه فى هدوء ،
ويتحدث فى صوت عميق صادق مستندا إلى عمود ومن حوله حلقة من تلاميذه ، كأن على رؤوسهم
الطير . فإذا دخل غريب وألقى السلام لم يرد عليه أحد إلا همسا .. فإذا سأل ما هذا ؟ قيل له فى صوت
خفيض إنه الإمام مالك بن أنس .

فقد كان يفيض إذا تكلم ، وينفذ بصدقه إلى القلوب .. ولم يكن جهر الصوت ، فكان تلاميذه
يكادون يمسكون بأنفاسهم لكيلا يفوتهم حرف مما يقول .

وكان قد خصص أياما لشرح الأحاديث النبوية الشريفة ، وأياما للمسائل والفتيا .. فإذا سأل
أحد فى أمر لم يقع ولكنه متوقع ، قال له : « سل عما يكون ودع ما لا يكون » .

ذلك أنه كان يرى أن كثرة الفروض مفسدة ، وفيما يقع من الحوادث والقضايا الجديدة
ما يكفى وما يغنى عما هو متوقع ..

وعندما تقدمت به السن ، عقد حلقات الدرس فى بيته الواسعة ذات الأثاث الفاخر .

ترك مجاملة الناس التى اشتهر بها « وترك حضور الجنازات ، فكان يأتى أصحابها فيعزهم ، ثم
ترك ذلك كله ، فلم يكن يشهد الصلوات فى المسجد ولا الجمعة » وكان إذا عوتب فى ذلك
قال : « ليس كل الناس يقدر أن يتكلم بعذره » .

ذلك أنه لم يقض لأحد بسر مرضه الذى أقعده عن المسجد والناس إلا فراش الموت وكان مرضه هو
سلس البول . وعندما اشتد عليه المرض بعد أن جاوز الثمانين كره أن يخرج من داره .

وكان له فى بيته مجلسان فى السنوات الثماني الأخيرة من حياته : فقال أحد تلاميذه : « إنه كان
عندما انتقل درسه إلى بيته ، إذا أتاه الناس تخرج لهم الجارية فتقول لهم : يقول لكم الشيخ أثر يدون
الحديث أم المسائل ؟ فإن قالوا المسائل خرج إليهم فأقّتهم ، وإن قالوا الحديث قال لهم اجلسوا ، ودخل

مفسله فاغتسل وتطيب ، ولبس ثيابا جددا ، ولبس ساجه (وهى غطاء للرأس كالتاج) وتعمم ، فتلقى له المنصه . فيخرج إليهم وقد لبس وتطيب وعليه الخشوع ، و يوضع عود فلا يزال يبخر حتى يفرغ من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم » .

ولكم كان حريصا على أن ينتقى الأحاديث .

وعلى الرغم من كثرة الأحاديث التى حفظها ، فلم يكن يحدث بهن جميعا .. ولقد قيل له إن أحد الفقهاء يحدث بأحاديث ليست عندك فقال مالك لو أنى حدثت بكل ما عندى لكأنى إذن لأحق ثم أضاف : لقد خرجت منى أحاديث لوددت لو أنى ضربت بكل حديث منها سوطا ولم أحدث بها « من أجل ذلك قال عنه تلميذه الشافعى : إذا جاء الحديث فالك النجم الثاقب » .

وهذا الحرج فى الحديث كان يتحرج فى الفتوى .. فلا يقول هذا حلال وهذا حرام إلا إذا كان هناك نص قطعى الدلالة .

وفما عدا هذا يقول : أظن ثم يعقب فتواه مستشهدا بالآية الكريمة : « إن نظن إلا ظنا وما نحن بمستيقنين » .

ولقد عاتبه بعض تلاميذه على تحرجه فى الفتوى ، فاستعبر وبكى وهو يقول : إنى أخاف أن يكون لى منها يوم وأى يوم . وقال يوما لأحد تلاميذه : ليس فى العلم شىء خفيف . أما سمعت قول الله تعالى : « إنا سنلقى عليك قولاً ثقيلاً ؟ فالعلم كله ثقیل وخاصة مايسأل عنه يوم القيامة . »

ولقد عاتبه بعض الناس فى عنايته الفائقة بأثاث البيت ، وملبسه ومأكله فقال : « أما البيت فهو نسب الإنسان . ثم إنى لا أحب لامرئ أنعم الله عليه إلا يرى أثر نعمته عليه وخاصة أهل العلم » . كان يرى فى أن البيت الجيد راحة للنفس والبدن ، وأن الطعام الجيد يعين على نشاط الذهن ، وأن حسن الثياب يكسب المرء ثقة بالذات وإحساسا بالسعادة .

وهكذا عاش يستمتع بزينه الحياة الدنيا التى أحلها الله لعباده والطيبات من الرزق ، ناثيا بنفسه عن السياسة ، راغبا عن مصاولة الحكام وإن كانوا ظالمين حتى لقد أفتى بوجوب الطاعة للحاكم حتى إن كان ظالما . ولا ينبغى الخروج عليه بالفتنة بل يسعى إلى تغييره بالموعظة الحسنة وبالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لأن ظلم ساعة خلال الفتنة شر من جور حاكم ظالم طيلة حياته . والحاكم الظالم يسلط الله عليه ما هو شر منه والله يرمى ظالما بظالم .

وعلى هذا سار أيام الأمويين ، ثم فى دولة العباسيين .. يحاول جهده أن يكون على الحياء .

ولكنه على الرغم من كل شيء لم يعيش بمنجاة عن بطش الذين أفتى بوجوب — طاعتهم من الحكام
مهما يظلمون .

لم يهاجم الأمويين فأصابه منهم خير كثير ثم جاء العباسيون فزادوه من الخيرات .. وأصبح الإمام
مالك رجلا غنيا ، يعيش في دعة وسعة ويمنع كل وقته للعلم . ذلك أنه لم يمدح على بن أبي طالب ولم
يسانده في الخلافة .. وكان مدح على هو ما يغيظ الخلفاء الأمويين العباسيين .

وآثر الحياء ، وترك السياسة ، وأشفق على نفسه وعلى أهل المدينة بما رأى في شبابه من مذابح بعد
ثورة الخوارج ونهضة الإمام زيد بن علي زين العابدين ، على أن السياسة لم تتركه ولم ينفعه حياء . ! .

ولهو يشرح في المسجد الحديث الشريف : ليس على مستكره يمين .. « و يبين للناس أن من طلق
مكرها لا يقع منه طلاق ، إذ بأحد أحفاد الحسن بن علي وهو محمد النفس الزكية ، يثور على الخليفة
المنصور ، لأنه أخذ البيعة لنفسه قسرا فبايعه الناس مستكرهين .

وإذ ببعض الناس في المدينة ينتفض بيعته للمنصور وينضم لمحمد النفس الزكية إعمالا
لهذا الحديث وتطبيقا للسنة .

وأرسل والى المدينة إلى الإمام مالك أن يكف عن الكلام في هذا الحديث ، وأن يكتمه عن
الناس ، لأنه يجرضهم على الثورة ونقض البيعة .

ولكن الإمام مالك أبى أن يكتم هذا العلم ، فكاتم العلم ملعون وظل يفسر الحديث غير آبه
بتهديد والى المدينة ، وأطلق الحكم الذي جاء به الحديث على كل صور الإكراه في المعاملات
والحياة .

فأمر والى المدينة رجاله فضربوا مالكا أسواطاً ، ثم جذبوه جذبا غليظا من يده ، وجروه منها
فانخلع كتفه .. ثم أعادوه إلى داره وألزموه الإقامة بها . لا يخرج منها حتى للصلاة ولا يلقى فيها
احدا .

وفزع الناس في المدينة إلى الله يشكون الظالم ، وثار سخطهم على والى المدينة والخليفة نفسه
وغضب الفقهاء والعلماء من كل الأنصار والأقطار . فها هو ذا عالم يلتزم الحياء ، ينأى بنفسه عن
السياسة ودوران دولاتها ، ويعكف على العلم ويشرح للناس حديثا نبويا صحيحا ، ويبصرهم
بأحكام هذا الحديث فإذا بالدولة بكل قوتها تبطش به ، وهو عالم لا يملك إلا قوة العلم
وما يستطيع بعد كتمان هذا العلم ؟ ..

وأخذ الناس يلعنون والى المدينة والخليفة المنصور الذي ولاه .. ويتهمون الخليفة نفسه .

وقع المنصور ثورة النفس الزكية ، وقتله هو وآل بيته وصحبه وأتباعه شرفلة ومثل بأجسادهم .. واستقر له الأمر .

فاستقدم الخليفة المنصور مالكا ليسترضيه ولكن مالكا لم يقم ولم يبرح محبسه فى منزله .

فأمر المنصور والى المدينة فأطلق سراح مالك .. ثم جاء المنصور بنفسه من العراق إلى الحجاز فى موسم الحج ، واستقبل الإمام مالك بن أنس . وقال الخليفة معتذرا : « أنا أمرت بالذى كان ولا عملته . انه لا يزال أهل الحرمين بخير ما كنت بين أظهرهم ، وإنى أخالك أمانا لهم من عذاب ، ولقد رفع الله بك عنهم سطوة عظيمة فإنهم أسرع الناس إلى الفتن » .

ثم أضاف الخليفة أنه استحضر والى المدينة مهانا وحبسه فى ضيق ، وأمر بالإيغال فى إهانته ، وأن ينزل به من العقوبة أضعاف مانال منها الإمام مالك بن أنس .

فقال الإمام مالك : « عافى الله أمير المؤمنين وأكرم مثواه فقد عفوت عنه لقربته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ومنك . » قال الخليفة المنصور : « فعفا الله عنك ووصلك » .. ووهبه المنصور مالا كثيرا وهدايا ثمينه ثم أضاف :

« إن رابك ريب من عامل (والى) المدينة أو مكة أو عمال (أى ولاية) الحجاز فى ذاتك أو ذات غيرك ، أو سوء أو شر بالرعية فاكتب إلى أنزل بهم ما يستحقونه . »

على أن الإمام مالك بن أنس لم يكتب إلى الخليفة ، على الرغم مما سمع وعاین من شر بالرعية فى جميع أنحاء الحجاز ، بل اكتفى بتوجيه النصح والموعظة الحسنة إلى هؤلاء الولاة .

على أن الخليفة المنصور لم يترك الحجاز حتى طلب من الإمام مالك أن يضع كتابا يتضمن أحاديث الرسول وأفضية الصحابة وآثارهم ، ليكون قانونا تطبقه الدولة فى كل أقطارها بدلا من ترك الأمر لخلافات المجتهدين والقضاة والفقهاء .. وكان ابن المقفع الكاتب قد أشار على الخليفة من قبل بإصلاح القضاء وتوحيد القانون فى كل أرجاء الدولة ...

قال المنصور للإمام مالك : « ضع للناس كتابا أحملهم عليه » فحاول مالك أن يعتذر عن المهمة ولكن المنصور ألح : « ضعه فإ أحد اليوم أعلم منك » فقال مالك : « إن الناس تفرقوا فى البلاد فأفتى كل مصر « أى قطر » بما رأى فلا أهل المدينة قول ، ولأهل العراق قول تعددا فيه طورهم » فقال الخليفة المنصور : « أما أهل العراق فلا أقبل منهم ، فالعلم علم أهل المدينة » فقال مالك : « إن أهل العراق لا يرضون علمنا » فقال المنصور : « يضرب عليه عامتهم بالسيف وتقطع عليه ظهورهم بالسياط »

واقترح مالك برأى الخليفة ، لأنه هو نفسه كان فكر من قبل ، أن يجمع الأحاديث النبوية في كتاب يضم مع الأحاديث آثار الصحابة ، ليجتمع المجتهدون والفقهاء والقضاة على رأى واحد وانقطع الإمام عما كفا على إعداد الكتاب وأخذ يكتب وينقح ويحذف أضعاف ما ثبت ، و ينقح ما ثبت وأسمى كتابه الموطأ .

والموطأ لغة هو المنقح .

ولبت ينقح فى الكتاب سنين عددا ، وخلال تلك السنين أخرج منافسوه من علماء المدينة كتباً كثيرة فى الأحاديث وآثار الصحابة أسموها الموطآت ، وسبقوه بها .. فقبل مالك : شغلت نفسك بعمل هذا الكتاب وقد شركك فيه الناس وعملوا أمثاله . وأخرجوا ماعملوا فقال : « إئتوني بما عملوا .. فأتوا بها فلما فرغ من النظر فيها — قال : « لا يرتفع إلا ما أريد به وجه الله . اما تلك الكتب فكأنما ألقيت فى الآبار وما يسمع بشيء منها يذكر بعد ذلك ..

وفى الحق أن شيئا من تلك الكتب لم يذكر بعد ، وكأنما ألقيت فى الآبار ..

أما كتاب الموطأ فقد أنجزه مالك بعد أن قضى المنصور وجاء بعده خليفة وخليفة ثم جاء هارون الرشيد فأراد أن يعلق كتاب الموطأ فى الكعبة ولكن الإمام مالك بن أنس أبى .

والإمام مالك بن أنس من أئمة الناس بالحديث وآثار الصحابة .. والرأى عنده سنة فقد وعى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله : أنا أقضى بينكم بالرأى فيما لم ينزل فيه وحى .. ونقل الإمام مالك عن الرسول عليه السلام كان يشاور أصحابه ويأخذ برأيهم .. ونقل من آرائه أن قبلة الصائم لا تفسد ، فقد سئلت زوجة أم المؤمنين أم سلمة عن قبلة الصائم فقال لها هل أخبرت أنى أقبل وأنا صائم ؟ .. وحفظ الامام مالك من آراء الرسول صلى الله عليه وسلم انه ذهب إليه رجل ينكر ولده لأن امرأته جاءت به أسود والأب أبيض والأم بيضاء ، فقال له الرسول عليه السلام هل لك إبل ؟ قال : نعم قال : فما ألوانها قال : « حمر » فسأله عما إن كان فيها « رمادى » فقال الرجل : « نعم فسأله الرسول صلى الله عليه وسلم » من أين ؟ فقال الرجل : « لعله نزع عرق . فقال الرسول عليه السلام وهذا لعله نزع عرق » .

وعى مالك هذا الاجتهاد من الرسول ، وعى صوراً عربية أخرى من أخذه بمشورة الصحابة فيما لم ينزل فيه وحى ، فاجتهد مالك هو الآخر معتمداً على حسن الفقه بالقرآن الكريم ، وعمق العلم بالناسخ والمنسوخ ، ودلالات النصوص ظاهرها وخفيها ، وأسرار الأحكام فى القرآن ، وحسن معرفة الأحاديث وآثار الصحابة ..

وقد عرف كل آثار الصحابة إلا فقه الامام على بن أبى طالب ، إذ صادره الامويون وحجبوه ، وطاردوه العباسيون .. غير أن ذلك الفقه كان فى حدود آل البيت وشيعتهم ، وفى كتب يتداولونها خفية .

ولقد أتىح للإمام مالك أن يعرف الإمام جعفر الصادق صداقة وتدارس معا .. وعمل كل واحد منها تقديرا عظيما لصاحبه .

وفى الحق أن الامام مالك قد أفاد من صحبة الإمام جعفر الصادق — وأخذ الاعتماد على العقل فيما لم يرد فيه نص — غير أنه أسماه بالاستحسان أو المصلحة المرسل — فقضى بما يحقق مقاصد الشريعة من توفير المصلحة وجلب النفع ودفع الضرر وبما الى الحرام .. واعتبر المصلحة العامة فوق المصلحة الخاصة ، ووازن بين المصالح وما أولاها بالرعاية لتكون هى مناط الحكم .

وكما أعطى أعمال العقل لفقه الإمام الصادق ثراء وتجددا ، فقد أثرى الفقه المالكي باعتماد المصلحة أساسا للحكم حيث لائنص ..

و يقول الإمام مالك عن علاقته بالإمام جعفر الصادق : « كنت أتى جعفر بن محمد ، وكان كثير المزاح والتبسم فإذا ذكر عنده النبى صلى الله عليه وسلم اخضر واصفر . ولقد اختلفت اليه زمانا فما كنت أراه إلا على ثلاث خصال : إما مصليا وإما صائما وإما يقرأ القرآن ، وما رأيته قط يحدث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا على الطهارة ولا يتكلم فيما لا يعنيه . وكان من العلماء الزهاد العباد الذين يخشون الله . وما رأيته قط إلا يخرج الوسادة من تحته ويجعلها تحتى » .

أفاد الإمام مالك من صحبة الإمام جعفر وأخذ عنه كثيرا من طرق استنباط الحكم ووجوه الرأى وأخذ عنه بعض الاحكام فى المعاملات ، وأخذ الاعتماد على شاهد دون شاهدين ، إذا حلف المدعى اليمين وكما أخذ من الإمام الصادق جعفر بن محمد اخذ من أبيه الإمام محمد الباقر بن على زين العابدين بن الحسين بن على بن أبى طالب ..

لزم مالك مجلس الإمام محمد الباقر وابنه الإمام جعفر وتعلم منها على الرغم من ان رأيه فى الإمام على بن أبى طالب كرم الله وجهه لا يرضى آل البيت وشيعتهم .. فقد فضل عليه أبا بكر الصديق وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان رضى الله عنهم وجعل الإمام عليا كرم الله وجهه ورضى الله عنه كسائر الصحابة ..

ولئن أغضب هذا الرأى آل البيت والشيعه جميعا ، انه ليرضى الخلفاء الأمويين الذين أنكروا حق على ونازعوه الخلافة واغتصبوها منه ، وذبحوا الحسين وآله فى كربلاء ، وذبحوا كل من ثار من آل البيت

كز يد بن على بن الحسين .. افى هذا الرأى يرضى الخلفاء الأمويين كما أرضى من بعدهم الخلفاء العباسيين الذين رأوا أن الخلافة تحق لبنى العباس عم النبى صلى الله عليه وسلم ولا تحق لبنى على وفاطمة .. وأغروا أحد الشعراء بأن يقول إن بنى البنات (يعنون فاطمة الزهراء رضى الله عنها) لا يرثن بل يرث الأعمام (يعنون العباس) : أنى يكون وليس ذلك بكائن لبنى البنات وارثة الأعمام .

وقد كان رأى مالك بن انس حريا ، بأن يعطف عليه قلوب الخلفاء الأمويين والعباسيين وهذا ماكان .

غير أن الإمام مالك بن أنس لم ينافق الخلفاء ، وإذا كان لم يجهر بالاحتجاج على مظالمهم ، فقد اختار أن يوجه إليهم الموعظة الحسنة كلما اقتضى - كلما لقيهم فى موسم الحج أو فى زيارة الحرم النبوى . وأنكر عليه أحد تلاميذه أنه يتصل بالأمراء والخلفاء لأنهم ظالمون وما ينبغي أن يتصل بهم رجل صالح كالإمام مالك بن أنس .. فرد مالك : « حق على كل مسلم أو رجل جعل الله فى صدره شيئا من العلم والفقه ان يدخل على ذى سلطان يأمره بالخير وينهاه عن الشر » وربما يستشير السلطان من لا ينبغي فخير أن يدخل عليه العلماء الصالحون ..

وعندما ألح عليه تلاميذه فى إنكار علاقاته بالخلفاء والامراء قال : « لولا أنى آتيتهم ما رأيت للنبى صلى الله عليه وسلم فى هذه المدينة سنة معمول بها » .

وفى الحق انه كان يعظمهم أحسن موعظة ، الموعظة الحسنة لأولى الامرخير من اتورة عليهم واشتعال الفتنة التى لا تصيب الذين ظلموا خاصة فقد تلثم الظالمين والضحايا والأبرياء جميعا .

كان مالك .. يسر النصيحة إلى ولى الأمر بحيث لا يخرجهم أمام الرعية و يصوغها بحيث تقع موقعا حسنا .

رأى أحدهم يذهب إلى الحج فى موكب فخيم وسرف الترف باد عليه فقال له : كان عمر بن الخطاب على فضله ينفع النار تحت القدر حتى يخرج الدخان من لحيته وقد رضى الناس منك بدون هذا .

وقال لآخر : « افتقد أمور الرعية ، فإنك مسئول عنهم ، فإن عمر بن الخطاب قال والذى نفسى بيده لو هلك جل بشاطئ الفرات ضياعا لظننت ان الله يسألنى عنه يوم القيامة » .

وكتب لخليفة آخر : « احذروما لاينجيك فيه إلا عملك وليكن لك أسوة بمن قد مضى من سلفك » وعليك بتقوى الله » .

وكان أحد الولاة يزور الإمام مالك بن أنس فى بيته ، ويسأله النصيحة .. فأثنى على الوالى بعض الحاضرين ، فغضب مالك ، وكان بعيد الغضب ، وصاح فى الوالى — وكلها كان يصيح — : «إياك أن يغرك هؤلاء بشنائهم عليك ، فإن من أثنى عليك وقال فيك من الخير ما ليس فيك ، أو شك ان يقول فيك ، من الشر ما ليس فيك .. إنك أنت أعرف بنفسك منهم .. ولقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « احثوا التراب فى وجوه المداحين » .

وكان عليه الصلاة والسلام يعظ صحابته ان كثرة المدح تضيع الممدوح .

وعندما بلغ مالك من الكبر عتيا كانت شهرته طبقت الآفاق حقا ، وكان يلزم بيته فى السنوات الأخيرة لا يخرج إلا نادرا واضطر إلى أن يتخذ له حاجبا ينظم دخول الناس كما يصنع الخلفاء ، وقد اتخذ له بيتا آخر واسعا غير دار بن مسعود فيه عدد من الجوارى الحسان والخدم .

وكان يخرجه أن يرفض استقبال أحد ، وله أصدقاء كثير . واستخلص العبرة من كل حياته الماضية وأفضى بنصيحة إلى أحد تلاميذه ليبيها فى الناس من بعده :

«إياكم ورق الاحرار» .

سأله تلميذه : «ومارق الأحرار؟» قال الإمام مالك « كثرة الإخوان .. فإن كنت قاضيا ظلمت أو اهتمت بالظلم ، وإن كنت عالما ضاع وقتك » .

وكان مالك يشكو كثرة الاصدقاء ، إذ لاحيله له معهم ، فلا هو يستطيع أن يردهم عنه ، ولا هم يتركونه يعمل أو يعتكف فى داره للعلم كما ينبغى له ..

ومهما يكن من أمر فقد أغنى مالك الفقه الإسلامى برأيه فى المصلحة وجعلها مناط الاحكام وأساسه فيما لم يرد فيه نص ملزم بالإباحة أو المنع ، وفى أخذه بالذرائع فما يؤدى إلى الحلال حلال ، وما يؤدى إلى الحرام حرام .. فأنت حر فى ملكك ولكنك فى حريرتك يجب ألا تضر غيرك فإذا حفرت بشرا خلف بابك يؤدى إلى سقوط الداخل إليك وهلاكه فهذا حرام .. لأن حفر البئر ذريعة لإهلاك الغير فهو ممتنع . والبيع باقسط ترفع الثمن الأصلي الذى تدفعه معجلا ذريعة إلى الربا فهو حرام ويجب على ولى الأمر منعه .. فالأقسط يجب أن تكون ذريعة للتيسير على المشتري لا ذريعة لقهر على اقتراف الربا ، وحمله على دفع ثمن أكبر .

وهذا النظر حرم الإحتكار لأنه يحقق مصلحة لفرد أو لأفراد قلائل ويجلب الضرر على الآخرين ..

فالمحتكر يغالى فى السعر كيفما شاء ، وعامة الناس مضطرون إلى قبول ما يفرضه وفى هذا ضرر بهم كبير والمحتكر ملعون ، بنص الحديث الشريف .

ومن أخذ الإمام مالك فى فتاواه وآرائه بالقرآن والسنة والإجماع وعمل أهل المدينة ورعاية المصالح أفتى بأمور كثيرة خالفه فيها بعض العلماء والفقهاء والمجتهدين .

فقد أفتى مالك بحق الزوجة فى الطلاق إذا لم ينفق عليها زوجها ، أو إذا ظهر لها عيب فيه لم تكن تعرفه وقت العقد .. عيب أى عيب جسديا كان أم حقيقيا ..

وأفتى أن ديون الله — كالزكاة ونحوها وما يمكن أن نسميه بالضرائب فى أيامنا هذه لا تؤخذ من التركة إلا اذا اعترف المورث بها قبل وفاته .. وحتى إذا ثبتت هذه الديون بأى طريق آخر من طرق الإثبات ، فديون العباد مقدمة عليها .. لأن العباد « والأفراد » يضارون بعدم دفع ديونهم أكثر من الدولة .. أما عن ديون الله كالزكاة فالله غفور رحيم .

وأفتى بأن الحمل قد يستمر فى بطن أمه ثلاث سنوات . ولقد سخر منه بعض خصومه وزعموا أنه يشجع على الفساد نساء غير صالحات من المطلقات أو من يغيب أو يموت عنهن الأزواج .

وأفتى بأن من يبني جدارا فى ملكه لينع الشمس والهواء عن جاره ، معند آثم يجب هدم جداره ، وإن زعم أنه يقصد حماية أهل بيته من أعين الجيران .

وأفتى بعدم جواز صيام سته من شوال (وهى مانسميه بسته الأيام البيض) . ورفض الاعتراف بالحديث الخاص بهذا الصيام وأنكره ..

وصيام سته أيام من شوال ، يؤدى إلى زيادة رمضان .

وهذا الامتناع عن صيام سته من شوال هو ما يعمل به أهل المدينة .. سنة عن الرسول اخذوها آلاف عن آلاف أولى بالاتباع من حديث نقله آحاد عن آحاد

وأفتى مالك بوجوب وضع ضوابط لحق الرجل فى الطلاق وفى الزواج بأكثر من واحدة بحيث لا تضار الزوجة أو الاولاد ، وبحيث تكون مصلحة الأسرة هى العلة والأساس والأجدر بالرعاية .

وأفتى مالك بأن الأعراف والعادات يجب احترامها فى استنباط الأحكام ما لم تتعارض مع نص صريح قطعى الدلالة .

وأفتى بأن المخطور يجوز أن يقترب لأن فيه دفعا لمضرة أكبر ..

إنه ليرى الشريعة مبنية على جلب المنافع والبعد عما يكون طريق إلى المفساد .. فكل وسيلة من وسائل العمل يجب أن ينظر إلى نتائجها فإن كانت النتيجة مصلحة فالعمل مباح وإن كانت فسادا وجب منع هذا العمل .

ولقد ذاع فقه مالك في كل الأمصار والأقطار، وكان في هذا الفقه ما يحمل له عناصر التجديد كالأخذ بمراعاة تحقيق المصلحة إن لم يوجد نص يبيح أو يمنع ، وهو نظر أخذه من فقه الإمام جعفر الصادق بإعماله العقل في استنباط الحكم حيث لا يكون نص ، وحكم العقل يقضى بالبحث عما يجلب المنفعة ويبعد الضرر . تحقيقا لمقاصد الشريعة .

وقد نما فقه مالك واتباعه وأغناه كثير من المفكرين والمجتهدين والفقهاء من بعده منهم فيلسوف الأندلس ابن رشد ..

غير أن بعض معاصري مالك عارضوه معارضة عنيفة وخالفوه ونقده بعض أصحابه منهم الليث بن سعد فقيه مصر، وتلميذه الشافعي ..

ولقد أرسل إليه صاحبه الليث بن سعد رسالة طويلة ذكره فيها بأن عمل المدينة لم يعد سنة بعد ولا يمكن اتباعه بعد عصر الرسول والخلفاء الراشدين فالصحابه خرجوا من المدينة بعد مقتل عمر، وتفرقوا في الأمصار، وبثوا فيها فقههم ..

لقد كان أوائل أهل المدينة في زمن الرسول عليه السلام هم خير الأوائل أما أواخرهم في زمن مالك ، فلم يعودوا كذلك بعد .. ولم ينس الإمام الليث بن سعد فقيه مصر أن يسأل صاحبه الإمام مالك بن أنس إن كان في حاجة إلى مال !

ومهما يكن من أمر الخلاف بين مالك وتلاميذه ، فقد عاش مذهب الإمام مالك وتجدد حتى لقد أخذت قوانين الأحوال الشخصية في مصر منذ مطلع هذا القرن الميلادي حتى القوانين الأخيرة ١٩٧٩ ميلادية من هذا المذهب .

على أن الذين خالفوا الإمام مالك بن أنس من أصحابه وتلاميذه كانوا يحملون له كل الإجلال والتقدير والاحترام ..

قال عنه تلميذه الشافعي : إذ ذكر الحديث فمالك هو النجم الثاقب .

أما صاحبه الليث بن سعد الذي صاحبه عمرا طويلا ، وراسله ، ووصله بالمال والهدايا ، واختلف معه آخر الأمر، فقد قال عنه أثناء الخلاف وعلى الرغم من الخلاف «مالك وعاء العلم .»

الليث بن سعد
فقيه أهل مصر والنوبه

فى ليلة النصف من شعبان المكرم من العام الثالث والتسعين للهجرة (٩٣ هـ) . ولد الليث بن سعد فى قرية قلقشندة ، من أعمال مركز طوخ ، بمحافظة القليوبية على مقربة من عاصمة مصر .

والمصريون يعتبرون ليلة النصف من شعبان ليلة مباركة ، واذن فقد تفاعل أهل الوليد بمقدمه فى تلك الليلة ، وتفاعل أهل القرية جميعا بهذا القادم الجديد ابن عميد الأسرة الغنية الذى كان يفيض بكرمه على كل من حوله .

ويشاء الله أن يتوفى الليث فى ذات الليلة المكرمة .. ليلة النصف من شعبان سنة مائة وخمس وسبعين للهجرة (١٧٥ هـ) بعد أن ملأ الدنيا من جوله ، بالخير ، والعلم ، والمعرفة ، وآداب السلوك ، وأسباب المحبة ، على مدى اثنين وثمانين عاما .

وما بين سنة ٩٣ هـ وسنة ١٧٥ هـ ، عرفت مصر دولات وحكاما ، وابتليت ، بالطغاة من خلفاء وولاة ، وأنعم الله عليها فيما أنعم بخلافة عمر بن عبد العزيز ، ابن حلوان من ضواحي الفسطاط ،

وهو الذى عرف بالعدل ، والحكمة ، وحسن سياسة الأمور ، وتقوى الله ، حتى لقد كان يلقب بخامس الخلفاء الراشدين بعد أبى بكر وعمر وعثمان وعلى رضى الله عنهم .

ولقد شهد الليث منذ طفولته مظاهر الجور ، وبطش الولاة ، حتى لقد استقر فى نفس الصبى كره للحكم والحكام .. ثم شهد وهو دون العاشرة عدل الخليفة الرشيد عمر بن عبد العزيز ، وصور الرخاء التى عمت مصر ، حتى لم يعد فيها من يستحق أن تصرف عليه الزكاة ،

فنهضت الحكومة بتكاليف زواج الشباب ، من مهر ومآدب واحتفالات ، لا تفرق فى ذلك بين المسلمين وغير المسلمين من أهل الكتاب .

وكانت قلقشندة ككل قرى دلتا النيل ، بلدا طيب الهواء ، خصب الأرض ، غنيا بالثمرات والخيرات ... تشتهر بجودة الفاكهة .

تفتحت عين الصبى منذ وعى الحياة على خضرة الأرض ، وانسياب النهر ، وروعة الحقول والبساتين ، والحدائق ، وامتلاّت رثته الصغيرة بعبق الأزهار ، فنشأ يحب الجمال .

ولعله من أجل ذلك عندما شب وتعلم القرآن الكريم وحفظ الحديث ، روى أول ما روى من أحاديث : « إن الله جميل يحب الجمال » أكسبته مرائى الجمال فى قرينه صفاء العقل والذوق والنفس ، وحبا للحياة والناس .

فما مد بصره قط وهو صغير إلا رأى انفساح الأرض أمامه بألوان الزرع والزهر ، حيث يستلقى الأفق على خضرة الحقول أو غابات الشجر والتخيل ، وما ألقى السمع قط إلا يسمع همس الطبيعة وأصوات الماء والشجر ، وشدو الطيور عليها . كان يصحول يستقبل النهار مع شعاع كل يوم جديد .. وما استنشق الا العبير ! لم يعرف ألم الحاجة طيلة حياته ، ولم يمسه قرح من مطالب الدنيا ، وعاش ما عاش متمتعا بكل ما أحله الله من متاع فى هذه الأرض .

كان أبوه واسع الغنى ، يملك فى قلقشندة وما حولها ضيعة واسعة خصبة ، تنتج خير الثمرات من زرع وفاكهة .. لديه المال والبنون ، زينة الحياة الدنيا .

وكان الأب يدرك أن العلم هو خير ما يزين الرجل العاقل .. وقد نال الأب قسطا من التعليم ، ولكنه قرأن يجعل ابنه زينة الحياة الدنيا بحق ، فوفر له كل ما يتاح من علوم ذلك الزمان ! ..

وعائلة الليث مصرية تنحدر من المصريين القدماء .. وقد دخلت فى الإسلام وتعلمت اللغة العربية منذ الفتح الإسلامى .

وأخذ الأجداد أبناءهم وأحفادهم بالتفقه فى الإسلام ، وابتقان لغة الدين الجديد الذى دخلوا فيه .. حتى لقد اشتهرت عائلات كثيرة منها عائلة الليث بحفظ القرآن والحديث والشعر والأخبار وفصاحة اللسان .

وكان العرب يطلقون على الذين أسلموا من أبناء البلاد المفتوحة اسم « الموالى » أما الذين لم يسلموا من أهل الكتاب فهم الذميون أو أهل الذمة ..

وعلى الرغم من أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد ترك صوتاً عظيماً يعظ ويعلم حسن السيرة بين الناس منذ قال لهم: «الناس سواسية كأسنان المشط ولا فرق بين عربى ولا أعجمى إلا بالتقوى».

وعلى الرغم من وضوح هذه التعاليم ، فقد كانت العصبية القبلية تملأ أحياناً على بعض الولاة لإثارة المسلمين العرب الفاتحين على المسلمين من أهل البلاد المفتوحة .. أى الموالى .

وهو إيثارة لا يرد فى توزيع الأموال أو رعاية الحقوق .. ولكنه يفلت عفو الخاطر فى التقدير الأدبى .

وما كان يمكن أن يرد هذا التمييز فى توزيع الثروات ، لأن عمر بن الخطاب أخذ بمشورة على بن أبى طالب فوزع الأرض فى البلاد المفتوحة على من يزرعونها ، وأخذ منهم نصيب الدولة .. وهكذا كان من بين الموالى أغنياء ، ومنهم أسرة الليث ..

وما كان يمكن أن يرد هذا التمييز فى الحقوق والواجبات ، لأن مثل هذا التمييز يخالف مبادئ الإسلام كما أوردتها نصوص القرآن والسنة . ولكنها مشاعر تفلت على نحو ما فى تقلب القلوب .

من أجل حرص بعض الموالى على أن يتفوقوا .. ولقد تفوقوا حقاً .

ولكم ضاق خلفاء بنى أمية بتفوق الموالى على العرب حتى فى اللغة والفقه !

وكان على وبنوه يحسنون تقدير الموالى . وكان من أبرز هؤلاء الموالى الليث بن سعد الذى حفظ القرآن فى قريته ، وهو صبى ، وحفظ كل ما وصل إليه من أحاديث نبوية وكل ما عرفه العصر من تراث الشعر العربى وعلوم اللغة العربية وآثار الخلفاء .

حتى إذا كان فى مطلع الشباب وقد استوعب كل ما يمكن أن يصل إلى قريته من معرفة ، وجهه أبوه إلى الفسطاط ليعلم علمها ويتقن نفسه بمعارفها ..

زوده أبوه بكل ما ينبغى أن يتزود به طالب علم يجب أن يتفرغ نهاره وليله للعلم ، ولا يشغله عنه شاغل من هموم الحياة والمعيش !

وها هو ذا فتى فارغ القامة مليح الوجه وتضىء الابتسامة فى سمرة محياه ، مطمئن النفس ، ناعم البال ، فى ثياب جميلة . يفوح منه العطر والطيب ، تفسى سكينته توترات الشوق إلى المعرفة ، نشيط الخطى ، مرح ، حسن الصوت ، مشتعل الأعماق ، متوقد الذهن ، يختلج على الرغم من الدعة بالرغبة الجائعة إلى اقتحام المجهول ، واستيعاب كل ما تخفيه الحياة والكلمات من الأسرار ... ها هو ذا بكل

فتوته التى تشب به من الصبا إلى الشباب ، فتى من القرية يخوض ليل المدينة الكبيرة المضىء بالثقافة ،
والمعرفة .

واتجه إلى جامع عمرو وهو أول مسجد جامع أنشأه المسلمون فى أفريقية ، وجامع عمرو منارة
للعلم ، مازال يشع منها ما درسه فيه أبو ذر الغفارى وعبد الله بن عمرو ، وسائر الصحابة الذين جاءوا
إلى مصر منذ الفتح الإسلامى ، وعلموا الناس أمور الدين وفقهوهم بالقرآن والسنة . ومازال يتردد فى
جنبات هذا الجامع الكبير أسلوب مصرى لتلاوة القرآن يختلف عن أساليب التلاوة فى العواصم
الإسلامية الأخرى .

وفى جامع عمرو حلقات كثيرة لدراسة القرآن وتفسيره ، ودراسة الأحاديث والسنة والفقه ،
ترك فيها كل صحابى أثرا ..

وفى الجامع إلى جوار ذلك حلقات لدراسة علوم اللغة العربية .. وعلوم اللغة هى أدوات
فهم القرآن والحديث ، وفى الفسطاط حلقات أخرى لدراسة كل ما كان فى مصر من معارف
الأقدمين : من مصريين ويونان ورومان وفرس وهنود ، وكل معطيات الحضارات التى تزخر بها
مصر ..

وهذا تميزت عاصمة مصر عن سائر مدائن الأرض .

وأتيح للشباب المتطلع إلى المعرفة أن ينهل من الثقافات المختلفة كما لم يتح لفقيه آخر من
معاصريه خارج مصر .

كانت اللغة القبطية لا تزال حية ، وإذ كانت تطورا للغة المصرية القديمة (الهيروغلوفية) ،
فقد نقلت كل الإعجاز المصرى القديم فى علوم الفلك والطب والرياضيات والطبيعات
والهندسة ونقلت تراث اليونان والرومان وغيرهم .. ولقد نقل بعض هذا التراث إلى اللغة
العربية فأتى لطلاب العلم أن يعرفوا ، وما ظل من تلك المعارف فى اللغة القبطية كانت معرفته
ميسرة للمثقفين المصريين من مسلمين وأقباط الذين أصبحت اللغة العربية لسانهم بحق ،
ولكنهم ظلوا على معرفة باللغة المصرية التى كانت لغتهم قبل الفتح الإسلامى .

كانت اللغة العربية لم تنتشر فى مصر بعد ، فاللغة القبطية هى السائدة ، وكان الليث يتقن
اللغتين . العربية لغة الإسلام ، والقبطية لغة آبائه الأولين ، وكان إلى هذا يتقن اليونانية
واللاتينية ، وهما من لغات الميراث الحضارى .

وقد أتاح التعرف إلى ميراث علوم الأسلاف ، واستيعاب معطيات الحضارة المطروحة على العقل المصرى .. أتاح هذا كله للشباب غنى فريداً فى الثقافة . !

حتى إذا أحس أنه قوى مكن ، عكف على كل الحلقات فى جامع عمرو يتلقى التفسير والحديث والفقه .

وكان الصحابة الذين جاءوا إلى مصر أحد رجلين : رجل يتمسك بالقرآن والسنة ، ويفتى الناس فى أمور دنياهم بما يجد فى القرآن والسنة ، فإن لم يجد أثراً لا يفتى على الإطلاق .. ورجل آخر كان يجتهد رأيه وهو يواجه أموراً جديدة فى بيئة جديدة وحالات لم يرد لها حكم فى القرآن أو السنة

وتلقى أتباع هؤلاء الصحابة عنهم .. وأخذوا هذا العلم بقوة .. فاشتد بعضهم فى التمسك بالنصوص ورفض الاجتهاد بالرأى . ! وغالى الآخرون فى الاعتماد على الرأى ، وافترضوا قضايا لم تحدث واستنبطوا لها أحكاماً ، حتى لقد وقعوا فى شواذ الفتيا . !

والطالب الشاب يمكف على حلقات هؤلاء وهؤلاء ليتقن علوم القرآن والحديث ، ويعنى بأسرار اللغة عناية خاصة فائقة ، لأنه يدرك أنها هى الأداة لحسن نصوص القرآن والأحاديث

وفى الحق أنه فى بحشه الظامئى عن الحقيقة وأسرار المعرفة ، كان قد ضاق بخلافات شيوخ الحلقات . ورأى غلواً فى كلا الحزبين .. فالتمسكون بالنصوص لا يخرجون عنها .. متشددون تشدداً قد يستحيل معه مواجهة الحالات المستحدثة التى لم يرد فى حكمها نص قطعى .. ! وأصحاب الرأى يتساهلون تساهلاً قد يدعوا إلى الخطأ فى الحكم ، أو إحداث الاضطراب فى الشريعة !

ورأى الطالب الشاب أن يستقل بالنظر فالتشددون فى التمسك بالنصوص يعتمدون على الآية الكريمة : « ولوروده إلى الله والرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم .. » ، هذا حق .

وأصحاب الرأى يقولون إن الرسول صلى الله عليه وسلم قد اجتهد رأيه فيما لم ينزل فيه قرآن .. وصحابته قد اجتهدوا فى حياته وأقرهم على اجتهدهم .. وهذا كله حق أيضاً .. ! فما الغلو إذن فى الاقتصار على النص أو الاعتماد على الرأى .. ! ؟

على أن الليث أدرك أن النصوص ليست ظاهراً فحسب .. ليست كلمات .. بل هى روح .. لها دلالات وفحوى وعلل . وإذن فالذى يتقن اللغة العربية ، ويتقن معرفة أسرار بلاغتها

حرى بأن يفهم النصوصن ظاهرها وروحها .. ثم إن الأحاديث النبوية تفسر كثيرا من نصوص القرآن .. وفى السنة تفصيل لما أجمله القرآن .. وتبيان لما خفى منه عن المدارك ..

وفهم الأحاديث النبوية يقتضى أيضا حسن فهم أسرار اللغة العربية وروحها .. وليس كل عربى بقادر على إدراك معانى الأحاديث ، أو فهم ما أنزله الله بلسان عربى مبين . فهذا الأمر يستلزم إتقاننا خاصا وتدوقا خاصا للغة .

من أجل ذلك عكف الليث — بعد أن حفظ القرآن والأحاديث — على حفظ الشعر العربى الذى قيل قبل نزول الوحي بالقرآن وخلال نزوله ، ليدرك أسرار اللغة جميعا .. ولقد كان يروقه أحيانا بعض أبيات من الغزل فيتغنى بها .. ولقد سمعه أحد شيوخه فقال له :

« هذا مباح ولكن لا تفعله فسيكون لك فى الفقه شأن » ولكنه عاش يتغنى بما يروق له من شعر . وكان جميل الصوت .. على أنه قرروهو يحضرا الحلقات فى جامع عمرو أن يتخذ له مذهباً وسطاً بين أهل النصوص وأهل الرأى .

ومر عام وهو عاكف على درسه ، يحفظ ويتأمل وينظر فى روح كل نص حفظه .. وقد ترك لحيته لتكبر ، عسى أن يدارى بكبر اللحية صغر السن .. !

وأخذ يذيع مذهبه بين زملائه الطلاب فى مواجهة أساتذته من أصحاب الحديث وأصحاب الرأى .

وكان عجباً أن يهتدى شاب فى نحو السادسة عشرة من عمره إلى نظر مستقل بين أهل الحديث وأهل الرأى .. ! ولقد ناقش فى ذلك أحد شيوخ الحلقات من أهل الحديث فنهزه !

وناظر غيره فنهروه جميعاً ، وألزموه التمسك بالحديث والعدول عن الرأى فقال : « تعلموا العلم قبل العلم ! وظل طوال حياته كلما جادل أهل الحديث يكرر عليهم هذا القول ..

وأعجب به زملاؤه الطلاب ، وبدأوا يلتفون حوله ، وشجعته حماسهم له ، وكلما زادوه تشجيعاً ، زاد عكوفاً على العلم والنظر فيه ..

وكان زملاؤه يلقون عليه المسائل ، فيظل يمعن النظر حتى يجد جواباً . وكانت إجاباته تبههم .. وما كما يعجل للإجابة بل يتريث لها .

وفى الحق أنه تألف قلوبهم بحسن أدبه ، وظرفه ، ودماثة خلقه ، وسعة علمه .. وبكرمه !

فإذا لاحظ فقر أحد زملائه وصله بالمال سرا ، ولقد يلاحظ بقع الحبر على ثوب زميل آخر فيهديه ثوبا جديدا .

وإن وجد فيهم من يبعد مسكنه عن جامع عمرو ويجهده السير إلى حلقات الدرس أهده دابة .. ولكى لا يخرج المحتاج من زملائه كان يزعم لهم أنه يقدم للواحد منهم قرضا حسنا يرده عندما يكبر ويتكسب !

وأغراه زملاؤه بأن يتخذ لنفسه حلقة ولكنه تيب أن يجلس مجلس الأستاذ . ولقد علم أحد أشياخه أن الناس يستفتونه ، فبفتى ، و يرضون عن فتياه .. فناده الشيخ وشجعه على الإفتاء . ولكن الليث استحى لأنه صغير السن ، ثم لأنه من الموالى ، وهذا الأمر يجب أن يكون للعرب !

وإذ ذاك قال له الشيخ أما سمعت عما كان بين الخليفة هشام بن عبد الملك وبين الفقيه شهاب الزهرى ؟ فقال الليث « لا »

فقال الشيخ إن الخليفة سأل الزهرى وهو أقره أهل هذا العصر ، عن العلماء الذين يسودون أهل الحجاز وأهل اليمن وأهل الشام وأهل مصر وأهل خراسان

فذكر له الزهرى أسماءهم . والخليفة يسأل عن كل واحد من العرب هو أم من الموالى . فيقول الزهرى من الموالى فقال الخليفة مغضبا : « والله لتسودن الموالى على العرب حتى يخطب لها على المنابر والعرب تحتها . »

فقال شهاب الزهرى : إنما هو أمر الله ودينه فن حفظه ساد ومن ضيعه سقط ! هذا هو رأى الزهرى وليس له فى العلماء نظير

ولكن الليث لم يجلس للإفتاء ، وصمم على ألا يجلس حتى يبلغ من السن مبلغا يؤهله لذلك ، وحتى يصل من العلم ، واستقلال النظر إلى ما يقنع به فقهاء العرب والموالى على السواء .. إنه لم يتعلم من أئمة العصر خارج مصر بعد .. ولكم يعثيه الشوق إلى معرفة ما عندهم .. ولقد أغراه ما سمعه من أستاذه عن الزهرى بالسفر إليه ليتعلم منه ولكنه فوجئ بموت أبيه . عليه الآن أن ينهض بأمور الأسرة بعد أبيه . وأن يدير أمور ثروته الواسعة ..

وعاد إلى قريته فإذا بالوالى قد أمر بهدم بيت الأسرة ! فأعاد الليث بناء البيت ، فهدم الوالى الدار مرة أخرى . وبناها الليث فهدمها الوالى مرة ثالثة .. !

وبات الشاب مهموما .. أنه ليحمل على منكبيه أعباء الأسرة ، وإدارة الضيعة التي ورثها .
وهجوم العلم والمذهب الجديد الذى يريد أن يصوغه محكما وسطا بين أهل رأى وأهل
الحديث .. كل هذا ، واضطهاد الوالى أيضا .. !! ولكن لماذا يضطهده الوالى العربى إلى
هذا الحد ؟ ! لأنه خرج عن طاعة بعض الشيوخ من أهل السنة ممن يناحزهم الوالى ؟ .. أم
لأن الوالى كان عدوا لأبيه ، ولم يستطع أن ينال من الأب فى حياته ؟

أم لأن الليث أحد الموالى الذين يوشكون أن يظهروا ويغلبوا بعلمهم فقهاء العرب ؟ !
أم لأن الليث يميل إلى على بن أبى طالب .. والوالى يصانع الخليفة عدو على ؟ ! ولكن
مصر كلها تميل إلى على بن أبى طالب كرم الله وجهه ..
إن هذا السلوك مهما يكن سببه يجافى روح الإسلام .. إن هذا الوالى ليس من الله فى
شئ .. فما الحيلة معه ؟ ! ..

ثلاث ليال متتاليات .. كلها أصلح الليث بناء داره أرسل الخليفة فى الليل من يهدمها ! إن الوالى
ليستضعف الليث حقا ! وثقلت عليه الهموم ، فجاءه فى المنام من يقول له : « قم ياليث فاقرأ قوله
تعالى : (ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين) .

فأصبح الليث وقد أصيب الوالى بالفالج ، فأوصى كل من حوله ألا يظللوا الليث ، وأن
يحسنوا صحبته .. ومات الوالى بعد أيام قلائل ..

وتسامع الناس القصة ، وامتلأت بها أروقة جامع عمرو ، وانتشرت فى الأسواق ، وقال بعض
زملائه الطلاب وبعض شيوخه الذين غاضبوه من قبل : « لقد دافع الله عن الليث .. إن الله يدافع عن
الذين آمنوا .. »

وفى الحق أنه كان دمى الخلق ، حسن السيرة بين الناس ، وكان طيب المعشر ، كريما سخيا ..
وكان سريا .. !

ولقد رآه أحد شيوخه يتصاحك مع زملائه الطلاب فى خفة ، ويطلق قهقهة عالية فى رحاب
المسجد بعد الدرس ، ويضرب الأرض بقدمه .. وكان هذا الشيخ متزمتا ، قد غاضب الليث من قبل ،
لأنه يحاول ابتداء مذهب موفق بين رأى والسنة ، فتقدم الشيخ إلى الليث متوددا ، وقال له ناصحا فى
رفق : « يا بنى لا تفعل هذا فإنك إمام منظور إليك . »

وبعد ثلاثة أعوام خرج الليث إلى الحج والعمرة ، وكان فى العشرين من عمره ، وزار المدينة بعد

الحج .. وكان الفقهاء من كل الأمصار والأقطار يجتمعون في الحج ثم في الحرم النبوي فيتبادلون الرأي ..

وهناك بحث الليث عن شهاب الزهري ليجلس إليه .. والتقى به ، وتلقى منه ، وناظره ، وطرح الليث عليه ما انتهى إليه من نظر . ووجد الليث في الزهري من عمق الفكر وسعة العلم ودقة الفهم ما لم يجد في أحد قط ، فأكبره إكبارا شديدا حتى يمسك له بالركاب .. وكانت في الليث ما في العلماء من عزة نفس ، فلم يصدق أصحاب الليث أنه يمسك لأحد بالركاب .. وسأله صديق مستنكرا أتمسك بركاب الزهري فقال الليث : « نعم للعلم . فأما لغير ذلك فلا .. والله ما فعلته بأحد قط .. »

وفى الحجاز التقى بعدد من فقهاء العصر من أهل السنة وأهل الرأي على السواء ، وجلس إليهم وفى حلقة ربيعة الرأي تعرف بمالك بن أنس ، وهو فى مثل سنه ، وتبادلا الرأي بعد الحلقة

وكان مالك فى ذلك الوقت طالب علم فى نحو العشرين ، يكابد فى سبيل طلب العلم .. وأدرك الليث أن صاحبه يعانى الفقر ، فأخذ يحتال ليصله بالمال ، ولكنه لم يكن يعرف كيف يبدأ

على أنها تلازما فى حلقة ربيعة ، وتلازما بعد الحلقة يتدارسان ، ويتبادلان الرأي فيما حصلاه ، وألف كل منهما صاحبه ، ونشأت بينهما مودة ، فأرسل مالك طبقا فيه رطب إلى الليث ، فقبل الليث الهدية شاكرا ، ورد الطبق مملوا بالدنانير .

وعاد الليث إلى مصر ، واتصلت الرسائل بينه وبين مالك ودعاه لزيارة مصر ولكن مالك ابن أنس لم يستطع . وتعود الليث أن يزوره فى المدينة كلما ذهب للحج أو العمرة وزيارة الحرم النبوي .

وقد ظل الليث يصل مالك بن أنس بمائة دينار كل عام ، وكتب مالك إليه ان عليه دينار ، فأرسل إليه الليث خمسمائة دينار .. والدينار فى ذلك الزمان كان يكفى لكسوة رجل أو لشراء دابة ... ولم ينقطع عطاء الليث لمالك حتى أصاب مالك عطاء الخلفاء وأصبح ثريا .. ومع ذلك فقد واظب الليث عن سؤال مالك عن حاجته حتى فى الرسائل التى تضمنت خلافاتها الفقهية .

على أن الليث فى رحلاته العلمية لم يستفد علما جديدا فحسب بل أفاد أيضا ، ولفت إليه الأنظار .

سأله أحد شيوخ الزمان بعد مناظرة طويلة : « كم عمرك ؟ » فقال الليث : « عشرون » فقال الشيخ ، ولكنك تحمل علم ابن الستين وحية ابن الأربعين !

وكان الليث كلما سمع عن فقيه فى أى بلد ، شد إليه الرحال .. حتى عندما تقدمت به السن ، فقد سافر بعد الستين إلى العراق ينشد العلم عند فقيه أصغر منه سناً .. وسمع عن فقيها آخر نزل بالإسكندرية فركب النيل إليه ولكنه وجده قد مات ، فبكى !

حصل الليث إذن علمه من كل فقهاء عصره لم يأل فى ذلك جهداً ، ولم يقعه طول السفر ..

وكان ربما استأثر بأحد هؤلاء الفقهاء سمع عن نافع مولى عبد الله بن عمر فاحتال حتى لقيه بالحجاز .. وكانت فى نافع حدة ، ولكنه استراح إلى الليث ، ولزمه الليث لايبرحه طيلة إقامته بالحجاز ، يحفظ عنه الأحاديث وفتاوى الصحابة ، ومعاوره فى الفقه .

وقد لقيه فى دكان علاف فتحاورا برهة ، حتى مربها ابن لهيعة وهو مصرى من أصحاب الليث — صار فيها بعد قاضياً لمصر — فسأل عن نافع : « من هذا ؟ » فهمس الليث : « هو مولى لنا »

حتى إذا عاد إلى مصر ، جعل الليث يحدث عن نافع ، فسأل ابن لهيعة منكراً « وأين لقيته ؟ »

فقال الليث ضاحكاً : « أما رأيت العبد الذى كان فى دكان العلاف ؟ هو ذاك »

وغضب معه ابن لهيعة ، لأنه أخفى عنه نافعاً مولى عبد الله بن عمر

ولكن الليث لم يطق خصامه ، فنقل إليه ما حفظه عن نافع ، وما دار بينهما من حوار فى كل أمور الفقه .. ثم إن ابن لهيعة ولى قضاء مصر براتب قدره ثلاثون ديناراً فى الشهر وهو أكبر راتب بعد راتب الوالى . واحتقرت دار ابن لهيعة وكتبه فعوضه عنها الليث بن سعد بألف دينار !

وعندما عاد الليث إلى مصر بعد أول رحلة للحج ، بنى داراً كبيرة فى الفسطاط لها نحو عشرين باباً .. وجعل فيها حديقة ملاءها بالأشجار والزهر والريحان ، وكانت الريح تحمل عطرها إلى ما حولها .. وملاء داره بما استطاع الوصول إليه من كتب .. وفتحها لأصحاب الحاجات ولأصدقائه .. كان يدعو أصدقائه إلى الطعام ويضع الدنانير فى الفالودج ، فن أكل منهم أكثر نال دنانير أكثر .. !

كان يقوم الليل إلا قليلاً ، حتى إذا أقبل الفجر ، خرج على فرسه إلى جامع عمرو ويحضر الحلقات ، ويحفظ ويدرس ، ويتحرى أحوال أصدقائه من له حاجة ، ويفتى الناس من غير أن يجلس فى المفتى أو الأستاذ .. فقد كان ولا يزال يتهيب هذا المقعد ، على الرغم أنه جمع من العلم ما يؤهله له .

وبعد العصر كان يرتدى أجمل ثيابه ويتعطر ، ويمشى فى الحدائق والأسواق ، أو على شط

النيل .. !

وسمع مالك بما يصنعه الليث : تمتعه بأطيب الطعام ، وتزينه بأبهى الثياب ، وخروجه للنزهة فى الحدائق والأسواق ، فكتب مالك إليه معاتباً : «بلغنى أنك تأكل الرقاق وتلبس الرقاق (أى الثياب الرقيقة الفاخرة) وتمشى فى الأسواق» .

فكتب إليه الليث : «قال الله تعالى : قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة: كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون»

وعلى الرغم من نقد مالك ، قد ظل الليث يأكل الرقاق وما يستطيع من طعام ، و يلبس الرقاق وأبهى الثياب ، ويمشى فى الأسواق ، ويتنزه فى الحدائق على شاطئ النيل ، و يقتنى أفخر الدواب من حمر مصر وبغالها وأفراس بلاد العرب ، ويهدى منها أصدقاءه ولقد أهدى مالك بن أنس عددا منها ، وكان يحتفى بسروجها وبرادعها ويوشى اللجام كما تعود أن يهديه كل عام من أجود كتان مصر ما يكتفيه طوال العام .

وكان عند الليث ثياب بعدد أيام السنة ، فإ يلبس الثوب يومين متتالين .. ولعل مالك بن أنس اقتنع برد الليث فشرع هو الآخر يعنى بملبسه وماأكله .

على أن الليث لم يستمتع وحده بطيبات الحياة .. فقد كان يوزع على أهل العلم ، وأصحابه ، وجيرانه ، ومن يعرف أنه صاحب حاجة .. كان يوزع المال ويهدى الطعام والثياب والدواب .. وما أكل وحده قط

وكان يطعم فى كل يوم ثلثمائة من الفقراء والمساكين ، غير الصحاب وأهل العلم يطعمهم من أطيب ما يطعم هو الرقاق ، واللحوم ، وحلوى (هريسة) بعسل النحل وسمن البقر ، واللوز بالسكر ..

وعاش عمره يعطى السائل أكثر مما يسأل .

طلبت منه امرأة رطلا من عسل لتعالج ابنها ، فى وقت شح فيه العسل ، فأمر كاتبه أن يعطيها مرطاً من عسل (والمرط نحو مائة وعشرين رطلا) ، فقال كاتبه : «سألتك رطلا أعطيتها مرطاً ؟» فقال الليث : «سألتنا على قدرها ونحن نعطيها على قدرنا» ..

كانت له ضيعة بالفرما (قرب بورسعيد) يأتيه خراجها ، فلا يدخله داره ، بل يجلس أمام أحد أبوابها العشرين وقد جعل المال فى صرر يوزعها جميعاً صرة بعد صرة وكان لا يتصدق بأقل

من خمسين دينارا .. ذلك أنه كان يحسن استثمار أرضه الواسعة الخصبة حتى لقد كانت تدر عليه نحو عشرين ألف دينار كل عام ..

وعلى الرغم من هذا الثراء الضخم فما وجبت عليه زكاة قط .. لما حال الحول عليه وعنده دينار واحد .. اذ كان ينفق كل دخله : يحيا حياة مترفة بما أحل الله له ، ويقتنى أغلى الكتب وأندرها ، مهما يكلفه الحصول عليها

وكان عقله موسوعة من المعارف من علوم الشريعة والأدب واللغة والفلسفة والطبيعات والرياضيات .. وحتى الطب !

وكان يعنى بصحته أبلغ عناية حتى ليبدو أصغر من سنه بأعوام .. ذلك أنه كان يكبد ، ويتبع سنة الرسول عليه الصلاة والسلام فى العناية بالصحة ، فيعطى بدنه حقه من الراحة .. وإن لبدنك عليك حقا ويعطى قلبه حظه من المرح ، فإن القلوب لتصدأ ومن الواجب الترويح عنها ، ويمنح عقله ونفسه ما يحتاجان إليه من سكيننة وهدوء . وقد هداه علمه بالطب إلى وجوب الرضا بقضاء الله وتجنب الانفعالات فهي التى تلتف الصحة ..

كان يحب أن يعيش سعيدا ، ويحب أن يسعد الذين يعيشون من حوله . من أجل ذلك ينفق على الآخرين ليسعدهم .. ويرى أن صاحب المال مستخلف فيه لينفقه فيما يرضى الله ورسوله وفيما يسعد الناس .

كان شعاره «أحسن كما أحسن الله إليك ولا تنس نصيبك من الدين» وبحسن فهمه لهذه الآية الكريمة تمتع بالحلال من الطيبات ، وأمتع الآخرين .

من أجل ذلك نادى الليث بأنه ليس من حق أحد أن يحتفظ بما لا إذا بلغ الناس حد الكفاية والحكام وولاة الأمور مسئولون أمام الله عن أن يوفر للناس جميعا حد الكفاية لاحد الكفاف ..

وحد الكفاف هو ما يحفظ للناس حياتهم من الطعام والشراب ، أما حد الكفاية فهو ما يكفى كل حاجات الناس من جودة الطعام والشراب ، والسكن الصالح المريح ، والدواب التى تحملهم ، والعلم الذى ينقذهم من الضلال ، وسداد ديونهم .. وكل ما يوفر الحياة المريحة الكريمة للإنسان !

وقد استنبط الليث هذه الأحكام من فهم عميق لنصوص القرآن الكريم والسنة ، ومن إعماله الفكر واجتهاده بالرأى ..

أنكره خلفاء بنى أمية ، وضاقوا بآرائه وكانوا ينحازون للعرب ضد الموالى ، على الرغم من أن

الخليفة العربى الأموى عمر بن عبد العزيز كان يقوم الناس على أساس علمهم ، حتى لقد نهر الذين ينكرون على الموالى حق الفتيا قائلا : ما ذنبى إن كانت الموالى تسمو بأنفسها صعدا وأنتم لا تسمون » .

واذ دالت دولة بنى أمية وجاءت دولة بنى العباس ، ظهرت أحاديث نبوية كثيرة كان الناس يتداولونها سرا

وهكذا أذاع العباسيون حديثا للرسول عليه الصلاة والسلام يقول فيه للعرب : « لا يحيى الناس بالأعمال ويحيئوننى بالأنساب » إن أكرمكم عند الله أتقاكم .

ونشر فقهاء الموالى على الناس فضائل بلال الحبشى ، وسلمان الفارسى ، وصهيب الرومى . وكلهم له سابقه .. فى الإسلام .. حتى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان يقول بلال سيدنا

وأذاعوا ما كان من الإمام على كرم الله وجهه من تكريم للموالى ، وتقويمه للناس بقدر علمهم وصلاحهم وتقواهم ، لذلك أحبه الموالى وشايعه أغلبهم .. ولعله من أجل تسوية الإمام على بين العرب والموالى ، وجعله العلم والتقوى والصلاح أساس المفاضلة ، لعله من أجل ذلك ، كره بنو أمية الموالى — إلا عمر بن عبد العزيز — كراهية منهم لأشباع الإمام على ، وانحيازهم للعرب ، حتى لقد صرخ أحد خلفائهم !! أكل علماء الأمصار من الموالى ؟ ! تكاد نفسى تخرج ولا أسمع عن فقيه واحد عربى ! وهكذا شعر الموالى عندما جاء العباسيون ، أن زمن التفرقة قد ولى إلى غير رجعة . احتفى بنو العباس بالموالى وبالفوا فى الاحتفاء بهم ..

واذن فقد جاء الوقت الذى يستطيع فيه الليث بن سعد أن يجلس فى جامع عمرو ، ليعلم الناس ، وليفتى لهم فى أمور الدين ، والحياة

وكان قد أخذ مكانته بين فقهاء عصره على الرغم من شبابه .. لما كان قد بلغ الثلاثين ، عندما جلس يعلم ويفتى

وكان فقهاء عصره من جميع الأمصار ، قد التقوا به ، معلمين ومناظرين ، فى رحلاته المتكررة إلى الحجاز حاجا ومعتبرا ، وزائرا للحرم النبوى ، وطالب علم فى الوقت نفسه .. مناظرا يرفع آداب المناظرة ، ويغلب المستمعين بفصاحة اللسان ، ونصاعة البيان ، وعمق الإدراك ، وحسن الخطاب ، مع توقد الذهن ، وسرعة البديهة ، وذكاء الاستنباط .. حتى لقد كان ربيعة الرأى أستاذه لا يحسب حساب أحد من الفقهاء أو التلاميذ إلا الليث بن سعد .. ذلك الوجه المصرى !

ولقد سمع به الخليفة العباسي المنصور، فاستدعاه ليقابله فى بيت المقدس وكان للمنصور
ولع بالعلم والأدب ، وناظره المنصور، فأعجب به .. وعرض أن يوليه مصر ولكن الليث يريد أن
يحيا حياته بعيدا عن هموم المسؤولية السياسية ، متفرغا للعلم !

فجعل أن يصريح بعذره للخليفة ، وتعلل بأنه لا يصلح لهذا قائلا : «يا أمير المؤمنين . إنى
أضعف من ذلك إنى رجل من الموالى» فقال المنصور: «ما بك من ضعف معى ، ولكن
ضعفت نيتك فى العمل عن ذلك لى .. لقد أعجبتنى .. أكثر الله فى الرعية من أمثالك .»

وأجزل له المنصور العطاء ، فوزع الليث كل ما أخذه على المحتاجين قبل أن يبرح ..

وعاد إلى مصر فى موكب فخيم يصحبه ثناء المنصور عليه .

ولقد نصح المنصور لأهل العلم فى العراق وسائر الأمصار أن يذهبوا إلى الفسطاط ، فيتلقوا عن هذا
الفقيه المصرى الشاب الذى لم يلق المنصور أفقه منه بالشرعية ، ولا أحفظ منه للحديث ، ولا أحد منه
بصيرة أو أذكى جنانا أو أفصح لسانا ، ولا أعدل أو أعف ، أو أوسع علما بعارف الأوائل وحكمتهم ، ولا
قدرة على الاستنباط ، ولا أسلم منه رأيا .. ! ثم إن المنصور أرسل إلى والى مصر وقاضيا أن يستشيروا
الليث بن سعد فى كل أمورها .

وكبر على بعض الفقهاء العرب أن يضع المنصور أحد الموالى فى هذه المكانة فوق الوالى العربى
والقاضى العربى ، فأخذوا يكيدون لليث بن سعد حسدا من عند أنفسهم وأرسل أحدهم إلى الخليفة
المنصور: أمير المؤمنين تلاف مصر! فإن أميرها ليث بن سعد !!

عسى أن يتوهم الخليفة أن الليث بن سعد يستغل رهبا الخليفة عنه ، ليتعالى على الوالى
والقاضى ، فأصدر الخليفة أمرا وأعلنه على الملأ أن الليث بن سعد هو أعلم رجال عصره
بالشرعية واللغة والشعر، وهو أكثرهم تحريا للعدل وتوقيا للشبهات تحرجا وعفة .. وهو من أجل
ذلك ينصبه كبيرا للديار المصرية ورئيسها ، بحيث لا يقضى فى مصر شىء إلا بمشورته ، ويصبح
الوالى والقاضى تحت أمر مشورته ..

ثم إن الخليفة زجر هؤلاء العرب المتعصبين لعروبتهن ، المنكرين على الموالى حسن بلائهم
وارتفاع مكانتهم ، واستشهد فى زجرهم بقول رسول صلى الله عليه وسلم : يا أيها الناس إن
الله قد أذهب عنكم حية الجاهلية ، وتعاطمها بآبائها . فالناس رجالان : بر تقى ، كريم على
الله ، فاسق شقى ، هين على الله ، والناس كلهم بنو آدم .

هكذا أعلن الخليفة تأييده للموالى ، ودعم الليث بن سعد دعما حاسما

ولكن الليث أحسن استخدام هذه الثقة لإفادة الرعية .. فما كان يفرض رأيه على الوالى أو القاضى مهما يختلف معها ، ولكنه إن وجد فى أوامر الوالى أوقضاء القاضى ما يظلم أحدا كتب إلى الخليفة فيأخذ برأى الليث .

وكان أشد ما يسوء الليث بن سعد من ولادة الأمر أن يقبل أحدهم هدية ، وكان يجهر فى مجالسه أنه إذا دخلت الهدية من الباب ، خرجت العدالة من النافذة .. !

وكان ينصح كل صاحب منصب ألا يقبل هدية من أحد من الرعية ، وإن لم يكن للمهدى حاجة ، فإذا قبل صاحب المنصب النصيحة ورفض الهدية شكره ، أما إذا أبى ، كتب للخليفة فعزله

وقد عاتب أحد المعزولين الليث بن سعد فقال : « نصحتك فلم تنتصح ، ومصلحة الرعية أولى وما صبرى على ظلم الرعية ؟ » وكان المعزول لا يملك إلا راتبه ، فأجرى عليه الليث راتبه من ماله الخاص !

وتمضى الحياة بالليث وهويهب كل وقته للدرس والعلم والفتيا ومواساة الناس .

تعلم من أحد شيوخه ألا يغشى مجالس الولاة ، فكان إذا استدعاه أحد الولاة ليسأله عن شىء من العلم رد عليه الليث بقول شيخه : « أثنتى أنت ، فإن مجيئك إلى زين لك ومجيشى إليك شين على »

وهكذا كان أولو الأمر يذهبون هم إليه .

وقد أحسن تقسيم وقته بين مشاغله العديدة .. وقسم إلى أربعة مجالس يجلس فيها ، فالمجلس الأول للوالى والقاضى وأولياء الأمور يسألونه المشورة أو يسمعون رأيه فى سيرتهم وأحكامهم . فإذا انتهى هذا المجلس عقد مجلسه الثانى لأهل الحديث ، يسمع منهم ، ويشرح للمستمعين ما يحفظ من أحاديث ويقول : « نحوا أصحاب الحوانيت ، فإن قلوبهم معلقة بأسواقهم » .

وفى الحق أنه كان حريصا على أن يكون مجلس الحديث لأهل الحديث وحدهم ، فيتذاكرهم أسانيد الأحاديث وصحتها ومعانيها وروحها وفحواها ، فما كان لغيرهم مكان !

فإذا فرغ من هذا المجلس ، عقد مجلسا للناس كافة ، يسميه مجلس المسائل ، وهو مجلس للفتيا .. يسأله الناس فيما يعرض لهم من أمور الحياة ، فيجيب مستوحيا القرآن فى فتاواه ، فإن لم يجد لجأ إلى السنة ، فإن لم يجد الاجابة فى النصوص ، التمس الجواب فى إجماع الصحابة — وكان من رأيه أن إجماع

الصحابة نادرا ، فإن لم يجد ، اجتهد رأيه ، ولجأ إلى القياس وإلى العادات والعرف ما لم تخالف نصا
أما مجلسه الرابع فكان فى داره ، وهو مخصص لحاجات الناس .. وهذا المجلس كان يستهلك إيراده
السوى الكبير .

أما استثمار أرضه ، فقد كان له وكيل هو كاتبه يقوم عنه بأمر الأرض

لقد صح رأى الليث عندما اعتذر عن ولاية مصر ليتفرغ للعلم .. فقد استقام له الآن فقه خاص ،
استقل فيه عن فقه ربيعة الرأى ، أستاذه وخالف به فقه أكبر عالين فى عصره وهما أبو حنيفة النعمان
ومالك بن أنس صديقه .

وقد التقى الليث بأبى حنيفة فى مجلس مالك بن أنس فى المدينة .. ودخل الليث على مالك ذات
ليلة من الشتاء فوجده يمسح عرقه وقد انصرف من عنده أبو حنيفة فسأله عن سبب هذا العرق والبرد
شديد فقال مالك « عرقت مع أبى حنيفة ، إنه لفقيه يامصرى » وكان مالك لا يحب الجدل وأبو
حنيفة مولع به . وسأل الليث أبا حنيفة عن رأيه فى مالك فأثنى عليه أطيب ثناء .

على أن الليث كان ينكر على أبى حنيفة توسعه فى الأخذ بالرأى ولجوءه إلى الحيل لاستنباط
الحكم ، وإن كان معجبا بذكاء أبى حنيفة ، وسرعة بديته .. ولقد سمع به قبل أن يلقاه ، وتمنى أن
يراه .. وراه لأول مرة فى المسجد الحرام ، قبل أن يلتقى به عند مالك فى المدينة .. رأى حلقة عليها
الناس ، فإذا هى حلقة أبى حنيفة ، فجلس يستمع إليه فأقبل رجل فقال : يا أبا حنيفة إنى رجل من
أهل خراسان كثير المال ، وإن لى أبنا ليس بالمحمود وليس لى ولد غيره إن زوجته طلق وإن سريته
أعتق »

(وسريته أى وهبته جارية تعيش معه كالزوجة) وقد عجزت عن هذا فهل من حيلة ؟ « فأسرع أبو
حنيفة مجيبا . اشتر لنفسك الجارية التى يرضاها هو ، ثم زوجها منه ، فإن طلق رجعت مملوكتك إليك ،
وإن أعتق أعتق مالا يملك » .

ويقول الليث عن جواب أبى حنيفة : فوالله ما أعجبنى قوله بأكثر مما أعجبنى سرعة
جوابه ..

لقد رأى الليث أن أبا حنيفة ما كان ينبغى أن يجيب بمثل تلك السرعة ، ولا أن يلجأ لمثل
تلك الحيلة !!

اختلف الليث مع أبى حنيفة فى كثير من الآراء ، وأشهر خلاف بينهما هو الرأى فى

الوقف .. فقد كان أبو حنيفة لا يجيز الوقف .. لأنه يرى فى حبس المال قيذا وضرا ..

وهذا رأى أخذ أحد قضاة مصر، فنبه الليث إلى خطأ هذا رأى ، وإلى مخالفته للسنة .. ولكن القاضى ظل يحكم بإبطال الوقف .. فجاءه الليث فى مجلس القضاء ، فرفع القاضى المجلس ، فقال الليث : إنما جئت إليك خاصا ، فقال له القاضى : « فى ماذا » قال الليث « فى أحباس المسلمين (أى أوقافهم) لقد حبس (أى وقف) رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعمر وعثمان وعلى فن بقى بعد هؤلاء ؟

ولم يقتنع القاضى ، فكتب الليث إلى الخليفة بشأنه : والله إنا لم ننكر عليه شيئا ، غير أنه أحدث أحكاما لا نعرفها !

فأمر الخليفة بعزل القاضى ، فجاء القاضى إلى الليث فى مجلسه ، وأخبره بأمر العزل وأضاف : « والله لو أمرتنى بالخروج لخرجت »

فقال له الليث بصوت يسمعه الجميع : والله إنك لعفيف عن أموال الناس ، ولكنك تخالف الرسول صلى الله عليه وسلم فما تصلح للقضاء . وهكذا عاش الليث يصحح ما يراه خطأ من أحكام القضاء ، أو أوامر الحكام ، أو ما استقر فى عقول الناس ..

رأى الناس فى مصر ينتقصون عثمان بن عفان رضى الله عنه — ومن مصر انفجرت الثورة على عثمان — فنهى الناس عن ذلك ، وأوضح لهم فضائل عثمان بقيادة ابن أبى بكر وحسن بلائه فى الإسلام ومنزلته عند رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ثم إن أحد ولاية مصر هدم الكنائس .

فكتب إلى الخليفة طالبا عزل الوالى لأنه مبتدع ، مخالف لروح الإسلام . فعزله الخليفة بجهنمته ، وأشار على الوالى الجديد أن يعيد بناء ما هدم من الكنائس ، وأن يبنى كنائس جديدة كلما طلب ذلك المسيحيون فى مصر ، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « استوصوا بالقبط خيرا » ولأن أكثر الكنائس التى كانت قائمة بمصر إنما بناها الصحابة ، ممن قادوا جيش الفتح الإسلامى .

وإجماع مثل هذا العدد من الصحابة هو فى قوة السنة ، فما كانوا ليجمعوا على أمر إلا لأنهم تعلموه من الرسول .

إن عمر بن الخطاب أبى أن يصلى فى الكنيسة بيت المقدس كيلا يصنعها مسلم بعده ، ولكى تظل للكنائس حرية العبادة فيها ، واستقلالها .

ثم إن عمر بن الخطاب عاهد المسيحيين فى بيت المقدس على حماية أنفسهم وأموالهم وعقيدتهم وكنائسهم وأوقاف هذه الكنائس وأموالها ، وأقر الصحابة بالإجماع . فهذا الصنيع حجة على المسلمين إلى آخر الزمان .

ومن قبل عمر ، حذر الرسول صلى الله عليه وسلم من إيذاء أهل ، الذمة . وهم أصحاب البلاد المفتوحة من أهل الكتاب الذين لم يدخلوا الإسلام بل احتفظوا بدينهم . فهم فى ذمة الله ورسوله .

وفى الحديث الشريف : « من آذى ذميا حد (عوقب) يوم القيامة بسيطا من نار » وفى حديث شريف آخر : « من آذى ذميا فأنا خصمه »

وهذا وجه عمر إلى عمرو بن العاص فاتح مصر : « إحدراً أن يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم خصمك »

كما احتج الإمام الليث على من هدم الكنائس بقوله تعالى « ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى فى خرابها » ثم وعيده تعالى « لهم فى الدنيا خزي وفى الآخرة عذاب عظيم » والآية نزلت فى الروم الذين فتحوا بيت المقدس ، فنعوا الصلوات وأحرقوا الكنيسة ، فلم يوجد نصرانى إلا أنهك ضرباً !

بهذا الفكر المستير انطلق الإمام الليث يعظ المسلمين ، ويوثق العلاقات بين مواطنيه فى مصر من مسلمين وأقباط ، ليكونوا رحماً بينهم ، وكانت له هونفسه مودات وصدقات مع الأقباط .. وعرف الأقباط صدق الأخوة من المسلمين بحسن إسلامهم .

على أن هذا كله أغضب المتعصبين من الفقهاء وصغار الحكام ، وهم قلة حقاً ولكنهم كانوا فى بعض مواقع التأثير .. وما كانوا لينالوا من الإمام وهو حى يملأ الحياة من حوله بالحب والخير ونور العلم ، فانتظروا حتى إذا مات وثبوا على ذكره ، وثاروا على فقهه ، وحاولوا أن يطمسوا كل آثاره ، وأن يهيلوا التراب على آرائه وأفكاره .. !!

أصبح الليث بحق سيد الفقهاء ، اشتهر بحسن الرأى ، ونفاذ البصيرة ، وبتفسير القرآن بروح النصوص ، دون الوقوف عند الظاهر .. حتى لقد ألت بالرشيد ناثبة .. لم يجد له أحد من فقهاء العصر مخرجاً منها إلا الليث ..

روى لؤلؤ خادم الرشيد قال : جرى كلام بين الرشيد وزوجته زبيدة وهى بنت عمه .. فقال الرشيد لها أنت طالق إن لم أدخل الجنة ثم ندم فجمع الفقهاء فاختلفوا .. ثم أرسل إلى البلدان فاستحضروا علماءها إليه .. فلما اجتمعوا جلس لهم فسألهم ، فاختلفوا وبقي شيخ لم يتكلم ، وكان فى آخر المجلس ، وهو الليث بن سعد .. فسأله فقال : إذا أخلى أمير المؤمنين مجلسه كلمته .

فصرفهم ، ثم طلب الليث من الرشيد أن يحضر مصحفاً ، فأحضر المصحف . وقال الليث : « تصفحه يا أمير المؤمنين حتى تصل إلى سورة الرحمن فاقرأها . ففعل ، فلما انتهى إلى قوله تعالى ولن خاف مقام ربه جنتان ، أمسك يا أمير المؤمنين . قل والله .. فاشتد ذلك على الخليفة . قال الليث قل والله إنى أخاف مقام ربى .. فقال ذلك . فقال : يا أمير المؤمنين فهما جنتان وليست بجنة واحدة .

وكانت زبيدة تسمع هى وجوارها خلف ستار . فارتفع التصفيق والفرح من وراء الستر . فقال الرشيد : أحسنت والله . فأمر له الرشيد بجوائز وخلع وآلاف الدنانير ، وأمرت له زبيدة ، بمثلها وأقطعته الرشيد أرض الجزيرة كلها ، وهى من أخصب أرض مصر .

فسأله الرشيد : يا ليث ما صلاح بلدكم ؟

قال : يا أمير المؤمنين صلاح بلدنا بإجراء النيل وإصلاح أميرها ، ومن رأس العين يأتى الكدر ، فإذا صفا رأس العين صفت السواقي : فقال الرشيد صدقت . فأمر الرشيد ألا يتصرف أحد فى مصر إلا بأمر الليث بن سعد .

عاد الليث بن سعد ، وقد ارتفعت مكانته ، فقد بهر الناس حتى الفقهاء بحذقه وفهمه لروح الآية ، وبحسن تخرجه ،

وعاد بإقطاع الجزيرة فتضاعفت ثروته ، كان دخله عشرين ألف دينار فى العام ، فأصبح نحو مائة ألف .. فازداد تنعماً وتمتعا بزينة الحياة التى أحلها الله لعباده والطيبات من الرزق .. وازداد شباباً وعافية ، وازداد سخاء

كان يطعم ثلثمائة مسكين كل يوم ، فلما حصل على خراج إقطاع الجزيرة ، أمر بإطعام ثلثمائة مسكين بعد كل صلاة !

قيل له إن سلوكه ذاك إسراف ومجلبة للفقر ، فرد ، بأن الله لا يحب المسرفين هذا حق ، وما هذا الذى حصل عليه من الرشيد إلا رزق ساقه الله وفيه حق لكل صاحب حاجة .. والله تعالى يلعن الكافرين ، وينذرهم بعذاب عظيم ، حيث تكوى وجوههم وجنوبهم فى نار جهنم بما

كنزوا من ذهب وفضة .. ثم إنه لا يجيا وحده ، بل فى مجتمع يجب أن يكون كل افراده سعداء ، لكى يشعر هو نفسه بمعنى السعادة !! ثم قال لهم : «ولا تنسوا الفضل بينكم وحسبه هو من الغنى ما يكفيه هو وعياله ليحيوا حياة موفورة سهلة ممتعة .. أما ما زاد عن ذلك ، فيجب أن يوجه لكفاية الآخرين وإسعادهم .. ثم ضحك واستشهد بعجز بيت من شعرا مرئى القيس : وحسبك من غنى شيع ورى ! ..

وهكذا أصبح ما يتردد عليه أحد إلا أطعمه ، وقدم إليه الهدايا ، وأدخله فى نفقة عياله ، وما ينصرف عنه أحد إلا منحه مالا ..

ولم ينس نصيبه من الدنيا !! روى عنه أحد معاصريه ممن كانوا يترددون عليه .. فقلنا مع الليث بن سعد من الاسكندرية وكان معه ثلاث سفائن ، سفينة فيها مطبخه ، وسفينة فيها عياله ، وسفينة فيها ضيوفه . وكان إذا حضرته الصلاة يخرج إلى الشط فيصلى .

وذهب بعض أصحابه إلى مالك فى المدينة يسألونه فى بعض مسائل اختلف حولها مع الليث ، فلم يقابلهم مالك فقالوا : ليس هذا كصاحبنا « فسمعهم مالك فأمر بإدخالهم وسألهم » : من صاحبكم ؟ قالوا : الليث بن سعد قال مالك : تشبهوننى برجل كتبت إليه فى قليل من عصفر مصر نصيغ به ثياب صبيانا فأنفذ إلينا منه ما صبغنا به ثياب صبيانا وثياب جيراننا ، وبعنا الفضل بألف دينار ؟ وكان الليث قد أرسل إلى مالك حمل ثلاثين بعيرا !

وكان خلاف الليث ومالك فى الفقه مثالا للحرص على الحقيقة ، وشجاعة العالم ، فى مواجهة الخطأ ، وقدرته على الرجوع إلى الحق . قال الليث : أحصيت على مالك سبعين مسألة قال فيها برأيه وكلها مخالفة لسنة الرسول صلى الله عليه وسلم .

وقد اعترف بأنه أخطأ فى بعضها . من هذه المسائل أن الجنين يستقر فى بطن أمه ثلاث سنوات وهذا مخالف للعقل ، والعلم والطب .. وليس فى الشرع ما يخالف العقل .. ورأى مالك هذا يفتح باب الفساد للنساء اللاتى يغيب عنهن الزوج بالطلاق أو الوفاة أو السفر أو لأى سبب آخر . وتقبل مالك نقد الليث ولم يعد يفتى بهذا .

ومن هذه المسائل استغلال الأرض المزروعة بالإيجار ، فالليث يرى أن الرسول عليه الصلاة والسلام نهى ذلك فعلى صاحب الأرض أن يعمل فيها أو يستغلها بالمزراعة ويقسم الثمرات بينه وبين العاملين . فله نسبة منها لا تحجب حق العاملين ولا تظلمهم ..

وقيل ومن هذه المسائل أن مالك بن أنس كان يرى أن ديون العباد فى التركة أولى بالأداء

من دين الله كالزكاة ، فحق العباد أولى بالرعاية من حق الله ، دفعا للمضرة ، أما الله تعالى فهو غفور رحيم ، والليث يرى أن الزكاة واجب أولى بالأداء لأنها حق الله والعباد معا .

ومنها الكفاءة فى الزواج ، فالك يعتد بالنسب ، فلا يصح زواج القرشى بغير القرشية أو العربى بغير العربية .. أما الليث فالمعول عنده على الإسلام .. فكل مسلم كفء لكل مسلمة .. والقول بغير ذلك يخالف القرآن «إن أكرمكم عند الله أتقاكم» ويخالف الحديث : «لا فضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى» .

ولقد كان الإمام الليث بن سعد والإمام مالك بن أنس يتحاوران حول ما يختلفان فيه ، على ضيق مالك بالمناظرة .. وكثيرا ما كانا يتبادلان الرسائل حول المسائل المختلف عليها .. وقد لا يرد مالك على بعض آراء الليث فيفهم الليث أن صاحبه عدل عن رأيه أو يرسل إليه سائلا عن سبب امتناعه عن الرد .

وقد حفظ التاريخ رسالتين كاملتين ، تصوران التقدير والاحترام والعواطف المتبادلة بين الرجلين ، على الرغم من حدة الخلاف . كتب الإمام مالك إلى الإمام الليث : من مالك بن سعد . سلام عليك .. فإننى أحمد الله اليك الذى لا إله إلا هو . أما بعد . عصمنا الله وإياك بطاعته فى السر والعلانية وعافانا وإياكم من كل مكروه .

واعلم رحمك الله أنه بلغنى أنك تفتى الناس بأشياء مختلفة ، مخالفة لما عليه الناس عندنا ، وأنت - فى أمانتك وفضلك ، ومنزلتك من أهل بلدك ، وحاجة من قبلك إليك ، واعتمادهم على ما جاءهم منك - حقيق بأن تخاف على نفسك ، وتتبع ما ترجو النجاة باتباعه فإن الله تعالى يقول : والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضى الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ذلك الفوز العظيم . وقال تعالى : فبشر عبادى الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب .

فإنما الناس تبع لأهل المدينة . إليها كانت الهجرة وبها تنزل القرآن ، وأحل ، الحلال ، وحرم الحرام ، إذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أظهرهم يحضرون الوحى والتنزيل ويأمرهم فيطيعون ، ويسن لهم فيتبعونه حتى توفاه الله . واختار له ما عنده . صلوات الله وسلامه عليه ورحمته وبركاته .

ثم قام من بعده اتبع الناس له من أمته ممن ولى الأمر من بعده بما نزل بهم فما علموه أنفذوه وما لم يكن عندهم فيه علم سألوا عنه .

ويمضى الإمام مالك يسوق الحجج على أنه لا يجوز لأحد أن يخالف عمل أهل المدينة ، فعمل أهل المدينة بمثابة السنة المتواترة ، وإذن فلا يحق لإمام فى مكانة الليث وفقهه أن يفتى بما يخالف عمل أهل المدينة .

ثم يختم رسالته : « فانظر رحمك الله فيما كتبت إليك لنفسك واعلم أنى أرجو ألا يكون دعائى إلى ما كتبت به إليك إلا النصيحة لله وحده ، والنظر فأنت تعلم أنى لم ألك نصحا . وفقنا الله وإياك لطاعته وطاعة رسوله فى كل أمر وعلى كل حال . والسلام عليكم ورحمة الله .

فرد عليه برسالة طويلة جاء فيها « سلام عليك » . فأنى أحمد الله إليك الذى لا إله إلا هو . أما بعد . عافانا الله وإياك وأحسن لنا العاقبة فى الدنيا والآخرة . . قد بلغنى كتابك تذكر فيه من صلاح حالكم الذى يسرنى ، فأدام الله ذلك لكم وأتمه بالعون على شكره والزيادة من إحسانه . . »

ثم قال : « بلغك أنى أفتى الناس بأشياء مخالفة لما عليه جماعة الناس عندكم ، وأنى يحق لى الخوف على نفسى لاعتماد من قبلى على ما أفتيهم به ، وإن الناس تبع لأهل المدينة التى كانت إليها الهجرة وبها نزل القرآن وقد أصبت بالذى كتبت من ذلك إن شاء الله . . ووقع منى بالموقع الذى تحب ، وما أجد أحد ا ينسب إليه العلم أكره لشواذ الفتيا ولا أشد تفضيلا لعلماء أهل المدينة الذين مضوا ، ولاأخذ لفتياهم فيما اتفقوا عليه منى والحمد لله الذى لا شريك له » . أما ما ذكرت من مقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة ، ونزول القرآن بها عليه بين ظهري أصحابه وما علمهم الله منه ، وأن الناس صاروا تبعاً لهم فيه ، فكما ذكرت . وأما ما ذكرت من قول الله تعالى (والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضى الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ذلك الفوز العظيم) .

فإن كثيرا من أولئك السابقين الأولين خرجوا إلى الجهاد فى سبيل الله ابتغاء مرضاة الله ، فوجدوا الأجناد واجتمع إليهم الناس ، فأظهروا بين ظهرانيهم كتاب الله وسنة نبيه ، ولم يكتموا شيئا علموه ،

وكان فى كل جند منهم طائفة يعلمون كتاب الله وسنة نبيه ، ويجتهدون برأيهم فيما لم يفسره لهم القرآن والسنة ، وتقدمهم أبو بكر وعمر وعثمان الذين اختارهم المسلمون لأنفسهم ولم يكن أولئك الثلاثة مضيعين لأجناد المسلمين ولا غافلين عنهم ، بل كانوا يكتبون فى الأمر اليسير - لإقامة الدين والحذر من الاختلاف - بكتاب الله وسنة نبيه ، فلم يتركوا أمرا فسرهم القرآن أو عمل به النبى صلى الله عليه وسلم أو ائتمروا فيه بعده إلا علموه .

فإذا جاء أمر عمل فيه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بمصر والشام والعراق على عهد أبى

بكر وعمر وعثمان ، ولم يزالوا عليه حتى قبضوا لم يأمرهم بغيره . فلا نراه يجوز لأجناد المسلمين أن يحدثوا اليوم أمرا لم يعمل به سلفهم من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم والتابعين لهم مع أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قد اختلفوا بعد في الفتيا في أشياء كثيرة ولولا أنى قد عرفت أن قد علمتها كتبت بها إليك . ثم اختلف التابعون بعد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم »

الزهرى . وربيعة الرأى .. وخلاف مالك والليث وعبد العزيز بن عبد الله مع ربيعة أستاذهم .

ثم أخذ الليث يحصى على مالك أخطاءه وأخطاء أهل المدينة .

« من ذلك القضاء بشهادة شاهد ويمين صاحب الحق وقد عرفت أنه لم يزل يقضى بالمدينة به . ولم يقض به أصحاب رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم بالشام وبمصر ولا بالعراق ولم يكتب به إليهم الخلفاء الراشدون أبو بكر وعمر وعثمان وعلى . ثم ولى عمر بن عبد العزيز وكان كما قد علمت في إحياء السنن والحد في إقامة الدين ، والإصابة في الرأى ، والعلم بما مضى من أمر الناس ، فكتب إليه رزيق بن الحكم إنك كنت تقضى في المدينة بشهادة الشاهد الواحد ويمين صاحب الحق فكتب إليه إنا كنا نقضى بذلك في المدينة فوجدت أهل الشام على غير ذلك . فلا تقض إلا بشهادة رجلين عدلين أو رجل وامرأتين .

واستطرد الليث : « ومن ذلك أن أهل المدينة يقضون في صدقات النساء أنها متى شاءت أن تتكلم في مؤخر صداقها تكلمت فدفع إليها ... ولم يقض أحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا من بعدهم لامرأة بصداقها المؤخر إلا أن يفرق بينها موت أو طلاق فتقوم على حقها .

ثم مضى يقول : وقد أبلغنا عنكم شيئا من الفتيا مستكرها ، وقد كنت كتبت إليك في بعضها فلم تجبني في كتابي ، فتخوفت أن تكون استثقلت ذلك فتركت الكتابة إليك في شيء مما أنكره ، وفيها أوردت فيه على رأيك .. »

ومن فتيا مالك التي بلغت الليث فأنكرها ، أن الشريكين في المال لا تجب عليهما الزكاة ، حتى يكون لكل واحد منهما ما تجب فيه الزكاة ، وفي رأى عمر بن الخطاب أنه تجب عليهما الزكاة بالسوية . وهذا أخذ الليث ، ومن ذلك قول مالك بالجمع بين صلاة المغرب وصلاة العشاء في حالة المطر واختلف الليث معه في جواز الجمع .

ومن ذلك صلاة الاستسقاء ، ومالك يقدم الصلاة على الخطبة ، ورأى الليث أنها كالجمعة تتقدم فيها الخطبة والدعاء على الصلاة .

ثم قال له فى نهاية الرسالة « فلم يكن ينبغى لك أن تخالف الأمة أجمعين وقد تركت أشياء كثيرة من أشباه هذا . وأنا أحب توفيق الله إياك وطول بقائك ، لما أرجو للناس فى ذلك من المنفعة ، وما أخاف من الضيعة إذا ذهب مثلك ، مع استثناسى بمكانك وإن نأت الدار ، فهذه منزلتك عندي ورأى فيك فاستيقنه .. ولا تترك الكتابة إلى عن حالك وحال ولدك وأهلك ، وحاجة إن كانت لك أو لأحد يوصل بك . فإنى أمر بذلك .. فنسأل الله أن يرزقنا وإياكم شكر ما أولانا ، وتما ما أنعم به علينا . والسلام عليك ورحمة الله . »

فى الحق أن الرسالة صورة من أدب الخلاف فى ذلك الزمان على ان هناك مسائل فرعية أخرى اختلف عليها الصديقان خلافا شديدا .

منها أن الإمام مالك بن أنس أجاز ضرب المتهم بالسرقة للحصول على اعترافه ، حماية للأموال ، مما يحقق مصلحة عامة هى أولى بالرعاية من مصلحة المضرور !

وتساءل الليث فإذا ثبت أن المتهم برىء ؟ ! إن حماية البرىء أولى من عقاب المذنب .. ولأن يقلت عشرة مذنبين خير من ظلم برىء واحد ثم إن الضرب فى ذاته عقوبة لا يقضى بها إلا بعد ثبوت الجريمة ، وإلا فالضارب والأمر بالضرب ومن أفتى بجوازه .. كلهم مسئولون .

كما اختلف الصديقان فى حكم الشركاء فى جريمة القتل .. فذهب مالك إلى قتل جميع الشركاء كالفاعل الأسمى .. وهذا هو القصاص .. أما الليث فرأى أن هذا يخالف روح آيات القصاص فالمقصود بالقصاص هو الفاعل الأسمى ، وعقابه فى جريمة القتل هو القتل . أما الشركاء فقد أخذ فيهم الليث بحكم الإمام على وهو الحبس مدى الحياة حتى الموت .

ولاريب أن أساس كل الخلافات بين الإمام الليث والإمام مالك هو الخلاف بين منهج كل منهما فى استنباط الحكم ما لم يكن النص واضحا قطعى الدلالة .. فالإمام مالك يرد الحديث الذى يرويه صحابى واحد ، ويأخذ بعمل أهل المدينة أو بما يستحسنه ويراها محققا للمصلحة .. أما الإمام الليث فيأخذ بالأحاديث التى يرويه الآحاد ، ويقول اننا لو فتحنا باب الاستحسان والمصالح فما هى الضوابط ؟ . أكلما بدا للمفتى أو القاضى أن رأيا أحسن أو أرعى للمصلحة أخذناه ؟ وإذن تتناقض الفتاوى فى المسألة الواحدة ! ! فلا عاصم إلا ضبط الأحكام التى لم يرد بها نص قطعى بقبول الحديث الذى يرويه الصحابى الواحد مادام هذا الحديث يوافق روح القرآن ، و يوافق روح السنة ، ولا يخالف العقل ، أو يجافى مقاصد الشرع .

فإذا لم يكن فى أحاديث الآحاد أو أقوال الصحابة أحكام تواجه الأمور المستحدثة ، وتنطبق على

الأفضية الجديدة ، فلا غنى عن القياس .. وهو أ ضبط المعايير وأحراها بتحقيق العدل .

وذلك بأن نطبق الأحكام التى أوردتها النصوص على كل ما يشابهها من أفضية ومساائل وأمور إذا اتحدت العلل . وبهذا النظر وأجه الليث ما استحدث من قضايا الناس فى مصر ومساائلهم .. وهكذا استطاع أن يمهّد الطريق الوسط بين فقه السنة وفقه الرأى .

وعلى هذا سار الشافعى من بعده عندما جاء إلى مصر . لم يكن الحوار بين الصاحبين بلا جدوى ، وما ضاع سدى ، فقد عدل مالك عن آرائه أو صححها .

أما الليث فأخذ نفسه بالبحث عن الأحاديث التى تحض على مكارم الأخلاق والتى ترسم صورة المجتمع الفاضل الذى تسوده العدالة والمودة والرخاء ، ويشعر الإنسان فيه بأنه أخ للإنسان .. !

وكان يجتمع فيه مع الناس فى مجلسه بجامع عمرو ، فى داره بالفسطاط أو بقرية قلقشندة ، أو على ظهر السفينة وهو بين الفسطاط والإسكندرية .. فى كل مكان كان يحدث الناس بهذه الأحاديث التى تدفعهم إلى الجهاد من أجل حياة أفضل ، والتى تحض على مكارم الأخلاق .

ولكنه لم يكن يحدث بكل ما يعرف من أحاديث .. بل يختار ما يطمئن إلى صحته ، وما يثبت هو من صدوره عن الرسول صلى الله عليه وسلم .

ولم يكن يكتب كل ما يتحدث به فليل له : إنا نسمع منك الأحاديث ليست فى كتبك .. فقال — وكان على ظهر مركب — لو كتبت ما فى صدرى فى كتبى ما وسعه هذا المركب .

ولقد يعدل عن الرأى إذا تبين له أنه خطأ وأن هناك رأيا أوجه منه . تكلم مرة فى مسألة فقال له رجل : فى كتبك غير هذا .. فقال الإمام الليث .. : « فى كتبنا ما إذا مربنا هذ بناه بعقولنا وألسنتنا »

ظل الشيخ يعلم الناس ، ويرعى أهل العلم ويتصدق على ذوى الحاجات ، ويسد الدين عمن يشقله الدين ، ويعمر البيوت ، ويحسن كما أحسن الله إليه ، ويعين الآخرين .. ولم ينقطع يوما عن حلقاته فى مسجد عمرو أو فى بيته حتى بلغ الثانية والثمانين ، وهو يحتفظ بقوة البدن وصحة الفكر .

وأذن الله أن يتوفاه إليه فرض أياما قلائل لم يرهق خلالها بمرضه أحدا .. ثم جاءه أمر الله فتوفى فى ليلة النصف من شعبان عام ١٧٥ هـ وكان قد ملأ الدنيا بحسن سيرته بين الناس بالعلم والحكمة .

وشيعت جموع عديدة ما اجتمع بمدينة الفسطاط مثلها من قبل ولا من بعد ! . قال طالب علم لأبيه وهما ينصرفان من جنازة الإمام الليث : يا أبى .. كأن كل واحد من هؤلاء الناس صاحب الجنازة : فقال « يا بنى .. كان عالما حسن العقل كثير الأفضال . يا بنى لا ترى مثله أبدا » .

قال عنه أحد الفقهاء : « كان الليث أفتح من مالك ولكن الخطوة كانت لمالك . ولقد حزن لفقد الإمام بن سعد كل فقهاء عصره ، وقال المسلمون في كل أقطار الأرض : « ذهب سيد الفقهاء » .

أما المصريون فقد بكوه أحربكاء ولكنهم أضاعوه .. ! وذلك بأنهم لم يكتبوا تفسيره للقرآن أو الحديث ولا فقهه ! أما ما كتبه هو فقد عمل حساده من القضاة والولاة على إخفائه كما أخفى كتبه بعض المتعصبين .. !

وبعد وفاة الإمام الليث بأعوام جاء الإمام الشافعي إلى مصر يعيش فيها ويلتمس فقه الإمام الليث فلم يجد منه ما يريد .. ! .

قال الشافعي : « ما فاتني أحد فأسفت عليه كالليث بن سعد » .

ونظر فيما بقى من آثاره فقال : الليث أفتح من مالك إلا أن قومه أضاعوه وتلاميذه لم يقوموا به » .

ثم ذهب الإمام الشافعي إلى قبر الإمام الليث فصلى .. ودعا له بالرحمة . وقف طويلا يتأمل في صمت كل تلك الحياة الضخمة العريضة الزاخرة .. ذلك العقل الرائع المتوهج الخصب ، وذلك القلب الذي جعل حياة الناس من حوله نعيمًا خالصًا ، وملأها سكينه وأملًا ... الإضطرام ، والمودة ، والخير ، والعطاء ، بلا حدود والحب الخارق للبشر ، والرغبة المقدسة في إسعاد الآخرين والتقوى .. لم يبق من كل هذه الروعة شيء .. حتى الذكرى ؟ ! .. فإنا من كتاب واحد يحفظ آثار فكره ، واجتهاداته المضيئة .

واستعبر الشافعي وبكى ، وهو يقول من خلال الدمع : « الله أنت يا إمام ... ! ... لقد حزت أربع خصال لم يكملهن عالم ، العلم ، والعمل ، والزهد ، والكرم » .

الإمام الشافعي
قاضى الشريعة - وخطيب الفقهاء

على الرغم من أن الإمام الشافعي لم يكن قاضياً في مصر قط ، فإن أهل مصر يسمونه « قاضى الشريعة » .. ومازال العديد من أصحاب الحاجات الذين لم ينالوا حظاً من التعليم يتجهون إلى ضريح الإمام الشافعي فى الحى المعروف باسمه فى القاهرة ، فيقدمون الظلمات ، ويسألون الله تعالى أن يقضى لهم حاجاتهم ، ويرد عنهم الظلم ، متوسلين بالإمام الشافعي قاضى الشريعة .

وقد شاع بين أهل مصر أن الإمام الشافعي هو قاضى الشريعة ، منذ قدم إلى مصر عام ١٩٩ هـ ، وهو يخطو إلى الخمسين ، رجلاً طويلاً ممشوق القامة ، فارساً ، أسمر كأبناء النيل ، بشوشاً ضاحك الوجه . مهذب اللحية ، يصيغ لحيته وشعره بالحناء اتباعاً للسنّة ، عذب الحديث ، رخم الصوت ، يشع البريق من عينيه بصفاء الود لمن يراه ، على الرغم مما ينقل جفنيه من آثار السهر ، وطول التأمل وإعمال الفكر ، وكثرة التجوال بروحه وجسده بحثاً عن حقائق الشريعة !! .. فى ثياب خشنة نظيفة ، متكئاً على عصا غليظة ، كأنه حاج ورع أو جواب آفاق .. !

وفى الحق أن المصريين لم يخطئوا فى إطلاق اسم قاضى الشريعة على الإمام الشافعي ، فأكاد يبطأ أرض مصر حتى بحث عن قبر الإمام الليث بن سعد فوقف عليه مستعبراً .. ثم بحث عن آراء الليث وفقهه . فوجد المتعصبين من أعداء الليث وحساده ، قد أخفوا كل كتبه تحت التراب أو أحرقوها .. وظل يبحث عن كتاب « مسائل الفقه » الذي كتبه الليث بيده ، وكتاب التاريخ وكتابه فى التفسير والحديث ، وكتبه عن منابع النيل ، وتاريخ مصر قبل الإسلام ، بما حوت من أساطير وروايات تصور تاريخ الفكر المصري ومقومات شخصية أهل مصر ... فلم يعثر الشافعي على شيء من ذلك كله إلا بعض مسائل وآراء واجتهادات حفظها بعض تلاميذ الإمام الليث ، وكان الشافعي قد لقي أحدهم فى

المدينة ، وأحدهم في اليمن فتلقى عنهما بعض فقه الليث ..

وأدرك المصريون أن هذا الإمام الجديد ، سيحيى علم إمامهم الراحل الليث بن سعد الذي كادت آثاره أن تندثر ولما يفيض على رحيله غير ثلاثة أو أربعة أعوام !!

وكان أكثر ما أعجب المصريين من إمامهم الليث حرصه على الشريعة ، بحيث يتحرى في كل فتوى أن يقيس على نص قرآني ، أو على سنة ثابتة ، أو إجماع صحيح إن لم يجد ما يطلب في النصوص أو الإجماع ، بحيث يسد الطريق على من يستنبطون الحكم بما يستحسنون أو بما يرونه محققا للمصلحة .. ويشرعون بهذا السلوك في الفتيا للولاة أو القضاة الظالمين أن يحكموا بالهوى .. !!

هاهو ذا إذن إمام جديد يريد أن يحيى آثار الليث ، وأن يلزم أصول الشريعة فيما يستنبط من أحكام ، وهو يضيف إلى فقه الليث اجتهاده الخاص ، ويجادل عن الشريعة ويعلن للناس منذ اتحاد مجلسه للفتيا في جامع عمرو بالنسقاط أن القرآن فيه حكم كل شيء ، وأن السنة تفصيل وبيان لما في القرآن بكل أوجه البيان ، فعلى من أراد أن يجتهد أن يكون عليهما بالقرآن والسنة ، وقضايا الصحابة وإجماعهم ، فقيها باللغة العربية ، وبأسرار البلاغة فيها ، ويتواعد نحوها . ولن يبلغ هذا العلم حتى يكون قد حفظ الشعر الذي قاله العرب قبل الإسلام ، وبالعربية التي كان يتحدث بها البدو وقت نزول القرآن .

فقد اعترف ابن عباس وهو عليم بالتفسير أنه لم يفهم قول الله تعالى : « فاطر السموات والأرض » حتى سمع بدوية تقول عن وليدها : « أنا فطرته » ، تعني أنشأته وأوجدته .. فعلم أن كلمة فاطر بمعنى : منشيء أى خالق . فإذا اجتمع لرجل علم ذلك كله من قرآن وسنة وأقوال الصحابة ، وفقه اللغة العربية حق له أن يجتهد !

والاجتهاد هو بذل الجهد ، ففيه مشقة .. فإذا اجتهد العالم ليجد حكما أو ليصدر فتوى فليبحث أول الأمر في الكتاب والسنة ، لأن الكتاب - وما السنة إلا بيان له - فيه كل الأوامر والنواهي ، وما كان ريك ليترك الناس سدى بلا أمر ولا نهى .. فإن اجتهد العالم فهو عالم وفقه .. فإن لم يجد الفقيه في الكتاب والسنة أو إجماع الصحابة حكما ينطبق على الأمر الذي يعرض له فعليه بالقياس .. ولا قياس مع نص قياس إلا على نص .. ولا سبيل غير القياس إلى استنباط الأحكام التي تواجه الأمور المستحدثة التي لا نص علي حكمها ..

بهذا النظر جاء الإمام الشافعي إلى مصر ..

على أن الحياة في مصر طالعت به فقه جديد مما أثار على الليث بن سعد ... واجهته بكثير من الأمور

المستحدثة التي لم يواجه مثلها من قبل ..

وكان الشافعي حين قدم إلى مصر وأقام بها حتى توفي فيها سنة ٢٠٤ هـ ، كان عالما ويحفظ القرآن والحديث ويعرف إجماع الصحابة ويتقن اللغة العربية وعلومها وآدابها .. كان كل أولئك ، وكان بعد رجلا عرك الحياة وبلاها ، وتحول في كثير من البلاد ، واجتهد وأصبح صاحب مذهب ، ونشأت له من خلال هذه التجارب كلها مودات وعداوات .. كثير الأسفار ينتقل هنا وهناك ليتعلم هو ويعلم الآخرون ..

عرف الحياة منذ ولد جهادا متصلا في سبيل العيش وفي سبيل العلم ..

ومن الحق أنه قدم مصر وله مذهب في الفقه ولكنه لم يكد يقيم في مصر ، حتى غيّر كثيرا من آرائه ، وأعاد كتابة كتبه

فقد عرف في مصر ما لم يكن قد عرفه من قبل .. صحت عنده أحاديث كثيرة سمعها لأول مرة في مصر ، نقلا عن الإمام الليث .

وهو ما استطاع أن يصل إليه وأن يتعلمه من فقه الليث وآرائه وفتاواه

وعرف آراء جديدة للإمام علي بن أبي طالب لم يتح له الاطلاع عليها من قبل ...

ثم أنه عرف حضارة وتقاليد وأعرافا كلها جديدة عليه ، ليس كمثله شيء مما رأى في مكة أو المدينة أو اليمن أو سوريا أو العراق ..

عابن انطلاقا في الفكر مع التسك بروح الشريعة ، وتحورا في الرأي مع التزام مقاصد الشارع ، ورأى أن مالك بن أنس يخالفه بعض الفقهاء في مصر متأثرين بإمامهم الليث بن سعد ، وما كان يعرف أن الإمام مالك بن أنس يخالفه أحد من قبل إلا في ست عشرة مسألة . خالفه فيها أهل الرأي بالعراق ..

وناظر بعض تلاميذ الليث في خلاف أمامهم مع أستاذه مالك وأقنعه رأي الليث ، وهاله ما رأى وسمع من تعصب بعض أتباع مالك في مصر وما يليها من المغرب العربي كله والأندلس للإمام مالك ، حتى لقد كان الناس في المغرب والأندلس يتبركون بلباس للإمام مالك أخذها منه أحد تلاميذه ، فكانوا إذا دهمهم الجفاف وتأخر المطر ، وصلوا صلاة الاستسقاء اتجهوا إلى قلنسوة للإمام مالك يستسقون بها .. !

ورأى الشافعي في مصر أتباع الإمام الليث يسخرون بهذا كله ، ويهتمون صناعيه بإحياء الوثنية ، وبالشرك بالله تعالى ...

وسمع سخريه أتباع الإمام الليث من أتباع الإمام مالك حين يتناظرون .. إذ يروى أتباع الإمام الليث الحديث الشريف عن سنده إلى أن يقولوا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيرد أتباع الإمام مالك «قال أستاذنا وشيخنا الإمام مالك» .. فيقول أتباع الليث : «نقول لكم قال الرسول عليه الصلاة والسلام فتقولون بإزائه قال الإمام مالك ؟ أجعلتموه في مقام الرسول المصطفى صلى الله عليه وسلم ؟ .. لو كان الإمام مالك رضى الله عنه حيا لأفتى بأنكم ارتددتم عن الإسلام» .

كان المصريون يجلون الإمام مالك بن أنس ، على الرغم من أنهم يأخذون بآراء إمامهم الليث بن سعد في خلافه مع الإمام مالك .. ولكنهم كانوا يضيّقون بتعصب بعض أتباعه ، ويعتبرون تعصبهم وشططهم خروجاً على منهج الإمام مالك ، وإساءة لذكراه ، وهو الذي عاش يحمل في كل سيرته تقاليد السماحة الإسلامية وتراث الحكمة والموعظة الحسنة ..

رأى الشافعي عناصر جديدة من الرأى والفكر والحضارة في مصر ، واطلع على ما أنتجته المدرسة المصرية في الفقه بزعامة الإمام الليث سيد الفقهاء ، فبدأ يعيد النظر في كثير من آرائه .. وبصفة خاصة تلك التي اتبع فيها أستاذه مالك .. أو التي تأثر فيها بفقه أهل المدينة وإمامها مالك .. فألف كتاباً فيها اختلف فيه مع مالك .. ولكنه استحيا أن يصدره . وما زال قريب العهد من الجلوس إلى مالك مجلس التلميذ .. وأبقى الكتاب ينظر فيه و يعدل عاما بأسره ثم أصدره .. وعندما عوتب في هذا قال : «إن أرسطو تعلم الحكمة من أفلاطون ثم خالفه قائلاً إن أفلاطون صديقي والحق صديقي فإذا تنازعنا فالحق أولى بالصدقة» .

بهر الشافعي إذن بما شاهد في مصر من مظاهر الحضارة والتقدم والتزاوج الفكري بين الإسلام ومعطيات الحضارات التي تشكل الوجدان المصري : الحضارات القبطية والمصرية القديمة واليونانية . وهو ما لم يعرفه من قبل .. ثم الفهم العميق لروح الشريعة الإسلامية ، وتطويع الأحكام لكل مقتضيات الحاجة الإنسانية المشروعة ، مما يقيم المجتمع الفاضل الذي هو هدف الشريعة ومقصدها الأسمى ..

حتى إذا انتهى الإمام الشافعي من إعادة صياغة كتبه وتصحيح آرائه على أساس العنصر الجديد الذي تدخل في صياغة وجدانه وعقله . أعلن للناس أن آراءه ليست إلا التي كتبها في مصر . أما كتبه السابقة فلا يحق لأحد أن ينسبها إليه .. وكتب بذلك إلى أقرب أصحابه وتلاميذه إليه أحمد بن حنبل فكان الإمام أحمد يقول : «خذوا عن أستاذنا الشافعي ما كتبه في مصر» .

ولكن الشافعي لم يصل إلى ما وصل إليه إلا بعد مشقات جسام عبر رحلة عمر كابد فيها الأهوال ، حتى لقد رأى الموت رأى العين ذات مرة .

وقضى عمره كله في العيش الضنك على الرغم من ارتفاع همته ولقد عبر عن ذلك بقوله :

وأحق خلق الله بالهم امرؤ

ذو همة يبلى بعيش ضيق

ولد الشافعي سنة ١٥٠ هـ في غزة وهي السنة التي توفي فيها أبو حنيفة إمام أهل الرأي في العراق وفي هذا تمازج أحد الفقهاء من المذهب الحنفي وفقهه من المذهب الشافعي قال الحنفي «إمامكم كان مخفيا حتى ذهب إمامنا» فقال صاحبه : «ونحن الشافعية نقول لما ظهر إمامنا هرب إمامكم» .

ولد في عصر كثرفيه الجدل بين أهل الحديث وأهل الرأي . وتعصب كل فريق ضد الآخر، فكان من أهل الحديث من يرفض الرأي إطلاقا ، ومن أهل الرأي من لا يتقن حفظ عدد صالح من الأحاديث ..

وهو عصر ميز بين العالم والفقير ، أوبين العلم والفقير : فالعلم هو حفظ القرآن والأحاديث وآثار الصحابة ... أما الفقيه فهو إعمال الفكر والاجتهاد والتأمل وشحذ العقل لاستنباط حكم شرعي فيما لانص فيه .. وقد يجمع الرجل الواحد بين العلم والفقه وهؤلاء هم الأئمة العظام والفقه

وقد روى عن أحد التابعين قوله : « مارأيت أفقه من ابن عمر ، ولا أعلم من ابن عباس »

وكان أهل الحديث يقفون عند النصوص لا يعدونها فإن لم يجدوا حكما فيها ، لا يفتنون .

وأما أهل الرأي فقد نظروا في عطل الأحكام ، واستنبطوا من النصوص أحكاما لما لم يرد نص على حكمه ، إعمالا للعقل ، وإحاقا للأمور بأشباهها ونظائرها إذا توفرت علة الحكم .

وقد بلغ من وقوف بعض أهل الحديث عند ظاهر النص حدا أثار بهم سخرية أهل الرأي ، وبلغ من انطلاق أهل الرأي في استنباط الأحكام حدا جعل أهل الحديث يتهمونهم !!

وقد سأل أحد أهل الرأي واحدا من أهل الحديث في أمر طفل وطفلة رضعا معا من ضرع شاة ثم كبيرا ، أيجوز لها الزواج .

فقال صاحب الحديث : تثبت بينها حرمة الرضاع « فسأله صاحب الرأي : « بأي نص » فقال صاحب الحديث : « بقوله صلى الله عليه وسلم كل صبيين اجتمعا على ثدى واحد حرم أحدهما على الآخر » فقال صاحب الرأي ضاحكا : « قال الرسول صلى الله عليه وسلم اجتمعا على ثدى واحد لا على ضرع واحد » إنما يثبت الحديث بين الآدميين لا بين شاة وآدمي . فلو أنك أعملت العقل والرأي ما أخطأت . وما سويت بين المرأة والنعجة !

وكان أصحاب الرأي يتهمون أصحاب الحديث « بالعجز عن النظر، وبأنه كلما أورد عليهم أحد من أصحاب الرأي سؤالاً أو إشكالاً بقوا متحيرين ». ومن أجل ذلك فهم ليسوا أنصاراً للسنة، بل إن أهل الرأي أكثر انتصاراً للسنة واتباعاً لها من هؤلاء الذين يزعمون أنهم أهل السنة !

أما أهل الحديث فاتهموا أهل الرأي بأنهم يأخذون بالظن ..

على أن مالك بن أنس إمام أهل الحديث لم يكن يرى هذا الرأي في الإمام أبي حنيفة إمام أهل الرأي فقد قال فيه : « اجتمعت مع أبي حنيفة وجلسنا أوقاتاً وكلمته في مسائل كثيرة فما رأيت رجلاً أفقه منه ولا أغوص منه على معنى وحجه .

« ولكن أتباع الإمامين كان فيهم من يتعصب لشيخه ، ومن هؤلاء الأتباع من كان يشغب على الآخر .. حتى لقد عيروا أبا حنيفة ببعض حيله ، وإن كان مالك ليضحك كلما ذكرها ، ذلك « أن الموالي وهم المسلمون من أهل البلاد المفتوحة » قدموا الكوفة وكان لرجل منهم امرأة فائقة الجمال ، فتعلق بها رجل كوفي . وادعى أنها زوجته ، وادعت المرأة أيضاً ذلك : وعجز المولى زوج المرأة عن البينة ، فعرضت القضية على أبي حنيفة .. وكان من رأى أهل الحديث أن المرأة للكوفي ولكن أبا حنيفة لم يطمئن إلى الأخذ بهذا الظاهر كما صنع أهل الحديث .

ورأى أن يحقق الأمر بنفسه ... وشك في ادعاء الزوجة والكوفي فأخذ جماعة من الناس ومعهم بعض أهل الحديث ، وذهبوا إلى حيث كان ينزل المولى فنبحت كلابهم وهمت أن تهاجمهم كما تفعل مع الغرباء .. ثم عاد أبو حنيفة وأخذ الزوجة ومعهما شهود من أهل الحديث ، وأمر الزوجة أن تدخل وحدها إلى منازل المولى . فلما قربت بصبص الكلاب حولها . كما تفعل بأصحابها فقال أبو حنيفة : « ظهر الحق » . فأنقادت المرأة للحق واعترفت أنها كذبت .. وعادت إلى زوجها . وسخر أهل الرأي من أهل الحديث في هذه القضية ...

على هذا النحو كان الخلاف بين أهل الحديث وأهل الرأي .. حتى أن الشافعي عندما بدأ يطلب العلم في مجالس أهل الحديث ، جلس بعد الدرس في بيت صاحب له يتناشدان الشعر ، فأتى الشافعي على شعر الهذليين وقال لصاحبه : « لا تعلم بهذا أحداً من أهل الحديث فإنهم لا يحتملون هذا » ذلك أن أهل الحديث كان فيهم من يغلو فيرى في حفظ الشعر ودراسة الأدب علماً غير نافع .. فالعلم النافع عند هذا نفر هو القرآن والحديث وآثار الصحابة فحسب ..

أخذ الشافعي يناطح هذا كله .. ويقاوم التعصب للحديث وللرأي جميعاً ..

ليكون هدف المناظرة هو الوصول إلى حقائق الشريعة ، لا غلبة المتناظر على خصمه ..

ولكنه على الرغم من ذلك انحاز إلى أهل الحديث أول الأمر، وخاصم فيهم أهل الرأي، حتى إذا استقر به المقام في مصر تلك السنوات الأخيرة من حياته القصيرة (١٥٠ - ٢٠٤هـ) تعلم أن الإمام الليث كان قد اهتدى إلى مذهب وسط بين أهل الحديث وأهل الرأي، معتمدا على استيعاب يقظ لروح الشريعة ومقاصدها، فأعجب بأصول مذهب الليث وفروعه وزاد عليه وأضاف، ونقح في خمس سنوات عاشها في مصر كل ما كان قد كتبه طيلة حياته من قبل. وعرف ما كتبه في مصر باسم «المذهب الجديد»

والشافعي هو محمد بن أدريس بن العباس بن شافع (وقد نسب إلى هذا الجد) ابن السائب بن عبيد بن عبد يزيد بن المطلب بن عبد مناف ..

والمطلب هو شقيق هاشم بن عبد مناف .. وهاشم هو أبو عبد المطلب جد النبي صلي الله عليه وسلم وكان هاشم يقود رحلة الشتاء إلى الشام بقافلة قریش في الجاهلية ومات ودفن بغزة .

أما والددة الشافعي فهي حفيدة أخت السيدة فاطمة أم الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه .

وكان الشافعي يقول : «علي بن أبي طالب ابن عمي وابن خالتي .

فهو قرشي الأب والأم وكان أبوه فقيرا خرج من مكة يلتمس سعة من العيش في المدينة . ولكنه لم يجد ما يريد ، فخرج بأهله إلى غزة ، ومات بها بعد مولد ابنه محمد بنحو عامين .

ولم تطلق الأم المقام في غزة بعد وفاة زوجها ، فحملت وليدها محمدا إلى عسقلان وهو ابن عامين ، وكان يربط بها جيش من المسلمين ، وكانت عسقلان تسمى إذ ذاك (عروس الشام) «وخيرها دافق والعيش بها رائق»

غير أن العيش لم يرق للأرملة الصغيرة في عسقلان ، فحملت ابنها محمدا إلى مكة موطنها وموطن آبائه وأجداده ، ليعيش في قومه قریش ، ولينال نصيبه من المال ، وهو سهم ذوى القرى ولكن حظه من هذا المال كان ضئيلا لم يسمح له ولأمه إلا بحياة خشنه ، عرف خلالها الحرمان منذ نعومة أظفاره .

وعندما شب الطفل ألحقته أمه بمكتب في مكة . ولكنها لم تجد أجرا للمعلم . «فكان المعلم يقصر في تعليم الصبي إلا أن المعلم كلما علم صبيا شيئا كان الشافعي يتلقف ذلك الكلام . ثم إذا قام المعلم من مكانه أخذ الشافعي يعلم الصبيان تلك الأشياء فنظر المعلم فرأى الشافعي يكفيه من أمر الصبيان أكثر من الأجرة التي يطمع بها منه فترك طلب الأجرة واستمرت هذه الأحوال حتى تعلم الشافعي القرآن كله وهو ابن سبع سنوات .»

ثم وجهته أمه إلى إتقان تلاوة القرآن وتجويده وتفسيره على شيوخ التفسير والترتيل والتجويد في المسجد الحرام .. حتى إذا بلغ الثالثة عشرة ، كان قد أتقن القرآن حفظاً وترتيلًا وإدراكًا لما يقرأ بقدر ما يتيح عمره .

وكان عذب الصوت .. في ترتيله خشوع . وإيقاع حزين تخالجه الرهبة من خشية الله .. فكان حين يقرأ القرآن في المسجد الحرام يتساقط الناس بين يديه . ويكثر عجبهم بالبكاء من حسن صوته . فإذا رأى ذلك أمسك .

بعد ذلك اتجه إلى حفظ الحديث ، ولزم حلقات شيوخ التفسير وأهل الحديث . وكان الورق غالي الثمن ، فكان يلتقط العظام العريضة فيكتب عليها ، أو يذهب إلى الديوان فيجمع الأوراق المهملة التي ألقي بها . فيكتب على ظهرها ..

كان يجد مشقة في الحصول على ورق الكتابة ، فاعتمد على الحفظ وهكذا تكونت له حافظة قوية .. حتى لقد كان يحفظ كل ما يلقى عليه .

لاحظ أثناء إقامته في مكة أن لغة قريش قد دخلها الغريب من كلمات وتعابير المسلمين الجدد من الموالي غير العرب . فلم يعد لسانها هو اللسان العربي المبين ! ..

ثم إنه في تأمله للقرآن والأحاديث شعر بأنه في حاجة إلى زاد لغوي كبير ، وإلى تفهم أعمق لمعاني الكلمات وأسرار التراكيب .. وكان يشهد دروس الليث بن سعد إمام مصر وهو حينذاك فقيه كبير يتحلق حوله الطلاب في المسجد الحرام كلما جاء حاجاً أو معتمراً ...

في إحدى حلقات الليث إلى جوار مقام إبراهيم ، نصح مستمعيه أن يتقنوا اللغة وأسرار بلاغتها وفنون آدابها . وأن يحفظوا الشعر الذي سبق نزول القرآن الكريم وعاصره ليحسنوا فهم معاني الكتاب المنزل والأحاديث ..

ولكم نصيح الإمام الليث مستمعيه أن يخرجوا إلى البادية فيتعلموا كلام (هذيل) ويحفظوا شعرهم .. فهذيل هم أفصح العرب ، وشعر الهذليين عامر بكنوز اللغة .

ولقد حفظ الليث نفسه أشعار الهذليين ... واستشهد بها في تفسير بعض كلمات القرآن . كما فعل ابن عباس من قبل وهو شيخ المفسرين .

وخرج الفتى محمد بن أدريس الشافعي إلى بادية قريبة من مكة وعاش في مضارب خيامهم ، يحفظ عنهم أشعارهم وتراكيبهم اللغوية ، يرحل برحيلهم ، وينزل بنزولهم ويتعلم منهم .

ثم رجع إلى مكة ينشد أشعارهم ، ويذكر عنهم الأخبار .. كما قال هونفسه حتى أن الأصمعي وهو شيخ اللغويين قال وهو في أوج شهرته : «صححت أشعار الهذليين على فتى من قریش يقال له محمد بن أدريس ..

لزم الشافعي هذيلًا نحو عشر سنين ، عكف فيها على دراسة اللغة وآدابها . وحفظ الشعر ، وتعلم منهم الرماية والفروسية وبرع فيها ، حتى لقد كان يأخذ بأذن الفرس وهو يجري فيشب عليه في براعة وتمكن . !

وأتقن الرمي ، حتى قال عندما تقدم به العمر : « كانت همتي في شيئين : في الرمي والعلم فصرت في الرمي بحيث أصيب عشرة من عشرة » ثم سكت عن العلم ، فقال أحد الحاضرين : « أنت والله في العلم أكبر منك في الرمي »

عاد من البادية إذن فارسًا متفوقًا في البداية في الرماية ، ناصح البيان ، في صدره إلى جوار القرآن والحديث ، ثروة ضخمة من الشعر والآداب والأخبار والفقه واللغة

وعاد يجلس إلى حلقات شيوخه في المسجد الحرام .

جلس إلى أهل الحديث . والمفسرين من أتباع ابن عباس . وإلى العلماء والفقهاء من أتباع الإمام جعفر الصادق .. وكانوا جميعًا ينبعون من علم الإمام علي بن أبي طالب .

وعلى الرغم من أنه قد جاوز العشرين ، وأصبح يملك القدرة على اختيار شيوخه في المسجد الحرام ، فقد تعود أن يسأل أمه النصيحة ، فتشير عليه بأساء الشيوخ الذين ينبغي له أن يلزمهم .. وكانت أمه حافظة للقرآن والحديث ، بصيرة بأحكام الشريعة . ولقد ردت قاضى مكة حين استدعاها للشهادة هي وامرأة أخرى وأراد أن يفرق بينهما ، فطلبت أن تشهد الواحدة أمام الأخرى . وذكرته بالآية الكريمة : أن تفضل إحداها . فتذكر إحداها الأخرى .

وكان الشافعي بارًا بوالدته .. مستمعًا لنصائحها وقد وجهته إلى فقه الإمام علي بن أبي طالب ، ونصحته أن يلتزمه من تلاميذ ابن عباس وتلاميذ الإمام جعفر الصادق .. وكان مقاتل بن سليمان هو أعلاهم شأنًا وأبصرهم بالقرآن وتفسيره وبالحديث والفقه ..

وقد توقف الشافعي وهو ينظر في تفسير القرآن عند آية : « وقد خاب من دساها » ...

ولم يعرف معنى كلمة دساها ، فلم تكن قد عرضت له من قبل . ولم يجد الكلمة فيما تعلم من لغة العرب . وخرج إلى ظاهر مكة يسأل فيها بطنًا من هذيل ، وهم أفصح العرب ، فلم يجد عندهم جوابًا .

وطاف على شيوخ الحلقات من أهل الأثر ومفسري القرآن ، فلم يظفر بجواب شاف .. وهمة الأمر
وغمه ، فلاذ بأمه يسألها النصيحة فوجهته إلى مقاتل بن سليمان تلميذ الإمام الصادق وذهب الشافعي
إلى حلقة مقاتل بن سليمان فقال له مقاتل : دساها من لغة السودان «ومعناها أغواها ...»

اكتمل للشافعي علم حسن بالقرآن والحديث وآثار الصحابة ، وثرأ لغوى يفتح مغاليق المعاني .
وذوق أدبي يتيح له أن يدرك لطائف البلاغة وأسرار البيان .

وقال له أحد شيوخه : «آن لك أن تفتي» .

ولكن الشافعي تيب الفتيا ، فإكان إلا شابا صغيرا في سن أبناء المفتين من أصحاب الحلقات
في المسجد الحرام ... وهو بعد لم يحصل على كل ما يريد من فقه المدينة ، حيث يشع علم الإمام مالك ،
ولا من فقه العراق حيث مازال صدى جليل من آراء الإمام الراحل أبي حنيفة يدوى في جنبات
المسجد الكبير بالكوفة ، وحلقات بغداد ، وحيث مازال تلاميذه أبو يوسف ومحمد بن الحسن وغيرهما
يجادلون عن إمامهم ويضيفون إلى تراثه الجدي

ثم إن الفتى لم يعرف كما ينبغي فقه الأوزاعي بالشام ، ولا فقه الإمام الليث بمصر .. هذا الفقه
الذي اتسم بالتوفيق بين أهل الرأي وأهل الحديث ، والذي يحترم الحزبين جميعا ، يتميز بعمق الإدراك
لروح الشريعة ومقاصد الشارع ، ويواجه في يسر معجز كل ما يطرحه العصر من مسائل وقضايا .

وقرر أن يرحل في طلب الفقه من كل مدارسه ، كما رحل من قبل يلتمس الفصحى من خير
منابعها

واستأذن أمه أن يرحل إلى المدينة المنورة ليدرس على الإمام مالك فأذنت له ..

كان الفتى إذ ذاك في نحو العشرين ، خلبه مالك حين جاء إلى المسجد الحرام فألقى بعض
الدروس ، وأخذته هبة مالك وحسن معرفته بالحديث ،

وعرف عن مالك أنه على الرغم من سماحته ، صارم في عمله ، لا يبيع وقته للناس ، ولا يستقبل
من يطرق باب داره خلال ساعات العمل أو الراحة ..

ولكن الشافعي لا يريد أن يكتفي بحضور دروس مالك في المسجد النبوي ، وهي مباحة للعامة ، بل
يريد أن يلزمه ليتلقى منه علمه ، وليتاح له أن يسأله ويحاوره ...

ومالك لا يأذن بالحوار في دروسه ويترد من حلقاته كل من خالف تقاليد الدرس !! ..

مالسبيل إلى الإمام مالك إذن ! ؟

قرر الشافعي أن يحسن إعداد نفسه للقاء الإمام مالك ... فبحث عن كتابه «الموطأ» الذي أخرجه مالك منذ حين واضعا فيه كل فقهه وكل ماصح عنده من الأحاديث النبوية الشريفة .

ووجد الشافعي نسخا من الكتاب ولكنها غالية الثمن ، وهورقيق الحال .. فاستعار الكتاب من أحد شيوخه فى مكة وعكف عليه النهار والليل ، حتى حفظ الكتاب . ، بحافظته المدربة التي تعود الاعتماد عليها منذ كان لايجد ثمن الورق . ومنذ كان يدرس بالمكتب وهو صبي .

وزاده حفظ كتاب «الموطأ» شوقا إلى لقاء الإمام مالك وإلى صحبته .. !

وجهزته أمه للسفر إلى المدينة وباعت في ذلك بعض أثاث الدار ..

إنها لهجرة في سبيل العلم فهي في سبيل الله

ورأت أمه أن تسهل له لقاء مالك ، فوسطت بعض أقاربها إلى والي مكة ، ليعطي ولدها كتابا إلى والي المدينة ، عسى أن يتوسط للشافعي فيلقى مالكا ويلزمه .

ويحكى الشافعي عن هذه التجربة بعد أن أخذ كتاب توصية من والي مكة إلى والي المدينة وإلى الإمام مالك .

قال الشافعي : «فقدمت المدينة ، فأبلغت الكتاب إلى الوالي فلما قرأه قال : يافتي إن مشيبي من جوف مكة إلى جوف المدينة حافيا راجلا أهون علي من المشي إلى باب مالك بن أنس . فلست أرى الذل حتى أفق على بابه . فقلت : أصلح الله الأمير . إن رأى الأمير يوجه إليه ليحضر . فقال : هيات ليبت أنني لو ركبت أنا ومن معي ، وأصابنا من تراب العقيق نلنا بعض حاجتنا .. ! فواعدته العصر ، وركبنا جميعا فوالله لكان كما قال . لقد أصابنا من تراب العقيق ، (والعقيق حي بالمدينة يسكنه مالك) فتقدم رجل منا فقرع الباب فخرجت إلينا جارية سوداء فقال لها الأمير : (قولي لمولاي إني بالباب ، فدخلت فأبطأت — ثم خرجت فقالت : إن مولاي يقرئك السلام ويقول إن كانت لديك مسألة فارفعها في رقعة يخرج إليك الجواب . وإن كان للحديث فقد عرفت يوم المجلس فانصرف ، فقال لها : قولي له إن معي كتاب والي مكة إليه فى حاجة مهمة . فدخلت وخرجت وفى يدها كرسي . فوضعتة ثم إذا بمالك قد خرج ، وعليه المهابة والوقار وهو شيخ طويل مسنون اللحية ، فجلس وهو متطلس (يلبس الطيلسان) فرفع إليه الوالي الكتاب . فبلغ إلي هذا (أن هذا رجل يهمني أمره وحاله فتحدثه وتفعل وتصنع) فرمى الكتاب من يده ثم قال : سبحان الله . أو صار علم رسول الله صلى الله عليه وسلم يؤخذ

بالرسائل ؟ ! فرأيت الوالي قد تهيب أن يكلمه . فتقدمت وقلت : أصلحك الله . إني رجل مطلبى « من بني المطلب » وحدثته عن حالى وقصتي ... فلما سمع كلامي نظرا لى ، وكان لمالك فراسة فقال : ما اسمك : قلت محمد فقال : « يا محمد إنه سيكون لك شأن وأى شأن . إن الله تعالى قد ألقى على قلبك نورا فلا تطفئه بالمعصية . إذا ماجاء الغد تجيء ويحيىء ما يقرأ لك » . فغدوت عليه ومعى « الموطأ » وابتدأت أن أقرأ ظاهرا (من الحافظة) والكتاب فى يدى . فكلما تهيبت مالكا وأردت أن أقطع ، أعجبه حسن قراءتي وإعرابي فيقول : (يافتى زد) ، حتى قرأته عليه فى أيام يسيرة . »

ومنذ ذلك اللقاء عام ١٧٠ هـ لزم الشافعى مالكا حتى مات الإمام مالك عام ١٧٩ هـ .

لم يتركه الشافعى إلا ليزور أمه بمكة . أو ليقوم برحلة إلى إحدى عواصم العلم والفقه .. وكان يستأذن شيخه مالك بن أنس فإذا أذن له جهزه بزاد ومال ودعا الله له .

وفى المدينة التقى الشافعى بمحمد بن الحسن تلميذ أبى حنيفة وشيخ أهل رأى فى العراق ، والتقى ببعض تلاميذ جعفر الصادق ، وتعلم منهم بعض فقه الإمام الصادق وأقضية الإمام على كرم الله وجهه .. وتعلم من مذهب الإمام الصادق أن العقل هو أقوى أدوات الاستنباط حين لا يكون نص . العقل وحده هو أداة فهم النصوص لا الاتباع ولا التقليد !

وتعلم من تلاميذ الإمام الصادق رأى الإمام فى حقيقة العلم .. فالعلم ليس حفظ القرآن والحديث ومعرفة الآثار فحسب ، ولكنه يشمل كل العلوم الطبيعية والرياضية التى تفسر ظواهر الكون وتكشف عن قدرة الخالق .

وهكذا قرر أن يتعلم تلك العلوم الطبيعية والرياضية ، فتعلم من خلال رحلاته علوم الكيمياء والطب والفيزياء وتعلم الحساب والعلوم التى تجري عليها التجارة وعلم الفلك والتنجيم وهو فرع من العلوم الرياضية . وتعلم الفراسة ، ومارسها .

وقد تعرف إلى عدد من فقهاء مصر من تلاميذ الليث ، وكان من عادتهم بعد الحج أن يزوروا المدينة ليصلوا فى الحرم النبوي وليسمعوا لمالك . وقد أملى الشافعى « الموطأ » على بعضهم ونشأت بينه وبينهم صداقة انتفع بها عندما هاجر إلى مصر ومنهم ابن عبد الحكم .

ولقد رأى يوما فى الروضة الشريفة بين القبر والمنبر فتى جميل الوجه نظيف الثياب حسن الصلاة ، فتوسم فيه خيرا ، وحدثه فعرف أنه من الكوفة بالعراق فسأله : « من العالم بها والمتكلم فى نص كتاب الله عز وجل ، والفتى بأخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم » فقال : « محمد بن الحسن وأبويوسف صاحب أبى حنيفة » : فقال الشافعى : « ومتى عزمتم تظعنون ؟ » فقال الشاب : غداة عند انفجار

الفجر»

وذهب الشافعي إلى شيخه ليستأذنه أن يرحل في طلب العلم ، فقال له شيخه مالك : العلم فائدة يرجع منها إلى عائدة . ألم تعلم بأن الملائكة تضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يطلب ؟ »

فلما كان السحر وانفجر الفجر ، سار مالك مودعا تلميذه الشافعي عند محطة القوافل بالبقيع خارج المدينة

وصاح مالك يسأل عمن يؤجر راحلة إلى الكوفة ، فقال له تلميذه الشافعي : « لِمَ تكتري لي راحلة ولا شيء معك ولا شيء معي ؟ » فقال مالك له : « لما انصرفت عني البارحة بعد صلاة العشاء الآخرة ، قرع علي قارع الباب ، فخرجت إليه ، فسألني قبول هدية فقبلتها فدفعت إلي صرة فيها مائة مثقال وقد أتيتك بنصفها وجعلت النصف لعيالي » . وكان الطارق هو أحد تلاميذ الإمام الليث ، حَمَلَه الليث هذه الهدية لصديقه الإمام مالك وكان الليث قد تعود أن يصل مالكا بالهدايا الثمينة والمال الكثير

خرج الشافعي من المدينة وهو شاب في الثانية والعشرين ، فوصل الكوفة بعد رحلة شاقة استغرقت أربعة وعشرين يوما ، فاستضافه محمد بن الحسن ، وتجاوزا في الفقه ، وحضر حلقاته وحلقات زميله أبي يوسف

وكتب الشافعي كل ما وجد عند صاحبي أبي حنيفة من فقه الإمام الأعظم ، وعند ماترك الكوفة كان معه من الكتب حل بعير .

ثم طاف في بلاد فارس ، والتقى بشيوخها وجرت بينه وبينهم محاورات ، ثم سافر إلى ديار ربيعة ومضر ، وألَّم ببعض قبائل البدو ، فأصاب ما عندهم من الفصحى .. وطاف في هذه الرحلة ببغداد وشمال العراق والأناضول وحرّان ثم سافر إلى بلاد الشام وزار أمه بمكة ..

وعاد بعد عامين إلى المدينة وقد تزود بكثير من المعارف وكان يسأل طوال الرحلة عن أخبار شيخه مالك ، فعرف أنه قد اتسعت أرزاقه وأصاب الغنى ، فقد أجرى عليه الخليفة راتبا كبيرا ، ووصله بالأموال والهدايا الثمينة ..

وقصد الشافعي الحرم النبوي ، وبينما هويتها للجلوس في المسجد في حلقة الإمام مالك ، إذ فاح عطر في المسجد فتهاشم من في المسجد إنه مالك .. ورأى مالك يدخل المسجد وحوله جماعة يحملون ذيله حتى جلس على كرسيه الذي أعد له من قبل وعليه حشية ومن حوله الدفاتر . وبدأ مالك درسه فطرح مسألة على تلاميذه فلم يجبه أحد . وظل يطرح مسائل وما من مجيب . ! فضاقت صدر الشافعي ،

فنظر إلى رجل بجانبه ، وهمس إليه بالجواب .. واستمر مالك يسأل والرجل يجيب بما يهمس إليه الشافعي فسأل مالك من أين لك هذا العلم ؟ فقال الرجل : « إن بجانبى شأبا يقول لي الجواب » . فاستدعى مالك ذلك الشاب فإذا هو الشافعي .. ولم يكن مالك قد استطاع أن يراه فى زحام الحلقة . فرحب به مالك ، وضمه إلى صدره ، ونزل عن كرسيه وقال له : « أتمم أنت هذا الباب » .

رضى مالك عن شرح تلميذه الشافعي ، وما انتهى الدرس ، حتى أخذه إلى بيته وأغلق عليه .

وحكى الشافعي لأستاذه عن كل ما تعلمه ولقيه فى رحلته من طرائف .

حكى له عن تجربته مع علم الفراسة ، وكان مالك ينصح تلميذه ألا ينصرف إلى غير علوم الشريعة ، وما يعين على الفقه بها وفهم النصوص واستنباط الأحكام ، والاهتمام باللغة وآدابها ، وحفظ أخبار العرب وأيامهم ، وحفظ الشعر الجاهلي ، لأن كل أولئك أدوات لفهم نصوص القرآن والأحاديث .. أما الفراسة ففي نفس مالك شيء منها .. !

حكى الشافعي لشيخه مروحا عنه بعض ما صادفه مع علم الفراسة .. فقد مر فى رحلته برجل يقف فى فناء بيته ، وهو رجل أزرق العينين بارز الجبين ، وتأمل الشافعي ملامحه ، وقال لنفسه : « إن علم الفراسة يدل على أن هذا الرجل لثيم خبيث . وكان الشافعي مجهدا يلمس مكانا يستريح فيه . قال الشافعي : « سألت الرجل هل من منزل ؟ » قال : « نعم » . وأنزلى فما رأيت أكرم منها وبعث إلى بعشاء طيب » وعلف لدايتى ، وقراش ولحاف . فقلت : « أعلم الفراسة دل على غاية دناءة هذا الرجل وأنا لم أشاهد منه إلا خيرا . فهذا العلم باطل ! ولما أصبحت قلت للفلام : أسرج الدابة ، فلما أردت الخروج قلت للرجل : إذا قدمت مكة ومررت بذي طوى فاسأل عن منزل محمد بن أدريس : فقال الرجل أعهد أهلك أنا ؟ أين ثمن الذي تكلفت لك البارحة ؟ قلت : وما هو ؟ قال: اشتريت لك بدرهمين طعاما ، وأداما بكذا وعطرا بكذا ، وعلف دابتك بكذا ، واللحاف بكذا .. قلت: يا غلام أعطه . فهل بقى شيء ؟ قال كراء المنزل فانى وسعت عليك وضيقت على نفسى .

فضحك مالك .. وأكمل الشافعي : فعظم اعتقاده فى علم الفراسة ولم يجبه مالك بغير الضحكات ..
وقلما كان يضحك !

عاد الشافعي من هذه الرحلة باحترام كبير للإمام أبي حنيفة النعمان فقد قرأه على صاحبيه أبي يوسف ومحمد بن الحسن ، وأعجب بطريقته فى الحوار والاستنباط ، وبسعة أفقه ، وروى عنه كثيرا من حيله ، ودافع عنه .

وكانوا فى الحجاز يهاجمون أبا حنيفة ويتهمون به بأنه لا يحسن علم الحديث ، فدافع عنه الشافعى ووضعه فى مكانه ، وعلمهم أن الناس « فى الفقه عيال على أبى حنيفة » .

استقر الشافعى بالمدينة تلميذا للإمام مالك ، ثم بدأت تستقيم له طريقة فى الجدل ، فهو يلقى بالحجة دون أن يرفع صوته ، ويقول لمجادله : « خذ مكاني وأخذ مكانك » .. ويقول الرأى ، والرأى المضاد ، حتى ينتهي من هذا الأسلوب الجدلى إلى الحقيقة .

وأخذ ينتصف لأهل الرأى من أهل الحديث ، وينصف أهل الحديث من أهل الرأى ، ويقاوم التعصب المذهبي..

عاش فى ظل الإمام مالك ورعايته حتى مات الإمام مالك سنة ١٧٩ هـ والشافعى فى نحو التاسعة والعشرين . وبكى الشافعى أستاذه الإمام مالك بن أنس أحر بكاء وعكف على قراءة القرآن ملتتمسا العزاء... وشعر أنه أصبح غريبا فى المدينة .

لم تطب له الحياة بعد بالمدينة بعد أن توفي شيخه ..

وبدأ يبحث عن مكان يعمل فيه عملا يعيش منه.. وعاد إلى أمه بمكة ، مودعا المدينة من خلال الدمع.

وكان والى اليمن قد أقبل إلى الحجاز فى ذلك الوقت . فتوسط بعض أقرباء الشافعى من القرشيين عند والى اليمن ، فصحبه معه إلى اليمن ووكّل إليه عملا .

لم يكن عند أم الشافعى ما تساعد به ابنها ليتزود فى سفره هذا ، وليقيم فى اليمن حتى يقبض راتبه ، فرهنت دارا كانت لها بمكة ، وسافرت معه .

ولقد غضب منه أحد شيوخه بمكة وعَنفَه لأنه يترك الفقه من أجل الوظيفة بقوله : « تجالسونا وتسمعون منا ، فإذا ظهر لأحدكم شيء دخل فيه ؟ » .

وتولى الشافعى عملا مهما فى نجران باليمن ، وهناك عاود دراسة علوم الفراسة التي كانت مزدهرة باليمن، حتى تفوق فيها .

وجلس إلى بعض شيوخ الشيعة باليمن فتلقى منهم ، ولزم يحيى بن حسان تلميذ الليث بن سعد المصرى وصاحبه ، فأخذ عنه كل ما انتهى إليه من فقه الليث .

وقام الشافعي بعمله في نجران خير قيام ، وأحبه الناس لعدله ، ولتمسكه بالشرعية ، وإغلاقه باب المجاملة والملق

ثم انه وجد حاكم نجران يظلم الناس . ، فقاوم الحاكم ووقف في المسجد يحض الناس على مقاومته ، وأخذ يضرب لهم الأمثال لما يجب أن تكون عليه سيرة الحاكم بالإمام علي بن أبي طالب وسيرته في الخلافة ، فأثار عليه أعداء كثيرين من الذين رفض مجاملتهم

ووشي حاكم نجران بالشافعي ، ودس عليه أنه أسس حزبا علويا يعد للثورة على الخليفة ، ليولي أحد أحفاد الإمام علي ، بدلا من هارون الرشيد ، وأنه يؤيد الحفيد في الثورة على الرشيد .

وكان العباسيون غلاظا على العلويين ، يسفحون دماءهم بالظن . فقد كانوا يعرفون أن كثيرين يرون العلويين أحق منهم ومن الأمويين بالخلافة .

فزع الرشيد من قراءة كتاب والي نجران وخاصة من قوله عن الشافعي : « لأمرلي معه ولا نهني ، فهو يعمل بلسانه مالا يقدر عليه المقاتل بسيفه » .

وفى الحق أن الشافعي ما كان يخفى حبه لعلبي وللطالبيين ، فقد قيل له يوما : خالفت علي ابن أبي طالب رضي الله عنه فيما قلت . فقال لمناظره « أثبت لي هذا عن علي بن أبي طالب حتى أضع خدي في التراب وأقول قد أخطأت وأرجع عن قلبي إلى قوله »

ووجد في اليمن كثيرا من الطالبيين ، وحضر مجالس العلم معهم ولكنه كان يستمع ولا يتكلم فإذا سئل في ذلك قال : لا أتكلم في مجلس يحضره أحدهم وهم أحق بالكلام مني ولهم الرئاسة والفضل » .

وهكذا شاع عنه حبه لبني علي ، والطلالبيين جميعا .

قيل له إنك لمتشيع تشايح علي بن أبي طالب وتشايح بنيه من بعده ومنهم الثائر العلوي على الرشيد .. فقال : « يا قوم ألم يقل رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين ؟ وقال عليه الصلاة والسلام : إن أوليائي من عترتي المتقون ، فإذا كان واجبا علي أن أحب قرابتي وذوي رحمي إذا كانوا من المتقين ، أليس من الدين أن أحب قرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا كانوا من المتقين ؟ » وكتب والي نجران مرة أخرى إلى هارون الرشيد أن الشافعي يؤلب عليه الأمة وأنه يقود تسعة من الثوار ، يوالون الثائر العلوي الذي يطالب بالخلافة .

فأرسل الرشيد إلى والى نجران أن يرسل إليه الثوار مهاتين فى الأصفاد .

كانوا تسعة على رأسهم الشافعى ووضع الحديد فى أرجلهم وأعناقهم تنفيذا لأمر الرشيد وسيقروا إليه مهاتين ...

كان الشافعى فى الرابعة والثلاثين ، فارسا ، بطلا فى رياضة الرمي ، جلدا قوى البنيان ، ولكنه جهد من الرحلة والإهانة .

وأدخلوهم على الرشيد وإلى جواره محمد بن الحسن قاضى الدولة ، الذى تلقى عنه الشافعى من قبل فى الكوفة .

وكان الشافعى يدعو بهمهمة يسمعها الحاضرون : « الله بالطيف أسألك اللطف فيما جرت به المقادير » .

أنكر التسعة تهمة الثروة على الرشيد ، ولكنه أمر بقطع رؤوسهم جميعا وسأله التاسع أن يمهل حتى يكتب لأمه فليس لها غيره ، وأقسم أنه يرى من الإعداد للثروة على الرشيد ، ولكن الرشيد أمر بقطع رأسه .

كل هذا والشافعى فى الأصفاد : الأغلال فى عنقه والحديد فى قدميه ، ورأسه بالرغم من كل ذلك شامخ .

وبالله كان مجهدا .

وها هو ذا يرى الموت رأى العين ، ولكنه على الرغم من كل شيء ثابت الجنان ، عميق الإيمان لا يملك إلا أن يدعو الله بالنجاة ...

وعندما انتهى الرشيد من قتل الرجل التاسع ، قال الشافعى : « السلام عليك يا أمير المؤمنين وبركاته .. » ولم يقل ورحمة الله .

فقال الرشيد : « وعليك السلام ورحمة الله وبركاته بدأت بسنة لم تؤمر بإقامتها ، ورددنا عليك فريضة قامت بذاتها ، ومن العجب أن تتكلم فى مجلسى بغير أمرى » .

قال الشافعى : « إن الله تعالى قال فى كتابه العزيز (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا) وهو الذى إذ وعد وفى ، فقد مكنك فى أرضه وأمننى بعد خوفى حيث رددت

السلام بقولك» وعليك رحمة الله «فقد شملتني رحمة الله بفضلك يا أمير المؤمنين»

فقبال الرشيد: «وماعذرک من بعد أن ظهر أن صاحبك - يعنى الثائر العلوى طغى علينا وبغى ،
واتبعه الأردلون وكنت أنت الرئيس عليهم ؟

فقال الشافعى: «أما وقد استنطقتنى يا أمير المؤمنين فسأتكلم بالعدل والإنصاف . لكن الكلام مع
ثقل الحديد صعب فإن جدت على بفك أفصحت عن نفسى . وإن كانت الأخرى فيدك العليا ويدي
السفلى والله غنى حميد»

فأمر الرشيد بفك الحديد عنه ، وأجلسه .

وقال الشافعى: حاشا لله أن أكون ذلك الرجل ، قال تعالى: (يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق
بشياً فحبسوا...) لقد أفك المبلغ فيما بلغك وإن لى حرمة الإسلام وذمة النسب وكفى بها وسيلة .. وأنت
أحق من أخذ بكتاب الله . أنت ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم الذائد عن دينه المحامي عن
ملته وأنا يا أمير المؤمنين لست بطالبي ولا علوى وإنما أُلجِلْتُ فى القوم بغيا عليّ أنا رجل من بنى المطلب
ابن عبد مناف .. أنا محمد بن أدريس بن عثمان بن شافع بن السائب ..

فقاطعه الرشيد: «أنت محمد بن أدريس ؟

فقال الشافعى: «ولى مع ذلك حظ مع العلم والفقه ، والقاضى يعرف ذلك ،

وكان محمد بن الحسن الذي استضاف الشافعى فى الكوفة من قبل ، قد أصبح قاضى الدولة ،
يجلس بجوار الرشيد فقال له الرشيد: «ماذكرك لى محمد بن الحسن» ثم التفت إلى القاضى وسأله:
يا محمد .. مايقول هذا أهوكما يقوله ؟ فقال بن الحسن إن له من العلم شأنًا كبيرًا . وليس الذى رُفِعَ
عليه من شأنه

قال الرشيد: فخذ حتى أنظر فى أمره .

وهكذا نجا الشافعى برأسه ... وخرج إلى بيت محمد بن الحسن ضيفا عليه ..

ومازال محمد بن الحسن بالخليفة ، حتى رضى عن الشافعى ، واستدعاه ليمتحن علمه .

وعقد له مجلسا من أهل العلم والفقه والرياضيات والطبيعات والكيمياء والطب .

قال الرشيد: «إننا نراعى حق قرابتك وعلمك فكيف علمك يا شافعى بكتاب الله عز وجل فإنه
أولى الأشياء أن يُتَنَدَّ به ؟

فقال الشافعي : عن أى كتاب من كتب الله تسألنى يا أمير المؤمنين فإن الله قد أنزل كتباً كثيرة ؟
فقال الرشيد ؛ « أحسنت . لكن إنما أسالك عن كتاب الله تعالى المنزل على ابن عمى محمد رسول
الله صلى الله عليه وسلم

قال الشافعي : «إن علوم القرآن الكريم كثيرة فهل تسألنى عن محكمه أو متشابهه أو عن تقديمه أو
تأخيرها أو عن ناسخه أو منسوخه ؟ .

فأعجب الرشيد وأهل المجلس بجواب الشافعي .

ثم أخذ الرشيد يسأله عن سائر العلوم الطبيعية والرياضية من طب وكيمياء وفلك وتنجيم وفراسة ..
فصفق الحاضرون إعجاباً بحسن إجاباته ، وأجازه الرشيد بخمسين ألف دينار ، فقبلها الشافعي
شاكراً ، وخرج إلى دار مضيفه ، فلحق به أحد كبار رجال الدولة فقدم إليه صرة كبيرة بها دنائير
ذهبية ، فردها الشافعي قائلاً : « لا أقبل عطاء ممن هو دوني إنما أقبل العطاء من الخليفة وحده »

عاد الشافعي إلى دار مضيفه محمد بن الحسن ، يتأمل كل الذى دار بينه وبين الخليفة .

تعلم الشافعي من المحنة ألا يزج بنفسه فى صراع سياسى .

وحاول محمد بن الحسن أن يجذبه ليكون فى صف بنى العباس ، بدلاً من بنى على ، ولكنه آثر
العافية وأقسم ألا يخوض غمرات الصراع السياسى ، وألا يقبل منصبا فى الدولة ، فلن يهب نفسه لشيء
بعد أعظم من العلم والفقه .. واعترف أنه أخطأ حين قبل المنصب فى اليمن ، فزج بنفسه فيما ليس من
شأنه .

وعكف على دراسة الطب والعلوم الطبيعية والرياضية يستكمل مافاته منها ، واهتم بالرياضة
البدنية ، وعاد يتدرب على الرمى وركوب الخيل ، وقسم وقته بين هذا كله وبين دراساته الفقهية
ودراسة ماترجم من ثقافات المصريين القدماء القبط واليونان والفرس والهند .

واتخذ لنفسه داراً ، وبدأ يدرس فقه العراق على يد محمد بن الحسن تلميذ الإمام أبى حنيفة .

لقد درس هذا الفقه مرة عندما كان فى نحو العشرين ، وها هو ذا اليوم فى نحو الخامسة والثلاثين
وقد أكسبته السنون خبرة ، وأنضجت الدراسة والمعاناة والتأملات عقله وقلبه ، يعيد دراسة فقه أبى
حنيفة وغيره من فقهاء العراق .

و يبذل فى كل أولئك من الجهد ما جعل الطبيب يحذره من السل .

صاحب الشافعي محمدا يتلقى منه فقه أهل الرأي ، ولم يجد في ذلك غضاضة ، فقد كان دائما مشوقا إلى المعرفة ، وإلى المزيد من العلم - وكان يقول : « من حسب أنه علم فقد ضل وجهل »

ولزم الشافعي حلقة محمد بن الحسن في بغداد ، وشاهد في الحلقة مخالفة لمالك ، وهجومًا على آرائه ، وكان يستحي أن يواجه محمدا في الحلقة بخلافه معه حول الإمام مالك ، فإيكاد محمد ينصرف عن حلقاته ، حتى يسرع الشافعي في مناظرة تلاميذ محمد ، مدافعا عن فقه الإمام مالك ، وعن أهل السنة ، حتى لقد أطلقوا عليه في العراق اسم « ناصر السنة »

وعرف محمد أن الشافعي يناظر في غيابه ، فأصر محمد على أن يناظره الشافعي .

وأبى الشافعي خجلا من محمد ، ولكن محمدا ألح عليه فتناظرا في رأى الإمام مالك في الاكتفاء بشاهد واحد مع اليقين

وظهر الشافعي على محمد في المناظرة

ثم رجع الشافعي عن هذا الرأى عندما رحل إلى مصر ، وسمع من تلاميذ الإمام الليث حجة شيخهم في التمسك بشاهدين .. فأخذ الشافعي برأى الليث ...

أعجب محمد بالشافعي ، وولع بمناظراته . وأعجب الشافعي بعلم محمد وبخلقه العلمي ، فما كان يغضب إذا غلبه مناظر ، وما أسرع ما كان يعترف لمناظره بالصواب إن اقتنع بحجته .

قال عنه الشافعي : مارأيت أحدا سئل في مسألة فيها نظر إلا رأيت الكراهة في وجهه إلا محمد بن الحسن .

وقد بلغ من حب محمد للشافعي ، أنه كان على موعد مع الخليفة ، وإذا بالشافعي أمام دار محمد ، فنزل محمد عن دابته ، وقال لغلامه اذهب فاعتذر . وأخذ بيد الشافعي ، فقال الشافعي : « لنا وقت غير هذا » فقال محمد « لا »

ودخل به داره يتناظران ويتدارسان

وعلى الرغم من أن محمدا من أهل الرأي من أتباع أبى حنيفة والشافعي من أتباع مالك شيخ أهل السنة - وبين أبى حنيفة ومالك خلاف كبير في الأصول والفروع - على الرغم من ذلك فإن محمدا كان يمدح لتلاميذه علم الشافعي وسأله لماذا يؤثر الشافعي عليهم على الرغم من خلافهما فقال : لتأنيبه وتثبته في السؤال والاستماع .

أثرت الحياة الفكرية في بغداد ثراء عظيمًا بمحاورات الشافعي ومحمد بن الحسن ، وكانت مثالا لأدب المناظرة ، وبراعة المتناظرين .

لكم كان الشافعي عفيف اللسان فهو لا يسيء إلى أحد ولا يجب أن يذكر أحد بسوء أمامه .

قال له أحد أصحابه فلان كذاب . فقال : لا تقل (كذاب) بل قل حديثه غير صحيح »

وكان يعظ أصحابه : « نزهوا أسماعكم عن استماع الخنا كما تنزهون ألسنتكم عن النطق به . فإن المستمع شريك القاتل .

والشافعي على الرغم من خلافه مع أبي حنيفة إمام الرأي كان إذا سئل عن مكانته بين فقهاء العراق — ومنهم أهل الحديث — قال : « سيدهم »

ولعل أروع محاوراته مع محمد بن الحسن . هي تلك التي دارت حول الغصب

قال محمد للشافعي : « بلغنا أنك تخالفنا في مسائل الغصب » فقال الشافعي « أصلحك الله إنما هو شيء أتكلم به في المناظرة فإنني أجلك عن المناظرة

ولكن محمدا صتم على أن يناظره

فسأله : « ماتقول في رجل غصب ساحة وبنى عليها بناء وأنفق عليها ألف دينار، فجاء صاحب الساحة وأقام شاهدين على أنها ملكه ؟

قال الشافعي : « أقول لصاحب الساحة ترضى أن تأخذ قيمتها ؟ فإن رضى ، وإلا قلعت البناء ودفعت ساحته إليه .

قال محمد : فأتقول في رجل غصب لوحا من خشب فأدخله في سفينة ووصلت السفينة إلى لجة البحر، فأتى صاحب اللوح بشاهدين عدلين . أكنت تنزع اللوح من السفينة ؟

قال الشافعي « لا »

قال محمد : « الله أكبر تركت قولك ! ثم ماتقول في رجل غصب خيطا فجرحوا بطنه فخاطوا بذلك الخيط تلك الجراحة . فجاء صاحب الخيط بشاهدين عدلين أن هذا الخيط مغصوب أكنت تنزع الخيط من بطنه ؟

قال الشافعي « لا »

فقال محمد : « الله أكبر . تركت قولك » .

فقال الشافعي : أرأيت لو كان اللوح لوح نفسه (لوح صاحب السفينة) وأراد أن ينزع ذلك اللوح من السفينة حال كونها في لجة البحر ، أمباح له ذلك أم يحرم عليه ؟

قال محمد : « يحرم عليه » .

فسأل الشافعي : « أرأيت لو جاء مالك الساحة وأراد أن يهدم البناء أيحرم عليه ذلك أم يباح ؟

فأجاب محمد : « بل يباح » .

قال الشافعي : « رحمك الله فكيف تقيس مباحا على محرم ؟ » .

قال محمد : فكيف يصنع بصاحب السفينة ؟

قال الشافعي أمره أن يسيرها إلى أقرب السواحل ، ثم أقول له انزع اللوح وادفعه لصاحبه .

قال محمد : قال النبي صلى الله عليه وسلم : « لا ضرر ولا ضرار في الإسلام » .

قال الشافعي : من ضره ؟ هو ضر نفسه ثم سأل الشافعي : « ما تقول في رجل من الأشراف غصب جارية لرجل من الزنج في غاية الرذالة » .

ثم أولدها عشرة كلهم قضاة سادات أشراف خطباء . فأتى صاحب الجارية بشاهدين عدلين أن هذه الجارية التي هي أم هؤلاء الأولاد مملوكة له ماذا تعمل ؟

قال محمد : أحكم بأن أولئك الأولاد ممالك لذلك الرجل .

قال الشافعي أنشدك الله أي هذين أعظم ضررا أن تقلع البناء وترد الساحة لمالكها أو أن تحكم برق هؤلاء الأولاد ؟

فسكت محمد بن الحسن ، أما تلاميذه في الحلقة فمالوا إلى رأى الشافعي .

أقام الشافعي في بغداد أعواما قلائل . استوعب فيها كل معطياتها من العلوم الطبيعية والدينية والرياضية والفقهية ، وناظر فقهاءها ، وقرأ عليهم كتاب الإمام مالك « الموطأ » ، ودافع عن أهل الحديث ، وأقاد من أهل الرأي .

وشعر آخر الأمر بالشوق إلى مكة ، وبأنه قد جمع من المعارف ما يؤهله لأن يجلس في المسجد الحرام
مجلس المفتى والأستاذ وشيخ الحلقة

وكانت مناظراته قد أعجبت الرشيد ، فعرض عليه أن يوليه القضاء في أى مكان يريد ، أو يجعله
واليا على أى قطر يختار .

ولكن الشافعى استأذن الرشيد فى أن يتفرغ للعلم ، وأن يعود إلى مكة ليعيش بين أهله من قر يش
وينشر ماتعلمه بين الناس .

وأذن له الرشيد .

عاد الشافعى إلى أم القرى . فاتخذ له مجلسا للفتوى والتدريس فى فناء بئر زمزم بجوار مقام إبراهيم
خليل الله ... وهو المجلس الذى اختاره من قبل فى عصر الصحابة ، عبد الله بن عباس مفسر القرآن
الكريم ، وأحد الذين حفظوا فقه الإمام على بن أبى طالب وأقضيته ، وكان نائبه على الحجاز عندما
كان الإمام على كرم الله وجهه أميرا للمؤمنين . يحكم الدولة الإسلامية الغنية من الكوفة فى بيت هو
من أدنى بيوت المسلمين

عاد الشافعى من بغداد ، ولا يزال فى أذنيه طنين من ضجيج المناظرات .. وقد أتاح له مقامه
الطويل هناك أن يقترب من أهل رأى ، وأن يقترب أهل السنة من رأى .. وأن يقنع بعض أهل
الرأى بما عند أصحاب السنة ..

وما زالت صور من محاوراته مع محمد بن الحسن تلح عليه ..

فى حوار مع محمد بن الحسن شيخ أهل رأى فى العراق بعد الإمام أبى حنيفة كان الشافعى
يحاول أن يقترب المذهبين ، وكان مفتونا بذلك الطريق الوسط الذى اختطه الإمام الليث بن سعد
المصرى بين أصحاب رأى وأهل السنة .

إنه لا يستطيع اليوم أن ينحاز إلى أى الحزبين .. فكيف استطاع الإمام الليث أن يجد هذا المنهج
الوسط ؟

كانت آراء الليث قد انتهت إلى الشافعى منذ كان فى اليمن ، ولكنه كان فى حاجة إلى المزيد ،
ولابد من السفر إلى مصر ليتلقى العلم من إمامها الليث بن سعد
ولكن أهله فى مكة أم القرى يستبقونه .

وإذن فليقيم في مكة أم القرى حتى يقضى الله أمرا كان مفعولا . وحتى يؤذن له بالسفر إلى مصر .

لقد أصبح الآن يملك من عطايا هارون الرشيد ما يسمح له بالتفرغ الكامل للعلم .

وأنفق نصف ما حمله من العراق على فقراء مكة ، تنفيذاً لوصية أمه : أن يتصدق على الفقراء بنصف ما معه كلما قدم إلى أم القرى .

وهاهو ذا الآن إمام يجلس للتدريس والإفتاء . ثابتاً ، راسخاً ، مطمئن النفس

وجعل مجلسه في المسجد الحرام ساعات قليلة بعد الفجر . أما بقية النهار والليل فقد خصصه للتأمل ، ولاستنباط منهج في الفقه .

لكم هونادم لأنه أضاع وقته ، إذ قبل وظيفة في اليمن فدخل فيما ليس من شأنه على حساب ما كان ينبغي أن يحصل من معرفة ، ويشيع من علم ، وعلى حساب طلب الحقيقة والحكمة ..

على أن الوقت لم يفت بعد ، وعليه أن يعوض ما فات .. إنه ليعمل النهار والليل إذن ..

إنه ليفسر القرآن ويستنبط دلالات آياته ، ويدرس الناسخ والمنسوخ ، ويدرس السنة ومكانها من القرآن ، ويتعرف على صحيح الأحاديث من باطلها ، في عصر كثرفيه وضع الأحاديث إما مشايعة للفرق السياسية المتناحرة ، وإما كيدا للإسلام ، وإما غفلة من وضاع الحديث أو ناقله حتى لقد صح عنده أن بعض الذين سمعوا الأحاديث كانوا يسمعون بعضها فيكتفون به ، وقد يكون فيما لم يسمعه منها ما ينسخ ما نقلوه .

ثم أخذ يفكر في كيفية استخراج الأحكام إن لم يكن هناك نص في القرآن أو السنة وكيف يجتهد المجتهد وماضوابط الرأي .

ووضع كتاباً أسماه « الرسالة » فيه القواعد الكلية العامة لاستنباط الأحكام وأسس هذا الاستنباط ، وأعاد النظر فيه فنقحه واختصر منه ولكنه لم يطمئن إلى نشره ، فرأى أن يتركه بعض الوقت عسى أن يعيد النظر فيه ، بعد طرح ما فيه من أفكار على أهل حلقتة ، ومناظرة شيوخ مكة وعلماء الأمصار الذين يفدون إلى البيت الحرام .

وطال مقامه بأمر القرى هذه المرة ، وطابت له فيها الحياة ، وجذب إليه الكثيرين من رواد الحلقات الأخرى في المسجد الحرام .

وجلس إليه أحمد بن حنبل فأعجب به ، فذهب أحد إلى صحابه الذين يلتمسون العلم في حلقات

أخرى بالمسجد الحرام وأغراهم بالذهاب إلى حلقة الشافعي . و يروى أحد أصحاب ابن حنبل :
« قتل فأتى بى أحمد بن حنبل إلى فناء زمزم ، فإذا هناك رجل عليه ثياب بيض ، تعلو وجهه السمرة ،
حسن السميت ، حسن العقل ، وأجلسنى أحمد بن حنبل إلى جانبه

وقال أحمد ابن حنبل لصاحبه : « اقتبس من هذا الرجل فإنه مارأت عيناي مثله ، فإن فاتنا لن
نعوضه أبدا » .

ثم عاد الشافعي من جديد إلى كتابه الرسالة ، يتأمله ويهذهبه حتى استقام له علم أصول الفقه ،
فرأى أن يذهب إلى العراق يعرض على شيوخه هذا العلم الجديد و يناظرهم فيه .

كان قد جاوز الخامسة والأربعين ، وقد أصبحت له بمكة مدرسة وأتباع . وقد أطلقوا عليه فى مكة
« المفتى المكي » ، و « العالم المكي » .

وجلس فى حلقة بجامع بغداد ، يشرح للناس ماوصل إليه فى « الرسالة » من أصول
وهناك بهر بعلمه الفقهاء والتلاميذ ..

ذلك أنه قد انتهى إلى أن القرآن الكريم قد جمع الأحكام وجاءت السنة شرحا وتبيانا لما فى
القرآن ..

فعلى المجتهد أن يبحث عن الحكم فى القرآن أو السنة .. فان لم يجد ففى إجماع الصحابة .. إجماع
الصحابة فى كل الأقطار لا فى المدينة المنورة وحدها ، بحيث لا يصح إجماع إلا إذا اتفق عليه كل
الصحابة

فإن لم يجد المجتهد حكما فى كل ذلك ، فعليه أن يبحث فى علة الحكم الواردة بالنص ، و يلحق بهذا
الحكم مايتشابه معه فى العلة من القضايا الجديدة ، وهذا هو القياس ، وبهذا أرضى الشافعي أهل الرأى
وأهل الحديث جميعا .

احتفلت به بغداد كما لم تحتفل بفقهاء زائر من قبل ، وفرح به تلميذه أحمد بن حنبل الذى كان ألف
أن يختلف إلى حلقة و يلزمه كلما زار مكة حاجا أو معتمرا ، قاصدا إليها على قدميه .. وتمنى التلميذ
على أستاذه أن يقيم فى بغداد سنوات فينشر علمه و يؤسس فيها مدرسة فقهية جديدة .

ولكن الحياة لم تطب للشافعي فى بغداد .. لكم تغيرت بغداد خلال هذه السنوات الطوال التى
أقامها الشافعي فى مكة .. !

لم تعد بعد هي بغداد التي أحبها .. مات خير أصدقائه محمد بن الحسن ، ولحق به آخرون ، وسجن الباقون أو تركوا العراق ، وذهب الرشيد ، فاضطربت الأمور بعد موته .. اختلف أولاده .. وحارب الأخ أخاه على الخلافة .. فقد ولي الأمين ولم يكذ يستقر على العرش حتى وثب عليه أخوه المأمون فقتله ، وتولى مكانه .

وما زالت أصداء النواح على البرامكة تملأ آفاق بغداد ، منذ نكبتهم الرشيد . وهم أقرب الناس إليه ، وأعمل فيهم السيف وآلات التعذيب حتى لا يرى فوق ظهرها برمكيا

ثم إن الرشيد بطش بكل معارضيه ، وما زالوا تحت الأصفاد في كهف سحيق .. وما انفك من بين رجال العلم من يكيد لمخالفه في الرأي ويحاول أن يوقع بهم عند المأمون ، الخليفة الذهبي ..

وشيء جديد يشغل مجالس الفقه عما ينبغي أن تشغل به مما يفيد الناس في دنياهم .. فالأفكار التي تطرح على ندوات العلم والفقه هي صفات الله وعلاقتها بذات الله تعالى .. والجبر والاختيار .

ثم إن العناية بالقرآن الكريم قد عدلت عن تدبر آياته وفهم الأحكام منها ، وتحرى مقاصدها بما يضبط معاملات الناس وسيرتهم في دينهم ودنياهم ، وانصرف العلماء والفقهاء إلا قليلا إلى مناقشة صفة القرآن الكريم : أقدم هو أم مخلوق ؟

جدل نهى الصحابة عنه ، وانصرف عن مصالح العباد ، ومباحث ما كانت تشغل حلقات العلم والفقه من قبل ، بل كانت تعرض لتختفى ، فها هي ذى الآن تسيطر على العقول والقلوب . ! وهكذا كله غير ما ينبغي أن يشغل المسلمون ! ! إن هذا شيء عجيب ..

وعلى الرغم من الازدهار الحضاري الفائق ، فقد أحس الشافعي أن الجسارة الفكرية في مواجهة مقتضيات الحياة باستنباط الأحكام قد بدأت تنحسر ، ليزحف مذهب جسارة زائفة ، هي الجرأة على الشريعة نفسها ، وشغل الناس بما لا ينفعهم في مواجهة حياة كل يوم .

يواكب هذا كله دعوة ملحة إلى الزهد فيما أحله الله لعباده ، وحض الناس على القناعة بالفقر ، ليكنزوا الكائزون ، ويستمتعوا دون الرعية حتى بما حرم الله .. !

لم تعد بغداد هي المدينة التي أحبها الشافعي من قبل ، وأفاد من مناظراته لعلمائها ، وأتقن فيها علوم الطب والفلك ، والفقه .

وإذن ما بقاؤه في بغداد ! ؟

وإلى من يأنس فيها ؟ !

ومع من يقضى وقته ! ؟

لقد ألف حين زارها فى المرة الماضية أن ينفق وقته مع صفيه وأستاذه محمد بن الحسن .. أين رفاق ذلك الزمان من العلماء والفقهاء ؟ لأحد بعد !

والإنسان يحب من المدائن تلك التى يجد فيها الراحة والألفة ، وحسن الصحبة ، وجمال الرفقة .. ولكنه الآن فى بغداد لا يجد من يأنس إليه غير أحمد بن حنبل . إنه لأحب تلاميذه إليه حقا ، وما يقيم الشافعى عليه فى بغداد الآن إلا من أجل أحمد بن حنبل ..

ومر عليه شهران فى بغداد ، واستدعاه المأمون ، فعرض عليه أن يوليه منصب قاضى القضاة ، وهو فى المنصب الذى كان يشغله محمد بن الحسن أيام الرشيد ، ولكن الشافعى كان قد آلى على نفسه ألا يتولى منصبا ، وأن يخصص كل وقته للفق ، فإن وجد متسعا من الوقت فليخصصه للشعر ، وما أقل ما كان يجد الوقت لممارسة هذا الفن الحبيب إليه ! .. وما أكثر ما كان يخشى أن يُعرف عنه أنه قد أدركته حرفة الشعر فينبذه الفقهاء المتزمتون . ؟

وتلقى دعوة إلى زيارة مصر من واليها الجديد ، ومن أحد تلاميذه الذين أملى عليهم « الموطأ » فى مكة من قبل ، وألف استقباله فى كل موسم حج ، وقد أصبح تلميذه هذا الآن فقيها ذا شأن فى مصر وتاجرا واسع الغنى وهو ابن عبد الحكم .

لقد طوف الشافعى فى الآفاق وعرف الدنيا وعرف الناس ، زار اليمن والعراق والشام وفارس والأناضول ، إلا البلد الذى سمع فيه من علم وحكمة ، وتمنى أن يزوره .. زار كل عواصم الفقه ... إلا مصر .. !

وتأقت نفسه إلى زيارة مصر .. إنه يعرف أن أول كتاب ترجم إلى اللغة العربية هو كتاب مصرى فى الطب ، ترجمه فى صدر الإسلام عالم قبطى من أهل مصر .. وقد تعلم الشافعى من هذا الكتاب ... وهو يعرف أن حكماء اليونان الذين بهرته أفكارهم وكل آثارهم ، قد تعلموا الحكمة والطب والفلسفة والرياضيات فى مصر القديمة .. وهو يعرف أن مصر من بين كل البلاد المفتوحة هى البلد الوحيد الذى عرف عقيدة التوحيد قبل الديانات السماوية .. من يدري .. ربما كان بها رسل وأنبياء ممن لم يتحدث عنهم القرآن ، وقد أخبر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم فى القرآن بأنه أرسل من الرسل من لم

ينزل قصصهم فى القرآن ، ولم ينبئه بأمرهم فيما أنزل عليه من أنباء الغيب . !

وهو يعرف أن فى مصر مزاجا من الحضارات ، وأن الحضارة المصرية القديمة قد شكلت الإنسان المصرى فعلمته حب العدل والحرية والحقيقة والحكمة ، ثم جاءها الإسلام فأثبت فيها نباتا طيبا ، وصاغ لها حياة خصبة من الأخوة .. وانه ليتوق إلى التعرف على ماتركه الصحابة الأوائل فى مصر، منذ جاءوها فى جيش الفتح ، وهو بعد يريد أن يعايش تلك المدرسة المصرية العظيمة فى الفقه الإسلامى ، الغنية باجتهادات الإمام الليث ، رائد الشافعى فى الطريق الوسط بين أصحاب رأى وأهل الحديث .

وأصبح الشافعى ذات يوم فأعلن أنه راحل من غده إلى مصر، فألح عليه تلميذه أحمد بن حنبل أن يبقى معهم فى بغداد . ولكن الشافعى كان قد عزم فاعلمه إلا أن يتوكل .

وزار قبر الإمام أبى حنيفة ، وصلى ركعتين ... ولاحظ مرافقه أنه عدل عن قواعده فى حركات الصلاة إلى قواعد أبى حنيفة . فلما سأله فى ذلك قال : «أدبا مع الإمام أبى حنيفة أن أخالفه فى حضرته» .

واجتمع خلق كثير فى وداع الشافعى . أحمد بن حنبل ما برح يحاول إقناعه بالبقاء فى بغداد ، فيمسك الشافعى بيد ابن حنبل و يترنم :

«لقد أصبحت نفسى تتوق إلى مصر

ومن دونها أرض المهامه والقفر»

«ووالله ما أدرى ألفتوز والغنى

أساق إليها أم أساق إلى القبر»

وبكى أحمد بن حنبل . وبكى الشافعى والحاضرون ، ودعا الشافعى أحمد بن حنبل أن يزوره فى مصر، فوعده أحمد بالزيارة إن شاء له الله .

وصل الشافعى إلى مصر، واستقبله على أبواب الفسطاط عدد من الفقهاء ورجال الدولة كلهم يستضيفه

ويلح عليه أن يقبل الضيافة ودعاه الوالى إلى منزل كبير خصصه له ، ولكن الشافعى آثر الإقامة عند أقارب أمه ، تشبها بالرسول عليه الصلاة والسلام حين هاجر إلى يثرب ، فأقام عند أخواله .

وكانت جماعات القبائل العربية مازالت تفد إلى مصر منذ الفتح الإسلامى ، فتستوطن المنازل التى تألفها ، إما فى الفسطاط أو فى الأقاليم .

وكان أول ماصنعه الشافعى حين استقر به المقام أن ذهب إلى قبر الإمام الليث فزاره .

وقال وهو يقف على قبره : « الله درك يا إمام ، لقد حزت أربع خصال لم يكملن لعالم ، العلم والعمل والزهد والكرم »

وبعد أن فرغ من زيارة الإمام الليث سأل عن دار السيدة نفيسة ، وكانت تقيم بمصر . منذ سجن أبوها ، وكان واليا على المدينة وهى حفيدة الحسن بن على وزوجها هو إسحق المؤمن بن الإمام الصادق جعفر بن محمد حفيد الحسين بن على رضى الله عنهم .

وأستأذنوا للإمام الشافعى فى زيارتها فأذنت له ، ورحبت به ، وأعجبا عقله وورعه ، وسمع منها ما لم يكن قد وصل إليه من أحاديث شريفة .

وألف منذ تلك الزيارة أن يجلس فى حلقتها فيسمع ، ويقرأ عليها اجتهاداته .. وكان إذا أقمعه المرض عن زيارتها أرسل يسألها الدعاء فتدعوه بالشفاء ..

وبعد أن فرغ من أول زيارة للسيدة نفيسة سأل مرافقيه أن يصحبوه إلى « تاج الجوامع »

— فهكذا كان يسمى جامع عمرو إذ ذاك — فوجد الجامع يعج بحلقات الدرس ، وشاهد عجباً .. ! لم تكن كلها حلقات قرآن وحديث وفقه .. بل كانت فيها حلقات للقصاص واللغة ، والشعر ، وسائر فنون الفكر والمعرفة .. ما أروع انطلاق الحياة الفكرية هنا .. ! لقد كان من قبل يقول فى حسرة :

ولولا الشعر بالعلماء يزرى

لكنك الآن أشعر من ليبيد !

ولكنه هنا يستطيع أن يقول الشعر بلا حرج فى هذه البيئة الفكرية السمحة

جلس للتعليم والإفتاء ، وفى أول حلقة له بالجامع جلس القرفصاء على حشية وكان مريضاً بالبواسير وتصلب فى الأطراف فأراد أن يد رجله كما تعود منذ مرض عملاً بنصح الأطباء ، ولكنه لم يفعل تخرجاً منه ، واحتراماً لبعض أتباع مالك وأبى حنيفة .. وكان أتباع أبى حنيفة يكثرون الفروض ويبحثون عن أحكام للوقائع المفترضة .. وسأل أحدهم : « إذا حل رجل قرية بها ريح نجس أينقض وضوءه » ؟ هل انكشاف العورة ينتقض الوضوء فأجاب الشافعى : آن للشافعى أن يد رجله » .

وجد تقاليد جديدة فى الحلقات .. فالأستاذ لا يلقى الدرس على طلاب يستمعون ، كما ألف من

قبل وبصفة خاصة فى حلقة الإمام مالك... ولكن الأستاذ يبدأ درسه بكلام قليل ، ثم يدبر حوارا بينه وبين التلاميذ ، ومن خلال المحاورات تتفجر المسائل وتنضج الآراء

كانت هذه هى تقاليد المدرسة المصرية القديمة ، وعليها تعلم فلاسفة الإغريق ومنها أخذوا أسلوبهم فى المحاورات ...

وعلى هذا النهج سارت المدرسة المصرية فى الفقه الإسلامى

واتبع الشافعى هذا التقليد حتى فى دروس القرآن والتفسير..

وأحاط به تلاميذ الإمام الليث وأطلعوهم على ما حفظوه من شيخهم .. وكان يحسب أنهم هم الذين يلون القضاء ، وأن إليهم أمر الفقه ، ولكنه وجدهم معزولين ، يضطهدهم المتعصبون ، !

ووجد الحياة الفقهية يتنازعها أنصار الإمام مالك وأنصار الإمام أبى حنيفة ، والغلبة لأنصار الإمام مالك ، وفيهم مغالون يشتطون ، حتى لقد يؤذون من يعلن الخلاف مع مالك من أتباع الليث أو أبى حنيفة

وجادل الإمام الشافعى بعض هؤلاء المشتطين ، وقال لهم إن الإمام « مالك » بشر يخطئ ويصيب فانتفض أحدهم فى وجه الإمام الشافعى ، وسفه عليه ، ووجه إليه كلمات بذيئة ، وحل الحاضرون هذا المتعصب السفه وأخرجوه من المجلس ، والشافعى مستمر فى حديثه كأنه لم يسمع شيئا .. ! وعرف الشافعى أن هذا السفه اسمه « فتیان » وبعد انتهاء الدرس طالب تلاميذه أن يصفحوا عن ذلك السفه ..

ووضع الشافعى لنفسه نظاما لم يحد عنه . أن يبدأ دروسه بعد صلاة الفجر بعلوم القرآن ، فإذا انتهى منها جلس إلى درس الحديث .. ثم يجلس بعد هذا مجلسا لم يجلسه من قبل فى حلقة قط ، ولكنه تمنى أن يجلسه ، وهو مجلس علوم اللغة والشعر وشتى المعارف الإنسانية الأخرى .. وفى هذا المجلس الأخير كان يعظ من يستمع إليه أو يحاوره : « إنما العلم علما علم الدين وعلم الدنيا ، فأما الذى هو علم الدين فهو الفقه ، والعلم الذى للدنيا هو الطب ، فلا تسكن بلدا ليس فيه عالم يفتيك عن أمر دينك ولا طبيب ينبئك عن أمر بدنك » .

فى مجلسه الثالث كان إذا لم يجد بين الحاضرين من يحسن مذاكرته فى الشعر والأدب والعلوم الإنسانية طلب من صحبه أن يبحثوا له عن أدباء مصر وشعرائها وعلماء المعارف الإنسانية ، فما يزالون يتذكرون حتى تحين صلاة الظهر ، فيصلى بهم ، أو يصلى خلف واحد منهم ، وينصرف الجميع .

و يعود الشافعى إلى داره .. وقد يصطحب بعض صحبه للغداء معه ، ثم ينصرف إلى العمل ..

وقد تعلم من أستاذه مالك بن أنس أن يحمل الناس على احترام خلوته للعمل وعكوفه عليه ..
فالعامل عبادة يجب ألا يخلطها بشيء آخر ، ويجب ألا يسمح لأحد بإفسادها ، فالعلم لا يأتيك بعرضه إلا
أن تؤمنه كلك ..

حتى إذا فرغ من العمل وصلى العشاء ، جعل جزءا يسيرا من الليل لاستقبال الضيوف ، فيسمرون
معا ، ويتذاكرون الشعر والأخبار ، وبعض مايسرى عن النفس فى سر لطيف عذب .

وكان حسن الإصغاء ، محبا للطرائف ، وقد أعجبه الملع المصرية ، فهو يطلب حكايتها من أصحابه
المصريين معلنا إعجابه بظرف أهل مصر ..

وهو نفسه يحكى الطرائف مما شاهد فى رحلاته الطويلة

من ذلك أنه رأى فى المدينة المنورة أربع عجائب لم يرها فى بلد قط .. رأى جدة عمرها إحدى
وعشرون سنة ! ! وقاضيا حكم بإفلاس تاجر فى دين قيمته أربعة أرباط من نوى البلخ ! ! وشيخا
عمره تسعون عاما يدور نهاره حافيا راجلا قائما يعلم القيان الرقص والغناء ، فإذا جاءت الصلاة صلى
قاعداً .. واليا كان صالحا طيبا فقال « مالى لأرى الناس يجتمعون على بابى كما يجتمعون على
أبواب الولاة ؟ ! قالوا له : « لأنك لا تضرب أحدا ولا تؤذى الناس » فقال : هكذا ؟ ! على إمام
المسجد » فأحضروا له إمام المسجد فأمسكوا به على باب الوالى ، وجعل الوالى يضرب الإمام والإمام
يصرخ « أصلح الله الأمير » إيش جرى .. (أى شىء جرى ؟) وظل الإمام يصرخ والوالى يضربه حتى
اجتمع الناس .. وسرى عن الوالى وطابت نفسه ، فقد اجتمع الناس على بابه ! !

وكان مما يستعيد الشافعى روايته من ملح أهل مصر أن رجلا كان له غلام غيبى ، فقال له :
« اذهب الى السوق فاشتر حبلأ فى طول خمسة عشر ذراعا » فسأله الغلام وفى عرض كم » قال الرجل
فى عرضك ! ! فى عرضك ! ! « وغاب الغلام ساعة وعاد بلا حبل يقول : « » لم أجد حبلأ فى عرضى »

اطمأنت الحياة بالشافعى فى مصر . وجاء رمضان فصلى التراوىح بالسيدة نفيسة ، ولاحظ أن عددا من
النساء يحضرن دروس الفقه ، منهن بعض زوجات تلاميذه وأخواتهم وبناتهم . وفى حلقة الفقه بالجامع
جاءه رجل شاب كان قد طلق امرأته ثم ندم ، وأرجعها فى رمضان وقبلها فى النهار وهما صائمان ، واتجه
الرجل إلى الإمام الشافعى قائلا :

سلوا المفتى المكى هل فى تزاور
وضمة مشتاق الفؤاد جناح ؟

فأذنأه الشافعى منه وقال مبتسما :
أقول معاذ الله أن يذهب التقى
تلاصق أكباد بهن جراح

فأحاط بالرجل عدد من المتعصبين وسألوه ، ليجعلوا من القصة مأخذا وسييلا على الشافعى ..
فزعق فيهم الشاب : « ياناس .. أسأله عن امرأتى ، وحكى لهم حكاية إرجاعها وتقيلها فى نهار
رمضان .. فالإمام الشافعى يرى أن قبلته لم تذهب تقاه وصيامه .. وهذا هو رأى إمامهم مالك نقلا عن
عمر بن الخطاب عن امراته عن أم سلمة أم المؤمنين ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ..
وفى هذه البيئة الفكرية المتحررة على الرغم من شغب المتزمتين استراح الإمام الشافعى فى مصر ،
فانبسطت نفسه ، وانطلقت أفكاره .

وأخذ يذيع شعره وكثير منه مشهور مثل قوله :

وإنى لمشتاق إلى أرض غزة
وإن خاننى بعد التفريق كتمانى
سقى الله أرضا لو ظفرت بترها
كحلت به من شدة الشوق أجفانى

وقوله :

كل العداوات قد ترجى مودتها
إلا عداوة من عاذاك عن حسد

وقوله :

حسبى بعلمى أن نفع
مالذل إلا فى الطمع
مطار طير وارتفع
إلا كما طار وقع

وقوله :

أنا إن عشت لست أعدم قوتا
وإذا مت لست أعدم قبرا
همتى همة الملوك ونفسى
نفس حر ترى المذلة كفرا

ولكن الإمام الشافعى على الرغم من السماحة التى بهرتة فى مصر ، كان يعانى من ضيق أفق المتعصبين وعدوانهم على الناس .. وكان هذا النفري يتسبب إلى المذهب المالكى ويسيئون بسلوكهم إلى سمعة أستاذه وشيخه العزيز عليه .. فنصب نفسه مفندا لدعاواهم .

مرفى الطريق بفقيه من هؤلاء يمسك برجل و يتهمة فى دينه ، والأخير يهزأ بالفقيه .. وأوشكا أن يتضاربا ، فخلصهما الشافعى وقال : ما خطبكما ؟ فقال الفقيه : « رأيت يبول واقفا » . قال الشافعى : « وما فى ذلك » ؟ ، قال : « يرد الريح من رشاشه على بدنه فيصلى به ، » فسأله الشافعى : « فهل رأيت أصابه الرشاش فصلى قبل أن يغسل ما أصابه ؟ » فقال « لا » .. ولكنى أراه سيفعل » ، فضحك الشافعى وحاول أن ينصحه .. فغضب الفقيه ، وعربد على الشافعى وسبه .. وتأمل الشافعى ، فإذا هو « فتیان » الأحمق الذى سأل الشافعى حين قدم عما إذا كان ظهور العورة ينقض الوضوء ، ثم شتمه بعد ذلك فى جامع عمرو شتما منكرا .

وإن للشافعى مع « فتیان » هذا لسانا .. !

وكان « فتیان » هذا يقود جماعة من المتعصبين ، يرهب بهم أتباع الإمام الليث لأنه خالف الإمام مالك بن أنس ، و يرهب بهم من يلتفون حول الإمام الشافعى منذ اكتشف الشافعى أن الفقه المصرى يختلف مع الفقه المالكى فى كثير من الأصول والفروع ، فأخذ الشافعى برأى إمام الفقه المصرى .. الليث بن سعد .

وشرع المتعصبون لمالك يتهمون الشافعى بأنه لا يعرف الحديث ، فرد عليهم أنصار الشافعى بشهادة أحمد بن حنبل وهو من أكثر الفقهاء انتصارا للحديث « مامن أحد من أصحاب الحديث حل محبرة إلا للشافعى عليه مئة . ذلك أن أصحاب الرأى كانوا يهزأون بأصحاب الحديث حتى قدم الشافعى إلى العراق ، وأقام الحجة عليهم ! »

وعلى الرغم مما لقى الشافعى من المتعصبين ، فقد ظل يتابع حلقات الحوار والدروس ، والناس يفدون إليه من مختلف الأقطار والأمصار، مفتونين بطريقته فى الإلقاء والجدل ، وببلاغته حين يخطب

الجمعة حتى أسموه «خطيب الفقهاء»

ومرت به الشهور في مصر، وهو ينتظر مقدم صديقه وتلميذه أحمد بن حنبل.. وكثيرا ما كان يشرد ويقول: «وعدني صاحبى أحمد بالقدوم إلى مصر».. ويتمنى و ينتظر..

على أن الواقع المصرى الجديد، وما اطلع عليه الشافعى في مصر، من آراء وطرائق للاجتهاد، جعله يعيد النظر في كل ما كتبه من قبل.

لقد غير كثيرا من آرائه.

ومن أبرز الآراء التى ظهر فيها التأثير المباشر للبيئة المصرية رأيه فى الماء.. فقد كان يرى كالإمام مالك أن من حق صاحب الأرض التى بها بئر أن يبيع الماء...

ولكنه فى أرض النيل، تابع رأى الإمام الليث. فى أن صاحب الأرض التى بها بئر ليس له إلا حق السبق فى الاستعمال.. أى الامتياز فقط، وللغير بعد ذلك حق الشرب وسقى الأرض بلا مقابل.

وشرع يراجع كتاب «الرسالة» مرة ثالثة ويصقل ماتضمنه من أصول الفقه.. بل أخذ يراجع كل ما كتب من قبل فأحرق بعضه.

ونظر فى الآراء التى تابع فيها شيخه (مالك)، وعكف على فقه مالك كله يحصه على ضوء ما تعلمه فى مصر من فقه الليث..

فأعلن فى خاصته أن الإمام مالك بن أنس يقول بالأصل ويدع الفرع ويقول بالفرع ويدع الأصل.. ونشر كتابا عن خلافه مع مالك فى الأصول والفروع.. وقال إنه مع الليث فى خلافه مع مالك!

ثم عكف على فقه أبى حنيفة يحصه وانتهى من دراسته إلى نقد الإمامين مالك وأبى حنيفة. «فمالك أفرط فى رعاية المصالح المرسلة وأبو حنيفة قصر نظره على الجزئيات والفروع والتفاصيل من غير مراعاة القواعد والأصول..» وهكذا

وانقطع الشافعى، يعيد كتابة «الرسالة» ويؤلف كتابا جديدة فى الفقه، وينقح ويصوب فيما لم يحرقه من الكتب القديمة

وجهد جهدا شديدا فى هذا العمل

وروى بعض أهله «ربما قدمنا المصباح فى ليلة واحدة ثلاثين مرة أو أكثر بين يدى الشافعى ، كان يستلقى ويتذكر وينادى : «يا جارية هلمى مصباحا» فتقدمه ويكتب ويكتب ثم يأمر برفع المصباح . ثم يعود بعد برهة فيطلبه .. وهكذا . «وسأله» «لماذا لا تبقى المصباح فقد أجهدت جارىتك وأهلك ؟» . فقال : «الظلمة أجلى للفكر» فقد كان لا يحسن التأمل إلا فى السكون والظلمة .

وبعد أن فرغ من كتابة فقهه كله أرسل إلى صديقه أحمد بن حنبل أن يخبر الناس بترك كل ما كتبه الشافعى من قبل ، وأن يأخذوا آراءه من كتبه المصرية وأرسل إليه هذه الكتب المصرية . فلما نظر فيها أحمد بن حنبل أعجب بها وسأله أحد أصحابه ما ترى فى كتب الشافعى التى عند العراقيين أهى أحب إليك أم تلك التى كتبها بمصر؟ قال أحمد : «عليك بالكتب التى وضعها بمصر فإنه لم يحكم ما كتبه قبل ذلك ولكنه أحكم كل ما كتبه بمصر

اتجه الشافعى بالفقه اتجاها علميا جديدا ، فهو يعنى بالقواعد الكلية ولا يضيع وقته فى الفروع ، فالكللى ينطبق على الجزئيات .

وانتهى فى استنباط الحكم من غير النص ، إلى الاتجاه إلى الإجماع كمصدر للأحكام ، ولكنه لم يشترط إجماع الصحابة كما كان من قبل

والشافعى يطالب الفقهاء والولاة والقضاة بإتقان اللغة العربية ، لكى يفهموا النصوص حق الفهم .. فيها نزل القرآن تبيانا لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين .. فن لا يتقن العربية غير جدير بالنظر فى الشريعة .. وهو يعنى إتقان العربية إتقان عاومها من نحو وصرف وفقه لغة وبلاغة وأدب وشعر

ولقد حضر رجل من خراسان حلقة الشافعى فى جامع عمرو فسأل : ما الإيمان؟

فرد الشافعى : «فا تقول أنت فيه

فقال الرجل : الإيمان قول

قال الشافعى : من أين قلت بذلك؟

قال الرجل : «من قوله تعالى : (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات) فصارت الواو فصلا بين الإيمان والعمل

فسأله الشافعى : « فعندك الواو فصل » قال نعم »

قال الشافعى : فإذا كنت تعبد إلهين إلهاً فى المشرق وإلهاً فى المغرب لأن الله تعالى يقول (رب المشرقين ورب المغربين)

قال الرجل : « سبحان الله . أجعلتنى وثنيا ؟ قال الشافعى : »

بل أنت جعلت نفسك كذلك بزعمك أن الواو فصل .

وقد استطاع الشافعى وهو فى مصر أن يتحرر فى آرائه .. فألف كتاباً عن قتال أهل البغى لعله لم يكن يستطيع أن يضعه فى غير مصر ! .

وقتال أهل البغى قائم على تفسير قوله تعالى : « فقاتلوا التى تبغى حتى تضىء إلى أمر الله »

وقد ورد هذا النص باقتتال المسلمين ، إذا فته منهم بغت على الأخرى ..

وأهل البغى عند الشافعى هم معاوية بن أبى سفيان وجنوده الذين حاربوا أمير المؤمنين على ابن أبى طالب

والشافعى يرى قتالهم واجبا شرعيا ..

وكان بنو على مضطهدين فى حكم بنى أمية ، وظلوا كذلك فى حكم بنى العباسى .. الحكم الذى عاش فى ظله الإمام الشافعى .. فراه فى أهل البغى يؤيد حزبا تحاربه الدولة ..

لم يحفل بذلك وهو مصر ، واحتج فى قتال أهل البغى وفى حكم الأسرى منهم بما صنعه الإمام على فى معركة الجمل ومعركة صفين .. فهو لم يقتل أسيرا منهم ، ولم يقتل رجلا مدبرا عن القتال . وهو لم يخن من أموالهم إلا السلاح والخيل والدواب . أى أدوات الحرب وحدها ! والإمام على لم يقتل مدبرا من أهل البغى لأنه ربما كان هذا المدبر بإدباره قد رجع عن البغى ونوى البيعة لأمر المؤمنين . ولم يكن قتال أهل البغى دراسة تاريخية ، بل دراسة فقهية لأن الأحزاب تتقاتل ، وينبغى أن يتحدد حكم واضح فى الأمر كله ..

ولقد نقد بعض أصحاب أحمد بن حنبل شيخه الشافعى على كتابه قتال أهل البغى وقالوا إنه متشيع فقال أحمد : سبحان الله .. وهل أبغى أحد بقتال أهل البغى قبل أمير المؤمنين على بن أبى طالب ! ؟ .

مرة أخرى يضطر الشافعى إلى الاشتغال بالسياسة .. ولكنه فى هذه المرة يضطر إلى الاشتغال بالسياسة لا بحكم الوظيفة أو المنصب ، بل بحكم انشغاله الكامل بالفقه والعلم .. ! وقد أتاحت له البيئة الثقافية فى مصر أن يفكر ويقول ويكتب فى طلاقة وأمن .

وفى مصر تحدث الشافعى عن الشورى ومكانتها فى الإسلام ، واعتبرها فرضا على الحاكم والمحكوم .. بها أمر الله ورسوله .. وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يقول فيما لم ينزل فيه وحى « أشيروا على أيها الناس » .. وما كان فى حاجة إلى مشورة ، ولكنه أراد أن يسن لولى الأمر من بعده . وروى عن أحد الحكماء أنه قال : « ما أخطأت قط ، إذا حزبنى أمرشاورت قومى ، ففعلت الذى يرون ، فإن أصبت فهم المصيبون وإن أخطأت فهم المخطئون .

وعلى الحاكم أن يستشير أهل رأى ، و يأخذ برأيهم فيما فيه مصالحهم .

ومن العدل أن يحسن اختيار الولاة ، فقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم : « من ولى من أمر المسلمين شيئا فولى رجلا وهو يجحد من هو أصلح للمسلمين منه ، فقد خان الله ورسوله والمؤمنين » .

والشافعى يرى أن الحاكم واجب الطاعة مادام الناس قد اختاروه باختيار حر ، وبيعة لا إكراه فيها ولا زيف ، وإن كان هذا الحاكم قد غلب على الأمر وانتزع من صاحبه ... وهو يكتسب الشرعية من مبايعة الرعية فإن رأوا فى أمر الحاكم ما يخالف الله ورسوله فلهم ألا يطيعوه .

واستند فى هذا إلى ما كان بين عثمان وعلى ، فقد هاجم أبوذر الكائزى وعاب سلوك معاوية وجماعته ، فشكاه إلى أمير المؤمنين عثمان بن عفان ، فنهاه ، فلم يسكت أبوذر ، فنفاه الخليفة إلى مكان منقطع بالصحرى اسمه « الربرة » وأمر بأن يتجافاه الناس ، غير أن على بن أبى طالب صحب أبا ذر ، وودعه كما وودعه عدد من الصحابة . !

فقال عثمان لعلى : « .. ألم يبلغك أنى نهيت الناس عن أبى ذر وعن تشيعه ؟ . فقال على : « أو كل ما أمرتنا به من شىء نرى طاعة الله والحق فى خلافة اتبعنا أمرك ؟ بالله لا نفعل » .

ثم إن الشافعى اهتدى إلى أن عمل أهل المدينة ليس حجة على المسلمين فى كل البلاد ، فقد انتشر الصحابة فى كل الأقطار وعلموا الناس ، وقد وجد فى عمل أهل مصر ما هو أدنى للعدل وروح الشريعة ، كاستحقاق الزوجة لنصف المهر عند الطلاق .

بهذه الآراء الجديدة جلس الإمام الشافعى يعلم الناس ويحاورهم فى حلقاته الثلاث حلقة القرآن ، وحلقة الحديث ، وحلقة الأدب والمعارف الإنسانية ..

وفى هذه الحلقات لخص قواعد أصول الفقه بقوله : « نحكم بالكتاب والسنة المجمع عليها التى لا اختلاف فيها ، فنقول لهذا حكمنا بالحق فى الظاهر والباطن ، ونحكم بنسبة رويت عن طريق الانفراد لا يجتمع الناس عليها أى الأحاديث التى يروها آحاد ، ونحكم بالإجماع ثم القياس وهو أضعف من هذا ، ولكنه منزلة ضرورية لأنه لا يحل القياس والخبر موجود » .. وفى الحق أن الإمام الشافعى كلف نفسه من المشقة مالا تحتمله طاقة بشر .

فقد أعاد فى نحو خمسة أعوام كتابة مألّفه فى نحو ثلاثين عاما ، وزاد على ذلك كتابا جديدة كتبها أو أملاها «

وبلغ مجموع ما كتبه فى مصر آلاف الصفحات ، وجع معظم مألّفه فى مصر فى كتاب « الأم » وشرع يدرس هذا كله فى حلقاته ، ويحاور فيه ، وينصح مستمعيه ألا ينظروا فى علم الكلام الذى يبحث فى القدر والجبر وصفات الله ، وأن يهتموا من علوم الدين بالفقه

وقال : « إياكم والنظر فى الكلام فإن الرجل لو سئل عن مسألة فى الفقه فأخطأ فيها كما لو سئل عن رجل قتل رجلا فقال ديته بيضة كان أكثر شىء أن يُضحك منه ولو سئل عن مسألة فى الكلام فأخطأ فيها نسب إلى البدعة .

أجهد طول الجلوس للكتابة والتدريس فاشتدت عليه علة البواسير ومرض الأطراف

ولعل أخطر وأخرج ما كان يدور فيه الحوار فى حلقات الإمام الشافعى هو خلافه مع الإمام مالك ففى مصر من الحمقى والمتعصبين من لا يطيقون أن يجهر أحد بالخلاف مع مالك .

وقد اجتمع بعض هؤلاء بزعامة الفقيه الأحمق « فتیان » وطرح مسأله خلافيه ؟ وساق « فتیان » أدلة مالك فى المسألة ، وساق الشافعى أدلته .. وظهر الشافعى على « فتیان » وأقحمه فضاق صدر « فتیان » وانفجر حقه وشم الإمام الشافعى شتما قبيحا .

وكان « فتیان » هذا قد كرر العدوان على الإمام الشافعى ، والشافعى يصفح عنه

ولكن أصحاب الشافعى ذهبوا هذه المرة للوالى ورووا ما كان من أمر « فتیان » مع إمامهم ، وحقق الوالى الشكوى وشهد الشهود على « فتیان » ولكن الإمام الشافعى سكت حين سأله الوالى

فقال الوالى «لو شهد الشافعى على فتيان هذا لقطعت رأسه»

وأمر الوالى بأن يضرب «فتيان» بالسياط ، ثم طيف به على جبل ، وقد حلقت لحيته وشاربه ورأسه ، ومن أمامه المنادى ينادى : لا هذا جزاء من سب آل رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولم يكن الإمام الشافعى سعيدا بما حدث ..

عاد إلى بيته مهموما ، وغلبه نزيف البواسير ، فقد بلغ به الجهد الذى بذله وأثر فيه الانفعال .

وقال لمن حوله : إنه ليعرف علته ، ولكنه يخالف فيها الطب . فقد كانت علته تتطلب منه الراحة وعدم إطالة القعود فى الكتابة أو فى الحلقات

وزاره طبيب مصرى ،

فتناظرا فى الطب ، فأعجب به الطبيب المصرى ، وتمنى عليه أن يشتغل بالطب فقال الشافعى ضاحكا وهويشير إلى أصحابه المنتظرين خارج غرفته ، « هؤلاء لا يتركوننى »

وخرج الشافعى من داره بعد أيام إلى حلقاته من جديد .

وتربص به بعض السفهاء ممن تعصبوا لفتيان .. حتى إذا خلت الحلقة من كل أصحاب الإمام الشافعى ، وبقي وحده ، وخلا الجامع من رواه ، باغته السفهاء ، وانقضوا عليه يضربونه ضربا عنيفا بهراوات كانوا قد أخفوها فى ملابسهم .. وظلوا يضربونه حتى سقط مغشيا عليه ، وهربوا .

وحمل الإمام إلى منزله فاقد الوعى ، وعندما أفاق أخذ يعانى أوجاع الضرب ، وآلام الصدمة ، والنزيف !!

ولم يسعفه العلاج فأرسل إلى السيدة نفيسة يسألها الدعاء كما تعود كلما ألم به مرض من قبل ، فقالت لرسول الإمام « أحسن الله لقاءه ومتعته بالنظر إليه »

فعلم أنها النهاية .

وجاءه أحد عواده يقول له : « قوى الله ضعفك يا إمام » فتبسم الشافعى ورد عليه : « قوى الله ضعفى ؟ ! أتدعوا الله أن يزييدنى ضعفا ؟ .. ادع الله أن يذهب عنى ضعفى وأن يقوى عافيتى لاضعفى »

ونصحه أن يعنى هو وسائر الفقهاء بإتقان علوم اللغة العربية والعلة تشتد والنزيف يستمر ..
فنادى أحد أصحابه الذين لزموا داره خلال العلة وطلب منه أن يقرأ عليه ما بعد العشرين والمائة
من سورة آل عمران

« وأوصى لجواريه الثلاث وغلّامه ، وترك لأبنائه ولأهله إرثهم الشرعى
حتى إذا كانت ليلة الجمعة ٢٨ من رجب سنة ٢٠٤ هـ . انتقل إلى جوارربه وهوفى الرابعة
والخمسين ، بعد أن ملأ طباق الأرض فقهها وعلمها ، خلال هذا العمر القصير
وشُيّع يوم الجمعة آخر رجب وحملت جنازته إلى بيت السيدة نفيسة . فصلت عليه وقالت : رحمه
الله . كان رجلا يحسن الوضوء » .. وهى تعنى بالوضوء أصل العبادة أى أنه كان رجلا صالحا حسن
العبادة .

وهكذا قضى الشافعى شهيد الرأى ، بعد حياة حافلة بالنضال الفكرى .
وعندما علم أحمد بن حنبل بوفاته بكى وقال « إنا لله وإنا إليه راجعون .. رحمه الله كان كالشمس
فى الدنيا وكالعافية للناس . فانظر هل لهذين من خلف أولهما عوض ؟
ولكن الإمام أحمد بن حنبل كان نعم الخلف وخير العوض .

الإمام أحمد بن حنبل
الإمام المفتي عليه

صامت يطيل السكوت والتأمل ، حزين يكاد لا يبتسم ، وفى وجهه مع ذلك البشاشة وعلى قسماته الرضى ، لا يتكلم إلا إذا سئل فلا يبتدر أحدا بحديث .. حتى إذا جلس فى الحلقة بعد كل صلاة عصر فى المسجد الجامع ببغداد ، وسأله الناس فى أمور الدين والدنيا انفجر منه علم غزير نافع يهر السائلين ! ..

قال عنه بعض الفقهاء : « إنه جمع العلم كله » . وقال عنه بعض العلماء : « إنه ليس من الفقه فى شىء » . وقال عنه الإمام الشافعى حين ترك بغداد إلى مصر : « تركت بغداد وما فيها أفقه ولا أعلم من أحمد بن حنبل » .

وفى الحق أن أحمد بن حنبل ظلم حيا وميتا .

أما حياته فقد كانت نضالا متصلا ضد الفقر، وضد عادات عصره .. فقد حملته أمه وهى حامل به من « مزو — حيث كان يعمل أبوه فى جند الخليفة — إلى بغداد ، ولم تكد تضع وليدها أحمد حتى مات وترك له عقارا عاشت من غلته هى والصغير .. حتى إذا شب الصغير وزادت مطالبه ، عرفت أمه ضيق العيش ، ولكن الأرملة الشابة رفضت أن تتزوج على الرغم من جاهها وشبابها وطمع الخطاب فيها ، ووقفت حياتها على تربية وحيدها أحمد ، فأحسنّت تربيته ، ودفعت به إلى مقرئ ليعلمه القرآن ، فحتمه وهو صبى ، وظل حياته كلها يعاود قراءته والتفكر فيه ..

وعند ما وثبت به الحياة إلى الفتوة وجد من حوله دنيا عجيبة حقا ، تطفئ فيها البدعة على السنة ، ويشقى فيها عالم الأمر بجاهله ، وتكتظ خزائن بعض الناس بالذهب والفضة بحيث لا يعرفون كيف ينفقونها ، وعلى مقربة منهم يسقط بعض النساء والرجال فى حمأة العار بحثا عن الحياة الأفضل أو عن الطعام وسط أوحال النفاق والخطيئة ! ..

وأصوات خادعة أو مغدوعة تحبب الناس فى الانصراف عن طيبات الحياة مما أحل لهم ، باسم الورع أو الزهد ، وتحضهم على ترك الحقوق لها ضميمها أو مغتصبها ! ..

ووسط هذه النداءات المنكرة التى لم يعرفها السلف قط ، تزف عروس إلى ابن الخليفة الذى يجب أن يعيش كما يعيش أواسط الناس من رعيته ، فإذا بكل رجل من المدعوين إلى حفل الزفاف من كبار القوم يُسلم رقعة هى صك هبة : بضیعة وجارية ودابة ... فضلا عن الدرا المنثور ! ! ... أما سائر الناس فتنثر عليهم الدنانير والدراهم وحقاق المسك والعنبر ! !

هكذا طالعت الدنيا شابا حفظ القرآن صغيرا وتدبر فى أحكامه وتعلم علم الحديث ، فما كان منه إلا أن أعلن إنكاره لهذا كله ، وسمى كل ما يحدث بدعة ونذر نفسه لمقاومتها ولإحياء سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم .. فاتهموه بالتزمت !

هكذا عاش حياته .. !

أما بعد موته فقد ابتلى ببعض أتباع نسبوا إليه ما لم يقل وما لم يصنع ، وفرعوا على أصوله ما هو برىء منها ، وأسرفوا على الناس حتى لقد كانوا يطوفون بمدائن المسلمين يغيرون بأيديهم ما يحسبونه بدعة ، أو منكرا ، ويفرضون ما يتخيلونه سنة ، وغالوا فى هذا حتى نال الناس منهم أذى وعنيت ، فكرههم الناس ونسبوههم إلى الحماقة وضيق الأفق وسخروا بهم ، وأزروا على مذهبهم .. وأصبحت كلمة الخنبلى أو الخنابلة تعنى التبذل والتجبر والتعصب المذموم ! !

ولقد كتب ابن الأثير يصف ما كان يحدث من نفر من أتباع الإمام أحمد سنة ٣٢٣ من الهجرة : « وفيها عظم أمر الخنابلة ، وقويت شوكتهم ، وصاروا يكبسون الدور (أى يهاجمونها) فإن وجدوا بها نبيذا أراقوه ، وإن وجدوا مغنية ضربوها وكسروا آلة الغناء . واعترضوا فى البيع والشراء . ومشى الرجال مع النساء والصبيان فإذا رأوا ذلك سألو الرجل عن التى معه من هى فأجبرهم ، وإلا ضربوه وحملوه إلى صاحب الشرطة وشهدوا عليه بالفاحشة . فأزعجوا بغداد . »

وما كان الإمام أحمد ليزعج أحدا ، وما كان فظا ولا غليظ القلب بل كان يجادل بالتى هى أحسن وكان يدعو إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة إعمالا لكتاب الله وسنة رسول الله عليه الصلاة والسلام ..

وما كان الإمام أحمد متعصبا لرأى ارتآه بل كان يحاور ، ويرجع عن رأيه إن تبين له ما هو أصح . حتى لقد نهى عن كتابة فقهه لأنه كثير العدول عن آرائه .. !

وما كان ضيق الأفق ، أو جامد الفكر ، أو متقبا عن عيوب الناس .. ما كان الإمام أحمد من هذا

كله فى شىء . فقد كان من أوسع الناس أفقا ، ومن أعمق العلماء إدراكا لروح الشريعة ، ومن أكثر الفقهاء تحريرا لها من الجمود وتحررا بها فى المعاملات .

ولكنه عاش فى عصر تغشاه البدع و يسوده الترخص الذى قد يزلزل عمود الدين فكان عليه أن يأخذ الكتاب بقوة .. ! .. ولقد قال عنه أحد معاصريه : « مارأيت فى عصر أحمد بن حنبل ممن رأيت ، أجمع منه ديانة وصيانة وملكا لنفسه ، وفقها وأدب نفس ، وكرم خلق وثبات قلب وكرم مجالسة وأبعد عن التماوت .

ولد أحمد بن حنبل فى بغداد عام ١٦٤ هـ من أبوين عربيين .. مات أبوه وهو طفل وترك له معاشا ودارا يسكنها هو وأمه وعقارا يغل غلة لها قليلة ..

وكان عمه يعمل فى خدمة الخليفة الرشيد ، ويجمع أخبار بغداد و يسلمها إلى والى البريد (الأمير المسئول عن البريد) ليوصلها إلى الخليفة إذا كان الخليفة خارج بغداد .. وانقطعت أخبار بغداد عن الخليفة فأرسل إلى والى يسأله ، فسأل والى عم أحمد ، وكان أحمد غلاما صغيرا ، وكان عمه يرسله بالأخبار إلى والى ... فسأله عمه : « ألم أبعث الأخبار إلى والى ؟ فقال : نعم ، فقال عمه : « فلأى شىء لم توصلها ؟ » قال أحمد : « رميت بها فى الماء ! .. ألأنا أوصل الأخبار ؟ ! »

وحين سمع والى بما كان من أمر أحمد والأخبار قال : « إنا لله وإنا إليه راجعون .. هذا غلام يتورع ، فكيف نحن ؟ » .

على هذا الورع نشأ أحمد بن حنبل ، حتى أن نساء الجند الذين سافروا مع الرشيد فى الغزو كن لا يجدن فتى غيره يثقن فيه ، فيقرأ لهن رسائل الأزواج ، ويعلمنه الردود .. ولكنه كان لا يكتب الكلام الفاحش الذى قد تمليه بعض الزوجات المشوقات إلى الأزواج ! ..

ولقد أدرك منذ نشأ أن أمه تعاني فى سبيل توفير حياة كريمة له ، وأنها ترفض الخطاب من أجله ، فحرص على أن يعوضها ، وبذل كل جهده فى الدرس حتى يحصل علوما ومعارف كثيرة فى سن صغيرة معتمدا على نفسه . قال أحد جيرانه : « أنا أنفق على ولدى وأجبتهم بالمؤدبين على أن يتأدبوا ، فأأراهم يفلحون ، وهذا أحمد بن حنبل غلام يتيم .. أنظروا كيف أدبه وعلمه وحسن طريقتة ! » .

لقد أنضجته الاعتماد على النفس ، وحرصه على أن يكافئ أمه على صبرها وتضحيتها بالتفوق ، حتى لقد أعجب أساتذته فقال أحدهم : « إن عاش هذا الفتى فسيكون حجة على أهل زمانه » .

على أن الفتى شعر أنه أصبح هما ثقيلا على أمه .. وإن كان قد أحسن مكافأتها بانقطاعه إلى

الدرس ، وذيق أمره بين الأساتذة والتلاميذ ..

وكان أحد قد رأى أمه تبيع درتين لتعينه على طلب العلم ، فآلى بينه وبين نفسه ألا يجشمها مالا بعد

وأراد أن يوفر لأمه ماترك أبوه من غلة العقار الذى مات عنه وهو بناء كبير يحوى عدة حوانيت تغل كلها سبعة عشر درهما فى كل شهر .. ! .. وكان فى أحد هذه الحوانيت نساخ فتعلم منه وعاونه ، فقد حفظ أحمد فيما يحفظ من أحاديث أن أطيّب ما يأكله الإنسان هو ما يكسبه من عمله .. وكان أحمد حفيا بالسنة حريصا عليها ، من أجل ذلك حرص على ألا يأكل إلا من عمل يده .. !

على أن عمل يده لم يكن يكفيه للطعام ولواجهة أعباء الحياة ، منذ صمم على أن ينزل لأمه عن غلة العقار الذى مات عنه أبوه ، فلجأ إلى الاقتراض ، ولقد أدرك بعض دائنيه ضيق حاله فأبى عليه رد الدين قائلا : « ما دفعتها وأنا أنوى أن آخذها منك » فقال له أحمد : « وأنا ما أخذتها إلا وأنا أنوى أن أردّها إليك »

على أن الحياة كانت تثقل عليه بمطالبها فى بعض الأحيان ، فلا يجد طعاما .. فيذهب إلى المزارع والبساتين ، ليلتقط ما نزل على الأرض خارجها من الثمرات .. وقد هدته تجربته الخاصة إلى أن هذا الزرع يجب أن يباح لمن يحتاج إليه ، .. وإلى هذا المبدأ انتهى فى فقهه .. على ألا يدخل ذو الحاجة ملك الغير ليأكل ، إلا بإذن المالك ..

ولكم صقلته المعاناة وهدته إلى قواعد فى الفقه وإلى أحكام وفتاوى ! .. ذلك أنه كابد ضراوة الحاجة ، وعرف أحوال الناس ، واحتياهم على الحياة ، وذاق من البأساء ، وعرف أهوال الأسواق .. !
وقد أكسبه هذا كله بقّرا بالناس وفهما للندى ، وتقديرا لمتطلبات الحياة وضرورتها ، وببّض كل أولئك فيما أحدث من فقه ورأى ..

ثم الرحلة فى طلب العلم . ولكم لاقى فى هذه الرحلات من أهوال ! !

قام بمعظمها على قدميه إذ لم يكن يجد أجر الدابة .. وعمل فى بعضها حَمَلا ليعول لنفسه .. وعمل فى بعضها نساخا ، وكان حسن الخط .. وأكسبته كل هذه التجارب خصوبة فكر ..

وهو فى كل ما يعرض له يرفض العطاء ، و يصمم على ألا يأكل إلا من عمل يده ..

كان كثير الرحلة إلى اليمن يطلب الحديث من أحد علمائها ، ورأى الشافعي حين كان ببغداد رقة حال أحمد ، وعناؤه في رحلاته إلى اليمن ، وكان المؤمن قد طلب من الشافعي أن يختار له قاضيا لليمن فعرض الأمر على تلميذه أحمد ، فأبى .. فلما ألح عليه الشافعي قال له أحمد : « إن عدت إلى هذا لا ترائني أبدا » .

بدأ أحمد في طلب الحديث وهو في مطلع الشباب .. في الخامسة عشر من عمره .. وظل سبع سنوات يتلقى الحديث على شيوخه في بغداد ، ثم سافر في طلبه وهو في مطلع شبابه في الثانية والعشرين .. سافر يلتمس الحديث عند شيوخ البصرة ، فأقام عاما ، رحل بعده إلى الحجاز ، وهناك سمع للشافعي بالمسجد الحرام ، فقال لصحبه الذين قدموا الحجاز معه : « إن فاتنا علم هذا الرجل فلن نعوضه إلى يوم القيامة » .

ثم عاد إلى بغداد ، وعاد مرة أخرى إلى الحجاز .. وهناك سمع من الإمام مالك والإمام الليث بن سعد المصري وآخرين ، ثم سافر إلى اليمن ليلزم شيخها عبد الرزاق بن همام ، وكان قد التقى به في الحج ، ووجد عنده كثيرا من الأحاديث ، فأثر أن يلزمه باليمن فالتقى منه .. ولقد حاول عبد الرزاق أن يصله ببعض الدنانير ، ولكن أحمد بن حنبل أبى .. وصمم على أن يكسب عيشه بعمل يده فاشتغل نساجا .. وتوالت رحلاته إلى خراسان وفارس وطرسوس .. وإلى كل مكان يسمع أن فيه رواية حديث ..

كان أحمد قد تعلم الحديث أول ما تعلم من أبي يوسف أحد أصحاب أبي حنيفة .. وكان أبو يوسف قاضي قضاة الدولة ، وله حلقة درس يعلم فيها الناس .. وقد بُهر أحمد بعلم أبي يوسف ، وأعجب بجرأته في الحق .. وكان أحمد لا يفتأ يذكر بكبار ما صنعه أبو يوسف مع وزير الخليفة ، إذ رد شهادة الوزير قائلا : « لا تقبل شهادة الوزير لأنه قال للخليفة أنا عبدك ! .. فإن كان صادقا فهو عبد ولا تقبل شهادة العبد ، وإن كان كاذبا أو منافقا ، فلا شهادة لكاذب أو منافق ! » .

على أن أحمد بن حنبل على الرغم من إكباره لأستاذه أبي يوسف ، لم يجد عنده كل ما يريد من حديث .. فقد كان أبو يوسف من أصحاب الرأي .. وأحمد بعد أن حفظ القرآن يريد أن يحفظ كل الآثار التي خلفها الثقات من رواة الأحاديث فا ترك أحمد أبا يوسف قاليا له ، فقد شارك أبو يوسف في صياغة وجدان أحمد وضميره الديني والاجتماعي ، ولكنه تركه بحثا عما عند غيره وهو على مودة معه .

ودرس على عبد الله بن المبارك ، وكان فقيها واسع العلم ، واسع الغنى فى آن واحد .. ولقد حاول ابن المبارك أن يعين أحمد بن حنبل بالمال ، ولكنه أبى وقال إنه يلزمه لفقهه وعلمه لا ماله ، بل على الرغم من ماله !!

وقد تعود ابن المبارك أن ينفق كل دخله على الصدقات وطلاب العلم . كان زاهدا .. والزهد عنده التقوى .. يعلم الناس أن العالم الذى يشيع علمه بين الناس أفضل ألف مرة من الذى ينقطع للعبادة .. وقد حكى أحد معاصريه أنه رأى بعيرين يحملان دجاجا مشويا لسفرة ابن المبارك ، وكان يطعم الناس الفالوذج ، ويأكل هو الخبز والزيت ، فإذا انتهى طعاما ما طيبا لم يأكله إلا مع ضيف .. ويقول : « بلغنا أن طعام الضيف لا حساب عليه . » .. وقيل له : « قلّ المال فقلل من صلة الناس » فقال : « إن كان المال قد قل ، فإن العمر قد نفذ . » وكان يقول : « ليس يلزمنى من الدنيا إلا قوت يوم فقط » ... من أجل ذلك أحب الناس عبد الله بن المبارك ، والتفوا حوله حتى إنه قدم الرقة وبها هارون الرشيد ، فاجتمع الناس وتزاحوا احتفالا به حتى « تقطعت النعال وارتفع الغبار » ، فأشرفت زبيدة زوج هارون الرشيد من قصرها ، فلما رأت زحاما لم تره قط سألت : « ما هذا ؟ » قالوا « الفقيه العالم عبد الله بن المبارك » . فقالت : « والله هذا هو المملك ، لا ملك هارون الرشيد الذى يُجمع الناس إليه بالسوط والعصا والشرطة والأعوان » ..

وكان أحمد من المعجبين بالعالم عبد الله بن المبارك ، كان معجبا بشخصه وبفقهه وعلمه وبسيرته بين الناس .. وعبد الله بن المبارك هو أحد الذين أثروا فى أحمد بن حنبل وفى تشكيل فكره وسلوكه ومواقفه .. فقد أدرك أحمد فى مطلع شبابه مما تعلمه من ابن المبارك أن الدعوة إلى الفقر ليست زهدا ، وإنما هى تمكين للأغنياء من المال ، ليكون المال دولة بين الأغنياء .. وأن الزهد الحق هو ما سنّه الرسول عليه الصلاة والسلام ، وتابعه فيه أئمة الصحابة من بعده .. وهوليس الإعراض عما أحل الله ، بل التعفف عن النظر أو التفكير فيما حرمه الله أو اشتاء مايكرهه .. الزهد هو التقوى .

تحمل أحمد المشتقات ، وخاض الغمرات ، بحثا عن الأحاديث الصحاح يواجه بها ألوان البدع ..

ثم إنه خرج إلى طرطوس مرابطا مستعدا للجهاد ، ولبث فترة هناك ثم عاد إلى بغداد . فقد كان يرى الجهاد فريضة على كل قادر : الجهاد بالنفس أو المال أو بها جميعا

كان العصر زاخرا بالعلوم والمعارف ، وكان الفقهاء من قبله يعنون بها ويتعلمونها ، ولكنه لم يجد

منهم أحدا يتخصص فى علوم الحديث ، و يتوفر على الآثار وحدها ، فوهب نفسه لإتقان علوم السلف فحسب ، لأنه شعر بأن الأمة فى حاجة إلى هذا التخصص .

وظل يرحل ماشيا فى طلب الحديث إكبارا للغاية التى يسعى إليها أو عجزا عن النفقة ، يحمل فوق ظهره متاعه وكتبه ، و يؤجر نفسه للعمل إن نفذ زاده ... حتى جمع آلاف الأحاديث ، وهو ما يفتأ على الرغم من ذلك يجوب الآفاق ، حتى نخل جسده ، فلامه فى ذلك أحد أصدقائه قائلا : « مرة إلى الكوفة ومرة إلى البصرة ومرة إلى الحجاز ومرة إلى اليمن ؟ ! .. إلى متى ؟ ! » فقال أحمد : « مع الميخبرة إلى المقبرة . »

وما كان لينتهى منها تكن المشقة .. فقد كان يطلب مع الحديث علوم الفقه .. كان يطلب فقه الخلفاء الراشدين ، وفقه سائر الصحابة ، وفقه التابعين وتابعيهم بإحسان .. وقد جلس فى رحلاته إلى الحجاز فى مواسم الحج إلى كل فقهاء عصره .. فى المسجد الحرام ، وفى الحرم النبوى ..

على أن أحدا لم يجذبه كما جذبه الشافعى ! ..

واتصلت بينها المودة مذ لقيه لأول مرة فى المسجد الحرام .. وكان أحمد فى نحو الثانية والعشرين والإمام الشافعى يكبره بنحو ستة عشر عاما ، ومع ذلك فقد أحس بأن الشافعى ليس أستاذا ومعلما فحسب ، ولكنه أب أيضا ... !

وعلى الرغم من أن أحمد بن حنبل درس فى مطلع شبابه على أبى يوسف وهو من أصحاب رأى ، ثم درس على الشافعى ولزم فقهه وهو وسط بين أهل الحديث وأهل رأى ، فقد كان أحمد حريصا فى حياته على سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حرصا جعله يتشبه به فى كل أمور الدين والدنيا ، فاحفظ حديثا عن الرسول عليه السلام إلا عمل به .. وحتى قرأ أنه عليه الصلاة والسلام تسرى بمارية القبطية ، فذهب إلى امرأته ، وأعلمها بما علم ، واستاذنها أن يتسرى ، أسوة بالرسول صلى الله عليه وسلم فأذنت ، فأشترت هى له جارية ترضأها .. !

وهكذا كان فى بَرّه لأمه .. كان بالطبع برا تصنعه الفطرة ، ثم اتبعا للسنة ، فقد حفظ أحمد أن الرسول صلى الله عليه وسلم سئل عن أحق الناس بالرعاية فأجاب سائله « أمك » .. وأعاد السائل سؤاله مرتين : فأجابه : « أمك ثم أمك ثم أبوك » ..

وفى الحق أن أحمد بن حنبل كان مدينا لأمه بكل شيء .. فقد رفضت أن تدخل عليه زوج أم ، على الرغم من جمالها وشبابها وطمع الخطاب فيها .. ثم إنها لقنته منذ صباه كل ما حفظه من سير ، وأحاديث ، وقصص بطولات .. ورسخت فى أعماقه منذ كان طفلا قيم الإسلام الفاضلة ..

فهى كآبيه من بنى شيبان ، وكانت تحفظ مفاخر قومها ، وقصص العرب ، ومآثر الرسول والصحابة وتلقنها وحيدها ..

وهى التى اختارت له المكتب الذى يتعلم فيه القرآن ، ثم الشيوخ الذين يجلس إليهم بعد أن حفظ القرآن ، ليطلب عندهم الحديث والفقه . وكانت تخاف عليه وهو صغير برد الفجر إذا خرج إلى الدرس قبل الأذان .. وقد روى أحمد : « كنت ربما أردت البكور فى الحديث فتأخذ أمى بشيأى وتقول : « حتى يؤذن المؤذن للفجر أو حتى يصبح الناس » ..

حتى إذا كان فى الخامسة عشر ، جاء إلى بغداد عالم عظيم ، وأقام على الضفة المقابلة لدار أحمد بن حنبل ، وفاض نهر دجلة وارتفع الموج حتى ترك الرشيد قصره ونزل بأهله وأمواله وحاشيته إلى سفائن له ، ولكن طلاب العلم هرعوا إلى العالم على الضفة الأخرى فى الزوارق .. وأبى أحمد حين دعاه زملاؤه إلى العبور قائلا : « أمى لا تدعنى أركب الماء فى هذا الفيضان » .. وترك العبور فى حسرة ، وعاد إلى أمه لتطمئن عليه ... !

لكم كان برا بوالدته ! .. رآها رفضت الزواج لكى تتفرغ للعناية به ، فأبى هو الزواج ليفرغ للحدب عليها .. فما تزوج إلا بعد أن ماتت ، وكان قد بلغ الثلاثين ، لكيلا يدخل على الدار سيدة أخرى تنازع أمه السيادة على الدار ! .

وها هو ذا فى بغداد شاب جاوز الثلاثين ، مخوف الشارب ، مرسل اللحية ، أسمر الوجه ، تلوح فى وجهه الأسمر سكينه وطمانينة ، ويشع من عينيه بريق حاد ، نحيل الجسد ، متوسط الطول .. مثقل القلب بما يحدث من حوله .. كثير التأمل فى أحوال الناس ، مأخوذ بالبحث عن الخلاص ، مشدود إلى الحقيقة ، وإلى طريق العباد مما هم فيه ..

وما أبشع ما هم فيه !

ذلك أنه منذ صباه شهد بغداد تزخر بألوان الثراء الثقافى والمادى ، وتتصارع فيها المذاهب الفكرية والفقهية والعلمية ، وترتفع فيها القصور المخوفة بالحدائق والزرع وجنات الفاكهة والريحان ، وتفيض فيها

الأموال والثروات . وفى بغداد مع ذلك مَنْ لا يجد قوت يومه ! .. وما بهذا أمر الله ورسوله ! . فقد ورث المؤمنون عن الرسول موعظة يتحتم عليهم أن يتدبروها : أنه ليس مؤمناً من بات شعبان وجاره جوعان ! ... وكم فى بغداد من بيت بين الناي والعود والعزف والشراب والطعام والقصف ، والجيران جباع ! ! ! ..

ثم إن بغداد التى مازالت ليا إليها تضىء بآثار السلف الصالح ، وبالتماعات أفكار المجتهدين ، بغداد هذه تجللها المعصية والمظالم .. إذ شاع الانحراف ، وظهر الغزل بالمذكر ! ! وقد أحرق أبو بكر الصديق من قبل قوما تعاطوا هذا المنكر فى الشام ! !

ثم إن أموال الدولة تنفق بلا حساب على الندامى والمغنيات وأهل الطرب والمضحكين والمناققين ! ! ..

وهذه الدولة العظيمة التى تحكم العالم كله ، وتصوغ حضارة لم يعرفها التاريخ من قبل ، وتسخر عقول المفكرين والعلماء فيها كل شىء لراحة الإنسان ، وتقتحم هذه العقول عوالم الأفلاك فى جسارة نادرة لتصبح الطبيعة أمام الإنسان كتاباً مفتوحاً ، طاقاتها ميسرات لفكره ... هذه الدولة التى حلت كل المعارف والكتب التى وجدت فى البلاد المفتوحة ، فعزبت كل معطيات الحضارة المصرية واليونانية والفارسية والهندية ، وأضافت إليها .. هذه الدولة نفسها لا تقيم العدل كما يجب .. وتسمح لنفسها بأن تقتل أكبر شعرائها بشار بن برد ، لأنه نقد الخليفة المهدي وقال عنه « خليفة الله بين الله والعود » .. فتحرق الدولة أشعاره وتفتري عليه مالم يقله ، لتتهمه بالإلحاد والزندقه ، وتضربه حتى يموت ! !

وهذه الدولة تسمح لامرأة الرشيد بأن تتدخل فى القضاء ! ! .. ذلك أن وكيل امرأة الرشيد اشترى لها جالاً من رجل من خراسان بثلاثين ألف درهم ، وكان الخراسانى قد ساق الجمال ليبيعهما فى بغداد . واستلم وكيل امرأة الرشيد الجمال ، وما طل فى دفع الثمن ، وعطل الخراسانى عن السفر .. ثم أعطى الخراسانى ألفاً ولم يدفع الباقي .. فشكاه الخراسانى إلى القاضى ، فأمر الوكيل بأداء باقى الثمن ، ولكنه قال إنه على السيدة أم جعفر امرأة الرشيد . فقال له القاضى :

« يا أحمق ! تقرر ثم تقول على السيدة ؟ ! » .. وأمر القاضى بحبس الوكيل .

وعلمت امرأة الرشيد فقالت للرشيد : « قاضيك هذا أحمق . حبس وكيلى واستخف به ، امنعه من نظرك القضية » فأجابها الرشيد ، وأطلق سراح وكيلها ، ووجه إلى القاضى يمنعه من النظر فى الدعوى ! ! .. ثار القاضى حين علم بإطلاق سراح الوكيل ، فلزم بيته ، وامتنع عن حضور مجلس

القضاء .. ولكنه حين علم ان الرشيد سيمنعه من نظر الدعوى ، خرج من داره ، وأرسل إلى الخراسانى أن يحضر شهودا ويلحق به فى مجلس القضاء .. وجلس القاضى ينظر فى الدعوى ويسأل الشهود ويستجلى بينات الخراسانى .. وحكم للخراسانى بالمال كله .. وأخذ يسجل الحكم ..

ثم جاء خدام أم جعفر امرأة الرشيد يقول للقاضى : «عندى لك كتاب من أمير المؤمنين .» فقال له القاضى : «مكانك نحن فى حكم شرعى .. مكانك حتى نفرغ منه .» فقال الخادم : «كتاب أمير المؤمنين» فقال القاضى : «اسمع ما يقال لك .»

ومضى القاضى يسجل الحكم وأسبابه حتى فرغ ، فأخذ كتاب أمير المؤمنين ، وكان فيه كما يعلم قبل أمر بستنجيته عن نظر القضية .. فلما قرأ القاضى كتاب الرشيد قال للخادم : «أقرئ أمير المؤمنين السلام ، وأخبره أن كتابه ورد وقرأته وقد أنفذت الحكم .» فقال الخادم : «قد عرفت والله ما صنعت . أبيت أن تأخذ كتاب أمير المؤمنين حتى تفرغ مما تريد .. والله لأبلغن أمير المؤمنين بما فعلت» فقال القاضى : «قل له ما أحببت»

كان أحمد بن حنبل يتأمل فى التدخل فى القضاء ويتألم !! ترى كم من القضاة يستطيع أن يصنع كما صنع القاضى حفص بن غياث .. ؟ .. من الحق أن الرشيد ضحك عندما سمع بما فعله القاضى حفص بن غياث ، وأمر له بجائزة قدرها ثلاثون ألف درهم مما جعل القاضى يقول : «الحمد لله كثيرا . من قام بحقوق الشريعة ألهمه الله رداء المهابة» .. ولكن الخليفة لم يعاقب وكيل امرأته ، لأنه حاول أخذ الجمال من الخراسانى دون أن يدفع ثمنها .. ولم يمنع امرأته من التدخل فى القضاء ! . ومن يدرى فرما كانت هناك مظالم كثيرة أخرى لم يتقدم بها أصحابها إلى القضاء .. أو لعل من القضاة من لم يغامر كما غامر القاضى حفص !

هكذا كان أحمد بن حنبل يرى صور الفساد وبأسى ويفكر فى الخلاص .. فالحكام يسرقون ويقطعون يد السارق .. ومن العلماء من ينهى عن المنكر ويقتطفه .. حتى صبح فيهم ما قاله ذو النون المصرى : «كان الرجل من أهل العلم يزداد بعلمه بغضا للدنيا وتركها لها . واليوم يزداد الرجل بعلمه حبا للدنيا وطلبا لها .. كان الرجل ينفق ماله على علمه واليوم يكتسب الرجل بعلمه مالا . وكان يُرى على صاحب العلم زيادة فى باطنه وظاهره واليوم يُرى على كثير من أهل العلم فساد فى الباطن والظاهر.»

لإخلاص إلا باللجوء إلى السنة واتباعها .. وإلا بالتأسى بسيرة السلف الصالح ، وعلى رأسهم الخلفاء الراشدون . بما فيهم على بن أبى طالب .

وكان أحمد يعرف أن أشد ما يغيظ حكام بنى العباس هو نشر فقه الإمام على بن أبى طالب كرم الله وجهه .. ذلك أن كثرة الشناء على الإمام على ، يثير عطف الناس على بنيه .. وكان بنوه قد ثاروا المرة بعد المرة على مظالم خلفاء بنى أمية ، ثم على خلفاء بنى العباس ، وحدثت فيهم من أجل ذلك مقاتل عظيمة .. ومن لم يُقتل من بنى على عاشوا يرسفون فى أغلالهم تحت الأبراج .

وكان فقه الإمام على بن أبى طالب وأفضيته ، فى صدور قلائل من العلماء أكثرهم من الشيعة . ثم أذيعت أراؤه وأفكاره منها بنو العباس أبناء عمومته فى محاربة مظالم بنى أمية .. ولكن بنى العباس خشوا أن يستعملها المعارضون فى نقدهم .. وخافوا أن يكتسب بها المعارضون حب الناس وتأييدهم .. وهكذا أخفى حكام بنى العباس أفضية الإمام على وفتاواه وفقهه .. واستخفى بها الصالحون !! .. وكان العباسيون كالأمويين لا يطبقون معارضة .. فما ترتفع رأس بالشكوى أو النقد أو الاعتراض ، حتى يهوى على عنق صاحبها سيف الجلاذ ، أو يخرس لسانها فى غيابات السجون تحت وطأة عذاب غليظ أليم شديد ... !

ولكن أحمد بن حنبل ما كان يستطيع أن يتجاهل سيرة على بن أبى طالب ولا أفكاره لتكون من بعد سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة لمن يريد أن يعتبر بآثار السلف الصالح .

بحث الإمام أحمد عن فقه وأفضية الخلفاء الراشدين ، فأعجب بما عرفه من فقه الإمام على كرم الله وجهه ، وبدأ ينشره ويستشهد به .. فوجد عليه خلفاء بنى العباس وجدا شديدا ، وأهملهم أمره !! ولكنهم لم يظهروا الغضب عليه ، فما كان أحمد يعمل بالسياسة ، وما كان رأيه فى الخلافة ليزعجهم ، بل إن هذا رأى على النقيض يرضى خلفاء بنى العباس . ذلك أن أحمد كان يرى وجوب طاعة الخليفة ولو كان فاجرا .. فطاعة الفاجر عنده خير من الفتنة التى لا تصيب الذين ظلموا خاصة بل تصيب معهم الأبرياء ، وتضعف الدولة فيطمع فيها أعداء الإسلام !!

وكان لا يشترط لصحة الخلافة إلا أن يكون الخليفة من قريش وإلا أن يبايعه الناس .

والبيعة شرط جوهرى لقوله تعالى : « وأمرهم شورى بينهم . »

فإذا تغلب أحد على منصب الخليفة وإن لم تكن الخلافة حقا له ، وبايعه الناس بالخلافة ، وجبت طاعته أيا ما يكن أمره من العدل أو الظلم والفجور أو التقوى .. ويقول أحمد فى ذلك : « السمع والطاعة للأئمة وأمير المؤمنين البر والفاجر ومن اجتمع عليه الناس ورضوا به ، ومن غلبهم بالسيف وسُمى أمير المؤمنين ، والغزو ماض مع الأمراء إلى يوم القيامة البر والفاجر ومن خرج على إمام من أئمة المسلمين وقد كان الناس قد اجتمعوا عليه ، « وأقروا له بالخلافة بأى وجه من الوجوه كان ، بالرضا أو بالغلبة ، فقد شق الخارج عصا المسلمين ، وخالف الآثار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . »

وهو مع ذلك لا يقر السكوت عن الخليفة الظالم ، ولكنه يرى أن النصيح له أولى من الثورة عليه .. ! .. وهو يرى النصيح فرض كفاية على كل أصحاب الرأي والعلم ، فإن قام به بعضهم سقط المفرض الشرعى عن الجميع ، وإن لم يقربه أحد أثم الجميع ..

ومن عجب أن أحمد الذى فرض على الناس طاعة الخليفة وإن كان فاجرا ، نأى بنفسه عن الاتصال بالخلفاء ، ورفض أموالهم ، وأبى أن يتولى منصبا فى ظل أحدهم على الرغم من حاجته الملحة إلى المال .. لأنهم ظالمون !!

وقد هاجم بعض المفكرين من معاصرى أحمد آراءه فى الخلافة .. واتهموه انه ينسب إلى الرسول والصحابة نقيض آرائهم ، فالرسول يأمر أنه لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق ، ويحذر المسلمون أن يسكتوا على الظلم والفجور ، لأنهم إذا سكتوا عنه عمهم الله بالعقاب .. والصحابة قوّموا أولياء الأمر منهم وردوهم إلى الصواب ..

ثم إن هؤلاء المفكرين اتهموا أحمد بالدعوة إلى الإذعان والرضا بالظلم وبالمعصية ..

غير أن أحمد ارد عليهم أن خير التابعين عاشوا تحت مظالم الأمويين فلم يدعوا الرعية إلى الخروج عليهم .. وهو إنما يدعو إلى الطاعة مع استمرار النصيحة ، لا إلى السكوت عن المظالم .. وإذا كانت طاعة الحاكم الظالم ظلما ، فالخروج عليه ظلم أفدح ، لأن الخروج مجلبة للفتنة وفى الفتنة تنتهك الحرمات ، وتهدر دماء الأبرياء كما حدث فى كل الثورات فى العصر الأموى والعباسى .. !

ومهما يكن من شئ ، فأتجرباً أحد من معاصرى أحمد على اتهامه بأنه يناق الخلفاء ، ولكنهم عابوا رأيه ، واعتبروه خطأ فى تقدير ضررين أيها أقل ، وأيها أكثر فيدفع ..

على أن الإمام أحمد بن حنبل لم يكن بدعا فى هذا رأى ، بل كان فيه متفقا على نحو ما أفتى به الأئمة الثلاثة من قبله : أبو حنيفة النعمان ، ومالك بن أنس ، والشافعى . فكلهم رأى أن طاعة الحاكم الظالم مع توجيه النصيح له ، خير من الثورة عليه لما يصاحب الثورات من عدوان على الأنفس والحريات والأموال ... إلا الإمام أبا حنيفة ، فقد أيد ثورة الإمام زيد بن على وأوشك أن يخرج معه مجاهدا ضد مظالم الخليفة الأموى هشام بن عبد الملك ..

وعلى الرغم من أن ابن حنبل كان شديد التأثير بالشافعى ، فقد اختلفا فى بعض شروط الخلافة . فالشافعى يجعل العدالة شرطا لصحة الخلافة .. وإن لم يؤيد الثورة على الخليفة إن كان ظالما . والجدير بالذكر أن الإمام الليث ما كان يشترط أن يكون الخليفة عربيا .. ولكنه اشترط العدالة والبيعة .. !

انصرف أحد يجمع السنن وآثار الصحابة ، ويبحث من خلالها عن أحكام تنقذ الناس من الضلال .. وكان يجمع ما رواه الصحابة من أحاديث ، كل على حدة ، ويسند إلى الصحابي ما رواه .. فكان لابد له أن يجمع ما رواه الإمام على بن أبي طالب لا يبالى في ذلك أن يتهمة أحد بالتشيع أو بالميل إلى العلويين .. وفي الحق أنه ما كان متشيعا ولا صاحب ميل للعلويين .. ولكنه تعلم من أستاذه الشافعي أن الإمام على كان أحق بالخلافة من معاوية ، وأن معاوية كان باغيا ، ودافع أحد عن رأى أستاذه في مواجهة منتقديه .. وقد روى أحد عن أستاذه الشافعي : « قال رجل في على : ما نفر الناس منه إلا أنه كان لا يبالى بأحد . فقال الشافعي كان في على كرم الله وجهه أربع خصال لا تكون منها خصلة واحدة لإنسان إلا يحق له ألا يبالى بأحد ، كان زاهدا والزاهد لا يبالى بالدنيا وأهلها ، وكان عالما والعالم لا يبالى بأحد ، وكان شجاعا والشجاع لا يبالى بأحد ، وكان شريفا والشريف لا يبالى بأحد . وكان على كرم الله وجهه قد خصه النبي صلى الله عليه وسلم بعلم القرآن ، لأن النبي عليه الصلاة والسلام دعا له وأمره أن يقضى بين الناس . وكانت قضاياه ترفع إلى النبي صلى الله عليه وسلم فيمضيها . »

وقد رأى أحد بن حنبل أن اتباع أحكام الإمام على سنة لأن الرسول صلى الله عليه وسلم أقر جميع أحكامه ، فكان أنه هو الذي حكم ، . ثم أنه قد خصه بعلم القرآن ..

وعجب علماء الشيعة والمفكرون الذين يؤيدونهم لأمر الإمام أحمد . ! لقد حسبوه عدوا لهم ، وعدوا للإمام على منذ أفتى بأن طاعة الحاكم واجبة حتى إن كان ظالما أو فاجرا ، والثورة عليه خروج على الإسلام ! . وكان الشيعة يرون أنه لا طاعة لحاكم ظالم ، ويجب على الرعية أن تثور عليه ، فإن سكتوا عنه فليس سكوتهم طاعة له واجبة ، بل اتقاء لظلم أفدح ، وانتظارا للفرصة المناسبة .. وإذن فرأى أحد بن حنبل أن طاعة الخليفة الظالم الفاجر واجبة شرعا ، وأن الثورة عليه مخالفة للسنة ، إنما هو إدانة للشيعة وإمامهم الحسين بن على سيد الشهداء رضى الله عنه ، وموافقة على مقاتل الطالبيين ، وشرها تلك المذبحة الوحشية الفاجرة في كربلاء .. ! !

مأبال أحمد يسند بفتواه قتلة الإمام الحسين ، وقتلة الإمام زيد ، وغيرهم من أئمة الشيعة ، ثم ها هو ذا يمدح الإمام على بن أبي طالب كرم الله وجهه ويعتمد على فقهه ؟ ! !

كان اللجاج شديدا في ذلك العصر بين دعاة الحرية السياسية والاجتماعية من حاة العدل وبين غيرهم من الفقهاء .. ومن أجل ذلك اشتدوا على أحمد بن حنبل ، لأنه كان يرى الطاعة للحاكم الظالم الفاجر ، ويرى الخروج عليه مخالفة للسنة .. فهو إذن يؤيد الظالم الفاجر يزيد بن معاوية ، ويرى أن خروج الحسين كان مخالفة للسنة ! ! .. وهذا رأى فاسد ! ..

وفى الحق أن أحد ما رأى ذلك وما أفتى به .. فقد كان يرى معاوية باغيا على الإمام على كرم الله وجهه خرج عن طاعته وثار عليه ، فهو مخالف للسنة .. أما عن خلافة يزيد بن معاوية ، فإن أحد بن حنبل يرى أن معاوية أكره الناس على هذه البيعة .. ولا إكراه فى البيعة ، وليس على مستكره عيين ، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ..

وما كان أحد بن حنبل من الذين يخوضون غمرات الصراع السياسى المتأجج ، ولكنه كان يقول ما يؤمن به اتباعا للسنة مهما يكابد فى سبيل رأيه ، فهو أحرص الناس على التأسى برسول الله ، وكان يقول « صاحب الحديث من يعمل به . » .. وما كان يجيز طعن الصحابة من الخلفاء الراشدين ، كما يفعل بعض غلاة الشيعة ، وكان هذا سببا آخر لخلاف هؤلاء معه .. وقد تحدث أمامه جماعة من الناس فذكروا خلافة على بن أبى طالب وتناولوا أمير المؤمنين بالتجريح ، فتغير وجه أحد وقال لهم : « من طعن فى على كرم الله وجهه فهو مخالف للسنة ، وليس للسلطان أن يعفو عنه » .. ثم رفع رأسه وقال : « إن الخلافة لم تزل على بل على زيتها » .

ولقد سئل أحد عن حق على فى الخلافة فقال : « لم يكن أحد أحق بها فى زمن على من على ! ورحم الله معاوية ! »

وسئل عن تأييد أم عائشة لطلحة والزبير ضد على فقال : « أكان طلحة والزبير يريدان أعدل من على رضوان الله عليهم أجمعين ؟ »

وسمع أحد غلاة الشيعة بهذا فقال : « هذه الكلمات أخرجت نصف ما كان فى قلبى على أحد بن حنبل من البغض » .

وقد بنى أحد آراءه فى قتال أهل البغى على سيرة الإمام على كرم الله وجهه ، متبعا فى ذلك رأى الإمام الشافعى ، فلما عاتبه أحد أصحابه قال : « ويحك » ... يا عجبيا لك ! فاعسى أن يقال فى هذا إلا هذا ؟ ! وهل أبغى أحد بقتال أهل البغى قبل أمير المؤمنين على بن أبى طالب كرم الله وجهه ؟ »

وفى الحق أن الشافعى أثر فى أحد كما لم يؤثر أستاذ فى تلميذه . حتى لقد قال أحد بعد أن أصبح إماما كبيرا : « إذا سئلت عن مسألة لا أعرف فيها خبرا (أى حديثا أو أثرا عن الصحابة) أخذت فيها برأى الشافعى . »

وقد بلغ تقديره للشافعى أنه أنكر على كل شيوخره أن يكتبوا فقههم فى كتب .. إلا الشافعى .. أنكر على مالك كتابة الموطأ وقال عنه : « ابتدع ما لم تفعله الصحابة رضى الله عنهم » وقرأ كتب شيخه أبى يوسف ، وكتب محمد بن الحسن ، وأنكر عليها أنها كتب فقههما .. وأبى على أصحابه أن يكتبوا

آراءه أوفقه هو نفسه .. ولكنه عندما وصله كتاب الرسالة الجديدة الذى وضعه الشافعى فى مصر، بهر بالرسالة ، قرأها على أصحابه .، وحضهم على تعلمها ، واحتفظ بها فى خزانة كتبه كما يصون كنزا .. وهكذا صنع مع كل كتب الشافعى التى وضعها فى مصر ، وهى كتب تأثر فيها الشافعى إلى مدى بعيد بفقه الليث بن سعد إمام أهل مصر .

ولقد حمل أحمد عن الشافعى تقديرا كبيرا للإمام الليث ، فكان لا يذكره إلا بالتقدير .

وقد كان أصحاب أحمد يعرفون ميله للشافعى وإكباره إياه .. وكان هو يوصيهم بقراءة كتب الشافعى قائلا إنه « مامن أحد وضع الكتب منذ ظهرت أتبع للسنة من الشافعى » . وكان الشافعى يبادل هذا التقدير ، وقد عده الشافعى من العجائب : « ثلاثة من العلماء من عجائب الزمان : إعرابى لا يعرف كلمة وهو أبو ثور (وكان كثير اللحن) ، وأعجمى لا يخطئ فى كلمة وهو الحسن الزعفرانى ، وصغير كلما قال شيئا صدقه الكبار وهو أحمد بن حنبل » .

كما قال عنه الشافعى : « رأيت فى بغداد شابا إذا قال ! ! قال الناس كلهم صدقت . » قيل من هو قال : « أحمد بن حنبل » .. وقال عنه : « خرجت من بغداد ، وما خلفت فيها رجلا أفضل ، ولا أعلم ، ولا أفقه ، ولا أتقى ، من أحمد بن حنبل » .

وكان أحمد يضع شيخه فى أعلى مكان ، ويقول إن الله يبعث على رأس كل مائة عام إماما صالحا من عباده ، يحبى به السنن ويرفع شأن الأمة ، وقد كان عمر بن عبد العزيز على رأس المائة الاولى ، وعسى أن يكون الشافعى على رأس المائة الثانية »

على أن أحمد بن حنبل ، منذ وقف يتدبر أحوال المسلمين ، ويتلمس طريق الخلاص ، ووسيلة لتحقيق مقاصد الشريعة ، التمس طريقا يستنبط به الأحكام ، فلم يجد أفضل من أصول فقه الشافعى .

اجتمعت لأحمد خلال رحلاته عشرات الأحاديث النبوية ، فأخذ يرويها للناس ويعمل بها .. وتأدب بأدب الرسول .. روى الحديث : « كل معروف صدقة ومن المعروف أن تلقى أخاك بوجه طلق » .. فكان لا يلقى الناس إلا مبتسما ، ويقدمهم عليه إذا مشوا فى طريق ، أو دخلوا مكانا أو اصطفوا لصلاة الجماعة .. ويروى أحد أصحاب أحمد أنه دخل معه مكانا ، فإذا بامرأة معها طنبور (آلة للعزف) ، فكسر صاحب أحمد الطنبور ، وسئل أحمد عن ذلك فيما بعد فقال : « ما علمت بهذا ، وما علمت أن أحدا كسر طنбора بحضرتى إلى الساعة » . ذلك أن أحمد ترك المكان مستكرا الأمرين جميعا : عزف المرأة على الطنبور ، وعدوان صاحبه عليها ! .. فهو يكره لأصحابه أن يغفلوا ، ويطالبهم حين يأمرهم بالمعروف ، أو ينهون عن المنكر أن يتبعوا سنة الرسول صلى الله عليه وسلم كما علمه الله تعالى : « أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة . »

وكان أحمد يكره الشطرنج و يراه لهوا يصرف الناس عن جد الأمور، فسمع أن صاحباً له دخل على جماعة ، جول رجلين يلعبان الشطرنج فطرح به ونهر الجماعة ، فغضب الإمام أحمد لما صنعه صاحبه بأصحاب الشطرنج .. !

كانت سماجته تسع الذين يسيئون إليه مهما تكن الإساءة فادحة ! .. وشى به رجل إلى الخليفة ، وزعم أن ثائراً علواً يختفى في داره .. ولوصحت الوشاية لقتل الإمام أحمد بإخفاء الثائر العلوى . فلما تبين للخليفة كذب الوشاية أرسل الواشي مصفداً إلى أحمد ، ليفتى برأيه في عقابه فقال أحمد : « لعله يكون صاحب أولاد يحزنهم قتله ! »

وهكذا أخذ أحمد نفسه بالتأدب بأخلاق الرسول صلى الله عليه وسلم .. وكان يقول : « إذا أردت أن يدوم لك الله كما تحب ، فكن كما يحب » .

إن أبرز ما يميزه لهو التواضع .. قال له أحد الناس « جزى الله الإسلام عنك خيراً فغشاه الحياء جزى الله الإسلام عنى خيراً ؟ ومن أنا ؟ ! وما أنا ؟ ! .. »

عرف شيوخه منه هذا التواضع منذ كان يطلب عليهم العلم ، فأشادوا به .

ذات يوم ضاق أحد شيوخه بالطلاب في الحلقة ، وغاظه عجزهم عن فهم الدرس ، فصاح الشيخ : « ألا تفقهون ؟ » فقال الطلاب : « كيف لا نفقه وفيما أحمد بن حنبل » . فقال الشيخ « أين هو ؟ » ودخل أحمد فقالوا : « ها هو ذا » وجلس أحمد حيث انتهى به المجلس كما تعود ، وكما عاش يفعل إلى آخر العمر ، فقال الشيخ لأحمد : « تقدم يا أحمد » فقال أحمد : « لا أخطو على الرقاب . » فصفق الشيخ فرحاً : « الله أكبر .. هذا أول الفقه » .

على أن تواضع أحمد وحياءه لم يمنعه من الجهر بالحق .. بل كان على النقيض شديداً على الباطل ، لا يبالى في ذلك لومة لائم .. لاحظ أن بعض الفقهاء يفضلون العباس على الإمام علي بن أبي طالب ، نفاقاً للخلفاء والأمراء من بنى العباس .. وسمع أحمد بن حنبل ، هذا الفقيه يذكر الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه بما لا ينبغي ، ويشكك في حقه في الخلافة ، فأنبرى أحمد يقول للفقيه على مشهد من الناس : « من لم يُثبت الإمامة لعلي فهو أضل من حمار .. سبحان الله ! .. أكان على كرم الله وجهه يقيم الحدود ويأخذ الصدقة ويقسمها بلا حق وجب له ؟ ! .. أعوذ بالله من هذه المقالة .. بل هو خليفة رضىه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وصلوا خلفه ، وغزوا معه ، وجاهدوا ، وحجوا ، وكانوا يسمونه أمير المؤمنين راضين بذلك غير منكربين ، فنحن له تبع » .. ثم قال : « ما لأحد من الصحابة من الفضائل بالأسانيد الصحاح مثل ما لأمر المؤمنين على بن أبي طالب رضى الله عنه » .

وعلى الرغم من أن أحمد بن حنبل كان يرى أول الأمر أن طاعة الخليفة واجبة وإن كان ظالماً أو فاجراً، إلا أنه عدل عن رأيه عندما ما أنضجته التجربة فيما بعد .. فعاد واعتبر طاعة الخليفة الظالم لونا من النفاق يجب أن يبرأ منه المؤمن !

ذلك أنه سماع قصة عن شيخه عبد الله بن المبارك ظلت تضنيه إلى آخر العمر .. فكانت دموعه تفيض من الندم ومن الرحمة والإشفاق ، كلما تذكر ما حدث لأستاذه عبد الله بن المبارك .. وهو الأستاذ الذى لزمه أحمد وإن لم يره قط .. فقد كان كلما لحق به فى مكان ليسمع منه ، وجده قد رحل عنه ، حتى مات الشيخ ، فلزم أحمد آثاره وفقهه وتتبع سيرته واهتدى بها .. وسمع أحمد فيما سمع أن شيخه ابن المبارك مروهوفى طريقه إلى الحج بمزبلة قوم ، فرأى فتاة تأخذ طائراً ميتاً وتلفه ، فسألها عن أمرها فقالت : أنا وأخى هنا ليس لنا شيء إلا هذا الإزار وليس لنا قوت إلا ما يلقى على هذه المزبلة ، وقد حلت لنا الميتة منذ ثلاثة أيام (أى أن الجوع اضطرهما إلى أكل الميتة) ، وقد كان أبونا له مال ، فظلمنا وأخذ ماله وقتل .. فقال ابن المبارك لوكيله : « كم معك من النفقة ؟ » ، قال : « ألف دينار » فقال : « عد منها عشرين دينارا تكفيننا إلى مرقو ، وأعطها الباقي . فهذا أفضل من حاجتنا هذا العام » ، ورجع ..

ماذكر أحمد هذه القصة إلا بكى .. فافتواه إذن بوجوب طاعة خليفة ظالم ؟ !

أيطاع خليفة يظلم رجلاً فيقتله ويستولى على ماله ويترك أبناءه جوعاً ينقبون فى المزابل عن الطعام ، فلا يجدون إلا الميتة ؟ ! ! .. يا حسرتنا على العباد ! ! ! ..

وإذن ماجدوى العلم والفقه وما جدوى كل شيء ؟ !

وما الإسلام إن كان على وجه الأرض من يلتبس القوت فى المزابل ، وفى الأمة مع ذلك مسلمون يملكون آلاف الآلاف ؟ ! .. وفيها فوق ذلك علماء يجردون الفقرو يدعون إليه باسم الزهد ؟ ! .. أى زهد هذا ؟ ! بل إنه لإعانة للظالم على ظلمه .. ! ثم ما هذا الانشغال الكامل بالمجردات ، والقضاء ، والقدر ، وخلق القرآن ، والجبر ، والاختيار ؟ ! ما الاهتمام بهذه الأمور والحوار المصطخب حولها ، والعدل معطل ؟ ! ! إن المفكرين ليخبطون فى القشوات ، ويتركون الحكام يقتلون المظلومين ويصادرون أموالهم ! . كم فى الأمة من رجال ونساء يسقطون فى الأوحال بدلا من أكل الميتة أو البحث عن القوت وسط المزابل ؟ ! ! . وكم من العلماء فكر فى هؤلاء الجوع والمظلومين ! ! .. أعلماء وفقهاء هم ، أم هم أوتاد وخشب مسندة يرتكن إليها الباغون ! !

إن كل مافى أيدى الخلفاء والأمراء والأغنياء حرام عليهم ، ما دام فى الأمة جوع !

وَسَتُكُونُ ظُهُورَهُمْ وَجُنُوبُهُمْ فِي نَارِ جَهَنَّمَ بَمَا يَكْنُزُونَ مِنْ ذَهَبٍ وَفُضَّةٍ ، كَمَا أُنْذَرَهُمْ اللَّهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ الْكَرِيمِ !! .. والعلماء والفقهاء الذين يزینون لهم سيرتهم على أى نحو من الأنحاء ، وحتى الذين يسكنون على هذا المنكر ، إنما هم جميعا شياطين خرس ، سيعاقبهم الله تعالى عقاب الشياطين يوم يقوم الحساب !!

إن مِنْ هؤلاء الفقهاء والعلماء مَنْ يُضِلُّ الناسَ عن الحقيقة جهلا منه أو غفلة أو رياء للحكام . إنهم ليحبون الفقر لعامة المسلمين ، وإنهم ليعطون عامة المسلمين ألا يفكروا فى غير ذكر الله ، عسى أن تطمئن قلوبهم .. ولكن ما جدوى ذكر الله إذا لم يعمل بهذا الذكر ، إذا كنت تأكل الحرام ؟ ! .. إن من آكل الحرام من يستطيع أن يذكر الله أضعاف أضعاف غيره من المشغولين بالسمى فى طلب الرزق ! ! .. ولكن ذكر الله ليس ما يتحرك به لسانك ، وإنما هو عمل الصالحات ! ..

ولقد طاف رجل على فقهاء بغداد يسألهم واحدا بعد الآخر: « بم تلين القلوب ؟ » قالوا: « ألا بذكر الله تطمئن القلوب » .. ثم لقي أحمد بن حنبل فسأله فقال أحمد: « بأكل الحلال » . فعاد الرجل يظوف بهم جميعا ويذكرهم جواب أحمد .. وكأنه نهبهم من غفلة ، وفتح عيونهم على الحقيقة فقالوا: « جاءك بالجواهر . الأصل كما قال » .

ألف الناس أن يسألوا أحمد بن حنبل كلما لقوه ، فيجيبهم بعد التروى ، وكثيرا ما كان يقول: « لا أدري » ..

(وأغراه بعض المعجبين به أن يتخذ له حلقة فى الجامع ، ويجلس ليعلم الناس ويفتيهم ، فيصير إماما .. ولكنه تَحَرَّج .. فقد كان يرى أنه يجب ألا يجلس للفتوى والتدريس حتى يبلغ الأربعين .. أى فى سن النبوة ! .. ثم إنه لا يستطيع أن يفتى وبعض أشياخه حى ، فالشافعى أستاذه ما يزال حيا بمصر ! ..

وأمر آخر: إنه يريد قبل أن يجلس للفتوى وللتدريس ، وأن يفرغ من تنسيق الأحاديث التى جمعها فى رحلاته العديدة المضية ، يريد أن يسند الأحاديث إلى رواها من الصحابة ويخص لكل واحد منهم مسندا .. وعمل كبير كهذا يقتضيه الاعتزال فى بيته ..

وبدأ يعتكف ليجمع مُسْتَدَه ، ويحص ما فيه من الأحاديث . وعاتبه بعض الذين ألفوا لقاءه ، فطلب منهم أن يتركوه ليعمل ما هو أجدى من غشيان مجالس ليس فيها غير أحاديث يثرثر بها قوم ألفوا السكوت على الباطل وظلم العباد ..

كان قد بدأ يدون (المُسْتَد) منذ بدء عنايته بالحديث ، وقد تعين عليه الآن أن يجمع شتات ما

كتب ، وأن يسطر على الورق كل ما حفظ ، وأن ينظر في هذه الأحاديث مع إمعان النظر في نصوص القرآن ، ليحسن استنباط الأحكام .

وجمع (المسند) في كتب متفرقة ، وظل يعمل فيه إلى آخر أيام حياته ، لينسقه ابنه و يصنفه من بعده .

وكان أحمد يكتب في مسنده كل ما يحفظه من أحاديث .. وقد قال هو فيما بعد لابنه عبد الله الذي روى فقهه وبوب مُسْنَدَه ، بعد أن سألَه عبد الله عن حديث جاء في المسند ، رويت بخلافه أحاديث أخرى قال أحمد لابنه : قصدت في المسند المشهور ، فلو أردت أن أقصد ما صح عندي ، لم أرو من هذا المسند إلا الشيء بعد الشيء اليسير ، ولكنك يا بني تعرف طريقتي في الحديث .

لست أنخالف ما ضعف من الحديث إذا لم يكن في الباب شيء يدفعه . وقد لاحظ ابن الجوزي أن بعض فقهاء الحنابلة فيما بعد قد اعتبروا كل ما جاء في المسند من أحاديث صحاحا على الرغم من تنبيه أحمد بن حنبل نفسه .

حزن بن الجوزي لهذا ، وكتب : « قد غَمَّني في هذا الزمان أن العلماء لتقصيرهم صاروا كالعامية ، وإذا مر بهم حديث موضوع قالوا : قد رُوي . والبكاء يجب أن يكون على خسارة الهِمَم ولا حول ولا قوة إلا بالله . »

أصبح أحمد بن حنبل وما في بغداد أحفظ منه للحديث ، ولا أعمق منه بصرا بآثار الصحابة وفتاواهم ، فضلا عن فقهه بعلوم القرآن

وشهد شيوخ بغداد بفضله وعلمه وتقواه ، وجدارته بالتدريس والإفتاء .

وها هو ذا يبلغ الأربعين ، وقد مات الإمام الشافعي ، ووجب على أحمد أن يتخذ له حلقة للتدريس والإفتاء بالمسجد الجامع ببغداد .

وحدد موعدا لحلقته بعد صلاة العصر كما فعل الإمام أبو حنيفة منذ أكثر من خمسين عاما ..

استقر لأحمد بن حنبل الآن منهج في استنباط الأحكام ، خالف فيه أبا حنيفة ومالك بن أنس . وتابع فيه أستاذه الشافعي . وإذن فقد أصبح أحمد بن حنبل إماما ..

وشرع الإمام أحمد يفسر القرآن ، ويروي الأحاديث و يفسرها ، و يشرح للناس مذهبه في استنباط الأحكام ، و يفتي فيما يطرح عليه من مسائل .

وفى هذه الحلقات علم الناس أن من روى حديثا صحيحا ولم يعمل به .، فقد نافق !

وفى هذه الحلقات تفجر فقهه أصولا وفروعا . . وأجاب على آلاف المسائل . . وازداد شهرة ، وتزاحم الناس على حلقاته ، وتركوا حلقات الفقهاء الآخرين ، حيث وجده الناس غزير العلم ، حسن الرأي ، حلوا الحديث ، رفيع الذوق ، كثير الحلم ، جميل المعشر . . ووجدوه حفيا بالفقراء من طلاب العلم ، بسواد الناس يقرهم ويهش لهم . .

وقد جر عليه هذا كثيرا من العناء ! فقد نفس عليه بعض فقهاء بغداد ، وتبدل فى قلوبهم إعجابهم به ، ورضاهم عنه ، لتشتعل الغيرة منه .

ثم إن طلاب العلم تابعوه إلى بيته ، ولم يتركوا له وقتا للراحة أو العمل . . وعاتبه أحد أصدقائه لأنه لم يعد يلقاه كما ألف من قبل فقال له : « إن لى أحباء هم أقرب إلى من ألقاهم فى كل يوم ، لا ألقاهم مرة فى العام .

أسرف عليه طلاب العلم ومحبه ، فأزعجوه ، وما كان له حجاب ينظمون مواعيد الناس ، كما كان للإمام مالك والإمام الليث من قبل ، وما كان يستطيع أن يمتنع عن لقاء زواره إذا كان يعمل أو يستريح فى بيته كما تعود مالك والشافعى . . وأثقل عليه أصحاب المسائل ، وطلاب مودته ، فخشى أن يفتن بنفسه ، أو يدهمه الغرور والكبر والزهو أو المراءاة وشكا همه إلى الله تعالى ، وتمنى عليه لو أهمل ذكره ، أو ألقى به فى شعب من شعاب مكة حيث لا يعرفه أحد . . !

ما كان الناس يتركونه ليستريح ، والحياء بعد يمنعه من صدهم .

ولاحظ أن فى حلقاته من يكتب إجاباته وفقهه ، فنهاه فما كان يحب كتابة الفقه . . وسأله سائل : « ليمّ تنهى عن كتابة الفقه وابن المبارك الذى نعرف موقعه منك كتب فقه أهل الرأى فى العراق ؟ » فأجاب : « ابن المبارك لم ينزل من السماء . وقد أئيرنا أن نأخذ العلم من فوق . » « أى من القرآن والسنة . »

ذلك أن الإمام أحمد كان يخشى إذا دون الفقه أن تتجمد الأحكام ، ويشيع التقليد فيما يأتى من العصور ، والفقه ينبغى أن يتجدد بالضرورة وفق مقتضيات الزمان ، يضبط هذا كله ما جاءت به نصوص القرآن والسنة وآثار الصحابة ، فهى وحدها الجديرة بالتدوين ، بوصفها المعيار الموضوعى الثابت ، ووعاء الأحكام الشرعية جميعا ، إما بظاهر نصوصها ، أو بدلالاتها الواضحة أو الخفية ، وإما بالقياس على ما فى النصوص من أحكام إذا تشابهت العلل والحكم .

وتعود الإمام أحمد فى حلقة درسه بعد كل صلاة عصر، أن يفتى الناس وطلاب العلم عما يسألون ، وأن يشغل نفسه وأهل الحلقة بما اشتغل به السلف : القرآن وتفسيره

وكان يعلمهم أن آيات القرآن يفسر بعضها بعضا ، أو تفسرها الأحاديث الشريفة ، وآثار الصحابة الذين تلقوا علمهم من الرسول صلى الله عليه وسلم ..

فوضوح الدرس إذن هو القرآن والسنة وآثار الصحابة . ثم إنه ليأخذ أهل الحلقة بإتقان اللغة العربية وآدابها وعلومها ، ليسهل عليهم فهم القرآن والأحاديث ..

أما سائر المعارف التى انتشرت فى عصر الإمام أحمد ، فما كان يسمح بطرحها فى الحلقة .. وبصفة خاصة الكلام فى العقيدة .. وكان المعتزلة قد أحدثوا حركة فكرية عنيفة ، وتصدوا للرد على الزنادقة والملحدين بما عرفوا من علوم المنطق والفلسفة ، ثم أخذوا منذ حين يطرحون هم وغيرهم من المفكرين قضايا الجبر والاختيار، والقضاء والقدر، ورؤية الله ، وذات الله وصفاته ، ووضع القرآن : مخلوق هو أم قديم ؟ .

ولقد تصاول المفكرون والفقهاء من قبل حول عدد من هذه القضايا مثل الجبر والاختيار، فمنهم من ذهب إلى أن الإنسان حرقى حدود علم الله وتقديره

ومنهم من قال بالجبر، فالإنسان فى كل أفعاله مجبر فهو مسير لا اختيار له

ومنهم من أنكر هذا كله ، وقال بأن الإنسان حر الاختيار، وأن حريته هى مناط التكليف وأساس الحساب ، فإذا لم يكن الإنسان حرا فعلام يُحاسب ، وفيما الثواب والعقاب ؟ ! .. إنه لعبث إذن وهو ما يتنزه الله تعالى عنه ..

ومنهم من قال إن صفات الله جزء من ذاته العلية .

ومنهم من قال أن ما هو حسى من هذه الأوصاف والصفات يجب أن يؤول عن ظاهر معناه وأطالوا الحوار فى أساء الله تعالى أمى الذات أم صفات غير الذات العلية ، وفى كيفية رؤيته يوم القيامة .

والعلم الذى يتناول هذه الأمور جميعا يسمى بعلم الكلام .. وكان علماءه أشداء فى الجدل ، متمرسون بأساليب الحوار ..

إلا أن الإمام أحمد بن حنبل رفض الحوار، أو التفكير فى علم الكلام كله ، وحث الناس على ألا يتناولوا من أمور الدين إلا ما جرت عليه السُّنة وآثار الصحابة .. قال : « لا أرى الكلام إلا ما كان فى

كتاب أو سنة أو حديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أو عن أصحابه أما غير هذا فإن الكلام فيه غير محمود» .

رفض أن يطرح في حلقة أمر من العقائد ، على الرغم من أن الحياة الفكرية خارج حلقة كانت تضطرب بهذه الأفكار التي تصطرع حولها عقول المفكرين والعلماء والفقهاء . وهو صراع طرح نفسه على مجالس الخلفاء ، فشجعوه وأقاموا له ندوات الحوار..

ولقد تلقى الإمام أحمد كتابا من أحد أصحابه يسأله عن مناظرة علماء الكلام ، فرد عليه الإمام أحمد : « الذى كنا نسمع وأدركنا عليه من أدركنا أنهم كانوا يكرهون الكلام والجلوس مع أهل الزينغ . »

والحق أن الإمام أحمد بن حنبل كان شديد التمسك بسيرة السلف وآثار الصحابة فيما يمس العبادات والعقائد .

أما أحكام المعاملات فقد تطورها ، وتوسع فيها ، ووضع لها من القواعد ما يفتح أبواب الاجتهاد للفقهاء فى كل عصر كلما دعت الحاجة . فالرجوع إلى الحق فضيلة وهو خير من التماهى فى الباطل .

من ذلك أنه أباح كتابة بعض فقهه لمصلحة رآها . وكان يغير آراءه ومواقفه ، كلما تبين له وجه أصوب فى الأمر..

ومن ذلك أنه غير موقفه من علم الكلام .. إذ تبين له أن لا مصلحة فى السكوت عن علم الكلام .. وما كان العصر ليترك مثل الإمام أحمد فى صمته عما يثيره المتكلمون ، فوجد أن مصلحة الشريعة تقتضيه أن يقول آراءه فيما يشغل الحياة الفكرية والفقهية من حوله ، فهذا أجدى على الدين من الصمت ، والنهى عن الحوار أو التفكير! .

فأعلن آراءه فى قضايا الإيمان ، والقدر ، وأفعال الإنسان ، وصفات الله .. ولكنه دعا عددا قليلا من خاصة العلماء والفقهاء وصفوة الصحاب ليذيع فيهم هذه الآراء .. ذلك أن حلقة فى الجامع كانت قد أصبحت تضم آلاف من طلاب العلم ومحبي آرائه .. وإنه ليخشى أن يتسع الحوار حول العقائد بين هذه الأعداد العديدة من الناس ، فيزيغ بصر ، أو يضل عقل ، أو تزل قدم بعد ثبوتها ، أو يستقر خطأ ما فى قلب من لم يؤهله علمه بعد لبحث أمور العقائد !

قال الإمام أحمد فى الحلقة التى يعقدها فى داره « إن الإيمان قول وعمل ، وهو يزيد وينقص ، زيادته إذا أحسنت ونقصانه إذا أسأت . ويخرج الرجل من الإيمان إلى الإسلام ، فإن تاب رجع إلى

الإيمان . ولا يخرج منه الإسلام إلا الشرك بالله العظيم ، أو بردة فريضة من الفرائض جاحدا لها . فإن تركها تهاونا بها وكسلا كان في مشيئة الله . إن شاء عذبه وإن شاء عفا عنه »

أما رأى الإمام أحمد في مرتكب الكبيرة فهو ليس كافرا ، ولا هو في منزلة بين منزلتى الكفر والإيمان ، وليس معفو عنه ، وإنما عليه أن يتوب ، وأمره إلى الله .. فمن زعم أنه كافر « فقد زعم أن آدم كافر ، وأن أخوة يوسف حين كذبوا أباهم كفار » .. وقال : لا يكفر أحد من أهل التوحيد وإن عمل بالكبائر .

وما كان للإمام أحمد ليظهر بهذه الآراء في حلقاته العامة ، فيسئ فهمها أحد ويمسر الناس على اقتراح الكبائر .. بل خص بآرائه أهل العلم في حلقاته الخاصة في داره ، حيث الجوال الصالح للتفكير والحوار في أمور حرجة كتلك ..

وأما عن القضاء والقدر فقد قال : « أجمع سبعون رجلا من التابعين وأئمة المسلمين وفقهاء الأمصار على أن السنة التي توفي عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم الرضا بقضاء الله ، والتسليم لأمره ، والصبر تحت حكمه ، والأخذ بما أمر الله به ، والبعد عما نهى عنه ، والإيمان بالقدر خيره وشره ، وترك المراء والجدال والخصومات في الدين . » وقال : « الناظر في القدر كالناظر في شعاع الشمس كلما ازداد نظرا ازداد حيرة . »

أما عن صفات الله وأسمائه مما جاء في القرآن أو السنة ، فيرى الإمام أحمد روايتها واتباعها كما جاءت ، فلا تُقحم عليها مالا يصلح لضبطها وهو العقل .. فهي أمور اعتقادية ينبغي على المؤمن أن يسلم بها كما هي .. وكذلك رؤية الله تعالى يوم القيامة ، يجب فيها أن تؤمن بما جاء في الأحاديث الشريفة ، وقد رأى الرسول ربه ، ويجب أن نفهم الأحاديث بظاهرها .

على أن أحمد يرى في انشغال الفكر بهذه الأمور ترفا يصلح أن يتلهم به الخلفاء والأغنياء في قصورهم ! ، هو ترف يصلح للذين لا يعينهم العدل ، وقد تؤذيهم إقامته . والانشغال بهذا الجدل هو بعد إقصاء للفكر عن شئون الحياة ومجافاة لمقاصد الشريعة التي تتوخى مصالح العباد .. فالفقيه الحق الفاضل يجب أن يشغل من أمور الدين بما يقيم المجتمع الفاضل الذي أراده الشارع الحكيم أي بما يحقق مصالح الناس .

وإذن فينبغي ألا يشغل الفقيه التقى إلا بما يفيد الناس في حياة كل يوم .. إلا بما تحته نفع كما قال الإمام مالك بن أنس من قبل ، وكما صنع الأئمة العظام أبو حنيفة والليث بن سعد وابن المبارك والشافعي .

أما ما يعنيه الخلفاء والأمراء والأغنياء من شغل العلماء والفقهاء والمفكرين بغير واقع حياة الناس وصرفهم إلى التصارع العقلى فى المناهات ، فهذا كله لا جدوى منه ، وهو استدراج لهم لينشغلوا عن مصالح الأمة ، وعن استنباط الأحكام والضوابط التى تكفل هذه المصالح ، ليخلص للخلفاء والأمراء إلى ما هم فيه من ترف وظلم واستبداد ؟ ! وليظل فى الرعية من يبحث عن الطعام وسط المزابيل ، والرعاة متخمون !!

هكذا كان الإمام أحمد ينظر إلى اشتجار الخلاف من حوله فى أمور العقائد ، وإلى انشغال الفكر بها ، وحرص الخلفاء والأمراء على تشجيع الانصراف إليها ..

لَكأنّ ولاية الأمور لا يريدون للفقّه أن يُعنى بأحوال الرعية ، وأن يقيم العدل ، وأن يضع الميزان .. إن هؤلاء الحاكمين ليشجعون الزهاد على تمجيد الفقر ، والانصراف عن موم الحياة ، وكأن الإسلام دعوة إلى الفقر ! .. ثم إنهم فى الوقت نفسه يحضّون أهل الفقه والعلم والفكر على الانصراف عن الواقع إلى ما وراء الواقع .. عن الحياة إلى ما قبل الحياة وما بعد الحياة ... فَمَن بعد ذلك يحاسب الحكام على ما لم يفعلوه للرعية ، وعلى ما يقتربون ؟ ! ومن ذا الذى يدافع عن العدل والحق ومصالح الناس ؟ ! !

ما كان للفقهاء الأبرار الذين وقفوا جهودهم على خدمة الشريعة أن يقعوا فى الفخاخ ! !

وهكذا جعل الإمام أحمد كل هم إلى ما يفيد الناس .

وفى الحق أن الإمام أحمد بن حنبل لم يهاجم ظلم الحاكم علنا ، كما فعل من قبله أبو حنيفة الذى حرص صراحة على الثورة ، ولكن آراء الإمام أحمد عن العدل وعن الأسوة الحسنة ، وعن حقوق ذوى الحاجة ، ثم فتاواه .. كل أولئك قد أوغر ضده الصدور .

وكان استنباطه للأحكام والفتاوى يعتمد على نصوص القرآن والسنة وأقوال الصحابة وآثارهم ، ثم القياس .

قال أحمد عن القياس : « سألت الشافعى عن القياس فقال يصار إليه عند الضرورة » .

وهذا هو ما فعله أحمد ، فهو لا يلجأ إلى القياس إلا إذا لم يجد حكما فى نص القرآن أو السنة أو أقوال السلف ، والسلف عنده هم الصحابة والتابعون .

فإذا اختلفت أقوال الصحابة اختار أقربها إلى نصوص القرآن أو السنة .

وإذا اختلفت أقوال التابعين اختار منها ما هو أقرب إلى القرآن والسنة أو ما وافق قول الصحابة

مجتمعين أو أقرب أقوالهم إلى النصوص .

وهو على خلاف من سبقوه ، يقدم الحديث الضعيف على القياس .. ما دام الحديث قد صح عنده وتأكد أنه غير موضوع ..

أما الإجماع فهو يرى أنه لم ينعقد بعد الصحابة .. وقال فى ذلك : « ما يدعى الرجل فيه الإجماع فهو كاذب ، لعل الناس اختلفوا .. ما يدريه ؟ فليقل لا نعلم مخالفا » . وقال : « قد كذب من ادعى الإجماع » . أما الصحابة فهم معروفون بأسمائهم ، والعلم بإجماعهم وخلافهم ميسور .

والإمام أحمد يلحق إجماع الصحابة بالسنة ، لأنهم لا يجمعون إلا على ما علموه علم اليقين عن الرسول صلى الله عليه وسلم إما رواية عنه ، أو اجتهدا منهم أقرهم عليه ..

فالإمام أحمد لا ينكر الإجماع بعد الصحابة ولكنه لا يتصور حدوثه .. ولهذا اعتمد على القياس بعد النصوص وآثار الصحابة ..

على أنه إذ يعتمد القياس أصلا من أصول فقهه ، إنما يفعل ذلك اتباعا للسنة والسلف الصالح .. ويقول : « القياس لا يُستغنى عنه والرسول صلى الله عليه وسلم أخذ به ، وأخذ به الصحابة من بعده » .

ويتسع القياس عند الإمام أحمد أكثر مما يتسع عند غيره من الأئمة ، فالقياس عند الإمام أبى حنيفة شيخ فقهاء الرأى وشيخ القياسيين هو إلحاق أمر غير منصوص على حكمه بأمر منصوص على حكمه لاتحاد العلة أو تشابهها . وعلى هذا سار الفقهاء الآخرون حتى الشافعى .

أما الإمام أحمد فلم يقتصر فى القياس على علة الحكم وحدها ، بل التفت إلى الحكمة

وعلة الحكم هى سببه ، أما الحكمة فهى هدفه .. وهى المصلحة التى يريد تحقيقها والمضرة التى يريد تجنبها فعلة الحكم بإفطار المسافر هى السفر ، أما الحكم فهى حفظ النفس ودفع المشقة .. وأخذ بالحكمة يباح إفطار من كان فى عمله مشقة بحيث إذا صام لم يتمكن من العمل ..

وعلى هذا النحو من التوسع فى القياس الأخذ بالقياس الظاهر والخفى ، وبمراعاة الحكمة إلى جوار العلة ، أدخل الإمام أحمد فى أقيسته الأخذ بالمصالح ، وهى التى لم يقم دليل على تحريمها أو إباحتها .

والإمام أحمد يأخذ بها قياسا على روح الشريعة المستوحاة من نصوص الكتاب والسنة ، وإن لم تكن قياسا على نص خاص .

ثم إنه أخذ بالاستحسان وهو الحكم فى مسألة بغير ما حكم به فى نظيرها ، رعاية للمصلحة على خلاف أستاذه الشافعى الذى قال : « الاستحسان تلذذ » .

وأخذ الإمام أحمد بالاستصحاب وهو مصاحبة الواقع ، فثبت فى الماضى ثابت فى الحاضر والمستقبل وقطعا ما يوجد ما يغيره دليل .. فما هو مباح يظل مباحا حتى يقوم دليل على الحظر

كما أخذ بالذرائع وهى الطرق والوسائل المؤدية إلى الفعل وتوسع فيها كما لم يتوسع إمام من قبله . فهو يرى أن الطرق لتحقيق المقاصد تابعة لها ، فوسائل المحرمات محرمة ووسائل المباحات مباحة كما قال ابن القيم أحد شراحه . والأطباء إذا أرادوا حسم الداء منعوا صاحبه من الطرق والذرائع الموصلة إليه ، وإلا فسد عليهم ما يرومون إصلاحه ، فإلظن بهذه الشريعة التى هى أعلى درجات الحكمة والمصلحة والكمال ؟ .. ومن تأمل مصادر الشريعة ومواردها ، علم أن الله تعالى ورسوله سد الذرائع المفضية إلى المحارم بأن حرّمها ونهى عنها ..

من أجل ذلك اهتم الإمام أحمد بالباعث على الفعل ، وبنتيجة الفعل .. فمن أراد أن يقتل رجلا بسهم ولكنه أخطأه وأصاب حية كانت تريد أن تلدغ خصمه فهو آثم عند الله . لأن الباعث على فعله كان شرا وهونية القتل .. ومن سب آلهة الوثنيين ، وكانت نتيجة فعله أن سبوا هم الله ورسوله .. فهو آثم . لأن سبهم الله ورسوله نتيجة لسبه آلهة الوثنيين

ومهما يكن اعتبار الإمام أحمد للذرائع والاستحسان والاستصحاب والمصالح : أصول مستقلة هى ، أم تدخل فى باب القياس ، فإن اعتماد أحمد على هذه الضوابط قد وسّع فقهه ، وجعله خصبا ، غنيا ، متحررا ، متجددا أبدا ، قادرا على مواجهة كل ما طرحه الحياة على عقول المجتهدين والقضاة ، حريصا على مصالح العباد . ويبدو هذا فى فروع الإمام أحمد وإجاباته على كثير من المسائل .. وفى كل ما عرف عنه من فتاوى وأحكام ..

وآراء الإمام أحمد كانت فى أكثرها إجابات عن مسائل ، وهى إجابات كان فيها متبعا السنة وفتاوى الصحابة .. والسنة عنده تبيان للقرآن .

وفى مسائل عديدة لم يجب الإمام أحمد ، لأنه لم يجد النص الذى يهتدى به ، ولكنه لم يكن يسكت ، بل يقول فيها كل أوجه الرأى .

على أنه كان أحيانا يقول : « لأدرى .. سل غيرى » .

وقد ذكروا أمامه أن ابن المبارك سئل عن رجل رمى طيرا فوقه فى أرض غيره لمن الصيد لصاحب الأرض أم للرامى ؟ فقال ابن المبارك : « لأدرى » . وسئل الإمام أحمد عن رأيه فى هذه المسألة :

« فأجاب هذه دقيقة .. وما أدري فيها » .

وسأله رجل : حلفت بيمين ما أدري أى شىء هو، فقال ليت أنك إذا دريت أنت دريت أنا .

وفى اتباع الإمام أحمد للسنة وآثار السلف قال : « ما أجبت فى مسألة إلا بحديث من رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا وجدت السبيل إليه ، أو عن الصحابة أو التابعين . فإذا وجدت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم لم أعدل به إلى غيره . فإذا لم أجد فن الخلفاء الأربعة الراشدين ، فإذا لم أجد فن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : الأكابر فالأكابر . فإن لم أجد فن التابعين ومن تابعى التابعين . وما بلغنى عمل له ثواب إلا عملت به رجاء ذلك الثواب ولومرة واحدة . »

من أجل ذلك ظل إلى آخر حياته يبحث عن الأحاديث ، والآثار الصحاح من فتاوى الصحابة وأقضيئهم ، حتى أحاديث الآحاد ، والأحاديث الضعاف ، إن ثبت عنده أنها صحيحة غير موضوعة .. والضعاف من الأحاديث فى عرف ذلك الزمان ، غيرها فى عرف أهل هذا الزمان . فقد كانت الأحاديث فى عصره إما صحاح أو ضعاف .. فقد نفهم نحن أن الضعيف من الحديث هو المكذوب غير الصحيح أو المختلق ، أما فى عرف السلف فهو الحديث الذى ليس له سند قوى ، ومنه الحديث الحسن .. !

كان الإمام أحمد إذا لم يجد ما يريد فى الحديث ، يلجأ إلى القياس الذى يُصار إليه عند الضرورة مع توسعه فى فهم القياس وتطبيقه . فأخذ بالمصلحة قياساً على مقاصد النصوص وروحها ، لا على نص بالذات ، وتحرى حكمة النص بدلا من علته فحسب ، أو لجأ إلى الاستحسان ، وما إلى ذلك من أصول .. وقد سمعه بعض الناس يجادل فقيها آخر فى بيته ويقول له : « إيش (أى شىء) أنتم ؟ لا إلى الحديث تذهبون ولا إلى القياس ولا إلى الاستحسان . ما أدري إيش أنتم ؟ »

أعمل الإمام أحمد فكره فاستنبط الأحكام من النصوص والآثار ، وعن طريق القياس بمعناه الواسع فحوى المصالح والذرائع والاستصحاب .. ولجأ إلى الاستحسان .

وفى الحق أنه كان متشددا فى كل ما يتعلق بالعبادات والحدود التى هى قوام الدين ، لأنه رأى البدع تسود والناس يترخصون ، ويخرجون عن الدين ، أما فى المعاملات فقد اتخذ فيها مذهبا متحررا ميسرا ، لأنه رأى أن الذين يستغلون الناس يضيقون عليهم باسم الدين ، ورأى من الزهاد الذين يلبسون الصوف ويسمون أنفسهم بالصوفية ، والفقراء ، من يزين للناس ترك السعى ، وحب الفقر، والرضا بالظلم وللقعود عن طلب العدل ..

وإجابات الإمام أحمد عن المسائل ، وفتاواه يظهر فيه تشدده في العبادات والحدود ، وتيسيره في المعاملات .

من ذلك أنه عندما فشلت الفاحشة في عصره ، وشاع الشذوذ الجنسي حتى أصبح أهل الشذوذ يجهرون ويتبجحون به ، وأصبح لهم شأن في الدولة نشر الإمام أحمد أن الصديق أبا بكر أمر بإحراق أهل الشذوذ ، عندما أرسل إليه خالد بن الوليد أنه بعد أن فتح الشام وجد فيها أهل قرية يقتربون هذا المنكر ، فأشار عمر بن الخطاب وعلى بن أبي طالب رضي الله عنهما ، بإحراقهم أسوة بقوم لوط .

— ومن ذلك أنه رأى الولاة يتقبلون الهدايا ، فروى أن الرسول صلى الله عليه وسلم جاءه أحد عماله يحمل مالا كثيرا فاحتجز نصف المال وقال إنه له فقد أهدى إليه ، فغضب الرسول صلى الله عليه وسلم وأخذ المال كله للمسلمين ، وحذرهم أن يقبل أحد منهم هدية إن تولى أمرا من أمور المسلمين وتساءل الرسول إن جلس أحدهم في بيت أبيه وأمه أكان يهدى إليه ، أم أنه يهدى إليه لأنه تولى أمرا ؟ فإن استحل مالا بهذه الطريقة فقد استحق النار . . !

وتأسيسا على هذا الأثر أفتى الإمام أحمد أنه لا يحق للقاضي أن يقبل هدية ، ولا أى مستخدم في الدولة ، ولا لمن يسعى في مصلحة لغيره عند السلطان أو أولى الأمر . . وأفتى بأن من زاد ماله وهو يلى منصبا ، وجب على السلطان أن يأخذ نصف ماله فيرده على المسلمين .

— ومن ذلك أن الإمام أحمد رأى الناس قد قست قلوبهم ، فأفتى بأنه لا يحق لأحد أن يحمل حيوانا فوق طاقتة ، وأن الكلب إذا حضر طعام أحد ، فعليه أن يلقي إلى الكلب بشيء منه ، وكان الناس قد فهموا منه أن ظل الكلب نجس ، فسخر به بعض حساده ، وما كان قد قال هذا قط ، ولكنه أزرى بالأثر ياء وأنكر عليهم أن يطعموا كلابهم أفخر الطعام ، وفي الأمة من لا يجد طعامه إلا في المزابل ، وقد لا يجده حتى في المزابل ! ! من أجل ذلك شهروا به !

على أن الإمام أحمد نفسه جلس مرة يأكل رغيفا وما لديه طعام غيره ، فجاء كلب فبصص بذيذه . . فالتقى إليه الإمام أحمد باللقمة بعد اللقمة حتى تقاسما الرغيف ! ! . . والإمام أحمد يرى في سؤر الكلب نجاسة ، على غير ما رآه الإمام مالك الذي اعتمد على آية تحمل أكل ما يصيده الكلب ، فقال : « أحل لنا صيده فكيف يحرم سؤره ؟ » . . ولكن من رأى الإمام أحمد كراى غيره من الفقهاء والأئمة إلا الإمام مالك بن أنس أن الكلب إذا لعق الإناء وجب غسله بماء طاهر ، سبع مرات عند بعض الأئمة ، وحتى يطهر عند أحمد وإن بلغت ثمانى مرات أولها بالتراب عند الجميع . . ولم يُجزأ أحد قتل الطير إلا لمصلحة أو الحاجة ، ولا دودة القز إلا لاستخراج الحرير . واعتمد الإمام أحمد في هذا على الحديث الذى يحرم قتل العصفور إلا لمصلحة أو الحاجة .

- ومن ذلك أن الشرط فى العقد الصحيح مالم يخالف القرآن والسنة ، ومالم يحلّ حراما أو يحرم حلالا . وإذن فللزوجة أن تشترط على زوجها ألا يتزوج غيرها . فإن خالف الشرط فسخ العقد ووقع الطلاق . ولها أن تشترط عليه ألا يسافر معها .
- من ذلك أنه إذا هلك أحد من العطش أو الجوع فى بلاد المسلمين ، فكل أثرياء المسلمين آثمون ، وعليهم الدية ، وولى الأمر مسئول وعليه الدية .. وهى ذية المقتول عمدا .. نفسا بغير نفس أو فساد فى الأرض ، فمن قتلها فكأنما قتل الناس جميعا .
- من تسبب فى القتل قاتل وإن لم يقتل بيده ، وإن لم يقصد القتل .. وقد أخذ هذا الحكم من قضاء للإمام على بن أبى طالب كرم الله وجهه . فقد أدخلت فتاة فى ليلة زفافها إلى بيتها شابا كانت تعشقه وأخفته ، واكتشفه الزوج فقتله ، فحكم الإمام على الزوجة الخائنة بالقتل ، وعفا عن الزوج لأنه يدافع عن عرضه .
- ومن ذلك أن التّية هى التى تُكَيَّفُ العقد وعلى هذا فزواج المحلل باطل .
- يجب نفى أهل الدعارة والمجون والفسق إلى مكان يؤمن فيهم شرهم .
- القاعدون عن طلب الرزق اكتفاء بالعبادة ، يجب إجبارهم على العمل ، لأنهم يأكلون أموال الناس بالباطل ، وطلب الزهد فرارا من المشقة إثم ، وترك المكاسب مع الحاجة إليها كسل .
- إذا حكم للمدعى بيمينه بشهادة شاهد واحد ، ثم ثبت كذب الشاهد ، فعليه الغرم كله ، أى رد مادفع للمدعى بغير حق ، فإن كانا شاهدين تقاسما الغرم .
- لا يجوز الشراء ممن يرخص السلع لينزل الضرر بجاره ، وعلى السلطان أن يمنع من البيع . كذلك يطرد السلطان من السوق كل تاجر يرفع السعرو يضارب فيه .. فإذا تعدد التجار ، وجب اقتلاعهم من السوق ومنعهم من التجارة .
- تمنع المضاربة على السمر نزولا أو صعودا لمن لا يريد أن يشتري .
- لا احتكار .. فالحتك مملعون .

- يمنع كل بيع فيه شبهة ربا ، كالبيع للمدين ، كمغالة بعض التجار فى الربح فهو ربا ، وتخل مصادرة هذا المال ، ورده بيت المال ومنع مقترف هذا العمل من الاتجار .
- أعمال السمسرة غير جائزة . والسلطان مسئول عن مطاردة السماسرة ورد أموالهم إلى المسلمين لأنه مكسب على حساب الغير بغير عمل ففيه شبهة القمار .
- وما كان الإمام أحمد ليحرم أو يحلل صراحة بل كان يتويع عن هذا كغيره من الأئمة السابقين .. ويكتفى بأن يقول « أكره أو أحب » من ذلك أنه سئل عن بيع الماء فقال : « أكرهه » .. وهو يريد أنه حرام .. وسئل عن الخمر يستعمل كالخل فقال : لا يعجبني ..
- ومن ذلك جواز تحويل الدين وهو استيفاء للحق .. وهى ما تسمى حوالة الحقوق ..
- ومن ذلك أن الأصل فى الأشياء الإباحة ، فكل تصرف مباح حتى يثبت دليل المنع .
- ومن ذلك : إذا شك المطلق أنه طلق واحدة أو ثلاثا .. فهى طلقة واحدة لأن الحلال ثابت بالعقد فلا يزول بالشك .
- جواز إجبار المالك على أن يسكن فى بيته من لا مأوى له ، بأجر المثل ، إذا كان فى بيته فراغ لا يحتاج إليه . والحكم ينطبق على صاحب الخان (الفندق)
- يجبر أصحاب السلع على بيعها بسعر المثل ، فإذا امتنعوا ، رفعهم السلطان من السوق وصادر أموالهم ورد نصفها إلى بيت المال .
- ومن امتنع عن أداء الزكاة ، أو ماطل ، أو لم يؤدها كاملة أخذت منه قسرا ، وصودر ماله ورد نصفه إلى بيت المال .
- يُمنع تلقى السلع قبل نزولها فى الأسواق ، لكيلا يتحكم تاجر أو عدد من التجار فى السعر .
- من وقع فى معصية وعاجل بالتوبة حال تلبسه بها أو بعدها فهو معفو عنه . كمن يفتصب عقارا ثم يندم ويعترف ويخرج من العقار فهو فى حال توبة ، فيعفى عنه .
- وكان قد صح للإمام أحمد من السنة والآثار عن الشروط فى العقود ما لم يبلغ غيره من الأئمة من

قبل . ولذلك خالفهم جميعا فى الشروط ، فأجاز كل شرط فى العقد مالم يحرم حلالا أو يحلل حراما . . وتوسع الإمام أحمد فى ذلك حتى أجاز شرط الخيار فى عقد الزواج . بحيث يكون لأحد الطرفين حق الفسخ بعد مدة معينة فإذا مضت المدة ولم يفسخ ، استمر العقد . . وفى رأيه أنه لا دليل من الشرع يمنع هذا الشرط ، ثم إن حق الفسخ يمنع الخديعة . فإذا خالف الزوج الشرط فسخ العقد ، وبمقتضى رأيه فى الشروط أجاز للبائع أن يبيع ويحتفظ بحق الانتفاع مدة معينة ، فله أن يشترط الإقامة بسكنه الذى يبيعه مدة معينة . وأجاز اشتراط البائع على المشتري أنه إذا أراد بيعه فهو للبائع بضمنه الذى تقاضاه من قبل . وأجاز أن يشترط البائع على المشتري وجوه استعمال موضوع البيع . فقد سئل عن رجل اشترى جارية فاشترط البائع عليه ألا يستخدمها إلا فى التسرى فحسب ، فلا تخدم ولا تقوم بعمل آخر ، فقال أحمد : « لا بأس » .

— جواز البيع من غير تحديد الثمن ، إذا اتفق المتعاقدان على سعر السوق عند التسليم دون مساومة . ويسمى بقطع السعر . وما فى الكتاب ولا فى السنة ولا فى آثار الصحابة ما يحرم هذا ، فهو على قاعدة أن الأصل فى الأشياء الإباحة .

— يجب التشدد فى الطهارة . . فالمضمضة والاستنشاق من فرائض الوضوء وهى عند غيره من الأئمة سنة .

— من ولى أمرا من أمور المسلمين فاحتجب عنهم فى داره جاز حرقه . . فقد احتجب سعد بن أبى وقاص وراء الباب عن الناس فى قصره وهو أمير بالكوفة ، فأرسل إليه الخليفة عمر بن الخطاب من أحرق عليه قصره .

— للماربشمر غيره أن يأكل حتى يشبع مالم يكن على الثمر سور أو حارس . . ولكن لا يجوز للمار أن يحمل من الثمر .

— للرجل أن يشهد على امرأته بالزنا ويقسم اليمين دون حاجة إلى أربعة شهداء ، إذا رأى رجلا يعرف بالفجور يدخل إليها ويخرج . وتعاقب الزوجة بمعد الزنا .

— للمرأة إذا تزوج عليها زوجها أن تطالبه بمؤخر صداقها وإن لم تطلق .

— البينة التى تثبت الحق لصاحبه ليست معصورة فى أشكال أو صيغ ، بل هى كل ما يبين به الحق ،

من الأمارات والأدلة ، فلو تنازع الساكن ومالك المسكن على شيء نفيس غيباً في المسكن ، فالشيء لمن وصفه منها وصفاً دقيقاً منضبطاً ، وإن حلف الآخر وجاء بالشهود .

— لا يتحقق السجود في الصلاة إلا بأن تمس الأنف الأرض ، وذلك من تمام شعور العابد بالعبودية (والأرض هي ما يصل على العابد مجردة أو مفروشة) .

— تغسل النجاسة بماء طاهر حتى يزول كل آثارها ، وأقل ما تغسل به النجاسة سبع مرات . وإذا شك المتوضئ في طهارة الماء ، تركه وتيمم .

— السنة في الصلاة أن يخفف الإمام فلا يطيل رعاية لحال المأمومين ، وتكره إمامة من لا يرضى عنه أكثر المصلين .

— الأذان في الصلاة يجب أن يكون باللغة العربية (وقد أجاز غيره من الفقهاء أن يكون بغيرها) . وكذلك الصلاة .

— السنة في الصيام هي الفطر في السفر . والفطر في الغزو أخرى . وقد خرج الرسول صلى الله عليه وسلم للمفتح في رمضان ، فأفطر بعد صلاة العصر ، وشرب على راحلته ليراه الناس وقال : « تَقَوُّوا لأعدائكم » ..

— طاعة الوالدين فريضة ، وهي جزء من الإيمان ، وقد جعلها الله بعد التوحيد ، « وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً » فعصية الوالدين أو الإساءة إليهما كالشرك به تعالى بهذا نزل القرآن وعليه نصت الأحاديث الشريفة ورعاية الأم أولى كما جاء في الحديث . وقد سمع الرسول صلى الله عليه وسلم قصة زاهد شغلته العبادة عن الرد على أمه وكانت في حاجة إليه ، فأصابها أذى ، فعقب الرسول على سلوك العابد بأنه لو خرج من صلاته ، وأجاب أمه ، لكان أحب إلى الله تعالى وأقرب . وقد روى الإمام أحمد عن الصحابة والتابعين أنه إذا استأذن ولد والدته للخروج مجاهداً في سبيل الله ، فأذنت له ، وعلم أن هواها في المقام ، فليقم . وقال الإمام أحمد لطالب في حلقة تريده أمه على التجارة ، وهو يريد العلم : « دارها وأرضها ولا تدع الطلب . »

— يجوز للأب أن يفضل أحد ولده بالهبة إذا كان هذا الولد في حاجة بسبب العجز عن الكسب لانقطاعه للعلم ، أو لمهارة به ، أو لكثرة عياله .

— الأحكام يجب أن توفق بين الظاهر والباطن ، فيؤخذ بالظاهر إذا كان الحال فى غنى عن البيئة لأن
الأمارات القوية تؤيده أو كان بيئة فى ذاته . كأن يظهر الحمل على امرأة ليس لها زوج ، أو كان
يشاهد رجل يجرى وفى يده عمامة ، وعلى رأسه عمامة أخرى ، يطارده رجل آخر بلا عمامة !
لا يؤخذ بالظاهر على إطلاقه ، فقد ثبت أنه يجافى الحقيقة .

فقد حدث أن جاءت امرأة بخصم زوجها ، فأرسلت عينها وبكت . ، فقال أحد القوم :
« مهلا » فإن أخوة يوسف جاءوا أباهم عشاء ييكون .

وحدث فى عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه أن امرأة بالمدينة أحببت شابا من الأنصار ،
ولكنه لم يطعمها فيما تريد ، فجاءت ببيضة وألقت صُفرتها ، وسكبت البياض على فخذيها وثوبها ، ثم
جاءت إلى الخليفة عمر صارخة فقالت : « إن هذا الرجل غلبنى على نفسى وفضحنى . وهذا أثر
فعاله . » فسأل عمر النساء قتلن له : « إن ببدنها وثوبها آثار الرجل » . فهم بمقوبة الشاب ، فأخذ
يستغيث ويقول : « يا أمير المؤمنين ثبت فى أمرى . فوالله ما أتيت فاحشة ولا هممت بها ، فلقد
راودتنى عن نفسى فاعتصمت » . فنظر عمر إلى على بن أبى طالب كرم الله وجهه وقال : « يا أبا
الحسن ما ترى فى أمرها . » فنظر على إلى ما على الثوب ، ودعا بأم حارث شديد الغليان ، فصب
على الثوب فجمد البياض ، وظهرت رائحة البيض ، فزجر الخليفة أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه
المرأة فاعترفت ، وعاقبها .

ومن رأى الإمام أحمد أنه لا يؤخذ بالظاهر على إطلاقه حتى إذا اعترف المذنب . وقد روى أنه
حدث فى عهد أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه ، أن أتى برجل وُجِدَ فى خربة بيده
سكين ملطخ بالدم وبين يديه قتيل يتشطح فى دمه . فسأله أمير المؤمنين فقال : « أنا قتلته . »
فقال : « اذهبوا به فاقتلوه . » فلما ذهب به أقبل رجل مسرعا ، فقال : « يا قوم لا تعجلوا . ردوه إلى
على » . فردّه . فقال الرجل : « يا أمير المؤمنين . ما هذا صاحبه . أنا قتلته » فقال على للأول :
« ما حلك على أن قلت أنا قاتله ولم تقتله ؟ » . قال : « يا أمير المؤمنين ، وما أستطيع أن أصنع ، وقد
وقف العسس على الرجل يتشطح فى دمه ، وأنا واقف ، وفى يدي سكين وفيها أثر الدم وقد أخذت
فى خربة ؟ فخفت ألا يقبل منى ، فاعترفت بما لم أصنع ، واحتسبت نفسى لله . » فقال على :
« بشئ صنع ! فكيف كان حديثك ؟ » . فقال الرجل إنه قصاب ذبح بقرة وسلخها ، وأخذ
البول فأسرع إلى الخربة يقضى حاجته والسكين بيده ، فرأى القتل فوقف ينظر إليه فإذا بالشرطة
تمسك به . وأما القاتل فاعترف بأن الشيطان زين له أن يذبح القتل ليسرقه ثم سمع خطوات
فاختفى فى الظلام ، حتى دخل القصاب فأدركه العسس فأمسكوا به . ولما رأى الخليفة أمر بقتل
القصاب ، خشى أن يبوء بدمه فاعترف . وأخلى على سبيل القاتل لأنه إن كان قد قتل نفسا ، فقد
أحيا نفسا ، ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا . » وأخرج الدية من بيت المال .

وكان الإمام يستشهد فى أحكامه بالأخبار والقصص ، ففيها عبرة لأولى الألباب كما قال الله تعالى . وكان يطلب من تلاميذه أن يكثروا من قراءة القصص ليعتبروا

ومما رواه من قصص تؤيد رأيه فى عدم الأخذ بالظاهر على إطلاقه ، أن امرأة فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم اغتصبها رجل وهى فى الطريق إلى المسجد لصلاة الفجر ، فاستغاثت برجل مر عليها ، وفرّ المختصب ، ومرنفر وهى ما تزال تصرخ فأدركوا الرجل الذى كانت قد استغاثت به ، فأخذوه وجاءوا به إليها ، فقال الرجل : « أنا الذى أغثتك وقد فر الآخر » فأتوا به رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرته أنه وقع عليها وشهد عليه القوم . فقال : « إنما كنت أغثتها على صاحبها فأدركنى هؤلاء فأخذونى » فقالت : « كذب . هو الذى وقع على » . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « انطلقوا به فارجموه . » فقام رجل فقال : لا ترجوه وارجمونى فأنا الذى فعلت بها الفعل . فقال القوم : « يا رسول الله ارجمه » فقال : « لقد تاب توبة لو تابها أهل المدينة لقبل الله منهم . »

— يفضل الإمام أحمد للمسلمين أن يغزوا تحت قيادة القوى وإن كان فاجرا ، على الضعيف وإن كان صالحا ويقول : « أما الفاجر القوى فقوته للمسلمين وفجوره لنفسه . وأما الصالح الضعيف فصلاحه لنفسه وضعفه على المسلمين . فيغزى مع القوى الفاجر جلبا للمصلحة العامة . »

— لا يحبس المدين فى دين . فلم يحبس رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا فى دين قط ، ولا الخلفاء الراشدون من بعده ، وقد قال أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه « الحبس فى الدين ظلم » . وكذلك لا يحبس الزوج فى مؤخر الصداق ، ولم يحبس الرسول ولا أحد من الخلفاء الراشدين زوجا فى مؤخر صداق أصلا . ولم يقض أحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا من بعده لامرأة بصداقها المؤخر ، إلا أن يفرق بينها موت أو طلاق فتقوم على حقها . كما جاء فى رسالة الليث إلى مالك . فالأمة مجمعة على أن المرأة لا تطالب به قبل أجله بل هو كسائر الديون المؤجلة فليس لها حق فيه إلا بالموت أو الطلاق أو الزواج بغيرها . . ولا تقوم مصلحة الناس إلا بهذا . ويضيف الإمام أحمد فى ذلك : « من حين سلط النساء على المطالبة بالصدقات المؤخرة (أى مؤخر الصداق) ، وحبس الأزواج عليها ، حدث من الشرور والمفاسد ما الله به عليم . وصارت المرأة إذا أحست من زوجها بصيانتها فى البيت ، ومنعها من البروز والخروج من منزله والذهاب حيث شاءت ، تدعى بصداقها وتحبس الزوج عليه ، وتتطلق حيث شاءت . فيبيت الزوج ويظل يتلوى فى الحبس ، وتبيت المرأة فيما تبيت فيه » . . !

— كل أنواع المعاملات مباح إلا ما يحظره نص أو القياس على نص . وكل العقود واجبة الوفاء إلا إذا قام دليل شرعى على المنع . وكل ما احتاج إليه الناس فى معاشهم ولم يكن سببه معصية لم يحرم عليهم ، لأنهم فى معنى المضطر الذى ليس بباغ ولا عاد . ولا يشترط لانعقاد العقد أى شكل أو صيغة بل ينعقد بالنية والإفصاح عنها . وبعض العقود لا يثبت إلا بالكتابة . وقد ينعقد العقد بممارسة الفعل أو بما يقتضيه العرف . كالعقد مع صاحب الخان (الفندق) أو صاحب الحمام ، ينعقد بدخول المكان ورضا صاحبه . وأكثر تصرفات التجارة قائم على العرف . ولكن النية والقبول يجب ألا يعيب أيهما شئ ، فأساس المعاملات الرضا ، وكل ما يشوب الرضا يفسد التعاقد ، أكرها كان أم خديعة أم غشا أم تدليس أم غبنا .

وقد حدث فى عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أن تزوج شيخ كبير يخضب بالسواد بفتاة شابة حسناء وبعد حين ظهر البياض على شعر الزوج ولحيته ، فكرهته العروس وقالت إنها خدعت بشبابه .. وما هو بشاب . وشكاه أهلها إلى عمر قائلين : « حسباه شابا » . فضربه عمر ضربا موجعا وقال له : « غررت بالقوم » . وفرق بينها .

— الغاية ترتبط بالوسيلة المؤدية إليها ، وترتبط المقدمة بالنتيجة ، فما هو سبيل إلى المباح مباح ، وما هو وسيلة إلى المحظور محظور ، وإذا فسدت أحدهما فسدت الأخرى ، فإثبات الحق مباح بل هو مطلوب ، على ألا تكون الوسيلة محظورة كشهادة الزور .

وتستثنى من القاعدة حالات الضرورة أو الحاجة .. فيجوز للطبيب الاطلاع على عورة المريضة لعلاجها وإنقاذ حياتها .

— من الواجب توفير كل ما فيه صلاح الناس ، وفتح الطريق للتوبة وإصلاح ذات البين وصيانة كيان الأسرة .

وروى احمد : « جاءت إلى على بن أبى طالب امرأة فقالت : « إن زوجى وقع على جاريتى بغير أمرى » . فقال للرجل : « ماتقول ؟ » . قال : ما وقعت عليها إلا بأمرها . فقال : « إن كنت صادقة رجعتك (بالزنا) وإن كنت كاذبة جلدتك الحد (للقدف) » . « وأقيمت الصلاة فقام أمير المؤمنين على يصلى . وفكرت المرأة فلم تر لها فرجا فى أن يُرجم زوجها ، ولا فى أن تجلده فولت هاربة . ولم يسأل عنها أمير المؤمنين » .

وقد قيل للإمام أحمد « فلان يشرب » . فقال : « هو أعلمكم شرب أم لم يشرب » . وقال عن جماعة من العلماء يشربون النبيذ : « تلك سقظاتهم لكنها لا تذهب حسناتهم » .

— على القادر أن ينفق على كل ذوى الأرحام الفقراء قربوا منه أو بعدوا . وعلى الموسرين من المسلمين أن يخرجوا من أموالهم إلى بيت المال صدقات ، حتى لا يكون فى أرض الإسلام صاحب حاجة مسلما كان أم غير مسلم .

— يجب على كل مسلم أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، وهذا أمر لا تختص به جماعة منهم ، بل هو فرض على الجميع . ويجب اتباع الحسنى فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . فكما جاء فى الحديث الشريف : « كل من رأى سيئة فسكت عليها فهو شريك فى تلك السيئة » ، على أن يكون النصيح بقول التى هى أحسن . والمسلمون مطالبون شرعا إذا كلم بعضهم بعضا بأن يقولوا التى هى أحسن « قرب حرب أهاجها قبيح الكلام » . فإن لم يتحدثوا بالحسن من القول ، وقعوا فى المعصية بخالفتهم قوله تعالى : « قل لعبادى يقولوا التى هى أحسن . إن الشيطان ينزغ بينهم » .

بهذا الفقه خالف الإمام أحمد فى كثير من المسائل كل من سبقه من الأئمة وبصفة خاصة الإمامين أبا حنيفة ومالك بن أنس . . ولكنه كان أكثر اقتداء بالشافعى فى مذهبه المصرى الذى تأثر فيه بالإمام الليث بن سعد . على أن الإمام أحمد اختلف مع الشافعى اختلافا كاملا فى الأخذ بالاستحسان وفى شروط العقود ، فقد وقع لأحمد من الحديث والآثار ما لم يقع للشافعى ، وقد صرح نظر الشافعى حين قال لأحمد هو ومن معه من أهل الحديث : « أنتم أعلم بالحديث والأخبار منى فإن كان صحيحا فأعلمونى » .

سار الإمام أحمد فى أكثر اجتهاده على طريق الإمام الشافعى ، حتى لقد رفض الإمام الطبرى اعتبار ابن حنبل فقيها أو مجتهدا ، وعده متبعا وراوية للحديث ومقلدا ! . .

وقد خوطب الإمام أحمد فى التزامه طريق الشافعى فقال : « لم نكن نعرف الخصوص ولا العموم حتى ورد الشافعى ، وكان الفقه قفلا ففتح الشافعى . وهو فيلسوف فى أربع فى اللغة واختلاف الناس والمعانى والفقه » .

تابع الإمام أحمد طريقه : فهو يوجب على المسائل ، ويعلم التفسير والحديث ، ويراجع ما جمع من الأحاديث ، وفى مراجعاته لما حفظ وجمع من أحاديث ، حذف كل ما حفظه عن عالم ذى مكانة من أهل الحديث ، لأنه شتم معاوية بن أبى سفيان وأرسل إليه أحمد بذلك . . فعجب المحدث لأنه يعرف أن أحمد بن حنبل يرى معاوية من أهل البغى أمتحن ببغيه أمير المؤمنين على بن أبى طالب كرم الله وجهه !!

إن أحمد وصاحبه حفظا الأحاديث معا من شيخهما عبد الرزاق فى اليمن ، ولقد سمعاه معا يشتم أمير

المؤمنين عثمان بن عفان رضى الله عنه .. وعثمان أفضل من معاوية ! ! .. وإذن فما ينبغي لابن خنبل ، أن يروى الأحاديث الكثيرة التي حفظها عن شيخها عبد الرزاق ! أرسل المحدث إلى صاحبه أحمد يذكره بذلك كله .. !

فلم يشأ الإمام أحمد أن يحاور صاحبه ، فقد شغله فقهه ، واستغفروه غلبة أصحاب الكلام على قصر الخليفة وعلى الحياة الفكرية ، فشدّد النكير عليهم ، وشرع يهاجمهم فى حلقاته العامة بالمسجد ، وأخذ يحذر منهم طلابه ومريدى حلقاته قائلا : « لا نكاد نرى أحدا نظرفى الكلام إلا وفى قلبه رَغْل (أى فساد) . » ولم يتهيب أصحاب الكلام هجوم أحد ، بل مضوا يحاجون فى القضية التى كانت تضمنهم منذ زمن بعيد وهى قضية خلق القرآن .

والقضية ليست بنت العصر .. ولكن أصحاب الكلام من المعتزلة أثاروها من قبل فى عصر بنى أمية ، وأصابهم منها عنت شديدة وعذاب عظيم ! فقد بدأ المعتزلة فى حكم هشام بن عبد الملك يتكلمون فى حرية الاختيار وفى البيعة والشورى ، فهزوا أركان السلطان ! ...

ثم تكلموا فى خلق القرآن . فانتهز الحاكمون الفرصة ، واتهموا أصحاب هذا الرأى بالكفر .. ولم يجادلوه فى غيره من الآراء . وقبضت الدولة على أول من قال بهذا الرأى وهو « الجعد بن درهم » . فحبس وعذب فى فجر عيد الأضحى .. وخطب والى العراق فى الناس العيد وقال فى آخر خطبته : « انصرفوا وضحوا تقبل الله منكم ، فإننى أريد أن أضحى اليوم بالجعد بن درهم » . ونزل من على المنبر فذبح الجعد كما تذبح الأضحية ! !

ثم إن حكام بنى أمية طاردوا المعتزلة والمتكلمين بتهمة الكفر ، وأثاروا عليهم العامة ، حتى جاء وقت لم يستطع فيه مفكر منهم أن يجهر بفكره .. ولكن هذا الفكر استعرونا تحت المطاردة والاستبداد ، كما عاش وميض نار الثورة على بنى أمية تحت الرماد ، حتى أصبح له ضرام ، وقودُه جثث وهام .. !

وإذ سقطت دولة بنى أمية وخلفها بنو العباس ، ظهر المعتزلة بفكرهم ، واهتموا أكثر ما اهتموا بالقضية التى ذبح أول من أثارها والتى لا تقوا النكال فى سبيلها وهى قضية خلق القرآن ! .

وكان بوسع الإمام أحمد أن يشهر بهؤلاء ، فقد دعى إلى عشاء عند أحدهم ، ووجد فى داره كثيرا من الفقهاء يشربون وقد بلغ بهم السكر مبلغه . ، وأمامهم ترقص الإمام ويغنين عاريات ، فخرج أحمد من المكان ، وعندما سئل من غده عما رأى لم يقل شيئا ، وقيل له أن مخالفه كانوا سكارى ، لم ينطق ذلك أنه وهب نفسه للعلم ونأى بنفسه عن السياسة ، وأخذ الخصوم بعوراتهم !

ولكنه ما كان يستطيع أن يبعد .. فالسياسة هى فن الحياة وهى « ما كان فعلا يكون معه الناس

أقرب إلى الصلاح ، وأبعد عن الفساد ، وإن لم يضعه الرسول صلى الله عليه وسلم ولا نزل به وحى .
وعلم الدين ترسم ملامح المجتمع الذى أراده الشارع الحكيم بما نفهمه من روح النصوص .

فسر الإمام أحمد قوله تعالى فى سورة النور: « وآتوهم من مال الله الذى آتاكم » بقوله تعالى فى سورة الحديد: « آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه ، فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير » .

فالأغنياء مستخلفون فيما يملكون ولا ينبغي أن يقول الواحد منهم « هذا ملكى » بل عليه أن يقول :
« هذا ملك الله عندى » ... وإذن فللمال وظيفة اجتماعية ، وإنفاق المال للصالح العام واجب شرعى ،
جعلله الله جزءا من الإيمان .. من أجل ذلك حرم الله الربا ، واعتبر المرابين كفارا ، وحرم الرشوة :
« ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقا من أموال الناس بالإثم وأنتم
تعلمون ، وحرم كل أنواع الكسب بلا عمل ، وحرم الوساطة فى التجارة والصفقات (أى السمسرة) .
أو العمولة بلغة العصر !

ثم إن الإمام أحمد أخذ يعلم الآلاف الذين يرتادون حلقاته أن الذين يستغلون مواقعهم ليكسبوا بغير
الحق لهم الويل كل الويل وكان قد أنذرهم بذلك من قبل ، فرفضوا قوله لأنهم حسبه من اجتهاده ،
ولكنه روى حديثا صحيحا قوى الأسناد محقق الثبوت .. : « أن النبى صلى الله عليه وسلم جاءه أحد
الولاة فقسّم ما جمع من مال قسمين ثم قال للنبي عليه الصلاة والسلام : « هذا لكم وهذا الهدى إلى
فغضب النبي وقام يخطب فى الناس : (أما بعد .. فإنى أستعمل رجلا منكم على أمور مما ولانى الله
فيأتى أحدكم فيقول : هذا لكم وهذه أهديت إلى . فهلا جلس فى بيت أبيه أو بيت أمه فينظر أيها الهدى
إليه أم لا ؟ والذى نفسى بيده لا يأخذ أحد فيه شيئا إلا جاء به يوم القيامة يحمله على رقبتة ، إن بعيرا
له رغاء أو بقرة لها خوار أو شاة تبحر . وكان أبوذر الغفارى حاضرا فقال للرجل : لا تحزن . إن الدنيا
دار من لا دار له ، ومال من لا مال له ، ولها يسعى من لا يقين له . اذهب اعتذر للنبي صلى الله عليه
وسلم)

وروى أحمد عن السلف الصالح أن عمر بن الخطاب خصص أرضا إلى جوار المدينة ، جعل كلاًها
لماشية الفقراء وحرّمها على أنعام الأغنياء وقال : « إن تهلك ماشية الغنى يرجع إلى ماله وإن تهلك
ماشية الفقريأتنى بأولاده متضورا طالبا الذهب والفضة . فبذل العشب اليوم أيسر على من بذل
الذهب والفضة يومئذ » .

ثم أخرج الإمام الأحاديث الشريفة التى تؤمّن الاحتفاظ بالمال وفى الأمة فقراء .

وتحرز في رواية آثار على بن أبي طالب التي تحكى عن جهاده في إعادة توزيع ثروة الأمة ، وأخذ ما فاض عن حاجة الأغنياء وردّه على الفقراء .. تحرز الإمام أحمد في ضرب الأمثال بسيرة على بن أبي طالب عندما كان أميراً للمؤمنين ، وفي اختياره لدار الخلافة بيتا في الكوفة هو من أدنى بيوت الفقراء ، ليضرب الأمثال لأولياء الأمر في عصره ومن بعده ... تخرج الإمام أحمد من الحديث عن سيرة الإمام على لكيلا يجدوا عليه سبيلا فيتهموا أحمد بن حنبل شيخ أهل السنة بأنه شيعي .. ويشور عليه أمراء البيت العباسي الحاكم .. !

وعلى الرغم من تحرزه هذا ، أوغرت فتاواه وآراؤه صدور هؤلاء الحكام .. وتربصوا به ، وزعموا أنه بما يفسر من آيات ، وبما يخرج من أحاديث ، وبما يروى من آثار الصحابة ، إنما يثير الفقراء ضد الأغنياء ، وهين الصوفية ، ويحرض العامة على الخاصة !! .

وأغروا به بعض المنافقين ليجرحوه ! .. ولكنهم ما كانوا لينالوا منه .. فقد عرف الناس من هو الإمام أحمد .. !!

وما يزال في أعماق أحمد جراح من قصة الفتاة التي كانت تبحث عن القوت في مزبلة قومها ، وعلى مقربة منها ينثر الدر والذهب لتمشى عليه المحظيات .. وعلماء يجلدون الفقرو يدعون إليه الأمة !! ثم جاء عصر المأمون ..

وقد استولى المأمون على الحكم بعد معركة مريّة مع أخيه الأمين .

ذلك أن الرشيد استخلف ابنه الأمين ، وهو ابنه من زوجته العباسية بنت عمه زبيدة ، وأوصى بولاية العهد من بعد الأمين للمأمون ، وهو ابن الرشيد من جارية فارسية

ولم يكفد الأمين يتولى الخلافة ، حتى عزل أخاه المأمون من ولاية العهد مستنفضا التعصب العربي ضد الموالي ومنهم الفرس .

وأيد الأمين في هذا عدد من فقهاء بغداد من أهل السنة .. إلا أحمد بن حنبل شيخ أهل السنة ، فقد كان لا يعنى بغير العلم !

ونخرج المأمون على أخيه الأمين بالسيف ، وغلبه ، وقتل الأمين ، وأصبح المأمون هو أمير المؤمنين .

وكان الأمين والمأمون على طرفي نقيض : فالأمين يعتمد على نسبه الهاشمي أباً وأماً ، فحسبه هذا النسب ! .

أما المأمون فقد عرف أنه يجب أن يعزب نفسه لا بنسبه ، ومن أجل ذلك حرص على أن يتعلم ويتشقف ، وقد كان معلمه يضربه وهو صغير فلا يشكو، على نقیض الأمين الذى كان مدللاً من معلمه ومن الحاشية ، لا حظ له من الثقافة ، ولا هم له إلا التوفر على المتاع الذى تقدمه له حاشيته .. !

كان المأمون واسع الثقافة ، يولع بالفقه وآداب اللغة والفلسفة وعلوم الطبيعة والطب والفلك والرياضيات .. ويدرّس معطيات كل الثقافات .. فشجع على نقلها إلى العربية عندما أصبح خليفة ..

ونظر المأمون فى أمر الدولة فوجد أن الصراع يكاد يمزقها : صراع بين العلويين والعباسيين ، وبين أصحاب الفرق من أهل السنة ، وأهل الرأى ، والمعتزلة وغيرهم من الفرق .. ووجد أن بعض أفراد أهل البيت المالك يشتطون فى ظلم الرعية مهددين كل شىء ، فيعشق أحد كبارهم امرأة حسنة متزوجة ، ويحاول ، تطليقها وحين يرفض زوجها أن يطلقها ، يرسل الهاشمى الكبير من يخفونها من زوجها عنوة ، ويغتصبونها قبل أن يهدوها إليه !

ويعجب رجل آخر منهم بغلام مليح فيخطفه من أبيه وأمه ، ويضعه أمامه على الحصان ويطير به إلى بيته ! .. وهذان الرجلان من أهل البيت المالك العباسى يصنعان هاتين الفاحشتين بامرأة وغلام من أهل مكة والمدينة ولا يجدان أدنى مقاومة .. !

أما بغداد .. فما أبشع ما يفشاها من فساد .. وإلى جوار هذا كله ينتفض فكر عظيم يعيشه فقهاء البلاد ، ومثقفون شرفاء يعانون من غاشية الظلم والفحشاء ! ..

والدولة تتسع ، وقد خلف هارون الرشيد ملكاً عظيماً ضم أكثر بلاد الدنيا ، حتى أصبح الرجل فى أى مكان فى العالم لا يعتبر مثقفاً أو متحضراً ، إلا إذا أتقن اللغة العربية .. !

ثم إن المظالم التى كابدها الناس فجّرت الثورات ، فقامت فى أطراف الدولة ثورات تطالب بالمساواة فى كل شىء وتطرفت حتى طالبت بشيوع النساء !! كما حدث فى الأطراف الشرقية ، وقامت ثورات أخرى تطالب باحترام تعاليم الإسلام كثورة أهل مصر !!

والخلافاً للفقهية والفكرية تستمر حتى لتتحول إلى عداوة ! وبعض العلويين ينهضون مطالبين بتحquem فى الإمامة والخلافة . ! ونفر من المتشددین يقطعون الطريق على أهل البدع ، ويضربون لاعبى الشطرنج ، أهل الطرب ، ومن يلبس الحرير أو الذهب ، ويريقون الخمر ، ويحطمون آلات الفناء !!

كان على المأمون أن يواجه هذا كله .. وأن يرفع مظالم أسلافه من الخلفاء ، وبصفة خاصة مظالم

أربع سنوات حكمها أخوه الأمين ، الذى ترك أمور الدولة لحاشية فاسدة ، أغرقته فى الملهذات ، حتى لقد حارب معركته الأخيرة التى قتل فيها وهو سكران يجرع الخمر من قدح ذهبى يسم أربعة أرتال .. !

ورأى المأمون أن أخطر ما يهدد الدولة هو سلطان قادة البيت العباسى .. والصراع بين العلويين والعباسيين ، والخلاف بين الفرق المختلفة .

أما الشورات فى الأطراف ، فقد أنفذ إليها جيوشا يجمعها . ثم رأى أن يوفق بين أبناء العمومة من شيعة علويين وعباسيين ، فنظر فيمن يوليه العهد ليكون خليفة من بعده ، فلم يجد أحكم ولا أتقى من الإمام على بن موسى وهو إمام الشيعة .

وأخذ يضرب رؤوس الفساد فى البيت المالک العباسى ممن يخطفون الزوجات والغلمان ، ويستغلون قرابتهم من السلطان لابتزاز الأموال ، أو لإرهاب الناس . وأمر بأن يلغى السواد من أعلام الدولة وهو شعار العباسيين ، ليحل بدلا منه اللون الأخضر شعار العلويين .

وحاول أن يرد بعض أموال الأغنياء إلى الفقراء والمساكين وأصحاب الحاجات ..

وثار عليه العباسيون وأغنياء الدولة واجتمعوا فى بغداد ، وكان هو ما يزال بعيدا عنها ، فخلعوه وأفتى عدد كبير من فقهاء السنة بأن المأمون خارج على الإسلام ، وبايعوا بدلا منه إبراهيم بن المهدي وهو أحد كبار المغنين والملحنين .

وبايعه الذين كانوا يكسرون آلات الغناء ، ويضربون المغنين والمغنيات ! !

وزحف المأمون على بغداد ، وحين أوشكت أن تستسلم ، اختفى إبراهيم بن المهدي ، وتسلسل إليه الذين خلعوه من قبل ، فبايعوه !

ودخل المأمون بغداد ، فخضع له الجميع !

وعفا عنهم إلا قليلا منهم ، قتلهم وصلبهم على أبواب بغداد مدينة السلام ! .

وكان ولى عهده على بن موسى ، قد مات من قبل فجأة فى ظروف مشبوهة ! .. وقيل إن أعداء الشيعة دسوا له السم فى الطعام ! .

أما أحمد بن حنبل فقد ظل بعيدا عن كل هذا المضطرب ، مشغول القلب بعلمه وفقهه ، لا يراه الناس إلا فى حلقاته يعلم الناس ويحيب على المسائل .

وحين دخل المأمون بغداد واستقر بها ، أسرع بترجمة كل ما لم يترجم بعد من الثقافات والحضارات الأخرى ورصد لذلك أموالا طائلة ، واستعان بمثقفين مسيحيين ويهود .

وإذ أمر بترجمة ما عند اليونان والمصريين ، اتهموه بأنه يروج للوثنية ، ففى ذلك التراث الحضارى كلام عن الآلهة المتعددين .. !

من أجل ذلك توقف المأمون عن ترجمة المسرح المصرى والأدب المصرى القديم ، فضاعت آثاره ، إذ لم يجد من يترجمه من بعد

وتوقف عن ترجمة المسرح اليونانى والأدب اليونانى ، ولكن هذا التراث وجد من الأوربيين من ينقله عبر الأجيال ..

كان نفر من أهل السنة فى بغداد يلعنون الفلسفة والمنطق ، وكل ما لم يعرفه السلف من معارف وعلوم .. ولكن المأمون شجع هذه العلوم والمعارف ، ومنح تلاميذ جابر بن حيان تلميذ الإمام الصادق كل ما يريدون من أموال ومعامل ليطوروا علم الكيمياء .

واعتبر بعض أهل السنة هذا العلم شعوذة وبدعة ، وشجعهم على ذلك أن نفرا من المشتغلين بالكيمياء ، أخذوا يعملون لتحويل بعض المعادن الخسيسة إلى الذهب النفيس .. !

ثم إن الصراع احتدم حول خلق القرآن بين المعتزلة وأهل السنة .

وما كان الإمام أحمد بن حنبل على صلة بكل هذا المضطرب ، واكتفى بأن يحض الناس على أن يهتموا من الدين بما فيه نفع للناس ، وبما يقيم المجتمع الأمثل .

وجد المأمون أن الفتنة توشك أن تنفجر بين أهل السنة والمعتزلة ، وكان هو نفسه يدين بآراء المعتزلة ، وبصفة خاصة بطرائقهم الفلسفية وباستخدامهم المنطق فى مجادلة الملحدين والزنادقة .. وكان راعيا لأصحاب الفلسفة ، مؤمنا إيمانا عميقا بأن القرآن مخلوق ، وبأن الجدل وسيلة صالحة للوصول إلى الحقيقة .

واصطنع لنفسه أعوانا من الجانبين .. فجعل الرجل الأول فى قصره واحدا من كبار أهل السنة ، وهو يحيى بن أكثم ، وقرب إليه فى الوقت نفسه عددا من مفكرى المعتزلة على رأسهم الجاحظ شيخ كتاب ذلك الزمان ، وأحمد بن أبى دؤاد شيخ المعتزلة .

ولكن أحمد بن أبى دؤاد كان عنيفا على أهل السنة ، يتهمهم بالكفر لأنهم ينكرون خلق القرآن . فإن لم يكن القرآن مخلوقا وكان قديما فهو إذن شريك لله تعالى فى القدم .. وهذا شرك !

أما المعتزلة فكانوا يرون أن الله خلق كل شيء فالقرآن من الأشياء التي خلقها الله تعالى ..
وحاول أحمد بن دؤاد أن يقنع المأمون بقهر مخالفه على اعتناق رأيه ، ولكنه أبى ذلك فالمأمون يرى
أن غلبة الحجة خير من غلبة القوة .. فالقوة تزول ، أما الحجة فباقية ما بقى العقل .

وجمع المأمون أربعين من المفكرين والقضاة والعلماء والفقهاء فتناظروا عنده ، غير أنهم لم ينتهوا إلى
اتفاق ! .. ولم يشهد أحمد بن حنبل هذا الاجتماع ، إذ كان لا يفشى مجالس الحكام ، ولا يقبل
عطاءهم ، مهما تكن شدة حاجته ..

كان مشغولا عن كل هذا بما هو فيه من تدريس وعلم وجمع للأحاديث . ثم إن رأيه معروف
لا يجادل فيه بعد .. فقد نهى عن الخوض فيما لم يخض فيه السلف ، والسلف لم يخوضوا في خلق القرآن ..
ولقد أعلن أكثر من مرة : « ما أفلح صاحب كلام . »

بعد المناظرة خرج أهل السنة يهاجمون أصحاب الكلام في الحلقات ، و يتهمون من يقولون بخلق
القرآن بأنهم كفار .. أو بالقليل أصحاب بدعة ! !

ولم يستطع يحيى بن أكثم وهو من شيوخ أهل السنة أن يُشكِت أصحابه ، فعرّضوا بالمأمون نفسه !
وشجع انشغال المأمون بالخلافات الداخلية جيوش الروم فهددت أطراف الدولة ، فخرج المأمون
بجيشه مجاهدا ، وأخذ معه الجاحظ وأحمد بن أبي دؤاد .. وأصبح ابن دؤاد مستشاره الأول ..

وحين استقر الخليفة على رأس جيشه في طرطوس ، داهمه المرض ، فانتهر أحمد ابن أبي دؤاد الفرصة
وأنبأه أن أهل السنة في بغداد قد انتهزوا فرصة غيابه ومرضه ليشعلوا الفتنة ضده ، فهم يكفرون من يقول
إن القرآن مخلوق وعلى رأسهم الخليفة .. ! !

وإذن فالخليفة مطالب بأن يصنع شيئا لإنقاذ الدولة ! وأمر الخليفة بأن يتولى أحمد بن دؤاد عنه أمر
الذين يكفرون من يقول بخلق القرآن .. فأرسل إلى نائب الخليفة في بغداد بأن يجمع كل الفقهاء
والعلماء والقضاة وأهل الرأي ليمتحنهم في خلق القرآن . فن أنكر خلق القرآن فليعزل من منصبه ،
ولئلا يندرج من ليس في منصب منهم أنه لن يتولى منصبا أبدا ، ولن تقبل له شهادة ، وليأمر القضاة منهم
بأن يمتحنوا الشهود في خلق القرآن ، فن خالف رأى الخليفة فلا تقبل شهادته ... وسمى له أسماء من
يجب أن يمتحنهم وفيهم أحمد بن حنبل !

ورفضوا جميعا القول بخلق القرآن

فأرسل الخليفة يطلب سبعة منهم ، فأجابوه إلى ما أراد ، فأعادهم إلى بغداد ، وطلب إعلان

اعترفهم ، وطلب إعادة سؤال الباقيين في بغداد .

وجاء نائب الخليفة بهؤلاء .. ففهم من أبى الخوض في الموضوع كالإمام أحمد بن حنبل ، ومنهم من قال إن الرأي ما يراه الخليفة ، ومنهم من أنكر خلق القرآن ، ومنهم من أقربأن القرآن مخلوق ..

وأرسل نائب الخليفة في بغداد إلى أحمد بن دؤاد بما حدث .. فأرسل أحمد بن أبى دؤاد بأسم المأمون رسالة طويلة ، يسب فيها الجميع ويتهمم بالرشوة والفساد ، والسرقة ، والنفاق والتظاهر وحب الرياسة .. لم يترك أحداً منهم إلا الإمام أحمد بن حنبل ، فقد اتهمه بالجهل ! .

ثم إنه أمر نائب الخليفة بأن يهددهم بالقتل ، إذا لم يوافقوا على أن القرآن مخلوق .. فن وافق منهم فليُشهر أمره في الناس ، ومن لم يوافق فليرسله في الأصفاد والأغلال إلى أمير المؤمنين ! .

وأمير المؤمنين إذ ذاك قد ثقل عليه المرض .. فقد اشتى رطبا غسله في ماء جدول بارد ، فأصابته حمى زادته مرضا على مرض ، حتى كان يفقد الوعي فترات طويلة ، ولم ينفعه طب !

قال أحمد بن حنبل حين سئل أول الأمر عن القرآن : « هو كلام الله »

فسأله نائب الخليفة أمخلوق هو؟ قال : « هو كلام الله لا أزيد عليها » .

وسئل ما معنى « سميع بصير ، أوسع من أذن يبصر عن عين ؟ » قال الإمام أحمد : « ما أدري ، هو كما وصف نفسه » ..

دعا نائب الخليفة كل العلماء والفقهاء والقضاة ، وعرض عليهم رسالة أحمد بن دؤاد التي يهددهم فيها الخليفة بالقتل إن لم يوافقوا على أن القرآن مخلوق ..

وأحضرهم جميعا فإذا بهم كلهم يجيبون بأن القرآن مخلوق .. !

وكان الإمام أحمد رجلا لنا ، فلما سمع العلماء يجيبون ، انتفخت أوداجه ، واحمرت عيناه ، وذهب ذلك اللين الذي كان فيه .. وتذكر قول رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبى ذر : « سيصيبك بعدى بلاء شديد » فقال أبو ذر : « أفى الله يارسول الله ؟ » قال : « نعم » « فاغرورقت عينا أبى ذر ، وأدرك أنه من أهل الجنة ! !

اغرورقت عينا الإمام أحمد .. ورفض الإذعان . وتابعه تلميذ له من جيرانه ، وهو طالب علم شاب ، رقيق الحال اسمه محمد بن نوح . وإذا رأى الحاضرون أن جميع الفقهاء والعلماء والقضاة في العراق قد وافقوا أحمد بن أبى دؤاد على رأيه قال قائل منهم للإمام أحمد : « ألا ترى أن الباطل ظهر على

الحق ؟ » قال الإمام أحمد : « كلا . إن ظهور الباطل على الحق أن تنتقل القلوب من الهدى إلى الضلالة ، وقلوبنا بعد لازمة للحق . »

وضعت الأغلال والأصفاد على الإمام أحمد ، وتلميذه الشاب محمد بن نوح .. وتحملًا معا على دابة واحدة ، وسيقًا من بغداد إلى طرطوس ! ! .

وانتشر الخبر في كل أنحاء العراق . وسخط الناس على المعاملة التي يلقاها الإمام أحمد حتى إذا كان في بعض الطريق قابله رجل فقال له : « يا هذا .. ماعليك أن تقتل ها هنا وتدخل الجنة ! » .. ثم قابله أعرابي فقال له : « يا إمام . إن يقتلك الحق مت شهيدا ، وإن عشت عشت حميدا » ..

تسامع الناس بما كان من أمر الإمام أحمد .. وتناقلت خبره الركبان إلى خارج العراق ، فغضب له حتى الذين ليسوا على رأيه وما لقبه أحد إلا قوى قلبه وشد أزره .

وشرد أحمد بن حنبل وهو يعاني فوق مركب خشن تحت الأغلال ، وتساءل لماذا يمتحنه الخليفة المأمون بخلق القرآن ؟ ! ما شأنه هو ؟ ! إنه يمتحن الذين يتولون مناصب في الدولة كالقضاة ، والذين ينالون من عطائه .. والإمام لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء .

لقد جمع العلماء للمناظرة في هذا الأمر وهو في بغداد منذ ست سنين .. فما باله الآن بعد أن ترك بغداد مجاهدا في سبيل الله يمتحن العلماء ؟ ! .. وما باله لا يسير على سنة أبيه هارون الرشيد الذي أنذر زعيم المعتزلة في زمانه بالقتل ، إن هو جاهر بأن القرآن مخلوق ، وشغل الناس بهذه القالة ؟ ! ..

ما بال المأمون يخالف نهج أبيه ، ويخالف نفسه ، ويعدل عن المناظرة إلى التهديد بالقتل ؟ ! .

ماذا حدث ليتغير المأمون ؟ ! .. ولماذا يزج بالإمام أحمد في هذه الفتنة ؟ ! .

الذي حدث أن أحمد بن أبي دؤاد زعيم المعتزلة ، قد أصبح صاحب الرأي ، وله الأمر ؟ ! وأحمد بن دؤاد هذا لن يستريح حتى يرى كل الرؤوس منحنية كرأسه .. وبصفة خاصة رأس الإمام أحمد الذي يتعذب بعفته وشموخه المنافقون !

كان ابن دؤاد يلهث لينال منصبا عند المأمون ، وأحمد بن حنبل رفض منصب قاضي اليمن ليسير على قدميه من بغداد إلى صنعاء ويطلب الحديث ويعمل محالا في الطريق ، ونساجا للسراويل ونساجا بصنعاء ليوفر لنفسه النفقة ! !

ثم إن أحمد بن أبي دؤاد ينحن متقبلا لعطاء الخليفة ، وأحمد بن حنبل يأباه !

وفى حلقات المسجد الجامع ببغداد يجتمع الآلاف حول الإمام فى حلقة ، أما ابن أبى دؤاد فلا يجرؤ أحد على الجلوس فى حلقة ولم يكتمل حلقة قط عشرة من طلاب العلم وأصحاب المسائل !! .

فإذلال الإمام أحمد هو عزاء ابن دؤاد عما يتردى فيه من هوان !

ولكن الجاحظ وهو أعظم المفكرين والكتاب فى عصره ، يقيم مع الخليفة هناك .. فما بال الجاحظ لا يعظ الخليفة ؟ ! .

من الحق أن الجاحظ سخر بعدد من العلماء المتزمطين من أجل السنة ، وجعلهم هزأة ، وأسماهم الحمقى من معلمى الصبية ، ذلك أنهم اتهموه بالزندقة افتراء عليه ، ولكن الجاحظ يعرف قدر الإمام أحمد بن حنبل ، فما باله يترك المأمون يطلب مثل أحمد أمامه وهو فى الأصفاة !

كان المأمون نفسه قبل أن يمرض كان قد دخله شىء من بعض أهل السنة ، وكان الإمام أحمد إماما لأهل السنة ، فواقفهم وأقوالهم تحسب عليه على الرغم من شقائه بهم وبعده عنهم ... !

فهذا نفر من علماء أهل السنة قد سكتوا عن المظالم من قبل ، وشغبوا على أهل الفناء ولاعبى الشطرنج فى بغداد ، ثم بايعوا زعيم أهل الفناء إبراهيم المهدي أميرا للمؤمنين بدلا من المأمون ثم انهم أهدروا دم المأمون !! حتى إذا غلب المأمون ، تسلوا إليه وهو على أبواب بغداد ، يناقونه ويبايعونه ، سارين فى الليل أو سارين فى النهار !

ثم إنهم أنكروا عليه اهتمامه بالفلسفة والعلوم وحرضوا عليه العامة فى بغداد ، لأنهم يخالفونه فى القول بخلق القرآن !

وهاهم أولاء بعد أن هددهم يذعنون له ، ويقول قائلهم : « ما تعلمنا العلم والفقه والدين إلا من أمير المؤمنين ، ويهدرون فى ذلك آراءهم وكرامتهم نفسها !! !

ولكن الإمام أحمد بن حنبل طراز آخر من الرجال !

وهو أشد الناس ضيقا بهذا النفرو إنكارا لهم وإزراء عليهم .. إلا أنه لا يتبع عورات الآخرين !! ولقد اعتزلهم حين عاتبوه ، وواجههم على الرغم من لينه بأنهم قوم لا يحسنون إلا الغيبة والمرااة والكذب والتفاق ، وأن انصرافه عنهم إلى العلم هو العمل الصالح الذى يليق بالأتقياء ..

لأن المأمون كان يعرفهم شدد عليهم النكير ، فاعترفوا ، فأعلن على الناس عيوبهم ؟ ! .

لقد أذاع المأمون على الأمة ما صح عنده من مطاعن على هذا نفر من الفقهاء : الفساد ، والرشوة

والنفاق والتصاغر، والحقد والوشاية إلى مثالب أخرى غليظة ذكرها الطبرى بالتفصيل فيما كتب عن أحداث سنة ٢١٨ هـ ؟ .. ربما ! ! !

ثم .. لماذا يقترب المأمون هذا البغى ، وهو يجاهد فى سبيل الله ، وأحمد بن حنبل يدعو المسلمين إلى نصرته ؟ ! يمكن أن تزدهر حضارة كل هذا الازدهار وتتألق فيها عقول المفكرين والعلماء وحرية الفكر على الرغم من ذلك تنتهك ؟ !

لعل ابن أبى دؤاد يريد أن يقنع الناس أن كل العلماء والفقهاء ، يجب أن ينحنوا ، بما أنه هو نفسه قد انحنى ! ! ! ..

ولكن الإمام أحمد بن حنبل ، كان يدرك أنه مسئول أمام الله عن الدفاع عما يؤمن بأنه حق ، فإن مات فى سبيله فهو شهيد ! ..

إنه لا يعرف أن المأمون لا يأخذ بالوشاية وهو يعتبر الآخذ بالوشاية أظلم من الواشى ، فخطبه معه ؟ .. وهو يعرف أن المأمون لا يشتم أحدا ، فكيف طعن فى كل فقهاء السنة أبشع مطاعن ؟ ! إنه إذن لتأثير خارق على المأمون يارسه بن أبى دؤاد ! ..

وقد ظلت الحوادث طوال رحلة الضنى من بغداد إلى طرطوس ، تلح على أحمد وتواجهه بأنه مسئول عن الحقيقة .. فإن تخلى عنها لحظة ، انهار كل شىء فى أعماق الناس ! !
وهكذا سار الإمام أحمد بروح شهيد ! .

سيناضل عما يؤمن به ، لكيلا تسقط رايات الحقيقة ، ولكى تظل الفضيلة شاعخة أبدا ! ! .

أما المشفقون على الإمام أحمد ، فقد نصحوه بأن يستجيب تقيه .. ولكنه رأى أن التقيّة فى موقف كهذا لا تجوز ، أيقول غير ما يراه ؟ ماذا يتقى ؟ ! .. أهو الحكم بموته ؟ إنه سيموت فى يوم ما ولكن الناس ؟ .. لعلمهم سيعتقون الرأى الخطأ ، ويبقى هو مسئولا أمام الله عن تضليلهم !

بل لا تجوز التقيّة إلا فى زمن غاشم يعلم الناس فيه الحقيقة ، فلا يضللهم قول أو سكوت .. أما هذا الزمان فهو زمن يعدل فيه الخليفة ، ويخرج فيه مجاهدا أعداء الإسلام .. والحقيقة فى حاجة إلى رماة بواسل ، وإلى شموع تحترق لتضىء الظلمات .. ولا تخبط الجاهلون فى عشوات الضلال ! !

لقد أذعن كل الفقهاء والعلماء إلا اثنين .. هو وتلميذه محمد بن نوح .. وبالأمس كان معها اثنان آخران .. ولكن مَسَّ الحديد وثقل الأغلال ، وإهانات الأوغاد ، ثقلت عليها .. فأجابا فيما دعيا إليه ،

فأطلق سراحهما .

وزير الإمام أحمد ابن السادسة والخمسين ، وتلميذه الشاب محمد بن نوح فى الأغلال والأصفاد ، تحت الإهانة ، وهما على بعير واحد إلى آخر الأرض .. !

وسأله رجل فى الطريق وقد رأى ضعف جسمه : « إن عرضت على السيف تحيى ؟ » قال : « لا » . فقال الرجل : « الله أكبر .. هذا هو الإمام أحمد » .

وألح الشعور بالمسئولية على الإمام أحمد .. وكان جلدا ، ألف مشقات الأسفار ، أما تلميذه الشاب فلم يحتمل المشقة ، وأنهكه ما عاناه ، فاعتل .. وما كان محمد بن نوح ليتمحن لولا أنه تلميذ الإمام أحمد وجاره .. كم من الناس يعذبون من أجلك يا أحمد ؟ !! ولكنه بلاء فى الله يا أحمد !! بلاء فى الله شديد !!

حتى إذا كانا فى خان على الطريق ، قابل أحد رواد حلقة فى بغداد ، وكان عزيزا لديه .. فقال له الإمام أحمد : « لقد تعثيت » .. فقال الرجل : « ليس هذا عناء يا إمام .. أنت اليوم رأس الناس ، والناس يقتدون بك » .

وأطرق الإمام أحمد وهو يتأوه .. أواه .. هنا العبرة يا بنى .. أنا المسئول عن موقف الناس !!

وأضاف الرجل : « فوالله لئن أجبت بخلق القرآن ، ليجيبن بإجابتك خلق من خلق الله . » وهز الإمام أحمد رأسه وما تزال الدموع تبلبل لحيته .. والرجل مستمر فى قوله : « إن الخليفة إن لم يقتلك فأنت تموت ، ولا بد من الموت . فائق الله ولا تجبه بشىء . » .. وارتفع صوت الإمام أحمد من خلال الدموع : « ماشاء الله ماشاء الله » . ثم قال : « أعد على ما قلت » فأعاد الرجل .. وهبت على الإمام أحمد نسمة من الرضا بقضاء الله ، جففت الدموع التى بللت لحيته فأنطلق صوته الندى : « ماشاء الله ماشاء الله » .. وطابت نفسه بما كان قد صمم عليه .. ألا يجيب المأمون إلى ما يدعو إليه !!

واقترب الإمام وتلميذه محمد من طرطوس .. فإذا برجل يقبل إلى أحمد متهللا : « البشرى ! لقد مات المأمون » .

كان أحمد قد دعا الله ألا يرى المأمون !! .. فلم يره قط !

وأعيد أحمد وتلميذه محمد بن نوح إلى بغداد ، وترفق رجال الشرطة بهما فى الطريق ، فإيدرون ما يكون شأن الإمام أحمد مع الخليفة الجديد ؟ ! ربما أكرمه فباء وإهم بغضب الخليفة الجديد ! .

وأحسنوا إلى الإمام أحمد وتلميذه محمد بن نوح .. ولكن محمد بن نوح الذى أضواء السفر تضعف

وخارت قواه ، وعكف عليه أمامه يعالجه بلا جدوى ، فقد نفذ الزيت من المصباح ، وحُتم القضاء .. وأمسك المناضل الشاب بيد أستاذه قائلا : « الله الله ! ! إنك لست مثلى . إنما أنت إمام يقتدى به ، وقد مد الخلق أعناقهم إليك لما يكون منك فاتق الله واثبت لأمر الله » .

وسقط ميتا !!!

وما وعظ تلميذ أستاذه كما صنع محمد بن نوح مع الإمام أحمد بن حنبل .. ولكنه مات شهيدا دفاعا عما يؤمن به .. وبكاه الإمام أحمد أحريكاء وصلى عليه .. وقال عنه : « ما رأيت أحدا على حداثة سنه وقلة علمه أقوم بأمر الله من محمد بن نوح . »

عهد المأمون لأخيه المعتصم — وهو ابن جارية تركية — فتولى الأمر

وكان المعتصم قوى الجسم حتى ليحمل حديدا يزن ألف رطل ويسير به خطوات !

وكان على هذه القوة والبسطة فى الجسم قليل الحظ من الثقافة .. حتى لقد أقصاه أبوه هارون الرشيد !

ولكن المأمون رأى أن جهاد أعداء الدولة يحتاج إلى رجل سيف فى قوة المعتصم وحزمه وشدته ، أوصاه بالإبقاء على ابن أبى دؤاد فترك له المعتصم شئون الدولة فأدارها الوزير على هواه .. أما المعتصم فوهب نفسه للحرب .. وكان أحمد بن أبى دؤاد حسن التأنى حلو الحديث بارع النفاق ، وكان على دراية بشيء من أخبار الأولين ، وبأطراف من الثقافة لا يعرفها المعتصم ، فاستطاع أن يستولى على عقل الخليفة ، واستصدر أمرا بحبس أحمد بن حنبل فى السجن الكبير ببغداد ، وانشغل الخائفة المعتصم بتوطيد أركان الدولة فولى الأتراك من أخواله

وفى أول حكمه توالى أحداث غريبة ومبالغة : مات الإمام محمد الجواد فجأة كما ذهب من قبله إمام الشيعة أبوه الإمام على بن موسى بن جعفر الصادق فى ظروف مريبة .. ثم اتهم العباس بن المأمون بالتآمر على عمه المعتصم فقتل !

وفى السجن ترك الإمام أحمد شهورا تحت الأصفاة شهورا طوالا ، ودسوا إليه خلافا عليه من يزينون له الاعتراف بخلق القرآن ! .. وعادوا يذكرونه بجواز أن يقبل المؤمن غير ما يؤمن به أو يسكت على ما ينكره من باب التقية فقال لهم : « إذا سكت العالم تقية والجاهل يجهل فتى يظهر الحق ؟ . إن من كان قبلكم كان أحدهم يُنشر بالمنشار ثم لا يصده ذلك عن دينه » .

دسوا عليه أكثر الناس تأثيرا عليه وأقرب الناس إليه : عمه ! ! ولكن بلا جدوى !

ثم عادوا يخوفونه بالتعذيب والضرب بالسياط .. وأنس إلى جاره بالسجن فقال له : « ما أبالي بالحبس وما هو ومنزلي إلا واحد ، ولا قتلاً بالسيف ، وإنما أخاف فتنة السوط وأخاف ألا أصبر . » فقال له جاره السجين : « لا عليك . فما هو الأسطوان ثم لا تدري أين يقع الباقي . »

ومرت الشهور بعد الشهور والإمام أحمد في حبسه بين الترغيب والترهيب ..

وأحبه من في السجن ، فأحاطوا به يلقون عليه المسائل فيجيب ويعلمهم مما علم رشداً .. وأكبره الجميع في السجن حتى السجانون .

أما خارج السجن ، فقد كانت بغداد تموج بالسخط على من سجنوا الإمام أحمد ! .

وتصاعدت نفثات التلاميذ والأتباع ورواد الحلقة ، استككاراً لما حدث لإمامهم ! .

أما زملاؤه من العلماء والفقهاء الذين أجابوا المأمون لما أراد ، فقد أسرعوا إلى مصانعة المعتصم ، وكانوا يتمنون في أعماقهم أن يسقط الإمام أحمد كما سقطوا .. ! فلماذا يظل هو وحده دونهم نظيف الصفحات نقى السيرة مرتفع الهامة ؟ !

وإن بعضهم على الرغم من كل شيء ليعانى من تأنيب الضمير ..

وأرسل إليه أحد المعجبين به وهو شيخ في نحو التسعين ومَنْ يقول له : « أثبت فقد حدثنا الليث بن سعد عن ... عن أبي هريرة : « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من أرادكم على معصية الله فلا تطيعوه »

وانشרכת نفس الإمام أحمد ، فما هو ذا شيخ في التسعين يرسل إليه يشد أزره لا يبالي بمحدث شريف لم يعرفه من قبل !

فقام في السجن يؤذن بالصلاة وعرف ابن أبي دؤاد أن خصمه قد فتن كل من في السجن : المسجونين وحتى السجانين ! ! فأمر بنقله إلى سجن خاص في قبو بدار والى بغداد ، ليكون وحده

وضاعفوا له القيود والأغلال وأقاموا عليه سجانين من شذاذ الخلق ، من ممالك أترك ، فيهم الغلظة والغباء ، والجهل باللغة العربية فلا يفهمون ما يريد إن هو طلب منهم شيئاً : ماء أو نحوه !

وأرسلوا إليه من الفقهاء من يناظره ، ولكنه لم يزد على ما قاله من قبل ، وظل يرفض القول بخلق القرآن .

ثم حملوه إلى دار الخلافة وهويرسف في أغلال وقيود وسلاسل يكاد يسقط من تحتها .. ! .. فقد كانوا كلهم مر عليه يوم ، زادوا عليه في ثقل الحديد !

وكان الوزير وقاضى القضاة أحمد بن أبى دؤاد قد أرسل إلى كل ولاية الأمصار باسم المعتصم يأمرهم أن يتحنوا العلماء والقضاة والفقهاء في خلق القرآن ، فن أنكر منهم ، حل في الأصفاذ مهانا إلى دار الخلافة ببغداد ..

ومثل أحمد أمام الخليفة وحوله حشد من العلماء والفقهاء المنافقين وابن أبى دؤاد .. وإذ بالإمام أحمد يرى فى الأصفاذ صديقا له من مصر ، درس معه على الشافعى فى مكة وبغداد .. وهو الآن فقيه عالم تقى مسموع الكلمة فى مصر .. وقد سحبه فى سلاسل الحديد لأنه رفض القول بخلق القرآن ! .. وكان أحمد منهكا مما عاناه ، ولكنه حين شاهد صديقه الفقيه المصرى تهلل قائلا : « أى شىء تحفظ عن أستاذنا الشافعى فى المسح على الخفين عند الوضوء ؟ ! » وانفجر ابن أبى دؤاد محنقا : « أنظروا رجلا هوذا يقدم لضرب العنق يناظر فى الفقه ؟ ! » .

بدأ الخليفة يحاكم أحمد بن حنبل

يحكى الإمام أحمد ما جرى فى هذه المحاكمة : (قال المعتصم لأحمد بن أبى دؤاد : « أدنه » فلم يزل يديننى حتى قربت منه . ثم قال : « أجلس » . فجلست وقد أثقلتني الأقياد . فكثت قليلا . ثم قلت : « تأذن لى فى الكلام ؟ » فقال : « تكلم » . فقلت : « إلام دعا الله ورسوله ؟ . » قال المعتصم : « شهادة ألا إله إلا الله . » فقلت : « فأنا أشهد أن لا إله إلا الله » .

ثم روى الإمام أحمد أن المعتصم قال له أنه لو لم يجده فى يد من قبله لما عرض له . ثم سأل أحدا ممن كانوا حوله : « ألم أمرك برفع المحنة ؟ ! »

وأمر الفقهاء الموجودين فناظروا الإمام أحمد فى خلق القرآن

قالوا له : « ماتقول فى القرآن ؟ » ماتقول فى علم الله عزوجل فسكت ، فقال بعضهم : « أليس قد قال الله عزوجل (الله خالق كل شىء) والقرآن أليس هو بشىء ؟ » فرد الإمام أحمد : « قال تعالى : (تدمر كل شىء بأمر ربها) أفدمرت إلا ما أراد الله عزوجل ؟ والله تعالى لم يسم كلامه فى القرآن شيئا . يقول الله تعالى : (إنما قولنا لشيء .) فالتقول ليس الشىء ولكن الشىء هو الذى يقول له الله . ويقول تعالى : (إنما أمره إذا أراد شيئا) فالشىء ليس أمره وإنما هو ما يأمره .. وقال له بعضهم فى الأثر « إن الله خلق الذكر أى القرآن »

قال هذا خطأ . حدثنا غير واحد إن الله كتب (لاخلق) الذكر .

واحتجوا عليه بما رواه ابن مسعود : « ما خلق الله عز وجل من جنة ولا نار ولا سماء ولا أرض أعظم من آية الكرسي » فقال أحمد : « إنما وقع الخلق على الجنة والنار والسماء والأرض ولم يقع على القرآن .

وكان أحمد بن أبي دؤاد قد أقنع المعتصم من قبل ، أن من رفض القول بخلق القرآن لا يحق له أن يجلس للناس ، ليحدثهم أو ليفتيهم ، في جامع أو في داره أو في أى مكان ، بل هو مخالف للإسلام ، يجعل القرآن قديماً كالله تعالى ، فهو مشرك يحل دمه !! وما عاد في أهل السنة بالعراق من يرفض الاعتراف بخلق القرآن إلا إمامهم أحمد بن حنبل وهو يزعم جميعاً !!

وكان الخليفة المعتصم لقلّة حظه من العلم لا يريد أن يخوض في المسألة كلها ، فكان يقول كلما أتهموا الإمام أحمد بن حنبل بالكفر : « ناظروه ، ناظروه »

فوثب أحمد بن أبي دؤاد مغيطاً : « يا أمير المؤمنين هو والله ضال مضل مبتدع . » وتتابع الفقهاء الحاضرون يشتمون الإمام أحمد بن حنبل فلم يعبأ الخليفة بهم وقال لهم : « ناظروه »

وكانوا كلهم قد ناظروه .. فأقبل ابن أبي دؤاد يناظره

فلم يلتفت إليه الإمام أحمد .

فسأله الخليفة : « ألا تكلمه ؟ » فقال أحمد : « لا أعرفه من أهل العلم فأناظره ... »

ثم استطرد : « يا أمير المؤمنين أعطوني شيئاً من كتاب الله عز وجل . »

فأقبل الخليفة يجرى الإمام أحمد ويقول له : « والله إنى عليه لشفيق . » ثم قال للحاضرين « والله إن أجابنى لأطلقن عنه يدي ولأركبن إليه بجندى .

فلم يزد جواب أحمد على أن قال : « أعطوني شيئاً من كتاب الله عز وجل » .. وقال الخليفة لأحمد : « ما أعرفك » فقال أحد الفقهاء الحاضرين وقد أنهض ضميره : « يا أمير المؤمنين . أعرفه منذ ثلاثين سنة يرى طاعتكم والحج والجهاد معكم . » فقال المعتصم : « والله إنه لعالم وإنه لفقيه . وما يسوءنى أن يكون مثله معى يرد عنى أهل الشرك .

ثم قال : « يا أحمد أجبني إلى شىء فيه أدنى فرج لك ، حتى أطلق عنك يدي » فقال أحمد : « أعطوني شيئاً من كتاب الله عز وجل . » ولم يزد على ذلك !

وقام الخليفة مهمونا ، وأعيد أحمد إلى السجن وأرسلوا إليه من يناظره في السجن و ينذره : « أن أمير المؤمنين قد حلف أن يضربك وأن يلقيك في موضع لا ترى فيه الشمس . و يقول إن أجباني أحمد أطلقت عنه يدى . »

فلم يجبه أحمد ... !

وفى اليوم التالى أعيد أحمد إلى مجلس الخليفة المعتصم ، وكان الوقت رمضان .. وأحمد قائم ليله صائم نهاره .. وقد أوشك الخليفة أن يطلقه لتهدأ عنه الثورة التى أوشكت أن تنفجر فى بغداد غضبا للإمام أحمد

فقال ابن أبى دؤاد : « يا أمير المؤمنين إن العامة تصدقه .. والعامة تقول أن أحمد بن حنبل قد دعا على المأمون فأت ، إن العامة وهم حشوا الأمة يصدقونه ويتبعونه بالحق والباطل . فإن تركته شجعت عليك العامة ، وخالفت مذهب المأمون ، فيقول العامة أن أحمد غلب خليفتين » .

واستفز هذا الكلام المعتصم فقال : « ناظروه لأخر مرة » . وناظروا أحمد فى خلق القرآن وفى رؤية الله تعالى فاحتج عليهم بحديث صحيح : « اما انكم سترون الله ربكم كما ترون هذا البدر (وكان الرسول مع صحبه فى ليلة البدر) ! وشك ابن أبى دؤاد فى صحة الحديث ، فأكد الإمام أحمد صحة الحديث واستشهد بفقير فقير ، مشهور بالأمانة والعفة ، يحسن رواية الأحاديث .. ولكنه كان فقيرا جهد الفقر لا يملك قوته يومه . وقد اعتزل الناس ، واختفى طوال أيام الامتحان بخلق القرآن ، فتركوه . وأسرع إليه بن أبى دؤاد وقد عرف من الجواسيس أين يختفى وسأله عن حاله ، فلم يجده معه درهما .. وسأله عن الحديث الذى رواه أحمد فى المناظرة أمام المعتصم .. فقال الرجل انه حديث صحيح .. وألح عليه أن يكذب الحديث وقال ان مجلس الخليفة منعقد وهو ينتظر الجواب ، والخليفة فى حاجة إلى من يكذب هذا الحديث .. ثم أضاف .. هذه حاجة الدهر .. وأعطاه عشرة آلاف درهم ، وما زال يلح حتى قال الرجل : « فى الأسناد من لا يعول عليه » !

وأسرع به ابن أبى دؤاد يروى ما سمعه على الخليفة فى المجلس ! ! ودمعت عينا أحمد أسفا على المحدث الفقير الذى انهار أمام الحاجة ! !

وأرجعوا أحمد إلى السجن .. ليعودوا به فى اليوم التالى إلى دار الخلافة ، فيمروا به على قاعات عديدة حشد فيها سجانون وسيافون غلاظ .. عسى أن يرهبه المنظر .. ويفريه الخليفة لأخر مرة ، فيأبى أن يقرب خلق القرآن فيصرخ فيه الخليفة : « عليك اللعن خذوه وأسجنوه .

فأخذوا الإمام فعلقوه ، وظلوا يضربونه ويقولون له : « أجب » فلا يجيب ..

صبراً يا أحمد .. إنه بلاء فى الله شديد . !

واشتد به الوجع واللفظ وهو صائم .. وأغمى عليه .. حتى إذا أفاق جاءوه بهاء ليشرب . فقال :
« لا أفطر » .

وطرحوه على وجهه وداسوه بالنعال .. حتى أغمى عليه .. ورأوا دماؤه تسيل ، فلبثوا منه رعباً !

وعندما أفاق أحمد ، أخذ ينظر إليهم بلا اكتراث ، ولكنها نظرات يخالجها الازدراء ! !

و يقول أحد الذين شاهدوا تعذيبه : « ما كنا فى عينه إلا كأمثال الذباب » .

ومن خارج دار الخلافة ، اجتمع الآلاف من عبيده وتلاميذه ، وحتى الذين لا يرون رأيه كانوا ينكرون فى صراخ غاضب ما يحدث له .

وتعالى هدير الاحتجاج والاستنكار .. وأغراه أحد الحاضرين أن يعترف لينجو من العذاب ويخرج إلى عبيده فقال : « أقتل نفسى ولا أقتل هؤلاء جميعاً »

ودخل أحد الفقهاء داره على بناته ، فوجدهن يبكين ويطالبنه أن يذهب إلى المعتصم مستشفعاً للافراج عن أحمد بن حنبل .. وقال البنات لأبيه : « أدركوا ابن حنبل قبل أن يضعف من التعذيب .
فلأن يرسل إلينا نعى أبينا أهون علينا من أن نسمع أن أحمد بن حنبل قد أذعن ! ! »

ووقف أحد الفقهاء بباب المعتصم يصرخ « أضرب سيدنا ؟ ! أضرب سيدنا ؟ ! لا صبر لنا »
وانفجرت الهتافات تلحن ابن أبى دؤاد والمعتصم نفسه !

وأوشكت الثورة أن تشتعل فى بغداد ، وكان المعتصم يعد العدة لجهاد الروم .. فلحن الجميع ، وأمر أن يعفوه من كل هذا ليفرغ هو للحرب

وأطلق سراح الإمام أحمد ..

وأعيد إلى بيته يعالج جراحه ، ولزم داره مريضاً منهكاً .. وقيل له : سيعذب الله المعتصم فيك لأنه ضربك وأنت ساجد .. فذكر لهم قول الله تعالى : « وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله .. »

وعندما علم أن المعتصم خرج ليحارب الروم فانتصر وفتح عمورية ، فرح الإمام أحمد وقال ! ! عفا الله عنه بما جاهد فى سبيله » .

وقد عوتب الجاحظ عن موقفه من محنة أحد فقال : « لو كان كل كشف هتكاً ، وكل امتحان تجسسا ، لكان القاضى أهتك الناس لستر ، وأشد الناس تتبعا لمورة . »

وكان تعليق أحد على قول الجاحظ : « عفا الله عنه » .

لقد ظل أحد فى سجن المعتصم نحو عامين ونصف ، يضرب بالسياط ، ويعذب بالسيف ، ويوطأ بالأقدام عندما يسجد فى الصلاة .. ويفرونه خلال هذا التعذيب بكل طيبات الحياة إن هو .. عدل عن رأيه ، وهويهمهم نفسه : إنه لبلاء فى الله شديد .

وبعد أن شفى أحد من آثار التعذيب ، خرج إلى حلقتة ، فاستقبلته بغداد استقبال الفاتحين .. ولم يستطع أحد أن يمنع الناس عنه .. وعاد يحدثهم ويعلمهم كما عودهم من قبل . حتى إذا مات المعتصم ، وتولى الواثق ، حاول أن يسير سيرة المأمون .. وجمع إليه أهل العلم والفلسفة ، وحفلت مجالسه بمناظرات علمية وفقهية خصبة .. وناظر هو نفسه فى الطب والكيمياء والفلك والرياضيات . وكان مجلسه يجمع المثقفين من جميع الديانات .

ولقد حاولوا أن يغفروا الواثق بالإمام أحد ولكنه ستم هذا الأمر ، وخشى الثورة ، ورأى أن يترك الناس على آرائهم .. ثم إن القول بخلق القرآن صار مادة لعبث ظرفاء العصر ، فقد دخل على الواثق أحدهم يقول له : « عظم الله أجركم فى القرآن . فإن القرآن قد مات ! » . فنهز الخليفة الواثق قائلاً : « ويلك ! القرآن يموت ؟ » قال : « يا أمير المؤمنين أستم تقولون إن القرآن مخلوق ؟ فكل مخلوق يموت ! فبم يصلى الناس التراويح ؟ » . فضحك الواثق وقال : « قاتلك الله أمييك » .

حقاً لقد ستم الناس ، وستم الحكام .. إلا ابن أبى دؤاد .. فما زال بالخليفة حتى استدعى الإمام أحد فقال له : « لا تجتمعن إليك أحدا ولا تساكنى فى بلد أنا فيه » .

فاختفى الإمام أحد ، وحمل إلى الواثق فقيه من الأمصار اشتد فى الهجوم على من يقولون بخلق القرآن .. وكان الرجل فى الأصفاد ، فأمره الخليفة أن يناظر ابن أبى دؤاد .. فقال الرجل : « شىء لم يدع إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا الخلفاء الراشدون من بعده وأنت تدعو الناس إليه ، ليس يخلو من أن تقول علموه أو جهلوه . فإن قلت علموه وسكتوا عنه ، وسعنى وإياك من السكوت ما وسع القوم . وإن قلت جهلوه وعلمته أنت ، فبأ لكع ابن لكع ، أجهل رسول الله صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدون ، وتعلم أنت ! ! » .

فوثب الواثق من مجلسه ، وهو يردد كلام الرجل ضاحكاً ، وأمر بإطلاق سراح الرجل .

ولم يعد الوثائق إلى امتحان في خلق القرآن .. وانصرف إلى الحرب حتى مات ..

ومات الوثائق وتولى ابنه المتوكل .. فأحسن إلى الإمام أحمد وحاول أن يصله بالمال .. ولكن الإمام أحمد ظل على عهده يرفض العطاء . على أنه رخص لأولاده في قبول عطاء الخليفة ، وظل يعلم الناس حتى بلغ السابعة والسبعين ، فرض واشتد به المرض ، وكان قد أصبح في عصره أوحد عصره حقا .. وقد ألف كبار رجال الدولة أن يخوضوا الطين إلى بيته الواقع في شارع ضيق مترب ، موفدين من الخليفة يطلبون منه الرأي . وما كان يبخل بالرأي .. وقال عنه المتوكل : « لو نُشِرَ أبى المعتصم وقال فيه شيئا لم أقبله .. » .

ولم يطل المرض بالإمام أحمد بن حنبل .. فأت بعد أن ترك ثروة ضخمة من الأحاديث والفقه ، وهو يوصي أتباعه وأصحابه أن يدعوا إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، و يذكرهم بأن الله تعالى قال لموسى وهارون حين أرسلهما إلى فرعون : « اذهبا إلى فرعون إنه طغى فقولا له قولا لينا » .. فالقول اللين واجب في الدعوة ..

على أن أتباعه اشتدوا على الناس حتى أزعجهم وجعلوا الأجيال تنسب إلى الإمام ما ليس فيه .. !

ولقد أمر المتوكل بالضرب على أيدي أتباع الإمام أحمد حين هاجوا أهل البدع من أصحاب الغناء والطرب ولاعبى الشطرنج .. وحين أفسدوا ملابس النساء بالخبر .. وكان الإمام أحمد قد رخص بهذا للسلطان إن خرج النساء متعطرات متزينات .. وكان النساء قد زحمن شوارع بغداد بلباس وعطور تثير الفتنة .. وملأن ليلها بالمغامرة ! ! فانتزع أتباع ابن حنبل سلطة الخليفة ، وأخذوا لهم يعاقبون الناس .. فأمر الخليفة بأخذ أتباع الإمام أحمد بالشدة ، وزج بهم في السجن ، ولكنه قال في الإمام أحمد : « لقد عرف الله لأحمد صبره وبلاءه ، ورفع علمه أيام حياته وبعد موته . وأنا أظن أن الله تعالى يعطى أحمد ثواب الصديقين . » ..

على أن الإمام أحمد تدبر قبل موته رأيه في خلق القرآن

فذهب إلى أن من زعم أن القرآن مخلوق فهو كافر ، ومن زعم أنه غير مخلوق فهو مبتدع .. فالقرآن بحروفه ومعانيه هو كلام الله غير مخلوق ، وهو من علم الله ، وعلمه غير خلقه . فالقرآن غير مخلوق ، ولكنه حادث بحدوث التكلم ..

والأمر كله لا يستحق الحنة التي سقط بسببها شهداء كمحمد بن نوح ، والبويطى الفقيه المصرى تلميذ الشافعى ، ونال بسببها بعض الفقهاء والعلماء تشهيرا أزرى بهم في عيون الناس ، ونال فيها الإمام

أحد أبلغ الأذى .. فالقول بخلق القرآن أو عدم خلقه لا يحقق شيئا من مصالح العباد ، ولا يقيم المجتمع الأمثل الذى هو هدف الشريعة !!

على أن الإمام أحمد نال بسبب هذا الأذى مكانة كبيرة ، فقد كان مثالا خارقا لصاحب الرأى الذى يناضل فى سبيل رأيه .. فأكبره الذين يوافقونه والذين يخالفونه على السواء .. إلا الذين فى قلوبهم مرض !

ومهما يكن من أمر ، فقد واجه عصرا تشيع فيه البدع ، فواجهه بالتشدد فى الأخذ بالسنة فى العقائد والعبادات

وهو عصر يطرح على العقل مستحدثات الأمور ، فواجهه الإمام أحمد بالتيسير على الناس فى المعاملات

وهذا حض على الاجتهاد وحذر من التقليد

ولكن مناصريه من أهل السنة ضيقوا على الناس

ثم جاء من بعده أتباع أساءوا إليه ، فافترى عليه التزمت ، والتضييق وكل ما عاشه يناضل ضده !

وجاء آخرون أجهلوا على طريقته وتمسكوا بالسنة فى مواجهة البدع .. واتخذوا مثله مواقف صلبة فيما يعتقدون أنه الحق .. فأصابهم فى ذلك بلاء شديدا .

ومن الإنصاف للإمام أحمد بن حنبل أن ينزهه الناس بما صنعه بعض الأراذل من أتباعه فى العصور المتأخرة . فلا ينسب التزمت وضيق الأفق إلى هذا الإمام العظيم .. الذى كان متبعا سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سماحة الخلق ، ولين الجانب ، والقول الحسن ، والبر والورع والتقوى ونصرة المظلوم .

من الظلم أن يطلق على المتنطعين والجامدين وعلى كل فظ غليظ القلب : أسم الحنابلة .. فقد كان الإمام أحمد داعيا إلى الحركة ، ومواجهة كل عصر بأحكام جديدة يقاس فيها على روح الشريعة ، ويؤخذ بمقاصدها العامة .. وكان عدوا للتقليد والجمود ، آمرا بالمعروف ، ناهيا عن المنكر ، متبعا للسنة فى كل شىء حتى فى أخص دقائق الحياة ..

لقد ماتت أول زوجة للإمام أحمد وهو فى الستين ، فتزوج بعدها بأيام لأنه علم أن الرسول صلى الله عليه وسلم منذ تزوج لم يعيش بلا زوجة .. وماتت الثانية وهو فى السبعين ، فتزوج بعدها بأيام من جارية له .. ذلك أنه تعلم من سنة الرسول صلى الله عليه وسلم أن الرجل يجب ألا يعيش بلا امرأة !!

وقد أصابه ابن أبى دؤاد بأبلغ الأذى ، ولكنه عفا عنه بعد أن خرج من المحنة . ولم يسمح لأحد أن يجرحه أمامه ، وبكى الإمام أحمد عندما علم أن ابن أبى دؤاد فجع بفقد ولده ! ! ..

ودعا الإمام أحمد لكل الخلفاء الذين أساءوا إليه ذلك أنهم جاهدوا فى سبيل الله ! . وحض أتباعه على تأييدهم ..

لقد كان الإمام أحمد يعلم الناس قول الرسول صلى الله عليه وسلم أنه ما جاء إلا ليتمم وليكمل مكارم الأخلاق ..

من أجل ذلك احترم الإمام أحمد أهل الديانات السماوية التى سبقت الإسلام ، لأن الرسالة المحمدية ، ما جاءت إلا مكتملة لها .. وأخذ نفسه وأصحابه بمكارم الأخلاق .. وعلم الناس أن هدف الشرائع جميعا هو العدل لقوله تعالى : « لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط »

ومن أجل ذلك طالب أهل الشرائع جميعا أن يسيروا فى الناس بالعدل ، وأن يناضلوا دفاعا عن العدل ، فهو قوام الحياة وضمان الحرية ، وحسن الإنسان .

والإمام أحمد بن حنبل على الرغم من كل خلاف معه ، إمام قد أغنى الفقه ، ونفع الناس ، وأقام السنة ورد البدع .. ولئن أساء إليه بعض أتباعه ، فافتري عليه ما هو برىء منه ، إنه سيظل بنصاعة سيرته ، وصلابة اتباعه للسنة ، علما من أعلام الفقه الإسلامى ، ودعوة مستمرة إلى التجديد أخطأ أم أصاب ..

إنه واحد من أولئك العلماء العظام الذين اجتهدوا بعد عصر الصحابة والتابعين ، واختلفوا فى مناهجهم ، فمنهم من خرج بسيفه على الحاكم الظالم كما صنع الإمام زيد بن على ..

ومنهم من دعا إلى إعمال العقل ، وحض على التفكير فى خلق السموات والأرض ، واستعمل معطيات العلوم والمعارف الكونية للاستدلال على حقائق الدين ، كما صنع الإمام جعفر الصادق مع فهم دقيق معجز للقرآن والسنة ، ومقاصد الشريعة والعمل على تطبيق مبادئها فى الحياة اليومية ، حتى لقد رفض الخلافة ليتفرغ للعلم والفقه !

ومنهم من اتجه إلى الأخذ بالرأى وتوسع فيه وأفاد من النظر العقلى كالإمام أبى حنيفة النعمان ، الذى لزم الإمام جعفر الصادق سنتين تعلم فيها الكثير ، وإن اختلفا من بعد ، حتى قال أبو حنيفة النعمان « لولا السنتان هلك النعمان » ! .

ومنهم من عول على الحديث وحده ، ووجد فى عمل أهل مدينة رسول الله أخذًا بسنة رسول الله ، ثم اجتهد فتوسع فى الأخذ بالمصلحة على خلاف غيره ، كالإمام مالك بن أنس

ومنهم من اتخذ منها وسطا بين رأى والحديث فى استنباط الأحكام ، وجعل سيرته الخاصة مثلا للبر والتقوى ولسماحة الإسلام وحضه على العدل والإحسان كالإمام الليث بن سعد إمام أهل مصر ، حتى لقد كان يأتيه خراج ضيعة له بالفرما (بور سعيد الحالية وما حولها) فلا يمس بل يضعه فى صرر ، ويجلس على باب داره ذات العشرين بابا ليوزعه على المحتاجين صرة بعد صرة ، ويحسن إلى أقباط مصر اتباعا لوصية الرسول صلى الله عليه وسلم ، فيتخذ منهم الأصدقاء ، ويحضرهم على نقل ثقافة مصر إلى اللغة العربية ، ثم يشتري بيتا من واحد منهم لحاجته إليه ، فإذا علم أن صاحب البيت باعه لأنه محتاج ، بكى ، وترك له البيت والثلث ، وأجرى عليه رزقا ! . ثم أعلن فى الناس أن ولى الأمر آثم إن ترك أحدا فى دار الإسلام له حاجة ! ! ثم يستنبط من منهجه الوسط بين رأى والسنة قواعد للمعاملات تقيم العدل بين الناس ..

ومن هؤلاء الأئمة العظام عمن زاهد عبد الله بن المبارك يترك الحج ، ويتصدق بكل ما حل من مال وزاد لفتاة حسناء تبحث عن قوتها وسط المزابل ، خشية أن يغربها الشيطان بالبحث عن الطعام فى وحل الخطيئة .. ! .

ومنهم من وضع أصول الفقه وحل بين جنبه معطيات السنة والرأى جميعا ، وصحح مفاهيم الناس عن السنة والرأى ، وجادل أهل الزيغ بمنطق العصر كما فعل الإمام الشافعى ..

عاشوا كلهم فى سنوات متقاربة ، بفكر خصب ، كحلقات ذهبية نادرة فى سلسلة نورانية .. عاشوا كلهم خلال قرن واحد من الزمان ، فى أواخر العصر الأموى وأواسط العصر العباسى ، وعرفوا البلاء والمحنة فما وهَّشوا ، وما نزلوا عن رأى ، وما أحنوا رأسا ، بل كانوا كمعدن الحديد تزيده النار صلابه ، وكالذهب يكسبه اللهب نقاءه .. ! .

ويا لله كم نفتقدهم فى مثل هذا الزمان !!

ومنها تختلف آراء هؤلاء الأئمة العظام فيما بينهم ، فقد احتفظ كل واحد منهم باحترامه لصاحبه أو لمن سبقه ، وبفضيلة العرفان .. فكانوا مثالا فى أدب الخلاف .. كما كانوا بحق منارات !

كلهم جاهد الظلم والقهر ، ودافع عن حق الإنسان فى الحرية والعدل والسعادة والحياة الكريمة الفاضلة .. وكلهم قاوم قاذورات عصره : من النفاق ، والكذب ، والزيف والاستغلال !

ومهما نختلف نحن معهم اليوم ، فينبغى علينا أن نذكرهم أنهم سلف صالح أغنوا الحياة الفكرية والفقهية باجتهاداتهم الخصبية ، وينبغى علينا أن نتخذهم مثلاً رائعة لما ينبغى أن يكون عليه رجل العلم والفقه والفكر.. ذلك أنهم ناضلوا بفكرهم الشرى والرائد ، ليحققوا المجتمع الذى أرادته الشريعة ، وليجعلوا الإنسان على الصورة التى أرادها لها الله تعالى حين قال لنبيه الكريم : « وإنك لعلی خلق عظیم » .

الامام ابن حزم
أديب الفقهاء

لم يعرف تاريخ الفقه من قبله رجلا كتب فى الحب وأحوال العشاق بمثل هذه الرقة والعذوبة والصراحة ، وجادل الفقهاء فى الوقت نفسه بكل تلك الحدة والعنف والصرامة .. !

اجتمعت فيه صفات متناقضة : لين الطبع وسعة الأفق وعذوبة النفس ، مع التشدد والتضييق وسرعة الأنفعال ، والتعصب لكل ما يعتقد أنه حق ، ورفض ماعداه .. فهو يناقش كل وجوه النظر فى المسائل ، حتى إذا اطمأن إلى رأى ، أدان كل مخالف فيه بلا رحمة ، وسخر بهم ، وكال لهم الاتهامات لايراعى لهم فضلا ولاوقارا .. !

من أجل ذلك أحبه بعض الناس حتى تحدوا فيه كل حكام عصرهم ، وكرهه آخرون حتى أهدروا فيه تعاليم الدين ومبادئ الأخلاق إذ أغروا به السلطان . !

يشهد مجالس الأتس ، ويسمع مع ظرفاء عصره ، ويستمتع للفناء حتى يؤذن للفجر فينصرف للصلاة ، ثم يعتكف النهار والليل بعد ذلك بعيدا عن السمار والظرفاء ، يقرأ ويتأمل ويكتب ، ثم يخرج ليحضر مجالس العلم يتلقى ، ويحاور الشيوخ ، ويعلم الطلاب .

ولد وعاش ومات فى الأندلس — أجل بلاد المسلمين وخيرها — فى شرفرة من عصور التاريخ الإسلامى .. إذ كانت الدولة الإسلامية العظمى فى الأندلس ، قد تمزقت إلى دويلات صغيرة ، فذهب زمن الخلفاء أولى العزم العماليق العظام ، ليحجىء بدلا منه عصر الحكام الأقزام ، ليتصارعوا فيما بينهم ، وليكيد كل واحد منهم لأخيه ، ويعريد على دويلته فينقصها من أطرافها ، ويحالف الفرنجة الطامعين فى أن يستعيدوا الأندلس بأسره .. ومن هؤلاء الحكام الأقزام من رضى الدنيا فى دينه ودنياه ، فأغرى الفرنج بالأموال الطائلة ليعينوه على أطماعه فى الدويلات الإسلامية المجاورة الأخرى .. !

وهكذا انطفأت منارات المعرفة فى قرطبة ، وهى التى كانت تضىء لكل ماحولها ومايلها من بلاد أوربا ، فأصبحت قرطبة عاصمة الدولة الكبرى فى الأيام الزاهية الذاهبة ، دويلة من الدولات الإسلامية ..! وانصرف أهل قرطبة من جد الأمور الى هزلها ..

ونهبت خزائن الكتب فى قرطبة. ، وهى خزائن لم يعرف لها التاريخ مثيلا من قبل .. وانصرف أهل قرطبة عن اقتناء الكتب كما تعودوا ، إلى حيازة الجوارى الحسن والغلمان ! . وبعد أن كان الأثرياء يتنافسون على شراء الكتب الجديدة ، حتى لقد كان المؤلفون فى المشرق العربى ينشرون كتبهم فى الأندلس ، قبل أن تظهر فى بلادهم ، كما صنع صاحب الأغاني ، بعد كل هذا أصبح الناس يتنافسون على شراء الجوارى الشقراوات والغلمان من فرنسا وإيطاليا والجزر المجاورة فى المحيط والبحر الأبيض المتوسط .

وبدلا من التفتن فى إقامة خزائن للكتب ، تفتنوا فى بناء الأجنحة للجوارى ،

وذوى فن النسخ واقتقر الناسخون ، لتزدهر صناعة النخاسة ويثرى النحاسون ! .

وأصبحت أسواق الأدب فى متنزهات قرطبة مغانى للعشاق وخائل للمتعة !

وإذ بالعقل العربى فى الأندلس يهجر تقاليد الإسلاميه فى البحث والمغامرة واكتشاف المجهول وإغناء الحياة بالإضافات ، ليسقط فى الجمود والتقليد . ! وإذ بالناس يتخذون الشيوخ أولياء من دون الله ، و يتشفعون بهم من دون العمل ..!

وخلال هذا التحول كانت الفضائل تتهاوى ، وقيم الإسلام تترنح ، والباطل يغشى وجه الحياة ، والإنسان الصادق يغترب .. والحق كسير!

وانطفأت الحمية . ، وخبت الغيرة ، وتزائل قدر الكتاب والشعراء والمفكرين ومهرة الصنائع وأهل الفنون ، المنتجة ليعلم مقام الجوارى والغلمان والمخنثين والشذاذ ..!

وخلال هذا كله يتناقل الناس قصة أمير فى أشبيلية اشتهت إحدى نساؤه أن تغوص بأقدامها فى الطين ، فأمر بأن تصنع لها بركة من المسك المعجون بالماء المعطر...! أنفق على هذه البركة مايكفى لتجهيز جيش ، حتى إذا أحاطت جيوش الفرنجة بأشبيلية والأمير ونساؤه يعبثون عراة فى طين المسك لم يجد الأمير فى خزائنه مايتقوى به على الدفاع عن مدينته . !

وهكذا سقطوا فى الطين .. المعطر!

وفى بعض نواحي الأندلس تقل المياه ، وينقطع المطر فتجف الأرض ، ويعطش الأحياء ، وبدلاً من أن يؤدي المسلمون صلاة الاستسقاء ، عسى أن يستجيب لهم الله فيعم الماء ، ليسقوا الأحياء والأرض ، كانوا يتجهون الى قلنسوة جلبها أسلافهم من الإمام مالك ، ليستسقوا بها .. !

ثم يتناقل الناس قصة رجل فاضل من أهل العلم عشق جندياً حسن الطلعة من جيش الفرنجة الذى كان يحاصر إحدى المدن ، فاستخلص الرجل الذى كان فاضلاً هذا الجندي لنفسه ، وأمره على قصره لينهى ويأمر فيه ، وأباحه حرم القصر ، لينال الرجل العالم من الجندي ما يريد .. !

وحين كانت خزائن الدويلات خالية مما تتطلبه مئونة الجيش ، بنى أحد الأمراء قصراً ضخماً وجلب له غرائب الأزهار والأشجار والطيور النادرة ، وشق له نهراً صغيراً من قمة الجبل حيث تتراكم الثلوج فى الشتاء لينحدر الماء إذا ذابت الثلوج ، ويصب فى جداول تتخلل حدائق القصر ، وتنتهى إلى بحيرة صنع قاعها من الرخام الأزرق الفاخر الثمين ، ورصعت شطآنها بالأحجار الكريمة ! لتسبح فيها الجوارى الشقراوات المجلوبات من جنوب فرنسا ، على شعاع الشمس إذا كان النهار ، وعلى ضوء القمر أو المصابيح الذهبية فى ليالى الصيف .. !

وسط هذا الجو الزاخر بصور رائعة من جمال الطبيعة ، ومظاهر مؤسسية من فساد المجتمع نشأ ابن حزم .

عاش فى هذا المضطرب نحو اثنين وسبعين عاماً .. أشغل خلالها بالسياسة والأدب ، والفقه ، والشعر ، وكابد الحياة والناس ، وعرف المتاع والعذاب ، وحاول أن يتعاطى الفلسفة والمنطق وعلوم الاجتماع والفلك والرياضة وعلم النفس وسماه بهذا الأسم ، وأحتك بمجتمعه ، فصوره ورسم أعماقه ومفاسده ومظالمه ، وهب فى أنفعال يرفض مجتمعه ذلك ، ويحاول أن يهدم واقعه لينبئه من جديد !

وفى سبيل ذلك لم يكتف بالكتابة بل خاض غمرات الصراع السياسى وأشترك فى مغامرات عسكرية .. وعرف الحب والنعم ، وعرف الجوى ، ولم يتحرج — وهو الفقيه الذى يتربص به أعداؤه — من التصريح بتجاربه ومشاهداته ، فى بيان مشرق عذب ، لم يتكلف فيه تغطية العبارات والألفاظ ..

وترك مؤلفات كتبها بلغت عدتها أربعمائة بين كتب طوال ورسائل قصيرة كالمقالات .. ذلك أن ابن حزم كان حين يعكف على القراءة والكتابة لا يخرج عما أخذ فيه ، ولا يسمح لأى ظرف مهما يكن خطره بأن يعطله !

وكثيراً ما كان يرفض الخروج من غرفة عمله ، ويأمر برد زواره وقاصديه ! ولقد أغضب بسلوكه ذلك . كثيراً من أصدقائه والمقرئين إليه ، ولكنه كان يعتذر إليهم إذا خرج من عمله يستروح ، فلولا أنه يأخذ نفسه بالشدة فى العمل ، لما أتيح له أن ينجز شيئاً .. والعمل عنده عبادة ، ولئن اعتكف العابد

ليتعبد ، فما ينبغي أن يصرفه عن شأنه أى طارق حتى يفرغ مما هو فيه !

ولد على بن أحمد بن سعيد بن حزم ، فى آخر شهر رمضان قبيل شروق يوم عيد الفطر عام ٣٨٤ ، فى قرطبة حاضرة ذلك الزمان .

كان أبوه وزيراً للخليفة الأموى هشام المؤيد وهو من أواخر الخلفاء الأمويين فى الأندلس ..

ولد ابن حزم فى قصر فاخر ، فقد أصاب أجداده وأبوه ثروة ضخمة ، فترك أبوه منازل الآباء فى غربى قرطبة حيث يسكن أوساط الناس ، وأخذ لنفسه قصراً منيفاً فى حى السادة شرقى قرطبة ، على مقربة من دار الخلافة .

تفتحت عيننا الصبى على مجال الترف ، ومسارح المتاع ، ومغانى الجمال ، فى قصر أبيه الشامخ على مرتفع يشرف على كل قرطبة ، محاطاً بمحاذيق واسعة ، ترتفع فيها الأشجار ، ويضوع الزهر ، ويفرد الطير ، وتنساب الجداول الصغيرة ، ويتفجر الماء فى نافورات منمنمة الحواشى والجنبات بالفسيفساء ..

على مرأى الجمال ومغانى الحسن تلك تفتحت عيناه ... فما سمع فى طفولته غير الشدو ، والغناء ، ومارأى غير الوجوه الصباح ، وخضرة المحاذيق ، وروعة ألوان الطبيعة الفتانة ، وماملأ صدره إلا بشذى الزهر وعطر الفاتنات .. الجبال على البعد تجلج هاماتها الثلوج وتغمر الخضرة الريانة كل سفوحها .. وهمس الجداول ، وخرير الأنهار ، وزنين الضحكات الفضية ، وعطو الأنسام ، وحلاوة الأنغام واتساق القدود ، ونضارة الحدود والتماق الأضواء على الملابس الزاهية تلف القامات المتأودة ... أشعة واهنة من الشمس تتسلل من وراء السحاب وتتخلل الأغصان اللفاء ، فتوشى الظلال على الأديم ذى الأعشاب ... منابر الذهب والفضة .. هذا هو كل ماعرفه ابن حزم منذ نشأ حتى وثب به الصبا على أوافل الفتوة .. وبلغ أول سنوات الشباب ..

وهو فى الخامسة عشرة ، تمرد على الخليفة هشام المؤيد أقرب الأمراء إليه ، فساقوا جيشاً من العرب والبربر والفرنجية فأسقطوا الخليفة ، ولوا مكانه رجلاً آخر من بنى أمية .. وعزل الحاكم الجديد والد ابن حزم من منصبه واعتقله ، ثم أفرج عنه ، بعد حين ..

قال ابن حزم : « شغلنا بعد قيام أمير المؤمنين هشام المؤيد بالنكبات وباعتداء أرباب دولته ، وامتحنا بالاعتقال والتغريب والإغرام القادح وأرزمت الفتنة وخصتنا ،

إلى أن توفي أبى الوزير رحمة الله ونحن فى هذه الأحوال بعد العصر يوم السبت
لليلتين بقيتا من ذى القعدة عام اثنين وأربعمائة ..

كان ابن فى الخامسة عشر حين سقط الخليفة هشام المؤيد ، وعزل أبوه من منصب الوزارة ، وصادرت
الدولة الجديدة قصره فى شرقى قرطبة وماوصلت إليه من أمواله .. وبقي للأسرة بعد ذلك شىء .. منازل
قديمة فى غربى قرطبة انتقلت إليها ، وضياع ودور متفرقة فى أرجاء الأندلس .

ولقد عاش أبوه معتزلا الناس أربع سنوات بعد النكبة ، ثم مات حزينا محسورا ، وتآمر الفرنجة والبربر
وبعض بنى أمية على الحاكم الجديد ، فوثبوا عليه ، ولوا مكانه رجلا آخر ، وعاثوا فى قرطبة فسادا فنهبوا
الأموال وانتهكوا الحرمات واغتصبوا النساء .

وهاهوذا الآن يصبح وحيدا بعد أن قتل أبوه الوزير صبيرا وكمدا .

ترك الفتى قرطبة باكيا ، وكتب يصف حالته « ضرب الدهر ضرباته ، وأجليتا عن منازلنا ، وتغلب
علينا جند البربر ، فخرجت عن قرطبة أول المحرم عام أربع وأربعمائة » ..

كان إذ ذاك فى العشرين .. فتى مثقل القلب بالهموم ، تضطرم أعماقه بالإصرار على أن يغير هذا العالم
المشخن بالفوضى والمظالم والفساد !

لقد علمه أبوه الوزير وثقفة لكى يصبح وزيرا مثله ، فقد كانت الوزارة فى ذلك الزمان تورث كما يورث
الملك ! وقد علمه أبوه منذ بدأ يعى ، أنه قرشى من بنى أمية .. جاء أجداده مع الفتح الإسلامى . علمه أن
جده الأعلى كان أخا بالولاية ليزيد بن أبى سفيان الذى بعثه أبوبكر الصديق فى أول بعثة لفتح الشام ..

وإذن فعماوية عمه ، وأجداده هم الذين فتحوا الأندلس وأقاموا فيها الدولة العظمى .. فالوفاء لأسلافه
يقضى عليه بأن ينتصر للأمويين ، ويدافع عنهم ، ويدعم دولتهم .. فإذا سقطت هذه الدولة فالوفاء يقتضيه
أن يعمل من أجل إحيائها .. ! .. فإذا تصارع أمراؤها فليعتزل هو الصراع ! .

كان قبل ، قد نال قسطا من التعليم . وما أرسله أبوه ليتعلم فى حلقات الجامع ، أو عهد به إلى مدرس ..
بل آثر أن يعلمه فى القصر .

ولأن أباه كان خبيرا بما آلت إليه الحياة من فساد وتفسخ ، لم يشأ أن يعهد بهذا الطفل إلى معلمين من
الرجال .. بل اختار له معلمات من النساء من قريباته « من الجوارى .. وكانت من نساء قرطبة فقيحات
ورويات شعر ومقرئات ومحدثات وطيبات وعالمات بالفلك والفلسفة .

ربى ابن حزم في حجب النساء كما قال ... ولازمهن حتى بلغ مرحلة الشباب .. وأتاح له لزومهن معرفة كثير من أحوالهن وأسرارهن ، ودراسة خلجات قلوبهن ، والاطلاع على ما يمكن من فضائل ورذائل .
كتب عن هذه المرحلة من صباه فيما بعد ، فأعلن عدم ثقته بالنساء ، وحكم عليهن فى ألفاظ مكشوفة أنهن مالم يشغلن العلم أو العمل متفرغات البال للرجال .

«قرأت فى سير ملوك السودان أن الملك منهم ، يوكل ثقة له بنسائه ، يلقي عليهم ضريبة من غزل الصوف ، يشتغلن بها أبد الدهر ، فالمرأة بغير شغل إنما تشوق إلى الرجال ثم يقول : « لقد شاهدت النساء ، وعلمت من أسرارهن ما لا يكاد يعلمه غيرى لأنى ربيت فى حجبهن ، ونشأت بين أيديهن ، ولم أعرف غيرهن ، ولا جالست الرجال إلا وأنا فى حد الشباب » ثم يسترسل « وهن علمننى القرآن ، ورويننى كثيرا من الأشعار ، ودربننى على الخط . ولم يكن وكدى (أى همى) ، وأعمال ذهني منذ أول فهمي وأنا فى سن الطفولة جدا إلا تعرف أسبابهن ، والبحث عن أخبارهن ، وتحصيل ذلك . وأنا لأنس شيئا مما أراه منهن . وأصل ذلك غير شديدة طبع عليا ، وسوء ظن فى جهتهن فطرت به ، فأشرفت من أسبابهن على غير قليل .

ويعترف أنه منذ الطفولة قد اطلع من أسرار النساء والرجال على أمر عظيم ، و أصل ذلك أنى لم أحسن قط بأحد ظلنا فى هذا الشأن ، مع غير شديدة ركبت فى ... إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (الغيرة من الايمان) فلم أزل باحثا عن أسرارهن ، وكن قد أنسن منى بكتمان ، فكان يطلعننى على غوامض أمورهن . ولولا أن أكون منها على عورات يستعاذ بالله منها ، لأوردت من تنبهن فى السر ومكرهن فيه عجائب تذهل الأبواب ثم يضيف : « .. أنى لأعرف هذا وأتقنه ، ومع هذا يعلم الله وكفى به عليا أنى برىء الساحة » .. وثم يقسم بأغلظ الأيمان على عفته ، وأنه لم يقترب حراما قط . !

وابن حزم يروى ذكريات طفولته عن النساء الذى عهد إليهن أبوه بتربيته .. وهن كما قال من الجوارى المهذبات ومن قرابته .

وكان أبوه يزوره خلال الدرس ليطمئن عليه ، وقد أقام عليه رقباء ورقائب من الشيوخ والنساء العجائز . على أنه صبا إلى شقراء منهن فامتعت منه ولاحقها فى شرفات القصر عسى أن تبادله ما يحس ، فيستوهبها أباه ، ولكنها ظلت تتمنع فأبأها عليه أبوه ، ووهبه شقراء أخرى ، ولكن الفتى لم يستطع السلوعها سنوات ... فزوجه أبوه من شقراء أجل من تلك ، ووهبه جارية شقراء أيضا ، وعاش ابن حزم لا يستحسن غير الشقراوات كما قال ...

وكان قد حفظ القرآن وقدرا صالحا من الشعر وجود الخط .. وآن له أن يفارق مدرسة النساء إلى

حلقات الرجال .

واختار له أبوه عالما زاهدا ناسكا فاضلا . وتحرى الأب أن يكون معلم ابنه حصورا ..

كتب ابن حزم « وأنى كنت وقت تأجيج نار الصبا وشرة الخدائنة ، وتمكن غرارة الفتوة مقصورا ، محظورا على بين رقباء ، ورقائب (من النساء) ، فلما ملكت نفسى وقلت صحبت أبا الحسن بن علي الفاسى . وكان عاقلا عالما من تقدم فى الصلاح والنسك الصحيح ، وفى الزهد فى الدنيا ، والاجتهاد للآخرة . وأحسبه كان حصورا لأنه لم تكن له امرأة قط . ومارأيت مثله علما وعملا ودينا وورعا ، فنفعنى الله به كثيرا ، وعلمت مواضع الاساءة وقبح المعاصى . ومات أبو الحسن رحمه الله فى طريق الحق .. »

صحب ابن حزم هذا الشيخ الذى أختاره له أبوه ، فأنتزعه الشيخ من كل دواعى الإغراء لمن هو فى مثل سنه ، فإكانت النساء تحجب عن الرجال ، وكان هذا كما يقول ابن حزم هو جارى العادة فى التربية بببلاد الأندلس .

بدأ الجلوس إلى شيخه وهو فى نحو السادسة عشر وصحبه إلى حلقات علماء التفسير والحديث واللغة .

بهر الفتى أشياخه بسرعة استيعابه ، وقوة حفظه ، ودقة فهمه .. وبعد أن استوعب ابن حزم مافى مجالس القرآن والتفسير ، صحبه شيخه ومربيه إلى حلقات الفقه .

حتى إذا خرج مربيه إلى الحج فإات فى بعض الطريق ، استقل ابن حزم بمحضور الحلقات وقد علم من شيخه الراحل قدر كل واحد من أصحاب الحلقات .. فلزم الحلقات بالجامع الكبير بالجانب الغربى من قرطبة ، حيث يعيش أواسط الناس وسوادهم ، وأهل العلم والطلاب . وفى هذه الحلقات عنى إلى جانب علوم الدين بدراسة النحو وعلوم اللغة والفلك والفلسفة والمنطق وسائر المعارف الإنسانية الموجودة فى عصره .

ولقد اهتم بالنحو اهتماما خاصا ، وأدرك أن اتقان النحو هو سبيله إلى فهم النصوص . ذلك أنه كان قد شهد عجبا مما يؤدى إليه الجهل الشائع بالنحو . حتى لقد تفكه بحكايات عن ذلك فيما بعد .. فروى أن رجلا كان يتولى صلاة الجمعة فى جامع قرطبة « وكان عديم الورع قليل الصلاح . فخطبنا يوم الجمعة فى جامع قرطبة فتلا فى خطبته : (لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم) فقرأها بنونين (عنتم) . فلما انتهت الصلاة جاءه بعض تلاميذه وكانوا يأخذون عنه رأى مالك ، فذكروا له الآية صحيحة ، فأنكرها وزعم أنه هكذا تعلمها وهكذا يعلمها . فلما احتكوا إلى المصحف ، دخل وعاد بالمصحف وقد حذف نقطة من على تاء عنتم ، لتكون نونين ! » ..

ويروى عن مقرئ آخر يعلم الناس القرآن ، وهو عربى بل قرشى ، « وأحد مقرئين ثلاثة كانوا يقرئون

العامّة فى قرطبة» ، وكان لا يحسن النحو . فقرأ عليه قارئ يوما فى سورة ق (ذلك سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد) فرد عليه القرشى « تحيد بالتنوين » ، فراجع القارئ وكان يحسن النحو ، فلج المقرئ وثبت على « التنوين » . وانتشر الخبر ، حتى وصل إلى فقيه كان صديقا لذلك المقرئ ، « فذهب إليه وقال للمقرئ القرشى : « انقطع عهدى بقراءة القرآن على مقرئ ، وقد أردت تحديد ذلك عليك » . فسارع الفقيه إلى ذلك . فبدأ يقرأ من سورة ق حتى إذا بلغ إلى الآية المذكورة ردها عليه المقرئ بتنوين كلمة (تحيد) . فقال الفقيه للمقرئ : « لا تفعل . ماهى إلا غير منونة بلا شك » . فلج المقرئ . فقال له الفقيه : (ياأخى إنه لم يحملنى على القراءة عليك إلا ردك إلى الحق فى لطف . وهذه عزيمة أوقعك فيها قلة علمك بالنحو... فإن الأفعال لا يدخلها التنوين البتة) . فتحير المقرئ ولم يقتنع حتى جاءوا بالمصحف وبعده من مصاحف الجيران فوجدوها مشكولة بلا تنوين »

ظل ابن حزم يدرس العلوم الدينية واللغوية والعلوم الإنسانية ودرس الكتب المترجمة فى الأدب والفلسفة والخطابة والفلك . ودرس الرياضيات . ودرس الشعر العربى وأخبار العرب والتاريخ .

ولقد درس العلوم الدينية على مذهب الإمام مالك ، وكان هو المذهب الرسمى للدولة ، فقد فرضه الأمويون ، وماكانوا يعينون قضاة أو يسمحون لفقيه أو عالم ، بالفتيا أو إلقاء الدروس ، إن لم يكن من أتباع الإمام مالك .. ولم يسمحوا لمذهب غيره بالوجود فى الأندلس ، كما فرض العباسيون فى المشرق مذهب الإمام أبى حنيفة .. ولهذا قال ابن حزم : « مذهبان أنتشرا بقوة السلطان ، مذهب أبى حنيفة فى المشرق ومذهب مالك فى المغرب . »

أنكب ابن حزم على طلب العلم . ، حتى أصبحت قرطبة مسرحا للحرب بين الجماعات المتصارعة ، وانتهبت منازل أسرته فى غربى قرطبة ، ووجد الفتى الأمراء الأمويين فى صراعهم الداخلى يرمون قرطبة بجند البربر وعسكر الفرنجة على قرطبة الشاء ، ليفسدوا فيها ، ويسفكوا فيها الدماء .. حتى لقد قتلوا نحو عشرين ألفا من أهلها من بينهم عدد كبير من العلماء والفقهاء والمقرئين والقراء وشيوخ المساجد !

فرحل الشاب إلى مرية بعيدا عن قرطبة ليقم فى ضيعة لأهله هناك ، وفى أعماقه ينزف القلب الممزق ، ويحتمد فى صدره الشوق إلى أن ينقذ الإسلام ، وأن ينشل الأندلس بأسره من كل هذا الهوان .. !

ولكن كيف ؟ ! ما عساه أن يصنع هو وحده ، وهو بعد طالب علم فى الثانية والعشرين ، بلا جيش ولا نصير ؟ !

فليتفرغ هناك لدراسة كل ما بين يديه من آثار فى الدين والفكر، وكل معطيات العقل الإنسانى ..
فليعمر عقله بالعلم وقلبه بالأمل حتى يقضى الله أمرا كان مفعولا ...

وعندما يحىء الوقت ، سيشرح قلمه ليواجه القوضى ، والعار ، والفساد ، بأقوى مما يستطيعه السيف
البتار .. !

وفى المرية ، وجد عددا كبيرا من الشيوخ من هاجروا فى أرض الله الواسعة ، نأيا بأنفسهم عن
مضطرب الفتنة والدماء فى قرطبة المنتهكة ، التى غمرت أجواءها العطرة الطيبة ، رائحة الموت ، والحياة
المتعفة ، ورائحة العار ... !

ولزم ابن حزم من وجد فى « المرية » من شيوخ قرطبة وأخذ عنهم ، وقسم وقته بين حضور الدروس
فى المسجد ، والقراءة فى البيت ... وظل على هذه الحال نحو ثلاث سنوات .

ولكن الأمراء الأمويين فى صراعهم على السلطة سقطوا جميعا فآل الأمر فى قرطبة إلى آل حود ...
وهم علويون ، وبين الأمويين والعلويين خصام متقد !

أستولى العلويون على قرطبة ، وبسطوا سلطانهم على كثير من أقطار الأندلس ، فتوجس ابن حزم
فى نفسه خيفة مما قد يقع له .. فهو ابن أسرة تنتمى للأمويين .

وصحت مخاوف ابن حزم طالب العلم الذى أصبح فى الخامسة والعشرين ، إذ أوقع به وإلى
« المرية » ، وأتهمه بالتآمر مع صاحب له يعيدا ملك بنى أمية .. فأعتقله هو وصاحبه شهرا ثم أمر
بإبعادهما . فتطوع أحد أصحاب حاكم « المرية » باستضافة ابن حزم وصاحبه .. يقول ابن حزم
« فأقامنا عنده شهورا فى خير دار إقامة ، وبين خير أهل وجيران ، وعند أجل الناس همة ، وأكملهم
معروفا ، وأتمهم سيادة ، ثم ركبنا البحر قاصدين بلنسية عند ظهور أمير المؤمنين المرتضى عبد الرحمن بن
محمد وساكناه بها .

كان المرتضى عبد الرحمن بن محمد حفيد عبد الرحمن الناصر رجلا صالحا ، هرب من قرطبة حين
أشتعلت فيها الحروب الداخلية بين أبناء عمومته من الأمويين ، واعتزل الفتنة ، ثم ظهر بعد حين فى
« بلنسية » ، ودعا لنفسه بالخلافة ...

بادر ابن حزم بتأييد المرتضى ... فهذا هو ذا رجل صالح من بنى أمية ، على نقىض الأمراء
الأمويين الآخرين الذين أباحوا قرطبة جيوش البربر والفرنجة ، وارتضوا أن يؤدوا الجزية للفرنجة
ليستعينوا بهم فى الصراع على الحكم !

وكان المرتضى متفقهاً يعرف ابن حزم عنه التقوى وحسن الدين ، ويتوسم فيه أن سيعيد مجد جده الأعلى عبد الرحمن الناصر ، أيام نهض يوحى الأندلس ، ويستعيد فيه عظمة الإسلام ، فسعى فى عمارة الأرض ، وجعل من قرطبة حصناً حصيناً للإسلام ، ومشرقاً لنور المعرفة ، وجعل متنزهاتها ندوات للثقافة والجدل الفلسفى ، يتمشى فيها المفكرون يجادلون ويعلمون ، كما كانت أثينا فى عصورها الزاهرة .

وكان المرتضى عبد الرحمن بن محمد نفسه يريد أن يعيد قرطبة والأندلس كله الى أيام جده حين كان ملوك أوروبا وأمراؤها يسعون إليه أو يقدمون له الجزية ، وحين كان العلماء والفقهاء والمفكرون والكتاب والشعراء هم قسما الوجه المضى لقرطبة ، ودولة الإسلام فى الأندلس !

ولكن المرتضى عبد الرحمن بن محمد لم يكن يملك من مواهب رجل الدولة إلا الصلاح وحسن النية والرغبة الصادقة فى الإصلاح .. ولاشئ بعد ! .. لاحزم ، ولاقدرة ، ولاحسن بصر بالرجال ، ولاسائر الوسائل التى تكفل النجاح لمن يريد أن يتولى أمر الناس ويقود أو ينشئ دولة . !

ولكن ابن حزم وجد نفسه مندفعاً إلى مبايعة الرجل الصالح ، عسى أن يستطيعا معا هدم هذا العالم الفاسد وبناءه من جديد على البر والتقوى والنجدة والعدل .

أقام ابن حزم فى بلنسية مع المرتضى عبد الرحمن بن محمد يدعو إليه ، ويحشد له طلاب العلم ويخطب الناس ويطالبهم بأن يبايعوه بالخلافة

على أنه ظل خلال نشاطه السياسى العارم ، يواظب على حلقات الدرس ، فيتلقى عن شيوخها .

وذات مرة سأل ابن حزم شيخ الحلقة عن مسألة من فقه مالك ، فأجابه شيخه ، ولكن ابن حزم لم يقتنع بالإجابة فاعترض ، وضاق به الشيخ ، فقال له أحد الطلاب المقربين إلى شيخ الحلقة : « ليس هذا من منتحلاتك ! » ذلك أنه كان حتى ذلك الوقت ينتحل كتابة الشعر والنثر الفنى فحسب ، وكان زملاؤه يشهدون له بطلاوة الأسلوب ورشاقة العبارة . ولم يستطع ابن حزم أن يرد فـا كان يعرف فقه مالك بعد ، وضحك منه الشيخ والطلاب .

غضب ابن حزم حتى قام لينصرف من الحلقة ، ولكنه كظم غيظه وقعد إلى نهاية الدرس . ثم اعتكف فى داره يقرأ النهار والليل فى فقه مالك ، وفقه الأئمة الآخرين أصحاب المذاهب ، وخرج بعد عدة أشهر إلى الناس ، فحضر الحلقة التى شهدت السخرية منه .. فناظر الشيخ والطلاب أحسن مناظرة ، فأدهشهم ، وقال وهوينصرف : أنا أتبع الحق وأجتهد ، ولا أتقيد بمذهب .

وأثناء انقطاعه لقراءة الفقه ، أعجب بمذهب الشافعى ، فال إليه ولكنه لم يتقيد به ... أعجبه فى الشافعى تمسكه بالنصوص من القرآن والسنة ، وعزوفه عن تقليد من سبقه ، وأستنباطه الأحكام من

النصوص ، واعتباره الفقه هو النص أو الحمل على النص (أى استخراج الحكم من النص أى القياس عليه)

غير أن ابن حزم لم يلبث أن هجر القياس ، ووجد أن مقالته الشافعى فى رفض الاستحسان ، يصلح حجة لرفض القياس ، وأنه لاحكم الا فيما تضمنته نصوص القرآن والسنة وإجماع الصحابة إجماعا لا يختلف عليه واحد منهم رضى الله عنهم

وقد اهتدى إلى هذا رأى عندما ما كان يقرأ فقه الإمام الشافعى ، وما كتبه الآخرون عنه ، فوقع على كتاب داود الأصبهاني عن مناقب الشافعى .. وأعجب الشاب بالأصبهاني وكتابته ، وحاول أن يتتبعه ولكنه لم يجد فى بلنسية ما يغنيه .. لو أنه يعود إلى قرطبة أم المدائن فى الأندلس ! ففى قرطبة مهما يكن من أمر ما ليس فى غيرها من المدائن !

ولقد عاتبه بعض أصدقائه فى موقفه من المذهب المالكى ، فقال لهم ان الإخلاص للإسلام هو الذى دفعه إلى أن يترك المذهب .. وما يبالى هو ما يكون من أمر ، مادام الإخلاص للإسلام هو رائده فيما يأخذ وما يدع من الأمور ! وروى لهم أن عيسى عليه السلام سأله أحد الحواريين ما هو الأخلاص ومن المخلص فقال عليه السلام : « المخلص من إذا عمل خيرا لايهمه أن يحمده الناس » .

عاد ابن حزم يدعو إلى المرتضى عبد الرحمن بن محمد ، حتى اجتمع للمرتضى جيش يصلح للزحف ، فقرر أن يزحف إلى غرناطة فيستولى عليها ، وبجيش من أهلها عسكريا كثيفا يستولى به على قرطبة التى أمتنع فيها العلويون .

وسار ابن حزم مع الجيش تحت راية المرتضى ولكن الجيش لم يصل إلى غرناطة

فقد اغتيل المرتضى وهزم جيشه ، ووقع ابن حزم فى الأسر !

وبعد حين أطلق من الأسر ، فأختار أن يعود إلى قرطبة ليتفرغ للعلم بعد أن غاب عنها نحو ستة أعوام .

هاهو ذا من جديد فى قرطبة مدينته التى لم يحب ركنا آخر من الأرض كما أحبها ، والتى عرف فيها عذوبة أيام الصبا ، ثم قسوة الحياة منذ عزل أبوه ، ومات ، وشاهد طرقاتها الظليلة ومتنزهاتها الغناء يختلط فيها دم الإنسان بالمعرة والأحوال ! ولكنها مهما يكن من أمر ، خير المدائن عنده ، ومهما يكن ما حدث فيها للفكر والمعرفة ، فما زالت هى هى أزخر بلاد الدنيا بالمعارف .. ومهما يكن ما حدث لخزائن الكتب فيها ، وللفقهاء والعلماء ، فإنه يستطيع أن يجد فيها من الكتب ومن البيئة الثقافية ما لم يجده وما لن يجده فيما عداها من أرض الله .

منذ وقع ابن حزم وهو فى بلنسية على كتاب للفقيه داود بن على الأصبهانى ، وهو حريص على أن يستزيد من فقه الرجل

ووجد فى قرطبة كل كتب داود الأصبهانى . التى تضمنت منهجه فى الاعتماد على النصوص من القرآن والسنة وإجماع الصحابة فى إستنباط الأحكام .

وداود الأصبهانى من مدينة أصبهان تعلم فيها ورحل إلى بغداد وغيرها من حواضر الإسلام ، ولد عام ٢٠٢هـ وعاش خمسين عاما تفقه فيها على مذهب الشافعى ، ولكنه رفض وخالف الشافعى فى الإجتهد وهو الإعتماد على النص ، أو القياس على النص . وقال : « إن الشريعة لا رأى فيها ولا اجتهد ، فهى نصوص فحسب ، ولا علم فى الإسلام إلا من النص » . وقد سأله أحد الذين يعرفون اعجابه بالشافعى : « كيف تبطل القياس وقد أخذ به الشافعى ؟ ! » فأجاب : « أخذت أدلة الشافعى فى إبطال الإستحسان فوجدتها تبطل القياس ... » وقيل عنه : « أنه أول من أظهر انتحال الظاهر ، ونفى القياس فى الأحكام قولا وأضطر إليه فعلا وسماه الدليل » ... والدليل الذى يعنيه داود مفهوم من ظاهر النص كأن يقول الحديث الشريف . « كل مسكر خمر . وكل خمر حرام » . فهما مقدمتان دون ذكر النتيجة والنتيجة المحذوفة المفهومة من ظاهر النص : أن كل مسكر حرام . وهذا ليس قياسا ، بل فهم لظاهر نص فيه إيجاز بالحذف . وكأن يقول الله تعالى : « قل للذين كفروا ان ينتهوا يغفر الله لهم ماقد سلف . » فهذا شرط للمغفرة ، وهو يعم كل من يعصى الله والرسول لا الكفرة وحدهم .

قال عنه أحد معاصريه : « لو اقتصر على ما هو فيه من العلم لظننت أنه يكذب به أهل البدع مما عنده من البيان والأدلة . ولكنه تعدى .

وكان زاهدا عابدا . ولقد وجه إليه أحد المعجبين من الحكم يوما بألف درهم تعينه على العيش فردها قائلا لمن جاء بها : « قل لمن أرسلك بأى عين رأيتنى ، وما الذى بلغك من حاجتى وخلتى حتى وجهت إلى بهذا ؟ »

وقد وجد ابن حزم فى قرطبة حين عاد إليها هذه المرة بعض الذين تأثروا بآراء داود ، ووسعوا منهجه الظاهرى ، وتركوا كتبهم فى خزائن الكتب بقرطبة ، وفى صدور بعض أتباعهم ، فدرس ابن حزم كتبهم وتعلم عليهم .. وخلال خمس سنوات وهب فيها نفسه للعلم ، ودراسة الفقه الظاهرى ، لم يعد الشاب يفكر فى السياسة . وأعلن الخلاف مع الشافعى متابعا فقه أهل الظاهر وقيل لى فى خلافه مع الشافعى بعد أن أحبه وأعجب به ، فاستشهد بما قاله الإمام الشافعى حين عوتب على خلافة مع الإمام مالك وهو شيخه : « أقول فى هذا ما قاله أرسطو حين خالف أفلاطون : أفلاطون أستاذى وأنا أحبه ولكن الحقيقة أحب الى من أفلاطون . »

وتمر الأعوام وابن حزم لا يشغله إلا الدرس الجاد .

ووجد بعض المتعصبين من اليهود والنصارى يطعنون فى الإسلام مستغلين الضمور الفكرى والفقهى ، وشيوع التقليد ، وتجمد العقل ، فانبرى لهم ابن حزم يجادلهم ، ويسفه آراءهم ، فى حدة وعنف ، مؤكداً أن ما عتري الحياة الإسلامية من فساد وبلادة ، وما يشيع فيها من جود فكرى ، وتقليد أعمى للسلف ، ليس من الإسلام . ولكنه محنة للإسلام .

ولهو يعد نفسه لمعارك فكرية أخرى يحلوفها حقائق الإسلام كما هى فى أصلها الثابت من ظاهر النصوص وإجماع الصحابة .. وهو سعيد بتفرغه للعلم ، يكتب النثر الفنى والشعر ، و يناقش آراء أرسطو فى المنطق ، وفتاوى الفقهاء المقلدين .. وهو ينضج على نار التأملات ، وإقراءات الجادة المتصلة منهجه فى الفقه ... وهو مستغرق مستوعب فى العلم .. إذ بالسياسة تفرض نفسها عليه مرة أخرى ، وتقتحم بابه فى عنف ، وتنتزعه انتزاعاً من تأملاته وقراءاته وكتاباتة ومناظراته ..

كان قد سئم السياسة فتركها ، وظل يرقب بألم ما يضيّق به صدره ولا ينطلق به لسانه : تناحر الأمراء على السلطة ، وفتك بعضهم ببعض ، وهم خلال هذا الصراع قد وطأوا أكناف قرطبة وهامتها لسنايك خيل الفرنجة « فلحق بيوتات قرطبة معرة فى نسايمهم وأبنائهم . »

إنه متعب من السياسة وأهل السياسة ... متعب من الأصدقاء ... متعب من الحياة .. متعب من كل شيء .. ولا راحة له إلا فى العلم والكتابة .. !

فقد رأى فيما رأى : هشام المؤيد الأموى الذى استوزر أباه ، يعزل ، ثم يحتفى ، ثم يظهر ، ثم يتولى الأمر ..

لكم فجّح ابن حزم فى هشام هذا بعد أن تعود احترامه وأشرب حبه منذ الصغر ! . ذلك أن المؤيد هذا ، تولى الخلافة من جديد وأصبح أمير المؤمنين ، فناواه أمير آخر من بنى عمومته ، وزحف بجنده ، فاستنصر هشام بالفرنجة وعرض أن ينزل لهم عن قشتالة . ! .. ونصره الفرنجة بهذا الثمن ، ولكن مناوئته غلبه على قرطبة وأسقطه ، ثم قتله ... واستعان هو الآخر بالفرنجة ليوطد أركان ملكه !

لكم هو مزرى كل هذا .. !

غير أن السنوات تمر ، والانقلابات تستمر ، وتتوالى التغيرات فلا يستطيع العقل أن يلاحقها .. وها هو ذا يستقر فى قرطبة من جديد ، ولكن تحت حكم العلويين من آل حمود الذين أسقطوا حكم الأمويين .

وتمضى الحياة وهو سعيد بنشاطه العلمى وهومه الفكرية ..

هدأ ابن حزم عن السياسة ، ولكن أهل قرطبة لم يهدأوا .. فثاروا على حاكمهم العلوى واختاروا واحدا من بنى أمية ليولوه الخلافة مكان الخليفة العلوى .. وهو حفيد آخر للخليفة العظيم عبد الرحمن الناصر .. صاحب قرطبة فى زمن البطولات والشموخ !

كان ابن حزم قد بلغ الثانية والثلاثين من العمر، وحين رأى إصرار أهل قرطبة على تولية حفيد آخر لرجل العصر الذهبى عبد الرحمن الناصر، أنضم إليهم ، فا كان بوسعه أن يسكت . !!

مرة أخرى تغزو قلبه الأشواق إلى بناء الأندلس من جديد واستعادة الأيام الرائعة الغابرة .. فترك تأملاته وكتبه ومناظراته وقلمه وانضم للثائرين ! ..

وعزل أهل قرطبة الخليفة العلوى ، وولوا مكانه عبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار حفيد الناصر . ولم يكذ يتولى حتى عين ابن حزم وزيرا له .

ولكن الخليفة الجديد لم يكن يملك من المواهب شيئا ولم تكن له ميزة تؤهله لأن يكون أمير المؤمنين .. إلا أنه حفيد عبد الرحمن الناصر ! كان شابا فى نحو الثانية والعشرين ، غريرا ، ساقط الهمة ، سيطرت عليه النساء وأهل الدسائس ... وكان الى ذلك طائشا يأخذ بالظن ، مزهوا بشبابه وثرائه ، مفتونا بالسلطة .. فلم يكذ يستقر على عرش قرطبة ، حتى شك فى جماعة من الذين حلوه إلى العرش وهم من أهل المشورة والرأى والحكمة فى الأندلس ، وكافأهم على ما بذلوه من أجله بعزلهم وإقصائهم وإلقاء بعضهم فى غيابات السجون ، واتهمهم بالتآمر عليه ليولوا مكانه أمويا آخر وأظهر بدلا منهم عددا من الرقعاء وأهل الشذوذ وأصحاب السمعة السيئة ! !

ولم ينتصح بنصيحة أحد ، فقد أقنعتة شكوكه وأقنعتة بطانته أن كل من يعارضه يريد أن يسقطه ، ويوالى عليه أحد أبناء عمومته من الأمويين وثار قرطبة من جديد وأخرجت قادتها من السجن عنوة ، وزحف الشائرون على قصر الخليفة فانتزعوه منه وقتلوه .. ولم يكن قد مر على ولايته أكثر من شهرين .. !

وداست أقدام الثائرين ابن حزم وزير الخليفة المخلوع .. واتهموه بأنه سكت على المظالم ، فألقوا به فى السجن ولبث فى السجن عدة أشهر .

ثم راجع الشوار أنفسهم وفحصوا أعمال ابن حزم خلال ولاية الخليفة المقتول ، فلم يشبوا على ابن حزم الموافقة على الفساد أو المظالم ، وثبت لهم أنه كان عاجزا .. كان وزيرا لا يؤخذ برأيه ، ولقد حاول أن يعتزل ، ولكنه خاف طغيان الخليفة .. فقفى الشهرين وزيرا يتحمل الوزر بلا غم ..

خرج ابن حزم من السجن وفي عزمه ألا يتعاطى السياسة أبدا وأن يهب عمره كله للكتابة .. وعاد إلى العمل .. يقرأ ويكتب ويناظر ..

ولكنه لم يكمد يتفرغ لعمله أربع سنوات حتى ظهر رجل آخر أموى اسمه هشام من أحفاد عبد الرحمن الناصر

هشام آخر!! وهو مرة أخرى من أحفاد الخليفة الذهبي العظيم!! .. ما أكثر ما تسخر الحياة بابن حزم الباحث عن الهدوء!

مرة أخرى يترك القلم والورق والمناظرة وينضم إلى الثوار!

ونظر هشام المعتد بالله بن محمد بن عبد الملك بن عبد الرحمن الناصر فيمن حوله من الرجال ، فاختار ابن حزم وزيرا .

ولكن الخليفة الجديد كان هو الآخر غيبيا للظنون ، فلم يحقق شيئا مما عقده الناس عليه من آمال ، وشغله الصراع مع بنى عمومته والأمراء الآخرين ، وازدادت الدولة ضعفا ، وصح فيها قول كبير الفرنجة أيام الفتح الإسلامى : لا تقاوموا الفاتحين فهم يتحركون بروح الفداء ويزحفون بالحرص على الإستشهاد وطمعا فى نعيم الآخرة ، وبإيمان جاثج يستطيع أن يقتحم كل الصعاب .. ولكن انتظروا حتى يشغلوا بالمال والسلطة ، ويتنازعوا على الحكم ، حينئذ يستطيع الفرنجة أن يستردوا الأندلس .

وفى الحق أن العرب حين نزلوا أرض الأندلس ، بعزم ، وجسارة قلب ، وإرادة لا تقهر ، اجتاحتوا الأندلس بمثل طاقات المد ، فهى لا تتوقف ولا يقاومها أحد بعد . وكانوا قد أحرقوا السفن من ورائهم ، فما إلى فرار من سبيل ، ولا محيص .. فإما الشهادة أو النصر !

ولكن نبوءة كبير الفرنجة تحققت ، فتدهورت الأمور وتمزقت الدولة حتى أصبحت حراب الفرنجة تسند عرش أمير المؤمنين . !

على أن قرطبة ثارت على أمير المؤمنين هشام المعتد بالله ، وأسقطته وأسقطت معه الدولة الأموية كلها ، فلم تقم قائمة لها إلى الأبد .. وتولى بدلا من الأمويين ملوك الطوائف .. وقسموا إمارات الأندلس فيما بينهم ، واختفى الخليفة المخلوع فى أحد الشغور حتى مات بعد ست سنوات من خلعه .

أما ابن حزم ، فلم يبق وزيرا حتى سقط الحكم الأموى ، بل اعتزل المنصب حين تأكد له أنه لن يستطيع أن يحقق شيئا للدولة مما عاش يحلم به ، إذ استيقن أن حفيد عبد الرحمن الناصر هزيل لارضاء فيه

ماضعف ابن حزم أمام السياسة ، وماحقق من خلالها شيئا ينفع الناس ! ؟

لقد وجدها أداة فاسدة للتعبير، فليبحث إذن عن أداة أصلح !

ووجد في الكتابة التعبير عن أشواقه في إصلاح أمور الأمة ، والنهوض بأحوال المسلمين ، وعزاء للقلب المعذب . وأنه ليشعر في أغوار نفسه أن جهاده بالفكر والقلم كالجهاد في سبيل الله بالسيف والمال ..

ولكن في أى أرض يختار معركته . . . ! ؟

لم يشأ أن يحيا في قرطبة تحت ظلال حكم ملوك الطوائف .. ، فتركها وطاف بالأندلس ، يجمع من حوله طلاب العلم فيلقى عليهم الدروس و يناظرهم ، و يفرغ لنفسه يقرأ و يتأمل و يكتب .

كانت له ضياع في أكثر من مكان في ريف الأندلس ، فكان يقيم في المدن القريبة من هذه الضياع ، ثم يطوف بالعاملين في الأرض يتأمل أحوالهم ..

وهاله ما هم فيه من شقاء .. ! وإنهم ليدفعون إيجارا باهظا للأرض ، ولا يكادون مايكفيهم للعيش بعد أداء الأجرة للملاك ! .. ! والملاك يحصلون على هذه الأموال الطائلة و يبنون القصور و يقتنون الجوارى الحسنان و يعيشون حياة فارغة من البطالة واللهو .. !

وفكر ابن حزم في القاعدة الشرعية التي يقوم عليها هذا النظام ، وعاد يقرأ النصوص في القرآن والسنة من جديد ، وتبع الآثار وأخبار الصحابة ، حتى انتهى به النظر إلى أن نظام الإيجار في الأرض الزراعية حرام ، فقد جرت السنة على المزارعة : يأخذ المالك نصف الإيراد أو ثلثيه أو ثلاثة أرباعه أو أقل من ذلك والباقي يحصل عليه الزارع .. هكذا فعل الرسول «ص» بأهل خيبر .. إذ زارعهم مناصفة .

وأعلن هذا الرأي فقامت عليه القيامة .. وأسرع كبار الملاك إلى الفقهاء يلتمسون منهم دفع البلاء الذي سينجم عن رأى ابن حزم

وأجمع الفقهاء على أن ابن حزم يحرف في الدين ، فهو مبتدع رأيا يخالف به كل الأئمة أصحاب المذاهب : مالك بن أنس ، وأبو حنيفة النعمان ، والشافعي ، وأحمد بن حنبل ، بل انه ليخالف ما جرى عليه السلف الصالح من الصحابة والتابعين وتابعيهم بإحسان .. ثم إنه يناقض حتى شيخه الفقيه الذي

نقل عنه استنباط الأحكام من ظاهر النص أو الإجماع وهو داود الأصبهاني ، إمام أهل الظاهر الذي أخذ عنه ابن حزم كل الأصول والفروع في الفقه .

لقد أتى ابن حزم أذن بما لم يقل به الأوائل .. وأنها لكبيرة أراد بها إثارة الفتنة بين الزراع وأصحاب المزارع ... فما ينبغي للحكام أن يتركوه يحدث من البدع أكثر مما أحدث .. !

واتهم ابن حزم مخالفه بالجهل وقال أن فقيها عظيما هو إمام أهل مصر الليث بن سعد قد نادى بهذا الرأي منذ أكثر من قرنين ، وكانت له ضياع كثيرة ، لم يؤجرها منذ اهتدى إلى هذا الرأي ، بل كان ينتفع بها بالمزراعة ، وكان يجعل معظم ما يحصل عليه في صرر ويجلس أيام الحصاد أمام باب داره في الفسطاط بجوار جامع عمرو ، فيوزع الصرر على الفقراء والمساكين وذوي القربى كل واحد صبرة أو أكثر من الصرر ويرسل بعضها خفية إلى أصحاب الحاجات من أهل العلم .: معلمين وطلاب .. !

ولم يتهم أحد من الفقهاء الإمام الليث بأنه يثير الفتنة ، وحين عارضه بعض فقهاء عصره ممن يعيشون في ظروف إجتماعية مختلفة قال : « نحن أهل مصر والنوبة أدرى بأحوالنا من سوانا » !

لم يشغب أحد على الإمام الليث لأنه رأى قصر استثمار الأرض الزراعية على الزراعة ، ولذلك لم يتوقف كثيرا ليدافع عن رأيه وليطنب في تقليده وتسبيبه ! .. وكان كل مالقيه الإمام الليث من خصومه فيما بعد ، هو إهمال آثاره ومؤلفاته ثم طمسها بعد موته ، حتى لقد تحسر الإمام الشافعي على ضياع هذه الآثار النفيسة ، فوقف على قبر الليث وبكى .. ثم قال : « إنه أفقه من مالك ، ولكن أهل مصر أضاعوه وتلاميذه لم يقوموا به ! !

فما بال فقهاء عصر ابن حزم يتهمون بالزيف ، وبالبدعة .. ؟ ! وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة في النار .. !

إنه ليخرج على مذاهب الأئمة الأربعة الكبار ، وبصفة خاصة مذهب الإمام مالك الذي جرى على أحكامه القضاء في المغرب والأندلس ، ومذهب الإمام أبي حنيفة الذي جرى عليه القضاء في المشرق ، فهما قطبان تدور عليهما الشريعة والفيتا ، .. وهذه كبيرة عند المقلدين ! !

واستنفر هذا الإتهام ابن حزم إلا أنه يخالف مذهب مالك ومذهب أبي حنيفة مبتدع من أهل النار ! ؟

ورد على متهميه بهجوم عنيف على متبعي المذهبين ، قبل أن يبدأ في توضيح رأيه في الزراعة والإجارة ...

قال . إنه يفتى من السنة ، فالمزراعة هى عمل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهو لم يؤجر أرض خيبر حين فتحها الله عليه ، وإنما تركها مزارعة بالنصف لزراعتها ، وكانوا هم يهود خيبر ، ثم مضى يقول : « فالمتبع هو القرآن والسنة لا قول أبى حنيفة ولا قول مالك لأنه لم يأمرنا قط باتباعها . فتبعها مخالف لله تعالى . وإن كانت فتياها مخالفة للنص فلا يحل لأحد أتباع ماخالف نص القرآن والسنة . وهكذا نقول فى كل مفت بعد رسول الله . . قال معاوية لابن عباس : (أنت على ملة ابن عمك على ، قال : لا . ولا على ملة عثمان . أنا على ملة النبی صلى الله عليه وسلم) وقالت الخوارج لعمر بن عبد العزيز : (نريد أن تسير فينا بسيرة عمر بن الخطاب . فقال عمر بن عبد العزيز :) (قاتلهم الله ، والله ما أردت دون رسول الله إماما) فإن توهموا بكثرة أتباع حنيفة ومالك وولاية أصحابها القضاء فالكثرة لاحجة فيها ويكفى من هذا قول الله تعالى وإن تطع أهل الأرض يضلوك عن سبيل الله ، وقال : (إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم) . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إن هذا الدين بدأ غريبا وسيعود غريبا . فطوبى للغرباء) . وأنذر عليه السلام بدروس العلم (أى اضمحلالة) وظهور الجهل (أى تفوقه) ...

ثم يضيف ابن حزم ساخرا : « فلعمري لئن كان العلم ما هم عليه من حفظ رأى أبى حنيفة ومالك والشافعى فما كان العلم قط أكثر مما هو منه الآن ، وهيهات ! »

ثم يستطرد ابن حزم « ولكن الحق والصدق هو ما أنذره رسول الله . والذي درس هو أتباع القرآن والسنة فهذا هو الذى قل بلا شك وأصحابه هم الغرباء القليلون جعلنا الله منهم ، ولا عدا بنا منهم وأما ولايتهم القضاء فهذه أخزى وأندم ، وماعناية جورة الأمراء وظلمة الوزراء خلعة محمودة ، ولا خصلة مرغوب فيها فى الآخرة . وأولئك القضاء وقد عرفناهم إنما ولاهم الطغاة العتاة من بنى العباس (فى الشرق) وبنى مروان (فى الغرب) بالعنايات والتزلف إليهم عند دروس الخير وانتشار البلاء ، وعودة الخلافة ملكا عضوضا ، وابتزازا للأمة . . فهؤلاء القضاء هم مثل من ولاهم من المبطلين سنن الإسلام المحيين لسنن الجور والمكر « وأنواع من الربا والرشوة » ، وأنواع الظلم وحل عرا الإسلام . وقد علمنا أحوال أولئك القضاة الذين يأخذون دينهم عنهم ، وكيف كانوا فى مشاهدة إظهار البدع من المحنة فى القرآن بالسيف والسياط والسجن والقيد والنفى (يشير إلى محنة خلق القرآن التى جلد وعذب فيها الإمام أحمد بن حنبل) فثل هؤلاء لا يتكثروا بهم ، وإنما كان أصل ذلك تغلب أبى يوسف (تلميذ أبى حنيفة) على هارون الرشيد (فى بغداد) وتغلب يحيى (من أتباع مالك) على عبد الرحمن بن الحكم (فى قرطبة) فلم يقلد القضاء شرقا وغربا إلا من أشار به هذان الرجلان . والناس حراص على الدنيا ، فتتلمذ لها الجمهور لا تدنيا ، ولكن طلبا للدنيا . »

ثم يمضى فى دحضه آراء المتمسكين بالمذاهب فيقول : « ونحن فى غنى فائض والله الحمد عن هذا

التكليف ، وفى مناديج رجة (جمع مندوحة) عن هذا التعسف ، بنصوص القرآن والسنة الثابتة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلا سبيل إلى وجود شرع لم يتص على حكمه .

وقال عن خصومه أنهم أحد رجلين : إما رجل لا يعلم السنة فهو جاهل ، أو رجل علمها ، وتركها إلى أقوال الأئمة أصحاب المذاهب فهو يخالف أوامر الله ورسوله . وكلا الرجلين فاسد الرأى ساقط الفتيا « ولا يحق له أصلاً أن ينتحل العلم أو الفقه » .

و يسوق ابن حزم بعد هذا حجته الدامغة من السنة بأسانيدھا الصحاح الثابتة :

- قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من كانت له أرض فليزرعها ، أو لينحها ، فإن أبى فليمسك أرضه .
- عن نقل متواتر موجب للعلم المتيقن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن كراء الأرض . وعن نقل آخر متواتر إنه نهى عن أن يؤخذ للأرض أجرة .
- من النقل المتواتر : « أعطى النبي صلى الله عليه وسلم خيبر اليهود على أن يعملوها و يزرعوها . ولهم شطر ما يخرج منها » و شطر ما يخرج منها أى نصفه . و يروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه دفع إلى يهود خيبر نخل خيبر وأرضها ، على أن يعملوها من أموالهم ولرسول الله صلى الله عليه وسلم نصف ثمرها ، و يروى أنه لما ظهر رسول الله صلى الله عليه وسلم على خيبر أراد إجلاء اليهود عنها فسألوه أن يقرهم بها على أن يكفوه عملها ولهم نصف الثمرة فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : « نقركم بها على ذلك ماشئنا » . ففروا بها حتى أجلاهم عمر بن الخطاب ..

ولم يسكت مخالفوه من الفقهاء والعلماء فردوا عليه الإنهاف بالجهل ومخالفة الله ورسوله ، واتهموه بقصور الفهم ، إذ لم يفهم أن صلى الله عليه وسلم حرم إجارة الأرض بحكم خاص لا يجوز تعميمه ، لأنه كان بشأن واقعة معينة ، وهذا هو عين ما فهمه أصحاب المذاهب من الأئمة الكبار . فقد اقتتل رجلان على إجارة أرض زراعية فقال الرسول صلى الله عليه وسلم : « إذا كان هذا شأنكم فلا تكروا المزارع » أى لا تؤجروها فهو لم ينه عن المبدأ نفسه ، ولكنه نهى عن الإجارة إذا أفضت إلى نزاع يتقاتل فيه مسلمان ، فرد عليهم أن هذا يمكن أن ينطبق على المزارعة أيضا ، فقد يؤدى النزاع فيها إلى اقتتال مسلمين ! .. ولكنهم أيدوا رأيهم فى إباحة الإجارة بما قاله سعد بن أبى وقاص : « أرخص رسول الله صلى الله عليه وسلم فى كراء الأرض بالذهب والورق » .

ولكن ابن حزم رد قولهم عليهم ، بالطعن فى قوة السند الذى روى الحديث الوارد فى واقعة الاقتتال ، والخبر المنقول عن سعد بن أبى وقاص ، وذهب إلى أنه حتى لو صح الأثران ، فما يجوز

العدول عن السنة الثابتة إلى خبريرو به صحابى واحد يكن خطر شأنه . ! واهتمهم بأنهم بإباحة الأجر إنما يظلمون الزراع ومحابون الملاك ! لأن يؤدى التزامه ويسلم المالك الأجرة المتفق عليها كاملة ، مهما يقل الإنتاج ، أو حتى إن لم تنتج الأرض أصلا . وهذا هو الظلم بعينه ، « وما ربك بظلام للعبيد » .

واستخلص النتيجة فى حسم : « لا تجوز إجارة الأراضى أصلا لا للحرث فيها ولا للغرس فيها ولا للبناء فيها ولا شىء من الأشياء أصلا ، لا لمدة مسماة قصيرة ولا طويلة ، ولا بغير مدة مسماة ، لا بدنانير ولا بدراهم ، ولا بشىء أصلا ، فتى وقع فسخ أبدا ، ولا يجوز فى الأرض إلا المزارعة بجزء مسمى مما يخرج منها . أو المغارسة كذلك فقط ، فإن كان فيها بناء أقل أو أكثر جاز إستئجار ذلك البناء وتكون الأرض تبعا لذلك البناء غير داخلة فى الإجارة أصلا ... ثم يكرر » لا يجوز كراء الأرض بشىء أصلا لا بدنانير ولا بدراهم ولا بعرض ولا بطعام مسمى ولا بشىء أصلا « فهو يعتبر إجارة الأرض بأى مقابل حراما » ... ويضيف « ولا يحل فى زرع الأرض الا أحد ثلاثة أوجه : إما أن يزرعها المرء بآلته وأعوانه وبذره وحيوانه ، وإما أن يبيع لغيره زرعها ولا يأخذ منها شيئا ، فإن أشتركا فى الآلة والحيوان والأعوان دون أن يأخذ من الأرض كراء فحسن ، وأما أن يعطى أرضه لمن يزرعها ببذره وحيوانه وأعوانه وآلته بجزء ويكون لصاحب الأرض مما يخرج الله تعالى مسمى إما النصف أو الثلث أو الربع ، ونحو ذلك ، أكثر أو أقل . ولا يشترط على صاحب الأرض شىء من كل ذلك . ويكون الباقي للزارع قل ما أصاب أو كثر . فإن لم يصب شيئا فلا شىء له ولا شىء عليه . فهذه الوجوه جائزة . فن أبى فليمسك أرضه » .. ثم يقول أن عقد المزارعة ليس له أجل « لأنه لم يوجبه نص ولا إجماع فهو شرط ليس فى كتاب الله تعالى فهو باطل بحكم النبى صلى الله عليه وسلم ... وليس لأحد أن يوجب ولا يحلل إلا بنص ومن تعدى ذلك فقد تعدى حدود الله تعالى وشرع من الدين ما لم يأذن به الله . قال الله تعالى : « أم للانسان ماتمنى ... » .

أما إجازته التعاقد فى المزارعة على مادون النصف على خلاف فعل الرسول فهو ليس خروجا على السنة أو قياسا عليها .. ويقول « إن حكم سائر الأجزاء كحكم النصف فإذا كان النصف حلالا ، فسائر الأجزاء حلال ، وهذا برهان ضرورى متيقن لا يجوز خلافه .. فإن المتعاقدين على النصف قد تعاقدوا على مادون النصف بدخول ذلك النصف » .

وجرى فى المساقاة على رأيه فى المزارعة . فأفتى بأن إيجار الماء لسقى الزرع لا يجوز . ولا يجوز شراؤه للوضوء أو الشرب .

لم يقتنع بهذه الآراء أحد من الفقهاء أو كبار ملاك الأرض الزراعية ، ولكنها بهرت شباب العصر المخلصين ، المتطلعين إلى العدل ، فالتفوا حوله أينما اتجه ..

وحماه تجمعهم حوله ، من فتك بعض أعدائه به .. فقد كادوا له عند أمراء الولايات التي طاف أو يطوف بها ، وحرص عليه كبار الملاك والفقهاء المخالفون ، ولكنهم لم يستطيعوا أن ينالوا منه ، فقد وجد الحماية في حصن حصين من إعجاب الشباب والزراع والفلاحين به ، والتفافهم من حوله في جولاته بريف الأندلس .. وخشى الأمراء أن يبطشوا به ، فتتفجر الثورة عليهم .. ولكنهم ضايقوه وضيقوا عليه ، فأخذوا يقتطعون من أملاكه ، و يصادرون بعض أراضيه ، حتى اضطر الى الرحيل عن الأندلس كله ، بعد أن طاف بمعظم ريفه ومدنه والجزر التابعة له . إلى حاضرة أخرى من حواضر الفقه والفكر يشد الرحال ويركب البحر ..

الى القيروان ، حيث تسربت كتب نادرة من خزائن قرطبة بعد نهبا ، وحيث يعيش عدد من فقهاء الأندلس ممن هاجروا في الأرض بعد فساد الأمر في الأندلس ، وبعد أن طفا الزبد ، وذهب ماينفع الناس . !

وفى القيروان التقى بكثير من العلماء والفقهاء والمفكرين من أهل المغرب ، وبقيصاها من علماء المشرق .

وهناك استمع الى الفقهاء وناظرهم وناظروه وجلس إليه طلاب العلم .

ولكنه لم ينس قرطبة ولا الأندلس ، ففي قلبه حنين متوقد ! وإن نفسه لتتمزق حشرات .. !

كتب إلى صديق له بالأندلس : «أنت تعلم أن ذهني منقلب ، وبالي مضطرب بما نحن فيه من نبو الديار ، والجللاء عن الأوطان ، وتغير الزمان ، ونكبات السلطان ، وفساد الأحوال ، وتبدل الأيام ، وذهاب الوفرة ، والخروج عن الطارف والتالد ، واقتطاع مكاسب الآباء والأجداد ، والغربة في البلاد ، وذهاب المال والجاه ، والفكر في صيانة أهل والولد ، واليأس من الرجوع الى موضع الأهل ، ومدافعة الدهر ، وانتظار الأقدار ، لاجعلنا الله من الشاكين إلا إليه ، وأعادنا إلى أفضل ماعودنا . وأن الذي أبقى لأكثر مما أخذ ، والذي ترك أعظم مما تحيف ، ومواهبه المحيطة بنا ، ونعمه التي غمرتنا لا تحدد ولا يؤدي شكرها ، والكل منحه وعطاياه ، ولا حكم لنا في أنفسنا ونحن منه وإليه منقلبنا ، وكل عارية راجعة الى معيرها وله الحمد أولا وآخرا » .

ولقد حاول أمير القيروان أن يصله ببعض الهدايا والمال ، تقديرا له ولكن ابن حزم رفض ، وكان يرفض عطايا الأمراء بعد بنى أمية ، ثم إنه على الرغم مما فقدته لم يكن في حاجة ، وأنه ليشعر بعد في أغوار نفسه أنه فوق الأمراء والوزراء لأنه كاتب وفقه ومفكر .

ولم يكن ابن حزم يأبى على غيره أن يقبل الهدايا من السلطان ، وكان يعجب لمن يتعففون عنها

بشبهة أن الحرام داخلها بغضب أو نحوه، وهم فى ذات الوقت يسكتون عن المحرمات التى يقتربها الأمراء كالغضب والفساد والإفساد وما إلى ذلك ؟ ..

كان يهزأ بهم و يزرى عليهم إذ يناون بأنفسهم عن الشبهات ، وهم يستبيحون المحرمات . و يغرقون فيها إلى الأذقان ! .. وشبههم بالذين سألو عبد الله بن عمر عن المحرم فى الحج أو العمرة أحل له أن يقتل حشرات القراش ؟ فسأله ابن عمر : « من أنتم ؟ » فقالوا من « الكوفة » فقال لهم « قاتلكم الله . تسألون عن هذا وأنتم قتلتم الحسين بن على رضى الله عنها ! ؟ »

استقر ابن حزم فى المغرب سنوات ، لم ينقطع فيها عن القراءة والكتابة ، على الرغم من أنه كان ينفق وقتا طويلا فى مناظرة الفقهاء والجلوس فى الحلقات ليتلقى عنه طلاب العلم فى إعجاب به شديد فى القيروان وغيرها من مدن المغرب .

وعلى الرغم من بعده عن الأندلس لم يهدأ عنه مخالفوه من الفقهاء هناك ، اذا استمر على منهجه من نبذ المذاهب الأربعة ، ومهاجمة أتباعها ومقلدى الأئمة الكبار ، وازداد عنفا على مخالفيه ، واشتد فى وجوب الاعتماد على النصوص وحدها ، وهاجم الذين يعتمدون على رأى إن لم يوجد نص

وقادته حماسه للمنهج الظاهرى ورفضه للقياس وللإجتهاد بالرأى إلى الوقوع فى التناقض .

ذلك أنه كان يرى أن الحكم إذا لم يوجد فى النص أو فى إجماع الصحابة فهو على استحباب الحال .. أى على الإباحة لأن الله تعالى قال : « وخلق لكم مافى الأرض جميعا » فكل مافى الأرض مباح لبني آدم ، الا ما حرمه الله تعالى بنص فى القرآن أو بالسنة النبوية . وتفهم النصوص بظاهرها ولكل انسان حق فهمها ..

التزم ابن حزم هذا المنهج التزاما صارما شجع به غير أولى العلم على الفتيا ، فتجاسر بعضهم على الشريعة ، وأشتطوا فى ذلك ، فخالفوا بسوء فهم نصوص القرآن والسنة وأجماع الصحابة ، على نقيض ما أراد ابن حزم .

ثم ان ابن حزم نفسه فى رفضه القياس وأدوات الرأى الأخرى لاستنباط الأحكام فيما لم يرد به نص ولم ينعقد عليه إجماع .. ابن حزم فى منهجه هذا وقع فى غرائب . !

ذلك ان الفقهاء الآخرين عللوا الأحكام وفهموا أسبابها ، فألحقوا الوقائع الجديدة فى الحكم عليها ، بما أوردته النصوص ، اذا اتحدت العلة وتمثلت الحالات .. أما ابن حزم فهو يرى أن الشريعة غير معللة ولا مسببة إلا بنفسها ، وإلا إذا وردت العلل والأسباب فى نصوصها .

ومن الغرائب التى وقع فيها :

أجمع الفقهاء على نجاسة الخنزير ولعابه قياسا على نجاسة لعاب الكلب ، ولكنه خالفهم جميعا لأن النص لم يرد على الخنزير ، ولا حرام ولا حلال إلا بنص ، فسؤر الخنزير إذن طاهر و بول الإنسان ينجس الماء لأنه حكم بنص ، وقياس الكلب والخنزير وسائر الحيوان خطأ .. قبولها لا ينجس الماء لأنه لا نص ولا إجماع . !

— وأباح لغير المتوضئ بل وللجنب والحائض والنفساء مس المصحف والقراءة فيه . وهو فى هذا كله يأخذ بآراء شيخ أهل الظاهر داود الأصبهاني الذى قال أنه لا نص يمنع هؤلاء من القراءة فى المصحف

— واعتبر العمرة فرضا كالحج ، وركنا من أركان الإسلام لقوله تعالى : « وأتموا الحج والعمرة لله »

— وقال أن الزواج واجب وفرض شرعى على كل من هو قادر على النفقة والعدل مع زوجته ، وذلك بنص الحديث الشريف : « من استطاع منكم الباءة فليتزوج »

وهو فى كل ما يأخذ وما يدع من أمور الدين لا يقبل مخالفة ويقسو على معارضيهِ و يتهمهم بالجهل ، وقلة الدين ، وارتكاب الأخطاء الشنيعة . « !

وكان هذا الأسلوب فى الجدل يوغر الصدور .

وقد وصفه بعض أصدقائه : « أوتى العلم كله ، ولكنه لم يؤت سياسة العلم » .

وبدأ الذين ناظرهم فى القيروان والمغرب يضيّقون به .. فلم تعد الخفاوة كما ألفها فى أول سنوات قدومه . !!

ثم إنه للقى صديقا عزيزا قادما من الأندلس ، ولا بن حزم سبق فضل عليه ، ولكن الصديق نسي الفضل السابق وتجاوى المودة ابن حزم . وحز هذا فى نفسه وأدرك أن الحملة عليه من فقهاء الأندلس مع تغير الحال به ، وغضب أمراء الأندلس عليه . كل ذلك أفسد عليه بعض المودات والقلوب ، حتى قلب مثل هذا الصديق . !

ورأى ابن حزم أن يكشف للمسلمين حقيقة مهاجيه من فقهاء الأندلس عسى أن يبطل تأثيرهم

على الآخر ين فكتب.: «.....» قد يحمل أسم التقدم فى الفقه فى بلد ماعند العامة من لاخير فيه ، ومن لا علم عنده ، ومن غيره أعلم منه . وقد شهدنا نحن قوما فساقا حملوا اسم التقدم فى بلدنا وهم ممن لا يحل لهم أن يفتوا فى مسألة من الديانة ولا يجوز قبول شهادتهم . وقد رأيت أنا بعضهم ، وكان لا يقدم عليه فى وقتنا هذا أحد فى الفتيا وهو يتغطى بالديباج الذى هو الحرير المحض لحافا ، ويتخذ فى منزله الصور ذوات الأرواح من النحاس والحديد تقذف الماء أمامه ، ويفتى بالهوى للصديق ، وعلى العدو فتيا ضدها ، ولا يستحى من انحراف فتاوية على قدر ميله الى من أفتى وانحرافه عليه . شاهدنا هذا نحن منه عيانا ، وعليه جمهور أهل البلد ، إلى قبائح مستفيضة ، لانتجيز ذكرها لأننا لم نشاهدها «....»

ثم يوجه حديثه إلى الناس كافة فيطالبهم من جديد بالإجتهد لإستنباط الأحكام من النصوص ، فهذا خير من التقليد « والمجتهد المخطئ خير من المقلد المصيب . فهو فى تقليده عاص لله عز وجل لأنه فعل أمرا قد نهاه الله عنه وحرمه عليه .. وكل من عمل عملا بخلاف الله تعالى فهو باطل ... والمجتهد المخطئ أعظم أجرا من المقلد المصيب وأفضل ، لأن المقلد المصيب آثم بتقليده غير مأجور بإصابته ، والمجتهد المخطئ مأجور باجتهاده غير آثم بخطئه . فأجر متيقن وسلامة مضمونة أضمن من أجر محروم وإثم متيقن بلا شك .

وهذا أغضب فقهاء الأندلس جميعا فكلهم مقلد للإمام مالك ، ثم أنه ليتهمهم بالفسق والجهل ومخالفة الشريعة فى حياتهم الخاصة وباقتراف المنكر والتزوير فى فتاويهم .

وأغضب معهم فقهاء القيروان والمغرب كله لأنهم هم أيضا مقلدون للإمام مالك ... ومامنهم مجتهد واحد مخطئ أو مصيب !

واستعرت الحملة عليه فى الأندلس ، واتهمه فقهاؤها بالقذف فى المحصنين والمحصنات ، وطالبوا أمراءهم بإقامة الحد عليه .

وناباه المغرب العربى ، واضطربت تحته أرض القيروان التى اطمأن عليها سنوات ، وزادت الجفوة بينه وبين فقهاؤها ..

ولكن كيف العودة ؟ وهم هنالك يتربصون . به و يترقبون عودته ، وهنا فى القيروان والمغرب أيضا أصبحوا من المتربصين !

واعترزل الحياة والناس ، والكتابة فى الفقه ، وانكب على قراءة اليونانيات والمعارف الأخرى وعادوته طبيعة التحدى فرفض منطق أرسطو! ولكن أبى حزم لم يحكم الحجة لاضطراب نفسه وقلقه مما

يعانى .. وأتاح لمنافسيه أن يسخروا به لأنه يطاول أرسطو بغير دليل مقنع !

وخلال قراءاته المتنوعة فى المعارف الإنسانية قرأ أن جالينوس يفضل اللغة اليونانية على غيرها من اللغات ويقول أن سائر اللغات إنما تشبه إما نباح الكلاب أو نقيق الضفادع .

ووقف ابن حزم عند رأى آخر يذهب الى أن العربية هى «أفضل اللغات لأنه نزل بها كلامه تعالى» .

كتب ابن حزم يناقش أصحاب هذه الآراء : « وقد توهم قوم فى لغتهم أنها أفضل اللغات وهذا لامعنى له لأن وجوه الفضل إنما هى بعمل أو اختصاص ولا عمل للغة ، ولا جاء نص فى تفضيل لغة على لغة ، وقد قال تعالى : (وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم) « وقال تعالى » (فإنما يسرناه بلسانك لعلهم يتذكرون) فأخبر تعالى أنه لم ينزل القرآن بلغة العرب إلا ليفهم ذلك قومه عليه السلام لا لغير ذلك ... ثم قال عن دعوى جالينوس أن لغة اليونان أفضل اللغات « وهذا جهل شديد لأن كل سامع لغة غير لغته ولا يفهمها فهى عنده فى النصاب الذى ذكره جالينوس » .. أى اما نباح كلاب أو نقيق ضفادع .. ثم استطرد : « ان الله قد كلم موسى عليه السلام بالعبرانية (وهى لغة موسى وقومه) ونزل الصحف على إبراهيم عليه الصلاه بالسريانية ، فتساوت اللغات فى هذا تساوى واحدا . أما لغة أهل الجنة وأهل النار فلا علم عندنا إلا ما جاء فى النص والإجماع ولا نص ولا إجماع فى ذلك . إلا أنه لا بد من لغة يتكلمون بها ضرورة وقد ادعى البعض أن اللغة العربية هى لغة أهل الجنة ، واحتج بقول الله عز وجل (وآخردعواهم أن الحمد لله رب العالمين) .. فقلت له : قل إنها لغة أهل النار لقوله تعالى عنهم أنهم قالوا : سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص . ولأنهم قالوا : ان أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله . ولأنهم قالوا : لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا من أصحاب السعير . ثم يستطرد : « ... وقد أدى هذا الوسواس الباطل باليهود الى أن استجازوا الكذب والحلف على الباطل بغير العبرانية وادعوا أن الملائكة الذين يرفعون الأعمال لا يفهمون إلا العبرانية ، فلا يكتبون عليهم غيرها .. وفى هذا من السخف ماترى . وعالم الخفيات وما فى الضمائر عالم بكل لسان ومعانيه . عز وجل لا اله الا هو وهو حسبنا ونعم الوكيل » .

وخلال اعتكافه فى القيروان كتب رسالة فى أساء الله الحسنى ، وخرج بها على فقهاء القيروان والمغرب ، فأبدوا إعجابهم بها ، وعجب سائر العلماء لابن حزم هذا : لحدة طبعه وعنفه ، ولعمق فكره ، وجمال أسلوبه وانفجار علمه وتدقيقه .. وكرر أحدهم ماقاله صديق لأبن حزم من قبل « هذا الرجل أوتى العلم كله » ، ولكنه لم يؤت سياسة العلم فهو يصك مخالفيه صك الجنادل للوجه . «

ورضى هو عن زوال الجفوة بينه وبين علماء القيروان والمغرب .

وأستبد به الإصرار على التفرغ للكتابة فى الفقه والأصول والأدب . ولهو يفكر فى أى مسائل الفقه والأصول يبدأ ، إذ برسالة تأتية من صديق فى الأندلس ، فهى رسالة أسعدته حقاً .. فهذا الصديق مرشح لمنصب أمير على إحدى مدائن الأندلس ، وهو يطلب من ابن حزم أن يكف عن الكتابة فى الفقه والأصول حتى تهدأ الثورة عنه فى الأندلس ، وحتى يرتب له أمر عودة كريمة هادئة فى المدينة التى سيصبح أميرها .. واقترح الصديق على ابن حزم أن يكتب رسالة عن النساء والرجال والحب .. !

فليكتب عن العشاق فهذا أروح لنفسه ، وهو بلا ريب صارف عنه غضب الأمراء وتربص الفقهاء وكيد كبار الملوك فى الأندلس .

أخذ ينتقل بحرية فى مدن المغرب العربى ، ويستحضر ذكرياته ومآمره من تجارب ، وماحفظ من أخبار .

ثم عكف يكتب رسالته عن الرجال والنساء والحب وسماها « طوق الحمامة فى الألفة والألف » . وهى ، رسالة عن أحوال المحبين وعلامات الحب وما يعرض فيه من وصل وهجر ، واقتراف للمعصية ، وتعفف عنها ..

على أن ابن حزم لم ينس فى أول كتابه « طوق الحمامة » ما يصنعه به مخالفوه من الفقهاء والعلماء فقال عنهم « وأساءوا العبث فى وجهى ، وقذفونى بأئى أعضد الباطل بمجتنى ، عجزاً منهم عن مقاومة ما أوردته من نصر الحق وأهله ، وحسدا لى » .

ولقد حذر ابن حزم فى صدر كتابه طوق الحمامة ، أن يظن أحد به ظن السوء ، فبأنه بهذا الظن .. وبعض الظن إثم .. ثم يشكر لصديقه وده الصحيح . « وأنا لك على أضعافه » ويحمد له مشاركته إياه فى الحلو والمروالسر والجهر ويستشهد بأبيات له :

أود ودا ليس فيه غضاضة	وبعض مودات الرجال سراب
ومالى غير الود منك إرادة	ولا فى سواه لى إليك خطاب
إذا حزته فالأرض جماء والورى	هباء ، وسكان البلاد ذباب

ثم يقول : وكلفتنى أعزك الله أن أصنف لك رسالة فى صفة الحب ، ومعانيه ، وأسبابه وأعراضه ، وما يقع فيه وله على سبيل الحقيقة ، لامتزيدا ولا مفننا ، ولكن موردا لما يحضرنى على وجهه وبحسب وقوعه ، حيث انتهى حفظى وسعة باعى فيما أذكره والأولى بنا مع قصر أعمارنا إلا نصرناها الا فيما نرجوه رحب المنقلب وحسن المآب غدا . ثم يستطرد كأنه يعتذر عما سيورد من أخبار العشاق فيذكر

ما جاءت به الآثار: «أجوا النفوس بشيء من الباطل ليكون عوناً لها على الحق» وأجوا النفوس أى أحملوها على الاستجمام .

و«من لم يحسن يتفتى لم يحسن بتقوى» . و يتفنى يكون فتى فى مرجه ..

و«أربحوا النفوس فإنها تصدأ كما يصدأ الحديد» .

ثم مضى يقول : إنه يكتب عما شاهده وعايته وماحدثه به الثقافات من أهل زمانه خلال تجربة طويلة عرف فيها الحياة وعرف الناس .

وبكتابة « طوق الحمامة فى الألفة والألاف » وأسلوبه الذى يعتبر من أرقى أساليب النثر الفنى صح أن يطلق عليه « أديب الفقهاء » .

ومن عجب أن ابن حزم فى كتابته عن خلجات النفس ، لم يقف عند الظاهر كما ألزم نفسه فى الفقه والأصول بظاهر النص ، بل تعمق النفس البشرية ، وزاوج بين الإسلام والفلسفة اليونانية ، وأدرك خفايا الصبوات والنزعات .

ومن عجب أن ابن حزم أيضاً أنه وهو الإمام الفقيه الذى يترى به الفقهاء من مخالفه ، قد كتب عن الحب والمحبين بعبارات لم يتحرج فيها من شيء ، ولم يتحرج تغطية الألفاظ التى ينبغى أن تعطى .

والأخبار التى رواها فى « طوق الحمامة » مما شاهد وعاین أو سمع مع ثقافات ، تصور الحياة الاجتماعية فى الأندلس ، أصدق التصوير ، وأعذب أيضاً !

وكثير مما كتبه ابن حزم فى طوق الحمامة لا يمكن إعادة نشره الآن بعباراته وألفاظه العارية ، فقد ينبو ذوق العصر ، وينكرها الحياء العام ، وحسن الآداب فى هذا الزمان !

وفى طوق الحمامة فوق هذا رصد لبعض الوقائع الهامة فى تاريخ الأندلس ، وهى وقائع عاش فى غمارها . ابن حزم .. والكتاب ينتهى بمواعظ تأمر بالمعروف ، وتنهى عن المنكر ، وتبين فضل الطاعة وقبح المعصية ..

غير أن ما يسترعى النظر فى هذا الكتاب هو هذه الحياة الغريبة التى كان يحياها الأثرياء من أهل الأندلس .. حتى لتكتب نساء الملوك والأمراء أشعار غزل فيمن يعشقن ولا يجدن إليهم سبيلا ، وويل يومئذ للمحشوق إن عرفه أهل العاشقة !!

ومن عجائب الحب فى ذلك العصر أن بعض قواد الجيوش بذلوا حياتهم لافى ميادين المعارك مستشهدين ، ولكن فى مخادع نساء فروا إليهن بعد الهزيمة ، فأكتشفهم العدو المنتصر فقتلهم وسبوا النساء !!

وكتاب طوق الحمامة ظاهرة فريدة فى تاريخ الأدب ، فكتب أحد من فقهاء أو علماء الأسلام كتابا أو فصلا أو مقالا فى الحب بمثل هذه الروعة أو الصراحة ، ولا بمثل هذا العمق فى تحليل النفس .

وقد أراد ابن حزم أن يقول فى هذا الكتاب أن علاقات الرجال بالنساء علاقات إنسانية ، وضرورة من ضرورات الطبيعية ، وفطرة ، فلا ينبغي أن يحجم العلماء والفقهاء عن تناولها ، وإنما عليهم أن يبصروا بها الرجال والنساء ، وما يحل لهم أو يحرم عليهم من هذه العلاقة ... وهو يكرر القول أن الجسد لا يصح إلا بشيء من المرح ، فيجب ألا يعزف أحد عن المرح ، فالمرح هو الذى يقوى النفس على مواجهة جد الأمور ، وليس ثقل الظل من الدين فى شيء ، وقد كان الرسول يمزح ، وكذلك الأمام على بن أبى طالب رضى الله عنه .

وبدأ ابن حزم رسالته طوق الحمامة بالكلام فى ماهية الحب بقوله : « الحب — أعزك الله — أوله هزل وآخره جد ، دقت معانيه لجلالته عن أن توصف ، فلا تدرك حقيقتها إلا بالمعاناة . وليس بمنكر فى الديانة ولا محظورا فى الشريعة ، إذ القلوب بيد الله عز وجل » ، وقد أحب من الخلفاء المهديين والأئمة الراشدين كثير» وذكر بعض أسماء الخلفاء العشاق فى الأندلس ... واستطرد : « ولولا أن حقوقهم على المسلمين واجبة — وإنما يجب أن نذكر من أخبارهم ما فيه الحزم وأحياء الدين ، وإنما هو شيء كانوا ينفردون به فى قصورهم مع عيالهم ، فلا ينبغي الأخبار به عنهم — لأوردت من أخبارهم فى هذا الشأن غير قليل . [ولكنه تحدث عن حب الصالحين ، ومنهم أحد فقهاء المدينة السبعة .] وذكر أن المحبة ضرورية فأفضلها المتحابين فى الله عز وجل ، ثم محبة القرابة ، ومحبة الألفة ، ومحبة التصاحب والمعرفة ، ومحبة البر ، ومحبة العشق الصحيح الممكن من النفس التى لا فناء له إلا بالموت : « وإنك لتجد الإنسان السالى برغمه وذا السن المتناهية ، إذا ذكرته تذكروا رتاح وصبا ، واعتاده الطرب واحتاج له الحنين » .

وعرف محبة العشق بأنها « استحسان روحانى وامتزاج نفسانى ... وإنك لتجد اثنين يتحابان إلا وبينهما مشاكله ، واتفاق فى الصفات الطبيعية ، وكلما كثرت الأشباه ، زادت المجانسة وتأكدت المودة . وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم يؤكد : (الأرواح جنود مجندة ما تعارف منها ائتلف وما تناكرت منها اختلف) وقول مروى عن أحد الصالحين : (أرواح المؤمنين تتعارف) . ولهذا اغتم بقرط حين وصف له رجل من أهل النقصان يحبه فقليل له فى ذلك فقال : « ما أحبنى إلا وقد وافقته فى بعض أخلاقه » . ويمضى فى الحديث عن « العلة التى توقع الحب » فيقول : « الظاهر أن النفس حسنة تولع بكل شيء بحسن وتميل إليه ، وتميل إلى التصاوير المتقنة ... فإن ميزت وراءها شيئا اتصلت

وصححت المحبة الحقيقية . وإن لم تميز وراءها شيئاً من أشكالها لم يتجاوز حجبها الصورة وذلك هو الشهوة » :

ثم يمضى فى رسالته فيرسم ظاهر المجتمع الأندلسى وأعماقه ، ويعلل تعلق الإنسان بشكل معين فيروى عن نفسه أنه أحب شقراء فى صباه فظل يحب الشقراوات وهكذا كان أبوه ، وعلى هذا سار الخلفاء والكبراء فى الأندلس .

ويكتب عن حب الفقهاء ، ومافيه من طرائف ... ثم يصور ألوانا من الفحشاء يستعيز بالله من شيوعها فى قصور الكبراء والأثرياء ، وفى الخمائيل المتناثرة بالمدن الكبرى فى الأندلس .

وكان شيئاً لم يكن يشغل الفئة الاجتماعية التى تحرك فى إطارها ابن حزم إلا العشق والعلاقات الشاذة ! .

وهو فيما يروى من أخبار يؤكد عدم ثقته بالنساء ، يسوق خبراً عن امرأة « حجت خمس مرات وهى من المتعبدات المجتهدات . » قالت : « يا ابن أنحى لاتحسن الظن بامرأة قط فإننى أخبرك عن نفسى بما يعلم الله عز وجل : ركبت البحر منصرفة من الحج وقد رفضت الدنيا وأنا خامسة خمس نسوة ، كلهن قد حججن ، وصرنا فى مركب فى بحر القلزم (البحر الأحمر) وفى بعض ملاحى السفينة رجل مضمر الخلق ، مديد القامة ، واسع الأكتاف ، حسن التركيب ، فرأيت فى أول ليلة أتى إلى إحدى صواحبى ف.... (وذكرت نوعاً فاحشاً من الغزل) فأمكنته فى الوقت من نفسها .. ثم مر عليهن كلهن فى ليالى متتاليات ... فلم يبق له غيرى ، فقلت فى نفسى : (لأنتقم منك .) فأخذت موسى وأمسكتها بيدى فأتى فى الليل على جارى عادته فرأى موسى ، فارتاع وقام لينهض ... فأشفقت عليه وقلت له وقد أمسكته : (.. أو اخذ نصيبى منك) .. وتنبى المتعبدة المجتدة خبرها بإعتراف ثم بقوها «... وأستغفر الله » .. والكلمات والعبارات المكشوفة التى روى بها ابن حزم الخبر ، إذ لا يمكن نقلها !

ويعلل ابن حزم مظاهر الفساد التى غشت المجتمع الأندلسى . باختلاط الرجال والنساء بلا قيود ، وإظهار النساء زينتهن وهن يعرضن للرجال ، وفراغ بال النساء ، فلا شىء يشغل المرأة الغنية فى الأندلس على الإطلاق .. حتى أعمال المنزل كن لا يقيم بها فليدين الجوارى أو الخصيان !

ويحمل على خروج النساء وحدهن بلا زوج أو محرم ، والتقاؤهن بالرجال فى المنزهات ، وقال إن هذا الاختلاط بلا رقابة هو ذريعة الفساد وانتشار الفحشاء .. وساق خبراً عن فتاة حجازية حملت من أحد ذوى قرباها ، فلما سئلت فى ذلك قالت : « قرب الوساد وطول السواد . » أى طول الليل .

وهو إذ يسوق أخبار الفحشاء فى رسالته يستخلص منها العبرة ، ويسوق النصيحة الى الرجال

القوامين على النساء ، أن يسدوا أمامهن ذرائع المعصية . من البطالة وحضور مجالس السمر والأفراد بالرجال . ويقول في ذلك إن المرأة الصالحة إذا سدت أمامها ذرائع الفساد ظلت على صلاحها ، أما الفاسدة فإذا سدت أمامها الذرائع تحايلت عليها تمارس الفساد . !

وقد روى ابن حزم طرائف عن وسائل الاتصال بين المحبين ، منها تبادل خصلات الشعر ، واستعمال الحمام في نقل رسائل تحت الأجنحة !

وعلى الرغم من صور الفساد التي رسمها ، فقد صور مظاهر العفة أيضا : كيف تصون فتاة نفسها على الرغم من الإغراء ، وكيف يعف فتى تراوده امرأة ذات جاه وجمال وسلطة ونفوذ ، ستؤذيه إن لم يطاوعها فيما تريد منه .. !

وهو يروى ما شاهده من طرائف المحبين فقد شاهد فتاة في أحد المتنزهات تتبع فتى وتطارده وهو لا يكلمها ... حتى إذا غاب عنها انكفأت تقبل مواقع قدميه ، والأرض التي مشى عليها ... !

و يسوق غرائب عن صور الشذوذ ! من ذلك أن رجلا كان صالحا فأضله الشيطان فال إلى فتى من طلاب العلم مليح الوجه ، وترك الرجل المسجد الذي كان يعلم فيه إلى المسجد الذي كان يتلقى فيه الفتى العلم . « وكان الفتى يغضب ويضجر ويقوم إليه فيوجهه ضربا ، و يلطم خديه وعينيه ، فيسر الرجل بذلك ويقول : (هذا والله أقصى أمنيته والآن قرت عيني » .

ولم يكن ابن حزم قليل الثقة في السفارات المتبرجات المختلطات وحدهن ، بل أعلن في رسالته سوء ظنه بالنساء كافة حتى المحجبات العابدات المصونات ! ! فيقول : وكم داهية دهمت الحجب المصونة ، والأسرار الكثيفة والمقاصير المحروسة .. ولولا أن أنبه عليها لذكرتها .. « ولكنه تحدث عن يعشن في المقاصير المحروسة .. عن مغامرات بعض أمهات الخلفاء وما قال عشاقهن من شعرفين ، وما أصاب عشاقهن من نكبات .. ! !

وفي أكثر من موضع من رسالة « طوق الحمامة » يصف الأسمار ، ومجالس الأئس في الأندلس ، ومتنزهاتها ، وما يحدث فيها .. فهذا فتى وفتاة « اجتمعا في مكان على طوب » .. وآخرون « يضطجعان أمام الناس ، وبينهما المسند العظيم من المساند الموضوعة عند ظهور الرؤساء على الفرش ، يلتقى رأسهما وراء المسند يقبل كل واحد منها صاحبه ولا يريان ، وكأنها يتمددان من الكلل » وفتى وفتاة خرجا في نزهة مع الكبار من أهلها ، فأمرت السماء فبللت الجميع ، فالتقى إليهما أحد الكبار بغطاء التفاهة وجمعها ، ليتقيا المطر متلاصقين تحت الغطاء ..

وكانت كل هذه المرائى وغيرها من ألوان المعاصى التى جهر بها الناس تثير سخط ابن حزم ، وتستدعى همته لمقاومة الفساد بدءا بما شاهده فى قصور العلية حيث كانت تضطرب حياته ، إلى المتنزهات العامة حيث يتعاطى سائر الناس فنون العشق الحرام !

وأهى ابن حزم رسالته بإعلان سخطه على صور الفساد التى ساقها ، والتى ذكر أسماها بعض أبطالها وكتب البعض ، وعلى صور أخرى أشار إليها ولم يكتب عنها لشدة فحشها كما يقول !

وفى آخر الرسالة كتب فصلا عن جزاء أهل الفساد وما ينتظرهم فى الآخرة ، وما يجب أن يعاقبوا به فى الدنيا من نفي وجلد ورجم حتى الموت ، وتحريق بيوتهم وأجسادهم . ودعا الناس إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.. وهذا هو واجب المسلم ، فإن لم ينهض به أثم . !

على أن هذا الوعظ كله لم يشفع لابن حزم ، فقد هاجمه كثير من الفقهاء عندما ظهر كتابه « طوق الحمامة فى الألفة والألاف » واتهموه أنه يجرى الشباب على المنكرات وعلى الفجور ، وأنه بما ساق من أخبار يرسم لهم ويسهل عليهم اعتراف المنكرات ! (واتهموه بأنه يهدر هيبة الفقهاء بما ذكر عن صور فسق بعضهم .. وهم أفراد منبوذون لم يعد أحد يسلكهم فى زمرة الفقهاء .

لقد كتب عن فسق من كان عليه مدار الفتيا فى قرطبة . أى مفتيها الأكبر .. وهو فقيه أسقطه فسقه وتبرا منه الفقهاء والطلاب ، وما ذكر ابن حزم ما كان من هذا الفقيه وأمثاله ، إلا تشهيرا بالفقهاء كافة ، وتحريضا للعامة على إهانتهم والازدراء بهم !! .

لم يكن الفقهاء المنحدرون من أصول عربية هم وحدهم الذين سخطوا على كتابه طوق الحمامة ، بل أنكره البربر أيضا .. ذلك أنه قال عنهم : « فى بلاد البربر التى تجاور أندلسنا يتعهد الفاسق على أنه إذا قضى وطره بن أراد ، أن يتوب إلى الله ، فلا يمنع من ذلك . وينكرون على من تعرض له بكلمة (يمينه من المعصية) ويقولون له أتحرم رجلا مسلما من التوبة ؟ ! لم يتقبل البربر هذه السخرية منهم ، وكانوا يحكون بعض إمارات الأندلس ، ومنهم قواد لعسكر إمارات أخرى ، فتوعدوا ابن حزم ..

مأباله ومأبال قومه من عرب وبربر يمن يعيشون فى الأندلس ؟ ! إن هو كتب فى الفقه كفروه ، فإن كتب فى الحب ارجفوا عليه وشهروا به وتوعدوه !! فيما عساه يكتب بعد ؟ وإذن فليترك الحديث على الرجال والنساء ، والحب ، والفقه ، والأصول ! فليكتب فى السياسة ، وفى التاريخ ...

ونشر رأيه فى الخلافة بعيدا عن شبهات الكتابة فى الحب وأحواله والفقه وأصوله .

اشتراط أن يكون الخليفة قرشيا ، ورجلا ، وعاقلا ، وعالما بشئون الحكم ، وصالحا ، لكى تصح له

الخلافة أو الإمامة .. وقرر أن الخلافة ليست وراثية : « لاخلاف بين أحد من المسلمين فى أنه لايجوز التوارث فيها .. ولا فى أنها لايجوز لمن لم يبلغ .. ولاخلاف بين أحد فى أنها لايجوز لامرأة » .

أما طريقة تولى الخلافة فهى أحد طرائق ثلاث : إما أن يعهد الإمام قبل وفاته إلى واحد يختاره إماما من بعده ، كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم وكما فعل أبو بكر... فتتم البيعة على الخليفة المختار.

وأما أن يعهد الخليفة الحى لرجال ثقات ، أن يختاروا من بينهم واحدا ، ثم تتم عليه البيعة ، كما فعل عمر ، إذ عهد إلى ستة من الصحابة ، مات الرسول صلى الله عليه وسلم وهوراض عنهم ، لينتخبوا من بينهم رجلا .

وأما أن يتقدم رجل صالح كفاء ، يرى نفسه أهلا للخلافة ، فيدعو إلى نفسه ، ويبايعه الناس ، فيجب اتباعه ومن يخرج عليه فهو من أهل البغى .. كما قام على بن أبى طالب فدعا لنفسه وبايعه الناس ، فوجب اتباعه ..

وعلى أية حال فيجب ألا يبقى المسلمون أكثر من ليلتين بلا إمام . بهذا أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولا تصح الخلافة إلا بالبيعة الحرة .

وتناول ابن حزم موقف على ومعاوية ... ثم أقدار الصحابة من الخلفاء الراشدين ، والمفاضلة بينهم . وحسب رأيه كان يجب على معاوية أتباع على ، وعدم اتباعه بغى عليه ، فعاوية ومن معه إذن من أهل البغى .. !

ولكن ابن حزم لم يدين معاوية بالبغى على الإمام على كما قضى بذلك الأئمة الذين تعرضوا لهذا الأمر من قبل ، فاتخذوا أحكام البغاة من سلوك على مع معاوية وجنده ، واعتبروا على بن أبى طالب ، أول من ابتلى بأهل البغى ، فما صنعه معهم أحكام يجب اتباعها شرعا ... بهذا أفتى الإمام الشافعى والإمام أحمد بن حنبل ومن تابعهم .

لم يدين ابن حزم معاوية ! ذلك أنه أمى بالولاء كما قلنا ، متعصب لهذا الانتاء .. وهو مع ذلك لم يؤيده فى الخروج ورفض البيعة للإمام على

وفى رأى ابن حزم أن واقعة الجمل التى حارب فيها معاوية عليا ، لم تكن حربا حقا ، فلم يجتمع معاوية ومؤيدوه للحرب ، بل اجتمعوا للتشاور . وكان الجند كثيفا فى معسكر على ومعسكر معاوية .. وتجادل الجند ، فاشتبكوا دون أن يريدوا اقتتالا .. !

أما أهل صفين فقد أرادوا القتال حقا . وابن حزم لا يعفيهم من البغى ، ولا يدينهم به ، وإنما يترك أمرهم إلى الله تعالى . !

و يقوم ابن حزم مكانة على بين الخلفاء الراشدين ، فيجعله آخرهم مكانة .

و يتحدث عن أهل البيت الذين وردت فيهم الآية فيستثنى منهم على بن أبى طالب ، و يفسر الآية بأنها تعنى نساء النبى ، و يفضل عليهن عائشة .. يفضلها عن خديجة وفاطمة الزهراء رضى الله عنهن جميعا . و يذهب إلى أن عائشة هى سيدة نساء أهل الجنة ..

و لم يكذب ابن حزم ينشر هذه الآراء حتى زلزلت الأرض من تحته زلزالا عنيفا .. ذلك أن أبناء فاطمة كانوا قد أسسوا دولة إسلامية ضخمة ، لتعيد الإسلام إلى عصوره الزاهرة ، وهى دولة أسسها الدولة الفاطمية ، أسسها الفاطميون فى المغرب ، ثم زحفوا إلى مصر فلكوها ، وأنشأوا مدينة القاهرة ، والأزهر الذى عمر منذ إنشائه بالشيوخ والطلاب ، وأرتفعت منارات القاهرة تضيء لما حولها ، بعد أن خبت منائر بغداد وقرطبة .. وأصبح الأزهر يجهد علمائه وشيوخه وطلابه قلعة الإسلام فى احياء السنة ، ومحاربة البدع ، ونشر علوم الدين واللغة وآدابها ، وسائر المعارف الإنسانية ، وتفجر منه علم غزير ، عم الدنيا ، وتوهجت فيه شعلة الفكر تحرق اسمال الهمود والتخلف ، وتنير أطباق الظلمات المتراكمت ، وتملأ العقول بوهج خالد من الإيمان والثقافة ، وأصبح حصنا للدين واللغة والمعرفة .

إن الذين يحبون و يشايعون على بن أبى طالب و بنيه قد أصبحوا ، يقودون مصر والمغرب العربى والأندلس ، وكثيرا من أقطار الإسلام ! ثم أن الشيعة وأهل السنة على السواء لا يقبلون ما قاله ابن حزم عن الإمام والباغين عليه ، وعن الطاهرة خديجة ، وفاطمة الزهراء التى قامت دولة بأسرها تنتسب إليها .. والأندلسيون بصفة خاصة لم يعودوا يحملون للأمويين ، ماحلوهم من تقدير وحب ، أيام الخلفاء العظام ، بل لقد شيعوا الأمويين باللعنات ، حين سقطت دولتهم ، لكثرة ما عانوا من مظالم فى نهايتها ، وما عانوا من فساد ، ولأن الأمراء الأمويين فى أواخر عهد الدولة الأموية ، خرجوا عن تقاليد السلف الصالح بالأندلس ، وأهدروا الإسلام وأسقطوا هيبة الخلافة ، وانشغلوا بالترف ، والصراع ، واللهو .. ومنهم من أذل العلماء وأهل الفكر والفقه ، ليسود الندامى والجوارى والغلمان ، ومنهم من نزل للأمراء الفرنجية عن بعض أرض المسلمين ، ودفع لهم الجزية ، واستعانهم على بنى عمومتهم .. وتركهم يحوسون خلال الديار ينتهكون و يقتصبون و يقتلون ! !

ولئن كان من الناس من سكنت عن ابن حزم حين أفتى بما خالف كل أصحاب المذاهب من الأئمة السابقين ، وحين شوه بعض الفقهاء والعلماء وأدانهم بالفسق ، وذكر عنهم أخبار مهينة .. لئن كان من الناس من سكنت عن ابن حزم وهو يصنع هذا كله واكتفى بمجافاته والغضب منه ، ان الناس

الآن لا يستطيعون السكوت بعد ، وهو يناصر على بن أبي طالب العداء .. !

ثار عليه الناس جميعا ، واتهموه بأنه « ناصبي » قد ناصب على بن أبي طالب وفاطمة الزهراء العداء ! فلا مقام له بينهم في القيروان والمغرب كله بعد ، فما من أحد يستطيع أن يلقاه بغير الإنكار له . !!

أما في الأندلس فهم ينتظرونه لينزلوا به العقاب .. عسى أن يشفى العقاب صدور قوم موغرين ! .

وهكذا وجد نفسه قد ضاقت عليه الأرض بما رحبت ، فلا هو يستطيع البقاء في المغرب كله ، ولا هو يجسر على العودة إلى الأندلس . !!

غير أن صديقه الذي كان مرشحا لتولى إمارة إحدى الإمارات ، قد أصبح اليوم أميرا على « ميورقة » إحدى جزر الأندلس ..

ودعا صديقه ليقم في الجزيرة الجميلة الهادئة . وكان الأمير الجديد ذا مكانة في الدولة ، فوعد ابن حزم بالحماية ... وشرط عليه ألا يشتغل بالسياسة ، وألا يكتب ما يثير الناس . ، وأن يتفرغ للكتابة في الدين ... فهو مهما تكن مشاكل الكتابة فيه ، أقل هما من الكتابة في السياسة

إن هذا هو ما يريد ابن حزم على التحقيق : السكينة ، والملجأ الأمين ، في مكان هادئ جديد ، بجوار صديق كرم ، والعودة إلى الكتابة في الفقه والأصول

لقد أنضجته التجارب والمحن والقراءات والتأملات .. وآن له أن يصوغ منهجه وآراءه الفقهية المتناثرة في مجلدات متكاملة .

وسافر إلى « ميورقة » ليقم في أطيب حال ، في ظل ظليل من حماية أميرها ومودته .. وكان الأمير قد أعد قصرا فاخرا لابن حزم ، ووهب له بعض الجوارى الشقراوات . فهو يعرف ذوقه . وخزائنه كتب جمع فيها كل ما يطيب لقلبه أديب كابن حزم ...

وكما يعتكف العابد في المحراب ، اعتكف ابن حزم في داره ، لا يخرج منها إلا لحظات لصلاة الجمعة ، أو للسمر مع صديقة الأمير ، فيدارسه فيما أهتدى إليه من آراء وأفكار .

لقد خرج ابن حزم من كل مأمربه بعبارة جعلها دستور لما تبقى من حياته : « ليس في العالم منذ كان إلى أن يتناهى ، أحد يستحسن الهم ، ولا يريد إلا طرحة عن نفسه ، فلما استقر في نفسى هذا العلم الرفيع ، وانكشف لى ذلك السر العجيب وأنار الله لفكرى هذا الكنز العظيم بحثت عن سبيل

موصلة على الحقيقة الى طرد الهم الذى هو المطلوب النفس فلم أجدها إلا فى التوجه إلى الله عز وجل بالعمل للآخرة» .

علّمته الأيام فى تداولها بين الناس أن «لذة العالم بعمله ، ولذة الحكيم بحكمته ، ولذة المجتهد لله عز وجل ، أعظم من كل لذة فى الحياة الدنيا .. وإذن فليمنح هو مابقى له من العمر للذات العليا : العلم والحكمة والاجتهاد لله .

وأنه ليعرف فيما عرف من العجائب «أن الفضائل مستحسنة مستثقلة ، والرذائل مستقبحة ومستحبة» .. فليكن إذن من النفر القلائل الذى يناضلون من أجل الفضائل مهما تكن مستثقلة لكم صقلته السنوات !

فها هو ذا ينصح من يلتمس عنده حسن النصيحة : « احرص على أن توصف بسلامة الجانب ، وتحفظ من أن توصف بالدهاء ، فيكثر المتحفظون منك حتى ربما أضر ذلك بك ، وربما قتلك » .. و يقدم نصيحة أخرى : « إياك ومخالفة الجليس ، ومعارضة أهل زمانك فيما لا يضرك فى دنياك وأخراك وإن قل ، فإنك تستفيد بذلك الأذى والمنافرة والعداوة . وربما أدى ذلك إلى الضرر العظيم دون منفعة أصلا . وأن لم يكن لابد من إغضاب الناس أو إغضاب الله عز وجل ، ولم يكن مندوحة عن منافرة الخلق أو منافرة الخالق ، فأغضب الناس ونافرهم ولا تغضب ربك ولا تنافر الحق » .

واعتذر للناس كافة عن حديثه فى الكتابة والجدل بمرض أصابه ولزمه ، فبدل خلقه من دعة إلى عنف : « لقد أصابتنى علة شديدة ولدت ربوا فى الطحال شديداً فولد ذلك على من الضجر ، وضيق الخلق ، وقلت الصبر ، والنزق واشتد عجبى من مفارقتى لطبى . وصح عندى أن الطحال موضع الفرج وإذا فسد تولد ضده » .. ولكنه مع ذلك لم ينكر أن مصاولة المخالفين هى التى حفزته إلى كثرة القراءة وإمعان النظر ، وقدحت ذهنه ، فأندلعت منه الأفكار .

ما أعجب ما مر به فى حياته المضطربة من أحوال الناس ! ...

وإنه فى تلك الجزيرة الهادئة من جزر الأندلس ، ليشعر بالطمأنينة ، والسكينة ، وبالراحة ، والأمن ، فى ظل جسارة صديق يتحدى الخطر .. إنه فى إعجابه العميق بمروءة صديقه هذا الذى يحميه ويكرمه متفضلاً عليه لا راداً لجميل سابق أو لسالف عارفة .. أنه فى مكانه هذا ليذكر صديقاً آخر فى الزمن البعيد ، كان كاتباً ، وغمت بينها المودة والمحبة وهما فى السنوات الخضر من أول العمر .. ما أبعد الفرق بين الصديقين .. !

كتب ابن حزم عن ذلك الصديق القديم : « كان متصلاً بى ومنقطعاً إلى أيام وزارة أبى رحمة الله

عليه ، ، فلما وقع بقرطبة ماوقع ، وتغيرت أحوالي ، خرج إلى بعض النواحي ، فأتصل بصاحبها وعرض
جأه . وحدثت له وجهة وحالة حسنة . فحللت أنا تلك الناحية في بعض رحلتى ، فلم يوفنى حتى ،
بل ثقل عليه مكانى ، وأساء معاملتى وصحبتى . وكلفته فى خلال ذلك حاجة لم يقم فيها ولا قعد
وأشتغل عنها بما ليس مثل شغله ... فأكلفته حاجة بعدها .. » .

مهما يكن من الصعاب التى مرت به ، فهذا هو ذا الآن فى لين من العيش لا ينقصه إلا أن يكتب ،
وينشغل بالعلم ، والحكمة ، والأجتهاد لله عزوجل ... وكل ماحوله من راحة ، ومتاع ، ودعة ، وطيب
العيش ، وجمال الطبيعة ، وصباحة الوجوه ، ودفع المودة ... كل ماحوله يعينه على ما يريد من تفرغ
للكتابة ..

على أنه لم يلبث غير قليل فى معتكفه الرائع . ذاك ، حتى أخرجه الناس منه ، ليتلقوا عنه ، وذهب
إليه بعض العلماء ليناظروه .. لقد وجد فى ميورقة تلاميذ وأتباعا معجبين به على الرغم من كل ما يثار
حوله ... ولقد ناظره أحد الفقهاء يوما فلما ظهر عليه ابن حزم قال الفقيه : « تعذرني ، فإن أكثر
مطالعائى كانت على شرح الحراس » (جمع سراج) . فقال ابن حزم « وتعذرني ، فإن أكثر
مطالعائى كانت على متابر الذهب والفضة » .

وامتدت عليه حاية صديقه أمير ميورقة إلى حيث أراد أن ينتقل من أرض الأندلس ، فذهب إلى
بعض المدائن المجاورة يناظر ويعلم ، ثم ذهب إلى قرطبة نفسها ، فى موكب من الأتباع ، والدواب
تحمل كتبه حيثما أنتقل .

وعاد الى ميورقة ليعتكف من جديد .. ولقد لقي أحد الفقهاء فى بعض رحلته ، فتناظرا أمام
الناس ، وحين انتصر ابن حزم فى المناظرة قال له الفقيه : « أنا أعظم منك همة فى العلم ، لأنك إنما
طلبت وأنت معان عليه فتسهر بمشكاه الذهب ، وطلبت وأنا أسهر بقتل السوق » . فرد ابن حزم : « هذا
الكلام عليك لالك ، لأنك إنما طلبت العلم وأنت فى هذه الحال رجاء تبديلها بمثل حالى ، وأنا طلبت
فى حال ماتعلمه وما ذكرته فلم أرج به إلا علو القدر فى الدنيا والآخرة . »

وعنى ابن حزم فى تلك الفترة بصقل آرائه وأفكاره وصياغتها فى الصورة التى سيتركها من بعده
للتاريخ .

واتخذ لنفسه منهجا عقليا خالصا تأثر فيه بالإمام جعفر الصادق عل الرغم من انتمائه وولائه
الأموى . فأعتمد كما اختط الأمام الصادق جعفر بن محمد على الإستقراء والتجربة ، وبصفة خاصة
فى دراسته عن الأخلاق التى ضمنها رسالة صغيرة عرفت باسم حكم ابن حزم أو مداواة النفوس . ولا

ريب أنه أفاد من تراث الفكر المصري القديم ، والفكر الفارسي ، والهندي ، واليوناني ، وكانت كل تلك الآثار قد ترجمت إلى العربية منذ أجيال .. ولم يعتمد على إمامه بالفكر الإنساني فحسب ، بل على فهمه لأحوال المجتمعات التي عاش فيها ، وعلى تجاربه وحسن معرفته بالناس والحياة .

ومن هذا التجارب والدراسات والمعارف استقرأ آراءه في الأخلاق . فهو يرى أن هدف النشاط الإنساني هو دفع المم والحصول على اللذة ، وهي عنده لذة الروح .

و يرى في الفضيلة رأى أرسطو ويقول : « الفضيلة وسط بين الإفراط والتفريط ، وكلا الطرفين مذموم ، والفضيلة بينهما ... حاشا العقل ، فإنه لا إفراط فيه ..

وهو يرى رأيا قريبا من رأى أفلاطون في أصول الفضائل وأصول الرذائل : « أصول الفضائل أربعة ، عنها تتركب كل فضيلة وهي العدل والفهم والنجدة والجود .

وأصول الرذائل كلها أربعة ، عنها تتركب كل رذيلة ، وهي أضداد الذي ذكرنا ، وهي الجور ، والجهل ، والجبن ، والشح . والعفة والأمانة نوعان من أنواع العدل والجود .

وأفلاطون يرى أن أصول الفضائل هي : المعرفة (وهي الفهم عند ابن حزم) ، والشجاعة (وهي النجدة عند ابن حزم) ، والعفة ، والعدل . وابن حزم يضع السخاء أو الجود مكان العفة . ذلك أنه يرى أن العفة التي جعلها أفلاطون أصلا من أصول الفضائل ، إنما تدخل في العدل والجود .

وابن حزم يدعو العلماء والفقهاء إلى التفقه في العلوم الإنسانية .. تأثرا بالإمام الصادق الذي مارس الكيمياء ، وأسس قواعدها ، ورعى تلميذه جابر بن حيان على إتقان الكيمياء ، وأنشأ له معملا ، وظل يرعاه حتى ترك جابر بن حيان في الكيمياء تراثا شارك في صنع التقدم الإنساني كله عبر العصور .

قال ابن حزم : « كشف العلوم النافعة يزيد العقل جودة ويعفيه من كل آفة ، ويهلك ذا العقل الضعيف » ..

وهو في رسالته عن الأخلاق يضع ضوابط للخير والشر ، وينتهي إلى أن الدين ضرورة للجماعات البشرية ، فهو الذي يحميها وينشر فيها الثقة بين الأفراد ويعمها بالفضائل ، ويجمعها على الحب والخير والحق .

وهو لا يخصص الإسلام وحده بذلك ، بل كل دين سماوى . قال : « ثق بالمتدين ولو كان على غير دينك . ولا تشق بالمستخف وإن أظهر أنه على دينك ومن استخف بحرمات الله تعالى فلا تأمنه على شيء تشفق عليه » .

فهذا الفقيه الذى كان يتعصب لآرائه حتى ليصف نفسه بالنزق ، والذى اشتد على بعض اليهود والنصارى الذين هاجوا الإسلام ، وأخرجهم من دمة الله ورسوله لتهمهم على ما أوحى به الله إلى رسوله .. هذا الفقيه نفسه يطالب المسلمين ألا يثقوا بمسلم غير متدين ، وألا يأتمنوه على شيء ، ويدعوهم إلى الثقة بالمتدينين من اليهود والمسيحيين ، وإلى أئمتناهم على كل ما هو غال وعزيز على المسلمين . !

ذلك أنه يرى الدين أساس الفضيلة ، كل الديانات السماوية دعوة إلى الصدق ، والإخلاص ، والمحبة ، والكرم ، والمروءة ، وسائر الفضائل .. وأن كل دين سماوى إنما جاء مكملًا لما قبله ، حتى بعث الله خاتم النبيين محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم متممًا لمكارم الأخلاق .. فالمتدين من اليهود والنصارى أدنى بها إلى مبادئ الإسلام وإلى الله تعالى من المسلم غير المتدين .. !

ومكارم الأخلاق التى جاء بها القرآن ، مصدقا لما بين أيديهم من التوراة والإنجيل ، يمكن التعرف عليها بالعقل . والمسلمون مأمورون بالتدبر ، والتفكير ، وإعمال العقول لمعرفة الخير والشر ، والفضائل والردائل ... على هذا نص القرآن الكريم والسنة الشريفة . فإذا أعمل الناس عقولهم اهتموا إلى سواء السبيل .. قال تعالى عن الضالين : « لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير » .

وإذن فوظيفة العقل عنده هو هداية صاحبه إلى الخير والفضائل . أما الذين يشحنون عقولهم لاجتلاب المنافع ، غير مباليين بالفضيلة ، فهؤلاء ليسوا هم أصحاب العقل ، بل هم أصحاب الدهاء ، فالعقل لا يقود إلا إلى الحق ، والخير ...

وهو نفسه قد أثر العلم على جميع اللذات ، وترك جمع المال إلى هوم العلم ، وكان قادرا لو اهتم بجمع المال على أن يكون من أغنى أغنياء عصره . ولكن تصاريف الزمان علمته أن المال ، واللذة الحسية ، وكل فنون المتاع إنما هى عرض زائل ، ولا يبقى إلا الحكمة والعلم . « ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا . » ويقول : « للعلم حصه فى كل فضيلة ، وللجهل حصه فى كل رذيلة .. » .

ورأى ابن حزم . أهل زمانه يستخفون بمن يصرف جهده عن الاستزادة من المال ، ليستزيد من العلم والحكمة فيقول فى هذا : « ترك المبالاة بكلام الناس والمبالاة بكلام الخالق عز وجل هو العقل كله ، والراحة كلها . من قرر أن يسلم من طعن الناس وعيبتهم فهو مجنون . ومن حقق النظر وراضى نفسه على السكون إلى الحقائق وإن آلمته فى أول صدمة كان اغتباطه بدم الناس إياه أشد وأكثر من اغتباطه بمدحهم إياه . لأن مدحهم إن كان بحق وبلغه سرى فيه العجب ، فأفسد بذلك فضائله ، وإن كان بباطل فسره ، فقد صار مسرورا بالكذب . وهذا نقص شديد .. وأما ذم الناس فإن كان بحق فرمى كان سببا فى تجنبه ما يعاب عليه ، وهذا حظ عظيم لا يزهده فيه إلا ناقص ، وإن كان بباطل فصبر ،

اكتسب فضلا زائدا بالحلم والصبر...»

وهو يرى من حسن الأخلاق أن يثبت الإنسان على الفكرة والعمل ، ماقتنع بأنه على حق ، فإذا اكتشف أنه على الباطل ، فالثبات لجأج ، وهو مذموم...

ثم ينتهى ابن حزم فى حديثه عن الأخلاق إلى أن خير ما يفعله المسلم ليستقيم له الخلق الفاضل ، هو التأسى برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد أمرنا الله بهذا : « لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر » ثم أن الله تعالى وصفه بقوله : « وإنك لعلى خلق عظيم » .

وقد قال عليه السلام : « جئت لأتمم مكارم الأخلاق أو كما قال . »

ويقول ابن حزم عن القواعد والضوابط التى وضعها للأخلاق ، إنه « أفاد فيها » مما منحنى الله تعالى من العلم بتصاريف الزمان ، والإشراف على أحواله ، حتى أنفقت فى ذلك أكثر عمرى ، وآثرت تقييد ذلك بالمطالعة له ، والفكرة فيه على جميع اللذات التى تميل إليها أكثر النفوس ، وعلى الأزيد من فضول المال . »

يرى ابن حزم أن الإنسان عنده علم البدئية وهو علم النفس فالطفل يدرك بالبدئية أن الجزء أقل من الكل ، وأن المكان الواحد لا يشغله جسمان فى وقت واحد . فهو يتنازع على المكان الذى يريد أن يقعد فيه ، علما منه بأن هذا المكان لا يسهه مع غيره ، وهو يدرك أنه لا يجتمع الأمران ، المتضادان ، فأنت إذا وقفته بغير إرادته بكى . ، حتى إذا تخلص عاد إلى القعود . وإذا كبر الطفل أدرك أن الأخبار عما هو غائب لا يصح أن تتعارض ، فإذا تعارضت شك فى الجميع أو ألفاها . . وهكذا يعرف الإنسان أخبار الأنبياء وقائع التاريخ ، فإذا كبر عقله أستطاع أن يعرف الصادق من المنقول عن الرسول (ص) ، وبذلك يتحقق أن علم العقل أساس لعلم النقل . . وابتعاد الخبر مدعاة لخطأ ، كالأعداد فى الحساب كلما كثرت الأعداد زادت مظنة الخطأ فى أجزاء العمليات والمعادلات الحسابية والجبرية عليها .

ويضيف أن هذا ليس هو سبب الخطأ فقط ، بل أن هناك عوامل أخرى تفسد النقل وهى الشهوة والإنحياز . على أن العقل يظل قادرا على التمييز أبدا .

وهو يؤمن بكل ما جاءت به النصوص ، معملا العقل فى تفسيرها بظاهرها . فإذا كانت النصوص قد أجمعت على أن الله هو خالق كل شيء ، فلا أحد يخلق فعلا من الأفعال ، وإلا كان شريكا لله تعالى فى الخلق ! ولكنه يناقش هذا النظر ويقول أن الأخذ به يسقط التكليف ، فلا حيلة للإنسان إذن والله يخلق أعماله ، ولا إرادة للإنسان ولا إختيار ، ولكنه الجبر قطعا .

و يصحح هذا الفهم بقوله أن الله خلق في العبد الاستطاعة والاختيار، فهو يختار ما يفعله وما يستطيعه . وبذلك يكلف الله العباد، ويحاسبهم على أعمالهم .

ثم يتحدث عن الاجتهاد بالرأى فيذهب إلى أنه ليس من الشريعة . لأن الله لم يفرض في الكتاب من شيء ..

فلا مجال للرأى إذن لأن كل الأحكام وإرادة في نصوص القرآن والسنة أو إجماع الصحابة ، فإن لم يوجد فيها الحكم فقد نص القرآن على إباحة ما لم يحرمه الله ، فيكون الحكم في كل واقعة حيث لائنص هو الإباحة أو استصحاب الحال بحكم النص القرآني : « وخلق لكم ما فى الأرض جميعا » .

على هذه الأصول يستنبط كل الأحكام الخاصة بالعقيدة وبالمعاملات ، أى بالدين وبالشرعية .. وهو فى القضايا الفكرية التى تتعلق بالعقيدة يمتحن النصوص والإجماع فيجد فيها إجابة عن كل سؤال .

فقد زعم الخوارج أن مرتكب الكبيرة كافرا ماله إلى النار.

وقالت المعتزلة أنه فى منزلة بين المنزلتين فلا هو كافر ولا هو مؤمن .

وذهب بعض أهل السنة إلى أنه ليس مؤمنا ، ولكنه مسلم لم يخرج عن الإسلام إلى الكفر، بل خرج عن الإيمان إلى الفسوق .. وبشئ الاسم الفسوق بعد الإيمان .

وذهب آخرون الى أن الحكم عليه يرجأ إلى يوم القيامة ، فإن شاء الله أخذه بالكبيرة وإن شاء عفا عنه ، وهؤلاء هم المرجئة .

أما ابن حزم فقد استنبط حكمه من النصوص ، وأفتى فى مرتكب الكبيرة بفتوى بعض أهل السنة : « فن تاب بعد ارتكابه الكبيرة غفر الله له والله غفور رحيم » أما من قبل التوبة النصوح ، فإن رجحت حسناته سقطت كبائره لأن للحسنة عشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف وإلى أكثر من ذلك أضعافا مضاعفة .. هذا هو نص القرآن الكريم .. فإذا استوت حسناته مع سيئاته فهو على الأعراف ينتظر الجنة ، (وعلى الأعراف رجال ينتظرون) ، ثم يدخلون الجنة آخر الأمر . أما إن زادت سيئاته على كبائره فإلى النار . غير مخلد فيها أبدا ، بل يخرج منها إلى الجنة بقدر ما ثوبه الحسنات . »

و يعرض ابن حزم لمشكلة أخرى كانت مثارة من قبل عصره ، وهى وحدانية ذات الله تعالى .. أله صفات منفصلة عن الذات ؟ أم أن أسماء الله الحسنى هى صفاته ، وكلها هى الذات الألهية . ١٩

قال ابن حزم : « وأما إطلاق لفظ الصفات لله عز وجل فحال لا يجوز ، لأن الله لم ينص في كلامه المنزل على لفظ الصفات وعلى لفظ الصفة . ولا حفظ عن النبي صلى الله عليه وسلم أن لله صفة أو صفات . نعم ولا جاء ذلك قط عن أحد الصحابة رضي الله عنهم ، ولا عن أحد من خيار التابعين . »

فهو يعتبر الألفاظ التي تدل على صفات إنما هي من أسماء الله تعالى ، مثل السميع البصير القادر القدير الحكيم العليم الرحمن الرحيم إلى غير ذلك من أسماء الله الحسنى . وهذا بنص الآية : « وله الأسماء الحسنى .. »

أما عن الألفاظ الموهمة للتشبيه مثل « وجه ربك » و « يد الله » فهو يطالب من يريد أن يفهمها أن يتدبر النص القرآني في لفته ، وأن يتعمق دراسة اللغة العربية ، فقد نزل القرآن بلسان عربي مبين .

ومن يدرك أسرار اللغة ، يفهم بالضرورة أن الله تعالى حين يتحدث عن وجهه ويده ، لم يرد عضوا بعينه في الجسم المحسوس ، بل أراد الذات نفسها . فعندما تقول العرب « ماملكت يميني مثلا » فالمعنى « ماملكت أنا » لا ما ملكت يدي اليمنى دون يدي اليسرى .

وهكذا فسر قوله تعالى : « ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام » أي يبقى ربك سبحانه فهو وحده الذي لا يفنى . وفسر قوله تعالى : « يد الله فوق أيديهم » بقوله : « الله فوق أيديهم » . وفسر : « بل يدها مبسوطتان ينفق كيف شاء » بقوله : « الله ينفق كيف يشاء » .

ومن فهم غير ذلك فليعد دراسة أساليب العرب وآدابهم ليعرف أن للإلفاظ في اللغة العربية دلالات مجازية ، وهي من دلالات ظواهر الألفاظ .

إلى هذا انتهى ابن حزم في الخلاف الذي ظل مشتجرا حول الأسماء والصفات ، وأتهم كل من لم يوافقهم ، بأنه لا يعرف أساليب العرب ، ولا أسرار اللغة التي نزل بها القرآن ، ونصحه بأن يصنع ما صنع الليث بن سعد والشافعي : أن يخرج إلى بادية نجد أو الحجاز ليتقن اللغة ، وأن يحفظ أشعار القدماء وبصفة خاصة شعر الهذليين .

فأسماء الله ليس فيها ما أسماء القرآن بالمتشابه ، أي لا يعرف معناه ولا حكمه . فلا متشابه في القرآن إلا الحروف التي بدأت بها بعض السور مثل ألف لام ميم ، (ألم) ، وألف لام راه (ألر) وصاد (ص) ، ونون (ن) ، وقاف (ق) إلى غير ذلك ، وإلا ما أقسم به الله تعالى مثل « والذرايات » ، و « الشمس وضحاها » و « الفجر » . و « لا أقسم بهذا البلد » . وليس لأحد الحق في أن يبحث في هذا المتشابه ، فقد يقوده البحث إلى الزبغ والضلال ،

بهذا أمرنا الرسول (ص) واتبعه الصحابة

وقد ضرب عمر بن الخطاب عندما تولى الخلافة ، رجلا من الصحابة أسواطاً ، لأنه سأل عن معنى والذاريات ، وأمر المسلمين ألا يسألوا عن شيء من متشابه القرآن لم يشرحه رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما كان بين ظهرانيهم .

فإنه لا رأى فيما لم يوضحه الرسول .. وقد أمر المسلمين ألا يسألوه فيما سكوت عنه ، فإهلك من قبلهم من الأمم الى الشغب على أنبيائهم بكثرة السؤال .

قال الله تعالى : « ما فرطنا في هذا الكتاب من شيء » . فما مكان الرأى إذن ، إلا إذا قلنا أن القرآن قد فرط في شيء ؟ ... وقال الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر . » فلا حكم إلا بما قضى به الله ورسوله ، ثم أولوا الأمر .. أى الأججاع .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا ينزع العلم من صدور الرجال ، ولكن ينزع العلم بموت العلماء ، فإذا لم يبق عالم اتخذ الناس رؤساء جهالا ، فأفتوا بالرأى فضلوا . وأضلوا » .

ثم يستدل بأقوال الصحابة فى النهى عن الأخذ بالرأى ، ويرفض الأحاديث والأخبار التى تواترت عن الاجتهاد بالرأى ، ويتهم روايتها بالضعف أو الكذب ..

يذهب ابن حزم الى أن القرآن وحده هو الأصل الوحيد للشرعية ، وفيه أمرنا باتباع الرسول . فالسنة حجة . قال تعالى مخاطب رسوله : « وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ، فالرسول (ص) يبين القرآن ، وأهل الذكر مسئولون عن بيان ما فى القرآن والسنة . لما تعلموه من الرسول

والبيان كما يقول ابن حزم « يختلف فى الوضوح ، فيكون بعضه جليا ، وبعضه خفيا ، فيختلف الناس فى فهمه ، فيفهمه بعضهم بفهمه ، وبعضهم يتأخر عن فهمه . كما قال على بن أبى طالب رضى الله عنه : « إلا أن يوتى رجلا فهما فى دينه . »

هاهنا يستشهد بقول الإمام على كرم الله وجهه ! .

وفى الحق أن ابن حزم ماناصب الإمام عليا العدا .. !

فابن حزم قد أعتمد فى بعض فقهه على أقضية للإمام على ، وفتياه ، وعلى آراء لحفيده الإمام جعفر الصادق ..

ولقد ذكر ابن حزم أن عمر بن الخطاب كان يستفتى على بن أبي طالب فيما يغمر عليه من الأحكام ويقول : « على أقضانا » فإذا عرضت لعمر قضية ولم يجد عليا قال : « قضية ولا أبا الحسن لها » ...

وما اعتمد ابن حزم على آراء الإمام على تكفيرا عما سلف منه ، أو نفاقا للأمرء والعلماء ممن يفضلون عليا على سائر الصحابة ، بل توقيرا للإمام على ، وعرفانا بمكانته من الرسول عليه الصلاة والسلام ، وبمكانه في الاسلام ، وفضله في إرساء قواعد الشريعة بعد الرسول صلى الله عليه وسلم .

هو إذن يرى أن الأحكام كلها في القرآن ، والقرآن هو الذي نص على حجية السنة إذ أمرنا باتباع الرسول ، ونص على حجية الإجماع بنصه على أهل الذكر وهم الصحابة ، فإذا لم يمكن استنباط الحكم من القرآن أو السنة أو الإجماع . فلا سبيل إلا الاستصحاب وهو بقاء الحكم المبني على النص حتى يوجد دليل من نصوص تغيره . قال تعالى : « وخلق لكم مافي الأرض جميعا » . وقال تعالى : « ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين . » وإذن فقد « أباح الله تعالى الأشياء بقوله أنها متاع لنا ثم حظر ما شاء . وكل ذلك بشرع . أي بنص .. »

وقاده التزامه هذه الأصول التي خالف فيها جميع الأئمة والفقهاء إلى مخالفتهم في كثير من الفروع . فاعتبر التزام أفعال رسول الله صلى الله عليه وسلم سنة يجب اتباعها ، وإن لم يصحب فعله أمر . وعاب على أتباع مالك ترك هذه السنة فقال : « اختاروا الصوم في رمضان في السفر ، ورغبوا عن فعله عليه السلام في الفطر . ورغبوا عن فعله عليه السلام في التقبيل وهو صائم ، وقد غضب رسول الله صلى الله عليه وسلم على من رغب عن ذلك أو تنزه عنه وخطب الناس ناهيا عن ذلك . وتركوا فعله عليه السلام في تطييبه في حجة الوداع وأخذوا بأمره مستقدم لو كان على ما ظنوه لكان منسوخا بفعله عليه السلام ... ولا يجوز أن يقال عن شيء فعله رسول الله أنه خصوصي إلا بنص في ذلك ، لأنه عليه السلام قد غضب على من قال ذلك ، وكل شيء أغضب رسول الله (ص) فهو حرام . وذلك مذكور في حديث الأنصاري الذي سأله عن قبلة الصائم فأخبره عليه السلام أنه يفعل ذلك فقال الأنصاري « يا رسول الله إنك لست مثلنا . قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر » فغضب عليه السلام وقال : « والله أنى لأتقاكم الله وأعلمكم بما آتى وما أذر » وقد روت عائشة : « أنه عليه السلام كان يترك الفعل وهو يحبه ، خشية أن يفعله الناس فيفرض عليهم ، كما فعل عليه السلام في قيام الليل في رمضان ، قام ثم تركه خوفا أن يفرض علينا . وإنما قلنا هذا لئلا يقول جاهل : أيجوز أن يترك عليه السلام الأفضل ويفعل الأقل فضلا ؟ فاعلمناه أنه عليه السلام يفعل ذلك رفقا بنا ... وكذلك الشيء إذا تركه عليه السلام ولم ينه عنه ولا أمر به فهو مباح . وضرب مثلا لذلك « من أستمع زمارة الراعي ، فلو

كان حراما لما أباحه عليه السلام لغيره ، ولو كان مستحبا لفعله عليه السلام ».... وكان ابن حزم يحضر مجالس الغناء في قرطبة اعتمادا على هذا .

وروى عن عائشة أنها سألت زوج بنت أختها وكانت من أجل فتيات عصرها ألا يداعبها ويقبلها ، فتخرج الفتى فقالت له أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يفعل ذلك وهو صائم في نهار رمضان .

وعاد أتباع مالك يفلظون له ويحاولون الأيقاع به في كل فقهه وأصوله ... وذهبوا إلى أنه يخالف إجماع أهل المدينة ، وإجماع أهل المدينة سنة ، لأنهم نقلوا عن الرسول عليه الصلاة والسلام مئات عن مشات وآلاف عن آلاف ، فهي سنة أقوى من النقل عنه عليه السلام واحدا عن واحد .. وهذا هو رأى الإمام مالك نفسه .

ولم يصبر ابن حزم على إتهامهم إياه بأنه يخالف السنة ، فانقض يسفه من يقول بهذا ، ويردد حجة الإمام الليث بن سعد في رده على الإمام مالك أن الصحابة وفي صدورهم علم الدين والشرعة ، تفرقوا في الأمصار يعلمون الناس ، وملأوا المدائن ، فليس لأهل المدينة امتياز عن أهل الكوفة التي أقام بها الإمام على وعبد الله بن مسعود ، ولا عن أهل مصر التي أقام بها عبد الله بن عمرو بن العاص . وغيره من الصحابة ، ولا عن غيرها من أقطار الأرض التي عاش فيها صحابته .. وكان علم بعضهم أغزر من علم الذين بقوا في المدينة فضلا عن السابقة في الإسلام .

وأضاف بعد ذلك أن أهل المدينة ساروا على خلاف سنة الرسول في كثير من أمورهم ، فعندما تولى عمر بن الخطاب ، أنكر على حسان بن ثابت انشاده الشعر في المسجد ، فلما قال له حسان : « قد أنشدت فيه وفيه من هو خير منك » ، وذكر له رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسكت عمر ومضى .

فهذا يبين أنه لا حجة في قول أحد ولا في عمل بعد النبي عليه الصلاة والسلام .

ثم أن ابن حزم انقض على أهل المدينة انقضاضا : « فأى برهان على أن المدينة أفضل البلاد كما يقولون ؟ أن مكة هي أفضل البلاد بنص القرآن . ومع ذلك ففضلها لا يوجب اتباع أهلها دون غيرهم . ولا يختلف مسلمان في أنه كان في المدينة منافقون ، وفيها شر الخلق . قال تعالى (ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم سنعذبهم مرتين ثم يردون إلى عذاب عظيم .) وقال تعالى : (إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار) . وكان فيها فساق كما في سائر البلاد ، وزناة وكذابون

وشربة خمر وقذفة كما فى سائر البلاد ولا فرق . وأهلها اليوم — وإنا لله وإنا إليه راجعون — غلاة الروافض الكفرة . أفترى هؤلاء فضلا يوجب أتباعهم من أجل سكناهم المدينة ؟ فإن قالوا (لا ، لكن إنما نوجب الحجة بالفضلاء من أهل المدينة) ، (قلت لهم ومن أين خصصتم فضلاء المدينة دون فضلاء غيرهم من البلاد ، وهذا مالا سبيل الى وجود برهان على صحته أبدا وأيضا فالمدينة فضلها باق كما كان لا يتغير ولن يتغير أبدا ، وأهلها أفسق الناس . فقد بطل أن يكون للبيعة حكم فى وجوب اتباع أهلها ، وصح أن الفاضل فاضل حيث كان ، والفاسق فاسق حيث كان » واتهم القائلين بتفضيل أهل المدينة بأنهم « تابعوا خطأ مالك ، وقد ولد مالك بن أنس سنة ثلاث وتسعين من الهجرة بعد موت رسول الله صلى الله عليه وسلم بثلاث وثمانين سنة ، فأخبرونى عن أى مذهب كان الناس قبل مالك ؟ ... فقد وليها من الفساق كالذين ولوا البصرة والكوفة كالججاج وخالد القسرى (الذى ذبح فى المسجد أحد الفقهاء من معارضيهِ يوم عيد الأضحى وقال عن ذبحه إنه أضحية ! الدماء والأموال والأحكام ، وموضعهم من الفساق بالدين بحيث لا يخفى ولا فرق بين إجماع أهل المدينة وأهل الكوفة وأهل البصرة وأهل الفسطاط هذا إن أرادوا من كان بها من الصحابة والتابعين » وتساءل : « أكان بالمدينة من هو أفضل من على بن أبى طالب وعبد الله بن مسعود رضى الله عنهما وقد أقاما بالكوفة ؟ »

ورد على اتهامه بالكفر لأنه يخالف إجماع أهل المدينة فقال : « إن كان مخالفة أهل المدينة كفرا ، فلتتحكموا بالكفر على أمير المؤمنين على بن أبى طالب والصحابى الجليل عبد الله بن مسعود رضى الله عنهما فقد خالفا إجماع أهل المدينة » !

ولقد قاده الإقتصاد فى استنباط الأحكام على ظاهرة النص إلى مخالفة إجماع الفقهاء وأئمة المذاهب من قبله .

— فهو يرى أن المرأة تستطيع أن تحج وحدها دون اصطحاب الزوج أو أحد المحارم على الرغم مما ذكره فى طوق الحمامة عن خمس حاجات عابدات مجتهدات زاهدات فى الدنيا اقترفن الخطيئة مع أحد ملاحى السفينة وهن فى طريق العودة فى بحر القلزم (البحر الأحمر) .

— لا يجوز ابن حزم فسخ الزواج بحكم القاضى لعيب فى الزواج ولا لعدم النفقة ولا للضرر ولا لغياب الزوج لأن أمر الطلاق للزوج ، وإذن فكل من فرق زوجين بغير قرآن أو سنة فقد دخل فى صفة الذين ذمهم الله تعالى بقوله : « فيتعلمون منها ما يفرقون به بين المرء وزوجه ونعوذ بالله من هذا » . على أنه يقرر أنه يجوز الحكم بالطلاق فى حالة واحدة هى ظهور عيب بعد اشتراط السلامة من العيوب . وماعدا هذا الشرط فشروط الزواج باطلة : كأن تشرط الزوجة ألا يتزوج عليها أو أن تكون المعصمة بيدها أو ألا يسافروا وتركها .

— ايمين بالطلاق باطل ، فلا يقع طلاق والخالف آثم لأنه لا يمين إلا بالله تعالى

- المفقود حكمه حكم الحى حتى تثبت وفاته ثبوتا قاطعا .
- الزوجة عند عجز الزوج عن الانفاق عليها لا تطلق ، بل ينفق عليها ولى الأمران كانت فقيرة ، من أموال الصدقات ، فإن كانت غنية وجب عليها أن تنفق هى على نفسها وعيالها وعلى زوجها .
- كل تصرفات المريض مرض الموت من وصية وهبة وطلاق وزواج صحيحة ، لا قيد عليها لعدم ورود نص بمنعها أو تقييدها . وبعض الصحابة لا يعترف بطلاق المريض مرض الموت ، ويعتبره فرارا من الميراث .. ويستشهد بفتيا للإمام على بن أبى طالب ، ففى عهد عثمان طلق أحد الأنصار الأغنياء زوجة أنصارية ، وكانت زوجته الثانية بنت عم على بن أبى طالب ، فلما مات الزوج أرادت زوجته الثانية أن تختص وحدها بميراث الزوج لأنه طلق الأولى فى مرض موته ، فاستشار عثمان ابن عفان رضى الله عنه فى هذا ، فأثاه على بن أبى طالب فأشار بأن المطلقة ترث لأن الزوج يفر من قواعد الميراث ، فشرك عثمان بين الزوجتين وإذ راجعته الزوجة الثانية قال لها : « هذا رأى ابن عمك » .
- اعتبار الوصية فرض لازم لقوله تعالى : « كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت إن ترك خيرا الوصية للوالدين والأقربين بالمعروف حقا على المتقين . » ولا يوجد نص يفسخ هذا الحكم . ولكنه يشترط ألا تضر الوصية بالورثة ويقول فى هذا « فرض على كل مسلم أن يوصى لقرباته الذين لا يرثون ، فإن لم يفعل نفذ من ماله ما كان يجب عليه أدائه ، وعلى ولى الأمر تنفيذه فى حدود الثلث » .
- وقد أخذ القانون المصرى برأى ابن حزم فى فروع الولد الذى يموت فى حياة أبيه . ورأى أن تكون بمقدار نصيب الوالد المتوفى على ألا تزيد على الثلث .
- حقوق الله فى التركة مقدمة على حقوق العباد ، وأول حقوق الله هى الزكاة المتأخرة .. ويقول : « أن حقوق الله أحق بالقضاء من غير تخريج ويجب الأخذ بظاهر النص » ... وهاجم الأئمة الأربعة لقولهم بغير هذا . ويصف رأى مالك بأنه « أفجشها تناقضا وأوحشها شدة وفسادا » لأن مالك قدم حقوق العباد ، أما عن حق الله فالله غفور رحيم . ويقول أستاذنا المغفور له الشيخ محمد أبو زهرة تعليقا على قول ابن حزم فى مالك « وإنا لنستغفر الله تعالى لنا وله على نقده لقول مالك بهذه اللغة ونقلنا له » .
- أوجب ابن حزم إعطاء الأقارب واليتامى عند قسمة التركة إذا حضروا عند القسمة . وذلك بما لا يحجب بمحقوق الورثة . وولى الأمر ملزم بإجبار الورثة على إعطاء أولئك ماتطيب به نفوس الورثة .. وذلك أخذا بظاهر نص الآية : وإذا حضر القسمة أولو القربى واليتامى والمساكين فارزقوهم منه وقولوا لهم قولا معروفا . ثم يضيف : « أمر الله تعالى فرض لا يحمل خلافه وعن ابن عباس : يزعمون أن هذه الآية نسخت (وإذا حضر القسمة أولو القربى) فلا والله مانسخت ، ولكنها مما تهاون الناس بها ... هى واجبة ، ويعمل بها ، وقد أعطيت بها .
- ويرد ابن حزم على من فهموا أن الأمر فى الآية الكريمة ليس أمر وجوب بقوله : « لا يفهم

أحد من (افعل) أن شئت فلا تفعل .. وليس وجود آيات قام البرهان على أنها منسوخة أو مخصصة أو أنها ندب ، بموجب أن يقال — فيها لا دليل بذلك فيه — هذا ندب أو هذا منسوخ أو هذا مخصص ، فيكون قولاً باطلاً . »

ابن حزم لا يحدد قدر ما ينبغي أن يأخذه أولو القربى واليتامى والمساكين إن حضروا قسمة التركة ، بل يترك ذلك لما تطيب به نفوس الورثة ، فإن لم يفعلوا ، فرض ولى الأمر ما يراه مناسباً وعادلاً ..

يحيى ابن حزم لولى الأمر أن يفرض على التركة حصة للفقراء والمساكين وإن لم يحضروا القسمة ، على أن تنفق عليهم هذه الحصة . وأحق الفقراء والمساكين بهذه الحصة من كان ذا قربى .. وقد أخذ القانون المصرى بهذا النظر مع تعديل يسير فى فرض ضريبة التركات ورسم الأيلولة .

الأشهاد على البيع واجب شرعى ... قال فى ذلك ابن حزم : « وفرض على كل متبايعين لما قل أو كثر أن يشهدا على تباعيهما رجلين أو رجلاً وامرأتين من العدول ، فإن لم يجدا عدولاً سقط فرض الاشهاد ، فإن لم يشهدا وهما قادران على الإشهاد فقد عصيا الله والبيع تام ، فإن كان البيع بشمن الى أجل مسمى ، فرض عليهما مع الاشهاد المذكور أن يكتباه ، فإن لم يكتباه فقد عصيا الله عز وجل ، والبيع تام . فإن لم يقدرا على الكتابة ، فقد سقط عنها فرض الكتابة » . وابن حزم يستتبط هذا الحكم من ظاهر الآية الكريمة : « يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه ، وليكتب بينكم كاتب بالعدل ، ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله فليكتب ، وليلل الذى عليه الحق ، وليتق الله ربه ولا يبخس منه شيئاً ، فإن كان الذى عليه الحق سفيهاً أو ضعيفاً أو لا يستطيع أن يمل هو فليملل وليه بالعدل ، وأستشهدوا من رجالكم ، فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء أن تضل أحدهما فتذكر أحدهما الأخرى ، ولا يأب الشهداء إذا مادعوا ، ولا تساموا أن تكتبوه صغيراً أو كبيراً الى أجله ، ذلكم أقسط عند الله وأقوم للشهادة . ، وأدنى ألا ترتابوا ، الا أن تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم ، فليس عليكم جناح ألا تكتبوها ، وأشهدوا إذا تباعتم ، ولا يضار كاتب ولا شهيد ، وإن تفعلوا فإنه فسوق بكم ، وأتقوا الله و يعلمكم الله والله بكل شئ عليم » .

و يقول ابن حزم عما جاء فى نص الآية : هذه أوامر مغلظة مؤكدة لا تختمل تأويل ولا و يشرح أحكام الآية : « أمر بالكتابة فى المداينة الى أجل مسمى ، وبالاشهاد فى التجارة المدارة ، كما أمر الشهداء ألا يأتوا أمراً مستويماً ، ثم أكد تعالى أشد تأكيد ، ونهانا عن أن نسأم فى كتابة ما أمرنا بكتابته صغيراً كان أو كبيراً . وأخبر تعالى أن ذلك أقسط عند الله وأقوم للشهادة وأدنى ألا ترتاب ، وأسقط الجناح (الأثم) فى ترك الكتابة خاصة — دون الأشهاد — فى التجارة المدارة ، ولم يسقط الجناح (الأثم) فى ترك الكتابة فيما كان ديناً إلى أجل .. فقد قال تعالى بعد أن فرض الكتابة : « إلا أن تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم ،

وجهور الفقهاء يرون أن الإشهاد في البيع والكتابة في التداين ، والكتابة في الثمن المؤجل ليست من الفروض الواجبة بحيث يأثم تاركها ، لأن النبي صلى الله عليه وسلم لم يصنع ذلك ، وقد اشترى فرسا من أعرابي ، ولم يشهد ولم يكتب ، فباع الأعرابي الفرس مرة ثانية لمشترا آخر بثمن أعلى ! .. ويرى ابن حزم أن خبر الأعرابي ضعيف السند ، وهو إن صح دليل على وجوب الإشهاد والكتابة ، ويجب أن تكون هذه القصة قد وقعت قبل نزول الآية ، ولعلها هي ومثيلاتها كانت من أسباب نزول الآية ..

— لا يجوز خيار الشرط وهو حق البائع أو المشتري في الفسخ خلال مدة معينة . ويقول ردا على جمهور الفقهاء الذين ذهبوا الى جواز هذا الخيار: « كل بيع وقع بشرط خيار للبائع ، أو للمشتري أو لهما جميعا ، أو لغيرهما ، خيار ساعة أو يوم أو ثلاثة أيام ، أو أكثر أو أقل ، فهو باطل . » و يضيف : « كل ذلك شرع لم يأذن الله تعالى به ، ولا أوجبه سنة وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (كل شرط ليس في كتاب الله فهو باطل ولو كان مائة شرط) »

وكان دليل جمهور الفقهاء على إجازة الشرط أن أحد الصحابة كان يغبن في البيع والشراء ، فأمره الرسول (ص) ألا يعقد صفقة حتى يشترط لنفسه الخيار في إبرامها أو فسخها خلال ثلاثة أيام ليشير من هو أعرف منه بأمور التجارة .

فرد ابن حزم لأن هذا حكم خاص بحالة ذلك الصحابي ، ولا يجوز اعتباره حكما عاما .

— لا تحرم إلا بنص فإذ ذريعة إلى حرام ليس حراما ، وقد نهى الله عن تحريم ما لم يحرمه هو ، والا كان هذا التحريم افتراء على الله ... قال تعالى : « قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراما وحلالا قل الله أذن لكم أم على الله تفترون » .

ولكن الإمام مالك والإمام أحمد بن حنبل ومن اعتنق مذهبيهما يقسمون الشريعة الى مقاصد وذرائع . فالمقاصد هي هدف الشريعة ، وهي تحقيق المصلحة ودرء المفسدة . والذرائع هي الوسائل أو الوسائط المؤدية الى المقاصد . والذرائع ترتبط بالمقاصد تحليلا وتحريما . وعلى هذا فلا يجوز بيع السلاح في وقت الفتنة ، ولا يصح البيع الذي يخفى ربا أو يؤدي إليه ، ويبطل الزواج المؤقت الذي يكون وسيلة وذريعة لتحليل الزوجة المطلقة ثلاثا . فكل تصرف قصد به الحرام أو أدى الى مفسدة يعتبر باطلا وقد أمر به النبي عليه الصلاة والسلام ألا تقطع يد السارق في الغزو حتى لا يفر الى العدو

و يرد ابن حزم على كل هذا بقوله : « أن السنة يجب أن تطبق لأنها سنة دون محاولة تخريج أو تعليل أو قياس عليها فهي نص واجب اتباعه بظاهره ، أما من حكم . باحتياط أو بشيء خوف ذريعة

الى ما لم يكن بعد ، فقد حكم بالظن ، وإذا حكم بالظن فقد حكم بالكذب والباطل ، وهذا لا يحل ، وهو حكم بالهوى وتجنب للحق ، نعوذ بالله من كل مذهب أدى الى هذا . مع أن هذا المذهب في ذاته متخاذل متفاسد متناقض ، لأنه ليس أحد أولى بالتهمة من أحد ، وإذا حرم شيئا حلال خوف تدرع

إلى حرام فليخص الرجال خوف أن يزنوا ، وليقتل الناس خوف أن يكفروا ، ولتقطع الأعناب خوف أن يعمل منها الخمر . وبالجملة فهذا المذهب أفسد مذهب فى الأرض ، لأنه يؤدى إلى إبطال الحقائق كلها ، وبالله تعالى التوفيق . »

وهكذا استنفر من جديد أتباع الإمام مالك ، واستنفر أيضا أتباع الإمام أحمد بن حنبل ، بوصفه فاستنكروا الزعم بأن مذهب كل من الإمامين هو أفسد مذهب فى الأرض ! .. وغلظوا مع ابن حزم واشتدوا عليه

تصح شهادة الأصول والفروع والأزواج ماداموا عدولا . وهاجم الفقهاء الأربعة أصحاب المذاهب الذين لم يجيزوا هذه الشهادة ، حرصا على العدل ودفعاً لشبهة الأنحياز ، فقال عن الفقهاء أصحاب المذاهب : « لقد أدهم هذا الأصل الفاسد الى أن حكموا فى الشيء بالتهمة التى تحل ، فأبطلوا شهادة العدول لأبائهم وأبنائهم ونسائهم وأصدقائهم ، تهمة لهم بشهادة الزور والخياف . والحكم بالتهمة حرام لا يحل ، لأنه حكم بالظن ، وقد قال تعالى عاتبا لقوم قطعوا بظنونهم : (وظننتم ظن السوء وكنتم قوما بورا) وقال تعالى عاتبا قوما قالوا : (إن نظن إلا ظنا وما نحن بمستيقنين) قال تعالى : (وما لهم به من علم إن يتبعون إلا الظن وإن الظن لا يغنى عن الحق شيئا) وقال تعالى : (أن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى) وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (الظن أكذب الحديث) ..

هاهو ذا من جديد يسرف فى الهجوم على الأئمة الكبار أصحاب المذاهب ، ويستثير أتباعهم ضده ، ويجلب عليه سخط أهل الورع ممن يروعه أن يتهم الأئمة مالك وأبو حنيفة والشافعى وأحمد ، بالتناقض والتخاذل والتفاسد .. وأنهم يتبعون هوى الأنفس . !

— وما خالف فيه إجماع الفقهاء قوله أن العبد كالحرفى حق الزواج بأربع . وقد اقترب من الإمام مالك فى هذا النظر ، ولكنه هاجمه حتى فى اتفاقه معه .. ! واتهم الإمام مالك بن أنس بالتناقض ، لأنه خالف فى حكمه هذا أقوالا لبعض الصحابة لم يعرف لها مخالف . ومالك يعتبر هذا إجماعا يجب أتباعه فكيف يخالفه ؟ وكان أخرى بمالك فى رأى ابن حزم ألا يعتبر إجماعا الا ما تواترت الأخبار الصحاح على أن الصحابة أجمعوا عليه يقينا .

وعلى أية حال فقد خالف ابن حزم آراء مالك وغيره من الأئمة أصحاب المذاهب فيما عدا هذا من أحكام العبد ، فأعترف له بحق تملك الجوارى والتسرى بهن ، وبكل حقوق الملكية . لأن حق الملكية يرتبط بالإنسانية لا بالحرية ، ولا شأن له بما يطرأ على الإنسان من عبودية . فالعبد والحر متساويان ، وقد وجه إليها الله تعالى خطابه فى القرآن الكريم بلا تفرقة فقال : (يا أيها المؤمنون) ، أو (يا أيها الناس) ، ولم يقل يا : (أيها الأحرار) ولا : (يا أيها العبيد) ، وعلى هذا جرت السنة ، فللعبيد كل حقوق الأحرار ، ولا فرق بينها ألا فيما جرت به السنة فى الحدود ، فعلى العبد نصف

ماعلى الحر من عقوبات ، وليس لأحد أن يشرع مع الله ورسوله أو بعد القرآن والسنة . والقول بأن للعبد نصف مال الحر خروج على الشرع .
عندما أثار ابن حزم حقوق العبيد ، قامت عليه القيامة من جديد .. فها هو ذا يدعو الى المساواة بين العبيد والسادة بل يميز العبيد فيفتى بأن لهم كل حقوق السادة ونصف ماعلى السادة من عقوبات . !

فهو إذن يثير العبيد على سادتهم !

ومن قبل أثار العاملين فى الأرض على الملاك ! .. والنظام فى الأندلس يقوم على وضع أدنى للفلاحين ، والعاملين فى الأرض والعبيد .. !

غير أن ابن حزم يرى أن هذا كله ليس من الاسلام فى شيء ، فهو خروج صريح على نصوص القرآن الكريم وسنة الرسول صلى الله عليه وسلم .

واحتشد على ابن حزم كل خصومه من الأمراء والكبراء والوزراء الذين جهر بنقدهم ، ومن العلماء والفقهاء الذين عنف عليهم فى الذم ، واحتشد معهم كل من استفزتهم حديثه فى الحديث عن الأئمة أصحاب المذاهب ..

تكاثر الخصوم على ابن حزم فدبروا له أمرا ، وأغروا به الحكام لينزلوا به جزاء الخارج عن الدين ، ومثير الفتنة !

لم يعد له من أحد فى الأندلس إلا بعض شباب العلم وطلابه ، وإلا أمير ميورقة .

أما هؤلاء الشباب فكانوا معجبين بمسارته ، ونصاعة بيانه ، وشدة تمسكه بالقرآن والسنة ، وحرصه على ألا يستنبط الحكم أو يستخلص الفتيا إلا من ظاهر النص ، فى وقت شيوع البدعة والتقليد وتجمد العقل .

وما كان الشباب يغضبون من عنفه على أئمة المذاهب ، لأن سقم الفكر ، وإفلاس الملكات ، والضحالة ، قادت البعض إلى تقديس هؤلاء الفقهاء ، فنسوا أنهم بشر يخطئون ويصيبون ! ! فكان لابد للناس من فقيه عالم ، كابن حزم يصدم جهودهم ، ويحرك صمت الحياة الفكرية الرتيبة الآمنة من حولهم ، وينبه الغافلين والمقلدين ، ويعيدهم إلى القرآن والسنة ، ويلزمهم اتباع النصوص !

ومهما يكن من عنف ابن حزم الذى وصل إلى حد النزق كما عبر هو نفسه ، فما كان هذا كله ليصرف عنه الشباب ، بل كان يشاكل ما فى أعماقهم من فورة الحمية والغيرة والحماسة .. !

وأما النصير الآخر الذى كان لابن حزم غير هؤلاء الشباب ، فهو أمير ميورقة صديق ابن حزم وما كان لأحد أن ينال من ابن حزم وهذا الأمير يبسط عليه رعايته .. وهو أمير شديد المروءة ، عظيم النجدة ، وهو بعد صاحب نفوذ كبير وعلاقات حسنة ، فالكل يخطب وده .

غير أن أمير ميورقة مات فجأة ، وهو أنصر ما يكون عافية ، وأشد ما يكون قوة .. !

وأصبح ابن حزم فى ميورقة بلا ولى ولا نصير: الأحران تمزق منه القلب ، والفكر مضطرب ، وهو يتوجس خيفة مما عسى أن يصنعه به الأعداء من الأمراء ، والفقهاء ، وكبار الملاك ، وتجار العبيد ، وكل من أسخطهم عليه من قبل !

ولكنه استمسك ، واعتصم بالصبر والمصابرة ، وعاد إلى حلقته يعلم الشباب ويحاورهم ويحاورونه كما تعود .

وجد الغزاء فى العمل ، وفى العودة إلى الحلقة ، فامن شىء يشرح صدره للحياة كنعمة التعبير عن أفكاره بالكتابة ، وكالجلوس إلى الشباب .. فهو يجد فيهم أملة فى الإصلاح .. !

ما من انسان فى الأندلس يرتاح إليه بعد ، كما يرتاح إلى هؤلاء الشباب الذين يأنس فيهم الصفاء ، والطهر ، والغيرة ، وصدق المودة ، والشوق المحتدم إلى الخلاص ، وإلى بناء عالم من العدالة والحق والخير على دعائم من تعاليم الاسلام !

انهم ليريدون أن يعرفوا الطريق ، وانى ليحمد الله أن قيضه لهم ليقودهم على الحق وما كان عنفه ليغير عليه قلوب الشباب ، بل كان على النقيض ، فهو يوافق ما فى أغوارهم لمن احتدام ، ويشاكل ما فى طبيعتهم الفتية من غيرة للحق وشدة على الباطل . وكان فى هذا العنف رجحان لحماسة أولئك الشباب .

وأما النصير الآخر الذى كان يعتزم ابن حزم مع هؤلاء الشباب ، فهو صديقه أمير ميورقة . وما كان لأحد أن ينال من ابن حزم والأمير يبسط عليه كل حمايته ورعايته ! .. وهو أمير شديد المروءة ، عظيم النجدة ، واسع النفوذ ، قوى الشكيمة ، يخطب وده سائر الأمراء والفقهاء والرؤساء .

وكان ابن حزم يشعر بالطمأنينة والسكينة تحت رعايته ، ويستجم من عناء العمل فى مجلسه . وكان الأمير غريز العلم ، ظريفا ، طيب المعشر ، حلوا الأحاديث ، وكان يسرى عن ابن حزم برواية ما يحفظ من طرائف وأخبار عن منافسيه من الفقهاء ، وقد روى لابن حزم قصة صوفى من أهل الأندلس ، عرف بالعداء لابن حزم وبالصلاح وكثرة السياحة والتجوال . وقد سافر الصوفى إلى مصر

فى بعض سياحاته وعندما عاد روى للأمير عجباً عن رحلته تلك : « كنت بمصر أيام سياحتى فتاقت نفسى إلى النساء . فذكرت ذلك لبعض اخوانى فقال لى : « ها هنا امرأة صوفية لها بنت مثلها جميلة قد ناهزت البلوغ . فخطبتها وتزوجتها ، فلما دخلت عليها وجدتها مستقبلة القبلة تصلى ، فاستحييت أن تكون صبية فى مثل سنّها تصلى وأنا لأصلى ، فاستقبلت القبلة وصليت ما قدر لى ، حتى غلبتنى عينى ، فنامت فى مصلاها ، ونمت فى مصلاى . فلما كان فى اليوم التالى ، كان مثل ذلك أيضاً ، فلما طال الأمر عل ، قلت : « يا هذه ألا إجتماعنا معاً ؟ » قالت : « أنا فى خدمة مولاي ، ومن له حق فأمنعه . » فاستحييت من كلامها ، وتماديت على أمرى نحو الشهر ، ثم بدا لى السفر فقلت لها : « يا هذه » قالت : « لبيك » ، قلت : « إني أردت السفر » ، فقالت : « مصاحباً بالعافية » . فقامت فلما صرت عند الباب قامت فقالت : « ياسيدى كان بيننا فى الدنيا عهد لم يقض الله بتمامه ، عسى فى الجنة إن شاء الله يقضى بتمامه » . فقلت لها : « عسى الله » ، « أستودعك الله خير مستودع » فتودعت منها وخرجت ثم أكملت سياحتى فى بلاد الله وعدت الى مصر بعد سنتين فسألت عنها فقيل لى : « هى على أفضل ما تركتها من العبادة والأجتهاد » فلم أفكر فى زيارتها ! . »

هكذا كان الأمير يسامر صديقة ابن حزم ويخفف عنه برواية ما يعرف من الطرائف عن خصومه من الفقهاء والمتصوفين .

كان الأمير يؤثسه ، ويسرى عنه ، ويصونه من عادات الخصوم ، ومكائد الحساد ، وبغى الشائنين .

ولكن الأمير مات فجأة ، وهو أنضر ما يكون عافية وأشد ما يكون قوة ، وأعذب ما يكون ظرفاً . !

وأحسن ابن حزم ، كأنما يد باطشة تلوى عنقه ، وتدق عظامه ، وتلقى به بغتة فى عراء غيف لا ظل فيه ولا ماء ، ولا شىء غير جوارح الطير ، والوحش ، والهوام السامة . !!

لقد أصبح الشيخ فى ميوزقة بعد طول الأتس والمتعة وحيدا بلا ولى ولا نصير : الأحزان تمزق منه القلب ، والفكر مضطرب ، يتوجس خيفة مما عسى أن يصنعه به الأعداء من الأمراء وصغار الفقهاء وكبار ملاك الأرض والنخاسين . . !

ولكنه استطاع على الرغم من كل شىء أن يجمع شتات نفسه التى توزعتها الأحزان ، وأن يواجه العاديات بكل القوة التى يمنحها الأيمان بالله ، فكفكف دمه العصى الذى انهمر يخلل لحيته الشهباء حزناً والتياغاً على صديقه الأمير . .

أذن ابن حزم لنقضه الله فصبر وصابر ، وعاد الى حلقة الدرس يعلم الشباب الذين التفوا حوله

أكثر مما ألتفتوا من قبل ، لا يخشون فيما يؤمنون به لومة لائم ، ولا يبالون فى حبهـم لشيخهـم بما قد ينزل بهـم من بطش خصومه . !!

وجد العزاء فى العمل ، وفى لقاء هؤلاء الفتية طلاب علمه من أهل الجسارة والمروءة .

مامن شىء كان يستطيع أن يشرح صدره للحياة والمستقبل كهذا الحب فى الله يعمر قلوب شباب مؤمنين تضطرم أعماقهم بالأشواق الطيبة إلى بناء عالم من العدالة والخير والفضائل على دعائم من تعاليم الإسلام .

ومامن شىء كان قادرا على أن يضىء بالبهجة قلبه الحزين ، و يعيد الثقة إلى نفسه المضطربة ، كأستغراقه المخلص فى الكتابة مواجهها ضلالات العصر ، وعلى شباة قلمه يتناثر الشرر يحمل اللهب المتأجج فى أطواء نفسه ، و ينير الطريق إلى الحق أمامه وأمام الآخرين .. !

وبالله كم ارتفع قدر ابن حزم فى ميوزقة وماحولها ، حتى لقد توافد عليه الطلاب والباحثون عن الحقيقة من كل أقطار الأندلس . ، فأصبحت له الرئاسة على الناس .. !

ولكن خصومه يجدون منذ اليوم فى الأيقاع به ، والكيد له عند سائر الأمراء ، بعد أن مات نصيره ووليه أمير ميوزقة ..

وذات صباح فوجىء ابن حزم بأمر جليل من أمور الأندلس لم يستطع عليه صبرا ... وكانت أمور السياسة فى الأندلس قد آلت إلى فضايح كما قال أحد مؤرخى ذلك العصر : « صار الأمر الى الأخلوة والفضيحة : فهناك أربعة حكام كلهم يسمى بأمر المؤمنين فى رقعة من الأرض مقدارها ثلاثون فرسخا فى مثلها ومنهم من لا يصحب إلا كل ساقط رذل ولا يحجب عنهم حرمه (أى نساءه)

من بين هؤلاء الأربعة الذين يزعم كل واحد منهم أنه هو الخليفة و يسمى نفسه أمير المؤمنين ، نهض أمير أشبيلية يحاول الوثوب على الإمارات الأخرى ليضمها إلى ملكه ، وأستبد بالأمر و بطش بأهل الشورى ، وفتك بمن يعارضه ، حتى لقد طارد أحد معارضيه الذين فروا منه الى الحجاز وهو عالم كفيف فأرسل الأمير من يدس السم للرجل ، فمات .. !

قام حاكم أشبيلية يدعو أهل الأندلس إلى مبايعته هو وحده خليفة على الأندلس كله وأمير المؤمنين . وادعى أنه هو الخليفة الأموى المقتول هشام بن الحكم المؤيد !!

وعندما بلغ ابن حزم ما يدعيه أمير أشبيلية أذاع الشيخ على الناس : « أخلوة لم يقع بمثلها فى الدهر ، فإنه ظهر رجل بعد اثنتين وعشرين سنة من موت هشام بن الحكم المؤيد ، وأدعى أنه هو ،

فبويح له ، وخطب على جميع منابر الأندلس فى أوقات شتى ، وسفكت الدماء ، وتصادمت الجيوش فى أمره . »

وجن أمير أشبيلية حنقا على ابن حزم ، وأمر الشرطة أن تأتى به من ميورقة ، ولكن أحدا لم يستطع أن يقتحم عليه أو يفضى إليه ! .

لقد حماه الشباب الذين بهرهم علمه وإخلاصه ، وجموع الفلاحين الذين يدافع عن حقهم فى الأرض ، فتحصن فى قلعة منيعة من حب المعجبين به ..

وفكر أمير أشبيلية فى أن يكيد له كيذا يسقطه أمام محبيه ، فيسهل على الأمير بعد ذلك أن يفتك بالشيخ فى معزل عن حصنه الحصين !

وكان صغار الفقهاء يغرون به ، ويريدون التخلص منه ، وخصومه وحساده يفتون بإهدار دمه .. !

واتفق أن أبا الوليد الباجى الفقيه الأندلسى عاد الى الأندلس بعد رحلة طويلة فى المشرق أستغرقت نحو ثلاثة عشر عاما .. وكان الباجى فقيها غزير العلم ، ولكنه كما قال عنه أحد معاصريه « كان مشهورا بأنه يجالس الرؤساء ويمدحهم بشعره ويسترضيهم حتى ينال جوائزهم ، وكانت عليه مطاعن فى دينه » .

هاهو ذا إذن الرجل الذى يستطيع أن يقذفه الأمير على الشيخ ابن حزم : فقيه واسع العلم يقبل أن يوجه علمه إلى ما يرضى الأميرا ..

ولاذ صغار الفقهاء من أعداء ابن حزم بالفقيه الباجى ، واجتمعوا كلهم عند أمير أشبيلية وأحكموا الخطة التى يسقطون بها ابن حزم أمام المعجبين به والملتفين حوله . فإلى أن يناظره الباجى ويفحمه فى المناظرة حتى تسقط هيئته ويتخلى عنه الجميع ! !

قدم الباجى الى ميورقة فى موكب ضخم من أهل الوجاهة وصغار الفقهاء أعداء ابن حزم ، وعدد كبير من حترفى الشغب ، وأهل الأبتزاز ومحترفى الإرهاب ورجال الشرطة السرية !

وذهب الباجى فى موكبه ذاك الى حلقة ابن حزم فى جامع الجزيرة ، وأغرى عددا من الفقهاء الذين صحبوه ليجادلوا ابن حزم فيهنكوه ، ويستفزه بالافتراءات والتهجم عليه حتى يفقد السيطرة على نفسه قبل أن يبدأ الباجى مناظرته .. ! ولكن ألسنة الفقهاء قصرت عن مجادلة ابن حزم وكلامه . فتقدم الباجى يناظره ، فأفحمه ابن حزم ، فأراد الباجى أن يمكر به وأن يحرض عليه فقراء الطلاب والفلاحين من وراد الحلقة فقال : « تعذرني فأكثر مطالعاتي كانت على سرج الحراس » . فرد ابن حزم :

«وتعذرني فأكثر مطالعاتي كانت على منابر الذهب والفضة .» وصفق أتباع ابن حزم طربا ...

وخرج الباجي في موكبه ، وظل ليلته يعد مع أنصاره الشراك لابن حزم .

وفى اليوم التالى أقبلوا الى الحلقة ، وبدأت المناظرة ، ولم يكد الباجي ينتهى من كلامه حتى وثب أنصاره فصفقوا وتصايحوا اعجابا بما قال . وجاء دور ابن حزم ليرد ، ولكنهم قاطعوه بالصفير والزعيق والسخرية والضحكات والتهريج عليه ، وغمر صخبهم المكان ، ولم يكتوا ابن حزم من الكلام إذ ضاع صوته وسط الشغب والتهريج ، فعزف عن الاستمرار فى المناظرة

وقام من المسجد آسفا ، فاعلنوا انتصار الباجي ، وانكسار ابن حزم ..

وظلوا يطاردون ابن حزم بصياحهم وشغبهم : «أبو الوليد الباجي ناظر ابن حزم ، فانكسر ابن حزم أمامه»

أوى ابن حزم إلى داره لا يبارحها مدة يومين ، وصدى أليم من سخرية المشاغبين تلح عليه ، وأعداؤه يحتلون حلقتة ويصرفون عنها مردييه .

ثم جاءه من يخبره أن أمير المؤمنين (وهو أمير أشبيلية) أصدر أمره بمنع تداول مؤلفات ابن حزم ، وجعها كلها من خزائن الكتب العامة والخاصة فى جميع بلاد الأندلس !!

وماهى الا أيام حتى أحرقت مؤلفات ابن حزم فى جمع من أعدائه وحساده وشائيه وضحكاتهم الشامتة تتعالى فى جنون وحشى .. !

أية قارعة هذه التى نزلت بالرجل فى شيخوخته . ! إنها لقاصمة الظهر . !

إنه الآن ليقرع أبواب الستين ، ومامن عزاء بعد ، ولا عوض عما ضاع ، ولا هو يستطيع أن يكتب من جديد بعض هذه الصفحات الطوال التى أودعها كل روعة حياته ، والدمع ، والضحى ، والمعاناة ، والأمل والبهجة ، وحبات القلب ... !

ولكنه أستطاع ! ..

ازدرد الدم النازف من جراحاته ، واستعلى على النكبة ، وواجههم من علياء صموده بشعره يتحدى :

فأن تحرقوا القرطاس لاتحرقوا السدى
تضمنه القرصاس ، بل هو فى صدرى

يسير معى حيث استقلت ركائبى
وينزل إن انزل ، ويدفن فى قبرى

وأستقلت ركائبه .. ترك ميورقة الجزيرة التى عرف فيها حلاوة الأمن وطيب الألفة .

ترك ميورقة بعد أن تحولت طرقات الجزيرة الى مرابض للمتربصين ، وأصبحت حلقات العلم فيها
فخاخا ومصائد .. !

ومضى فى ركب حزين من أهله وجواريه وخزانة كتبه .. إلى حيث لا يعلم أحد مكانه ، ولا يلقى
أحدا من الناس ! !

« وطفق الحكام يقصونه عن قريهم ويسيرونه عن بلادهم » كما قال أحد مؤرخيه (أبو حيان)
أختفى زمنا ، ثم سار إلى القرية التى ولد فيها أباه قبل أن يستوطنوا قرطبة ، حيث تركوا له ضيعة
يكفيه دخلها ويوفر له حياة ميسرة ، وحيث مازال يعيش أقرباؤه ..

وفى أحضان ذلك الركن الهادئ من ريف الأندلس ، بين الفلاحين الذين أحبه وعرفوا فيه قبل
أن يلقوه مناضلا عن حقوقهم ، قرر ابن حزم أن يعيش مابقى له من العمر .

لم تكن النار التى التهمت كتبه قد استطاعت أن تمس شموخه ولا إصراره ... فما زال قادرا على
أن يبدأ من جديد على الرغم من كل شيء !

لابطش أمير أشبيلية ، ولابقى كل أعدائه ، ولا المكر السىء ، ولا شيء على الإطلاق يستطيع أن
يمتد إلى تلك البقعة الهادئة أو ينال منه ... فلا سلطان لأمر أشبيلية على هذا المكان الجميل من ريف
الأندلس ، ولا رأى لفقيه هنا إلا رأى ابن حزم : أبن القرية وحامى العاملين فيها ..

وعلى وهج النار التى التهمت مؤلفاته ، أضاءت نفسه بالإصرار وإرادة التعبير .

وعاد يلتقى بشباب آخرين . فقد توافد عليه الشباب من القرية ومن كل أرجاء الأندلس ، وقد
زادهم صمود الشيخ فى محنته إعجابا به . وقاضت عيناه العظيبتان من الفرح حين أخرج إليه بعض
هؤلاء الشباب مؤلفاته التى أخفوها فنجت من الحريق ! .. وأخذوا ينسخونها بهمة عالية متحمدة ،
ويوزعونها خفية فى كل أقطار الأندلس ، وخارجه . ونسخوا ووزعوا من هذه الكتب الناجية من
الحريق أضعاف ما كان موجودا من قبل !

وبدأ الشيخ يلى عليهم ما احترق من المؤلفات ، ويؤلف كتبنا جديدة .

وفى قرينته النائية حيث لا يصل إليه فحيح العداء ، ولا صخب الحساد ، وحيث تقصر عنه يد الحكام ، وحيث حب الناس يعمر نفسه بالصفاء ، وحيث كل ماحوله من جمال الطبيعة وطيبة القلوب يعمر نفسه بالأمل ، وبقنعه بأن الحياة جديرة بأن نحيها ، وبأن نجعلها متاعا حلال للآخرين هناك فى هذا الهدوء النابض بروعة المودة ، واستطاع ابن حزم أن يحكم مؤلفاته التى أعاد كتابتها بعد أحتراقها والتى صنفها .. وكانت مناظراته مع مريديه فى جو مترع بالمحبة سبيله إلى الاتقان ..

لقد عاش كل حياته السابقة يستنبط الأحكام من ظاهر النص ، فها هو ذا الآن يستخلص الحكمة من باطن النفس . !

إنه ليفهم ظواهر النصوص بكل معانيها الصريحة والمجازية ، بلا نظر فى الدلالات والإشارات الخفية ، وهو فى الوقت يستبطن خفايا النفوس وأسرار الدلالات ولطف الإشارات ليصوغ أفكاره فى الأخلاق والفلسفة وسائر الإنسانيات

وتأسيسا على هذا النظر أحكم فقهه وأصوله ، وسائر آرائه فى الحياة والناس .

وهكذا أتقن إيراد كثير من احكام والآراء التى خالف بها كل من سبقه ، أو سبق هوبها كل من جاء بعده من أهل الفكر ، من خلال أسلوب ناصع ، بطريقة يجذب بها أنباه القارئ أو السامع ، فهو يعرض الآراء التى يخالفها بما لديها من حجج وأدلة ، ثم يناقشها ويرد على أدلتها ، ثم يسوق أدلته هو ويرد على ما عسى أن يثار ضد هذه الأدلة والحجج ، ثم يخلص إلى النتيجة مؤيدة بالبراهين ..

وقد أوردنا فيما سبق كثيرا من هذه الأحكام والآراء ..

ولكنه صقل هذا كله فى قرينته وقدم بعض الإضافات .

وكان من قبل قد كرر أنه لا يحسن الظن بالمرأة ، وهوعنى المرأة التى لا تشغل لها فى الحياة العامة ، ولا تشغل حتى بمنزلها وتربية أولادها ، فهى لابد أن تنزع فى فراغها هذا الى دواعى الغزل ، وإلى المعصية ، ثم إلى الفساد . والرجال والنساء فى ذلك سواء .

على أنه يفتى بأن المرأة شرعا تستطيع أن تتولى الوظائف العامة بلا استثناء إذا كانت صالحة قادرة مؤهلة لتولى هذه الوظائف ...

أما قول الرسول صلى الله عليه وسلم : « لعن الله قوما ولو امرهم امرأة » فهو إنما يعنى الخلافة أو الإمامة فحسب ، فالخليفة يجب أن يكون رجلا . أما فيما عدا الخلافة فالمرأة الصالحة لها حق ولاية أى أمر من أمور المسلمين .. وقد قال الرسول عليه الصلاة والسلام : « كلكم راع وكلكم مسئول عن

رعيته . » وذكر الحديث أنواع الرعاة ومسئولياتهم فذكر المرأة : والمرأة راعية وهي مسئولة عن رعيته . فضلا عن أنه لم يرد نص في القرآن أو السنة ، يحرم على المرأة تولى أمور المسلمين فيما عدا الخلافة .

وذهب ابن حزم إلى أن المرأة إذا تفقّحت في الدين وجب على الرجال أن يأخذوا عنها وقال : « وهؤلاء أزواج النسي قد نقل عنهن أحكام الدين ، وقامت الحجة بنقلهن ، ولا خلاف في ذلك . فالمرأة تستطيع أن تتولى القضاء والأفتاء وأن ترأس الرجال في عملهم ، وأن تدرس لهم »

ونظر من جديد في وضع العبيد والجواري فأكد أنهم لا يختلفون عن الأحرار في صفة أو موهبة وأن العبودية ليست ذنبهم ، ولا هم الذين جروها على أنفسهم ، وبينهم من هو أتقى وأزكى وأصلح من الأحرار ، وقد ولى أمور المسلمين في المشرق من أبناء الجواري خلفاء كانوا صالحين وبناء حضارة ، وما ذلك إلا لأن أمهاتهم الجواري قد أحسن تربيتهم ، وماولى الأندلس من هو ابن حرة قط ، فكل حكام الأندلس منذ الفتح من أولاد الأماء لقد كان منهم خلفاء عظام .

فإذا تاق العبد إلى الحرية فليس مالمكة أن يحرمه منها ، وعلى ولى الأمر أن يحمل المالك على تحرير المملوك . وفي ذلك قال ابن حزم : « من كان له مملوك مسلم أو أمة مسلمة فدعا أو دعت إلى الكتابة ، فرض على السيد الأجابة على ذلك . ويجبره السلطان على ذلك . وذلك بما يعرف بأن المملوك العبد أو الأمة يطيقه » أى بالسعر الذى يطيقه من يطلب العتق أو التحرير . وهو سعر يراعى فيه أمران : ألا يحفف بمالك العبد أو الأمة ، وأن يطيقه العبد وتطيعه الأمة ، فإذا اختلف الطرفان تدخل السلطان ليحجر المالك

فإذا اختلف الطرفان تدخل السلطان ليحجر المالك على عتق المملوك أو المملوكة

ويحدد السلطان السعر العادل . وبرهان ابن حزم على هذا هو نص الآية الكريمة : « والذين يبتغون الكتاب مما ملكتم فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيرا وآتوهم من مال الله الذى آتاكم » .

ومالك الرقيق الذين يعجزون عن تحرير أنفسهم مأمور شرعا بأن يعاملهم كما يعامل أبناءه وذوى قرباه في كل أمور المعاش ..

وكان ابن حزم قد نفّض يديه من الحكام ليأخذ بيد المحكومين ، ويش من اصلاح الرعاة فاتجه إلى الرعية يعرف الناس بحقوقهم على ولى الأمر ، وأفتى بأن السلطان مطالب شرعا بأن يوفر لرعيته حد الكفاية من المأكل والملبس والمسكن ودابة الركوب . هذا هو رأى إمام مصر الليث بن سعد . وزاد ابن حزم أنه ما من شيء يضطر المسلم إلى أن يأكل ما حرمه الله كالميتة والدم ولحم الخنزير . فالمسلم

لا يضطر إلى هذا أبدا إلا إن عضه الجوع وهو فى خلاء ولم يجد غير هذا الطعام المحرم . أما المسلم فى بلده فولى الأمر مسئول عن إطعامه ، فإذا لم يكن فى بيت المال ما يكفى لإطعام الجياع ، فعلى السلطان أن يفرض فى أموال الأغنياء ما يكفى لمواجهة حاجات الفقراء . فإذا لم يفعل السلطان أى ولى الأمر ، فقد أثم وجاز للجائع أن لم يجد طعاما ، أن يقاتل على هذا الطعام من لديه طعام لا يحتاج إليه ، فإن قتل الجائع فهو شهيد وعلى قاتله القصاص ، وإن قتل مانع الطعام فهو فى النار ولا قصاص !

وأفتى بأن تعاون الجيران ليس من مكارم الأخلاق إن شاء الجار أثأها أو تركها ، بل هو تكليف شرعى بنص القرآن : « فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون الذين هم يراءون ويمنعون الماعون » . والماعون هو ما يقتضيه الجار المحتاج من جاره كالأواني ودواب الركوب وأدوات الزرع والحراث ونحو ذلك .

وأفتى فى الماء : « لا يجوز بيع الماء بوجه من الوجوه لافى ساقية ولا من نهر أو من عين أو من بئر ولا فى صهريج ولا مجموعا فى قرية ولا فى إناء . ولا يملك أحد الماء الجارى إلا مادام فى ساقيته ونهره ، فإن فارقها بطل ملكه عنه وصار لمن فى أرضه ، وهكذا أبدا . أما من حفر بئرا بعمله وماله فهو أحق بمائها مادام محتاجا ، فإن فضل عنه ما لا يحتاج إليه لم يحل له منعه عن محتاج إليه ، وكذلك فضل النهر والساقية .. ومن أستسقى قوما ولم يسقوه وهم يعلمون أنه لا ماء له البتة فهم قاتلوه عمدا ، وعليهم القود (القصاص) بأن ينعوا الماء حتى يموتوا كثروا أو قتلوا . وهكذا القول فى الجائع والعارى . ولا فرق .

وقد فرض ابن حزم على كل صاحب إبل وبقر وغنم « أن يحلبها يوم ورودها على الماء ويتصدق من لبنها بما طابت به نفسه » . فقد جاء فى الحديث الشريف : « تأتى الأبل على صاحبها على خير ما كانت إذا هو لم يعط حقها تطؤه بأخفافها ، وتأتى الغنم على صاحبها على خير ما كانت إذا لم يعط فيها حقها تطؤه بأظلافها وتنطحه بقرونها . ومن حقها أن تحلب على الماء » .

فى أموال القادرين حقوق غير الزكاة ، وهذه الحقوق واجبة الأداء ، وليس أداؤها من باب التطوع . قال : « وفرض على الأغنياء من أهل كل بلد أن يقوموا بفقرائهم ويجبرهم السلطان على ذلك »

أما ما سبق به المفكرين الذين جاءوا من بعده ، فتلك أمور تمس بواطن النفوس وخصائص الأشياء ومظاهرها الطيبة :

— من ذلك أنه اهتدى إلى نظرية فى المعرفة تقوم على مزج بين الفطرة والتجربة بين البدئية والحس .. ويلخص نظريته هذه بقوله : « إن العلم بالضرورة أو بالعقل راجع إلى الحس »

فالإنسان يعرف أشياء بالبديهة أو الفطرة و يصقل علمه بالحواس وهو ما يحتزنه بإدراكه الحسى فى زمن سابق ، ويحكم هذا بالتجربة . فهذه هى المعرفة .
وهذه نظرية فى المعرفة اكتملت بعد ذلك بقرون . وكان الأوربيون فى عصر ابن حزم يقرأون كتاباته وكان المتعلمون فى جنوب فرنسا وإيطاليا ومايلها لا يعتبرون متعلمين حقا إلا أن يعرفوا العربية .

ومن ذلك أنه اهتدى فى وقت مبكر جدا إلى أن الأرض كروية وقد وصل إلى هذا رأى من فهمه لظاهر آية فى القرآن الكريم فكتب يقول : « ان أحدا من أئمة المسلمين المستحقين لاسم الأمامة بالعلم رضى الله عنهم لم ينكروا تكوين الأرض ، ولا يحفظ لأحد منهم فى دفعه كلمة . بل البراهين من القرآن والسنة قد جاءت بتكوينها ، قال الله عز وجل : (ويكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل) . وهذا أوضح بيان فى تكوين الأرض ... »

— ومن ذلك رأى فى أن الجزئ قابل لأن يتجزأ . وعن الجزئ (أى الذرة) . يقول ابن حزم : « ليس فى العالم جزء لا يتجزأ ، وإن كل جزء أنقسم الجسم إليه فهو جزء أيضا وأن رق أبدا وأن كل شئ محتمل أن يكون على أجزاء كثيرة فبالضرورة ندرى أنه يحتل أن يجزأ الى أقل منها ... »

و يرى الأستاذان عبد الحليم عويس وأحمد عبد الوهاب أنه سبق بهذه الأراء العلماء المفكرين حتى القرن العشرين .

على أن ابن حزم لم يسلم من الهجوم على الرغم من اعتزاله الناس فى قرينه . فها هو ذا يذيع كل الآراء التى ظن الناس أنها اختفت بعد أن أحرقت كتبه . . ! ها هو ذا يحكم أراءه لتصبح أكثر ذيوعا من قبل ! وها هو ذا يصنف مؤلفات جديدة ، وأن الشباب ليلتفون حوله أكثر مما التفوا فى أى وقت مضى .. لا يسمعون قول فقيه غيره . ! !

زادت الثورة عليه ، واتهموه مرة أخرى بأنه يمرض الفقراء والجوع والعراة على الأغنياء ! وأتهموه بأنه يبيع الماء من لاحق لهم فيه ، ويمرض العبيد على إكراه السادة لتحريرهم .. وهو بعد يهاجم بعض الفقهاء والذين يزعمون أن الأرض تقف على قرن ثور ويتهمم بأنهم يشيعون الخرافات التى تجعل الشباب يرفضونها فيتجهون الى الإلحاد فهؤلاء الفقهاء هم المسئولون إذن عن إلحاد الآخرين ! ثم إنه يقنع هؤلاء الشباب بأن الأرض كروية ، ويسترضى الأبناء غير الشرعيين الذين أوجدتهم ظروف المجتمع الفاسد ويعتبرهم ضحايا فساد المجتمع ، فيجب لهم حسن الرعاية ، ويفتى بمساواتهم بالأبناء الشرعيين .

واتهمه خصومه من جديد بالخروج على الدين ، وإثارة الفتنة ... واتهمه بعضهم بالجمود لوقوفه عند ظاهر النص . ، فأغلظ في الرد عليهم جميعا ، واتهمهم بأنهم جهلاء مراؤون منافقون يساندون الأحكام ويمدحونهم بغير ما فيهم ويزنون لهم البغى والظلم والانحراف عن الأسلام للحصول على الجوائز والأموال والمناصب والاقطاعات ! !

وعلى الرغم من استعمار الخصومة بينه وبين الفقهاء من متبعي المذاهب ، فقد ظل مع ذلك يعمل ويعلم ، حتى لقد كتب في قرينه تلك ما يزن حمل بعير منها كتاب « الإنعام في أصول الأحكام »

وهو مصنف في أصول الفقه من ثمانية أجزاء وقد قال عنه المغفور له الشيخ أحمد شاكراً أحد أعلام الشريعة والفقه في القرن الرابع عشر الهجري : هذا الكتاب النفيس الذي لم تر العين مثيله في علم الأصول

ولكنه إذ رأى ما يعانیه من أهل زمانه كتب وكأنه كان يعزى نفسه وسائر المخلصين من أهل العلم والفقه والفكر .

« أزهّد الناس في عالم أهله ، وقرأت في الإنجيل أن عيسى عليه السلام قال : (لا يفقد النبي حرمة إلا في بلده) . وقد تيقنا ذلك بما لقى النبي صلى الله عليه وسلم من قريش ، وهم أوفر الناس أحلاماً ، وأصحهم عقولاً ، وأشدّهم تثبّثاً ، مع ما خصّوا به من سكناهم أفضل البقاع ، وتغذيتهم باكره المياه (بئر زمزم) وحتى خص الله تعالى الأوس والخزرج بالفضيلة التي أبانهم بها عن جميع الناس ، والله يؤتي فضله من يشاء ، ولا سيما أندلسنا فإنها خصت من حسد أهلها للعالم الظاهر فيهم ، الماهر منهم ، بأستقلالهم كثيراً ما يأتي به ، واستهجانهم حسناته وتبجحهم سقطاته وعثراته ... أن اجاد قالوا : (سارق مغير) . وإن توسط قالوا : (غث بارد وضعيف ساقط) . وإن باكر لحيازة قصب السبق ، قالوا : (متى كان هذا ، ومتى تعلم ، وفي أي زمان قرأ ! ؟ ولا مه الهبل !) ... فإذا سلك غير السبيل التي عهدوها ، حمى الوطيس على البائس ، وصار غرضاً للأقوال ، ونهباً للألسنة ، وعرضه للتطرق إلى عرضه فإن لم يتعلق من السلطان بحظ لم يسلم من المتآلف ... وعظم يسير خطبه ، واستشنع هين سقطه ، وأشتط عليه ، وسترت فضائله ، فتتكسر لذلك همته ، وتكل نفسه ، وتبرد حميته . »

لكم لقى ابن حزم حقاً ! وقد وصف أحد المنصفين من خصومه ما كان يلقاه : « أن ابن حزم أصابه ما أصابه من الحسد الذي لا دواء له ، لأنه أزهّد الناس في عالم أهله . »

وفي شعبان سنة ٤٥٦هـ ، كان ابن حزم قد جاوز السبعين بنحو عامين ، وقد أنهكه العمل

الدائب ، والصراع المتصل ، والجحود والاضطهاد ، وهدته جراحات الغدر!

لقد آن للقلب المذب أن يستريح !

وعندما شعر بدنو الأجل قال قصيدة جاء فيها :

عفا الله عني يوم أرحل ظاعنا

عن الأهل محولا إلى ضيق ملحد

فوا راحتي إن كان زادي مقدما

ويانصبي إن كنت لم أتزود .

ثم سكنت قلبه إلى الأبد ، ولكن أصداء من صوته عبرت أطباق التاريخ !

ومضى الزمن ليحكم الأندلس بعد قرنين من وفاة ابن حزم حاكم ينشر كتب الفقيه المضطهد ،
ويحمل الناس على الأخذ بما جاء فيها .. ثم يطارد ذلك الحاكم أتباع الائمة الأربعة ويحرق كتب
الاجتهاد بالرأى وكتب الامام مالك بصفة خاصة ، ويخير الناس بين الأخذ بمذهب ابن حزم واتباع
ظاهر القرآن والسنة أو السيف . !

وتعبر آراء ابن حزم جسور الزمن ، لتؤثر في المشرق العربي على أفكار فقيهين من أصحاب
المذاهب ، ثار كلاهما على التقليد فحاول التجديد ... واصطك كل منهما بعصره وكابده عصره ...
هما عز الدين بن عبد العزيز بن عبد السلام الشافعي ، وتقى الدين تيمية الحنبلي ..

العزیز الدین عبد العزیز بن عبد السلام
سُلطان العلماء

تنبأ لنفسه أنه سيعيش ثلاثا وثمانين عاما ، فكان الأمر كما قال ! ..

زاره صديق ذات صباح فقال له : « رأيتك فى المنام تنشد :

وكننت كذى رجلين رجل صحيحه

وأخرى رمى فيها الزمان فشلت

فسكت ساعة ثم قال : أعيش ثلاثا وثمانين سنة ، فأن هذا الشعر لكثير عزة ولانسبة بينى وبينه غير السن ، فهو شيعى وأنا سنى ، وهو قصير وأنا لست بقصير ، وقد عاش ثلاثا وثمانين سنة فسأعيش كما عاش أن شاء الله .

ولد فى دمشق عام ٥٧٧هـ ، وتوفى بالقاهرة عام ٦٦٠ هـ ، ودفن بسفح المقطم .

وحين بلغ الثانية والستين ، بدأ حياة جديدة ، وغير كل مآتوده وهو صغير: فقد ترك دمشق مغاضبا وهاجر إلى الله من بغى حاكم دمشق ، واستقر فى القاهرة ، وشرع فى تأليف الكتب . فوضع كل مصنفاته فيها ، وما كان من قبل قد كتب شيئا يعتد به ، ذلك أنه كان ينفق كل وقته فى التدريس والخطابة والوعظ .. وفى القاهرة جمع إلى هذه الأعباء مسئولية الكتابة ، فصنف كتباً فى الفقه والتفسير والأصول والتصوف . وهاول الحكام ! .

أطلق عليه أبوه اسم العز عز الدين عبد العزيز .. ولكنه عندما كبر اشتهر بأسم عز الدين وبأسم العز ، وقلما كان يناديه الناس عبد العزيز .

وقد فتح العز بن عبد السلام عينيه على حياة الحرمان ... كان أبوه عبد السلام فقيرا جهد الفقر ، وكان محبوب الأسواق بحثا عن عمل .

وحين شب الطفل صاحبه أبوه ليساعده فى بعض الأعمال الشاقة كإصلاح الطرق وحمل الأمتعة ، وتنظيف ما أمام محلات التجار .

وكان أبوه عبد السلام يأخذه إلى الجامع الأموى إذا حان وقت الصلاة ، ورآه أحد شيوخ المسجد ، فأعجب به ودعا له .

مات أبوه فلم يجد فى نفسه القوة على القيام بالأعمال الشاقة التى كان يؤديها أبوه ، ولم يجد الصبى مكانا يأوى إليه ، فذهب إلى ذلك الشيخ يلتمس عنده المساعدة فى الحصول على عمل يقتات منه ومكان يبيت فيه .

وتوسط له الشيخ فألحقوا الصبى بالجامع الأموى ، يساعد الكبار فى أعمال النظافة ، وفى حراسة نعال المصلين وأهل الحلقات التى يتركونها عند أحد أبواب الجامع ، وسمحوا له بأن ينام الليل فى زاوية بأحد دهاليز الجامع ، على الرخام .

وكان الصبى يعايش مرائى الغنى والمتاع خلف أسوار القصور بجداثتها الفيحاء فى دمشق ، ويشاهد الجياد الفارحة على صهواتها رجال تنعكس الشمس على خوذاتهم ، وملابسهم الزاهية وسيوفهم المرصعة بالذهب ، ويتأمل حاله وثوبه الذى تفتحه العيون ، ومضجعه البارد على رخام زاوية فى المسجد ، ثم يتساءل فى أغوار نفسه كيف يعيش فى بلد واحد رجال ونساء كهؤلاء الغارقين فى النعم ، والذين يسقطون من الحرمان ، ويقتاتون بالأسى والأحلام ؟ !

على أنه صرف همه إلى مايقوله الشيوخ فى الحلقات ... وكان يتناهى إلى سمعه وهو على باب المسجد يحرس النعال كلام يثير خياله ، ويلهب أشواقه إلى دنيا أخرى لايجوز فيها ولايعرى !

وتسلل إلى أحد الحلقات ذات يوم ، ودس جسده النحيل الصغير بين الطلبة الكبار . ورآه شيخ الحلقة ، فنهزه ، وسأله كيف يسمح لنفسه أن يجلس بثوب ممزق فى مجلس للعلم ينبئ على الطالب فيه أن يأخذ زينتته ؟ .. !

وجرى الصبى إلى باب المسجد ، وتكور على نفسه يبكى ! .. حتى إذا حان خروج الشيوخ والطلاب ، رآه الشيخ الذى ألحقه بالجامع وهو الفخر بن عساكر صاحب حلقة الفقه الشافعى ، وسأله الشيخ عما يبكيه ، فروى له ماكان من أمره ، فطيب الشيخ خاطره ، ووعده أن يتمهده ، وسينحضر الحلقات عندما يبلغ الشباب . ومن يدري ؟ ! فرما أصبح هذا الصبى نفسه شيخا لحلقة فى هذا الجامع ذات يوم ! ..

وضحك الصبى ، والتمعت عيناه ، واقتحمت نظراته الجدران إلى آفاق المستقبل ، ورأى نفسه طالب علم ، ثم شيخا حلقة ، فأوشك أن يثب من الفرح ، وقبل يد الشيخ ، وسأله متى يبدأ التعليم ، فقد جاوز سن الطلب ؟ ! .. وقال له الشيخ الفخر بن عساكر ، أنه سيبدأ من الغد .

حتى إذا كان الغد ، أخذته الشيخ إلى مكتب ملحق بالمسجد وأوصى بأن يتعلم القراءة والكتابة والخط وأن يحفظ القرآن ، وتعهد الشيخ بنفقة الصبى .

وأقبل العز على المكتب فى شغف عظيم ، وحفظ القرآن ، وأتقن القراءة والكتابة والخط الحسن ، وعوض مافاته من سنوات الدرس .

وكان كلما لقى شيخه على باب الجامع سأله الشيخ عن حاله ، فيسمعه الصبى ما حفظ من القرآن ، و يطلعه على مايكتب فى اللوح الصفيح من الآيات الكريمة .

وأعجب الشيخ ابن عساكر بما يبدو على العز من مخايل النجابة والذكاء ، وحسن ترتيله للقرآن ، وأعجب بصفة خاصة ببشاشة الصبى على الرغم من فقره الطاحن . !

ومرت أعوام ، واطمأن الشيخ فخر الدين الى أن الصبى قد أتقن حفظ القرآن وجوده ، وإلى أنه قد أصبح يحذق القراءة والكتابة بخط جميل ، فبشره الشيخ بأنه سيضمه إلى الطلاب الذين يحضرون حلقاته ، ودفع إليه بما يعينه على شراء ثوب صالح لحضور حلقات العلم .

وأمضى الصبى ليلته يحلم بالمستقبل !

إنه الآن ليثب إلى مرحلة الشباب ، وهوفى حاجة إلى عمل يكفل له دفع المسكن والثوب اللائق والطعام الطيب .. ! هوفى حاجة إلى مال يوفر له شراء أدوات التحصيل من دفاتر وأقلام وأوراق ومعبرة ، وما يلزم من كتب .

وتخرج أن يكلم الشيخ ليساعده فى الحصول على عمل آخر يحصل منه على أجر أكبر و يوفر له ماينبغى لطالب العلم ! .. لقد منعه الحياء ! ..

وقبل أن تنتهى ليلته استيقظ فجأة ! .

ويحدثنا السبكى فى طبقات الشافعية عن تلك الليلة فيقول : « كان الشيخ عز الدين فى أول أمره فقيرا جدا ، ولم يشتغل الا على كبر ، وسبب ذلك أنه كان يبيت فى كلاس « زاوية » من جامع دمشق ، فبات فيها ليلة ذات برد شديد فاحتلم ، فقام مسرعا ونزل فى بركة الكلاسة فحصل له آ

شديد من البرد، وعاد فنام، فاحتلم ثانيا، فعاد إلى البركة لأن أبواب الجامع مغلقة وهو لا يمكنه الخروج، فطلع فأغشى عليه من شدة البرد.. ثم سمع النداء: يا بن عبد السلام أتريد العلم أم العمل؟ فقال: بل العمل لأنه يهدي إلى العلم».

وأصبح الفتى عز الدين، فروى لشيخه ابن عساكر ما كان من امر تلك الليلة. وقال الشيخ له: «لقد بلغت مبلغ الرجال. وهذا النداء هاتف من السماء يأمرك أن تهت نفسك للعلم».

وأعطاه الشيخ كتاب «التنبيه» في الفقه الشافعي، وأعطاه أسبوعين مهلة ليحسن قراءته وأستيعابه. وعاد العز إلى شيخه بعد ثلاثة أيام وقد استوعب الكتاب وحفظه عن ظهر قلب!

وضمه الشيخ إلى حلقة، ونظم له حضور حلقات أخرى في اللغة وآدابها، وفي الحديث وأصول الفقه. ونصحه أن يتقن علوم اللغة من نحو وصرف، وأن يحفظ الشعر ويدرسه ليحسن فهم نصوص القرآن.

وكان العصر زاخرا بكثير من المعارف. ولكن الشيخ ابن عساكر نصح تلميذه إلا يهتم من كل تلك العلوم إلا بما يعين على فهم القرآن.

ولزم عز الدين شيخه ابن عساكر، وتعلم منه الفقه الشافعي، وكان الشيخ زاهدا ورعا واسع المعرفة كثير الصدقات، خطيبا، لادعا، وهو في الوقت نفسه شديد الحياء، وكان مرحا متألقا الظرف، فتأثر تلميذه عز الدين ونقل عنه كثيرا من خصاله وسجاياه.

من الحق أن عز الدين لزم شيخه ابن عساكر وتأثر به، ولكنه لم يلتزم نصحه فيما يطلب من علوم. فتشاق إلى التزود بمعارف عصره جميعا. وكانت أفكار اليونان والمصريين القدماء والهنود والفارسيين قد نقلت إلى اللغة العربية.. وكان المسلمون قد تفوقوا في علوم الطبيعة والطب والكيمياء والرياضيات والفلك، وتعاطوا الفلسفة فأراد عز الدين أن ينهل من هذا كله..

وكانت فلسفة الاشراق التي جاء بها السهروردي إلى دمشق وحلب تعيش، وتصبك أعداء تلك الفلسفة الذين نجحوا من قبل في الايقاع بالسهروردي، فأغروا به صلاح الدين. وكان ابنه الظاهر يحسب السهروردي في قصره بجلب... فأمر صلاح الدين ابنه الظاهر أن يسجن السهروردي حتى يهلك في سجنه صبرا وجوعا وعطشا، ولكن الظاهر بن صلاح امتنع، فأرسل إليه أبوه يخبره بين إحدى اثنتين: إما قتل السهروردي أو العزل!

وأذعن صاحب حلب لأمر أبيه صلاح الدين وجاء بالسهروردي وخصومه، وأمرهم أن يناظروه

قبل أن يقضى فى أمره .

كان السهروردى شيعيا ، وصلاح الدين يحارب الشيعة و يضربهم فى كل مكان ... وكان السهروردى ينادى بأن العالم لم يخل من الحكمة ومن شخص قائم بها عنده الحجج والبيانات ، وهذا الشخص هو الإمام وهو خليفة الله فى أرضه ، وهو واجب الاتباع فهو معصوم يوحى إليه لكن على نحو آخر غير الأنبياء والرسل !

وكان السهروردى يذهب إلى أن التورأساس كل الموجودات ، ويعتمد على الآية الكريمة : « الله نور السموات والأرض » . وقد استفاد بحكمة أختاتون الذى نادى بالتوحيد فى مصر القديمة ، وأعتبر النور والشمس بالذات سبب وجود كل الكائنات الحية . كما استفاد الرجل بأفكار أفلاطون فى المثل وآراء زاردشت الفارسى . ولكنه رد كل أفكاره إلى القرآن الكريم .. وأحسن الاستشهاد بآياته ..

ولم يعرف أحد لماذا ثار فقهاء دمشق على السهروردى ، واتهموه بالشعوبية وهى الدعوة إلى تغليب الفرس على العرب ، ثم اتهموه بالكفر! ... وعلى الرغم من أن الظاهر بن صلاح الدين كان سنيا كآبيه ، فقد بسط حمايته على السهروردى معجبا بأفكاره الصوفية وبفكرة الأشراق ، والفيض الالهى الذى تشرق به قلوب الصالحين فيحصلون المعرفة الذوقية مع المعرفة العقلية .

ومهما يكن من أمر فقد جمع الظاهر بن صلاح الدين خصوم السهروردى من الفقهاء ... وبدأت المناظرة أو المحاكمة التى صدر فيها سلفا أمر صلاح الدين بقتل السهروردى حكيم الأشراق ! !

سأله خصومه : « الله قادر على أن يخلق ما يشاء ؟ ! »

قال السهروردى : « نعم » . فسأله : « ونبي الإسلام أليس هو خاتم الأنبياء ؟ . »

قال : « بلى » . قالوا : « ألا يستطيع إله هكذا أن يبعث نبيا بعد نبي الإسلام ؟ . »

كان السؤال مصيدة للرجل !

قال السهروردى بعد لحظة : « ختمت النبوة ولكن الولاية قائمة . »

وأخذه برأيه فى الولاية .. فهو يرى أن ولي الله وهو الإمام المعصوم قطب الأقطاب خليفة الله فى الأرض يجب أن يكون من نسل النبي ... وهذا النظر يحكم بعدم شرعية الخلفاء والملوك إلا اذا كانوا من نسل الرسول صلى الله عليه وسلم ... أى من أبناء على وفاطمة رضى الله عنها .. وصلاح الدين نفسه ليس عربيا على الإطلاق فهو كردى الأصل . وهكذا اضطر الظاهر بن صلاح الدين أن يودع السهروردى غيابة السجن ليوت فيه صبرا وجوعا !

لقد وقعت الواقعة بالسهروردى بينما كان عز الدين بن عبد السلام صبيا فى نحوه العاشرة من عمره ، وزلزلت نهاية السهروردى الفاجعة نفس الصبى زلزلا شديدا ، ولم يفارقه الحزن والعجب .. كيف يقضى على رجال بالموت لأنه قال رأيا يخالف فيه بعض الفقهاء ، ولا يرضى عنه الحاكم ؟

ولكن أفكار السهروردى فى الأشراق قد ذاعت وملأت أماكن العلم ، واضطك فيها الناس بين مستنكر ومعارض .. منهم من يرى القتل شهيدا مات دفاعا عن تصوفه ومنهم من يراه كافرا !! حتى ظهر فى دمشق رجل آخر تسمى باسم السهروردى ، وأذاع أفكار السهروردى فى الأشراق ، ولكنه لم يعد يتحدث عن الإمامة والولاية ، ولبس خرقة التصوف ، ومضى فى الطرقات يهتف بالناس : « الله نور السماوات والأرض . » وأخذ يشرح أفكار السهروردى عن النور والفيض الإلهى ..

وتبعه قوم لبسوا خرقة التصوف ، وأطلقوا كلمات فى الأسواق وندوات العلم . كلمات مكثفة تحمل رموزا كثيرة .. !

وهز الشباب عز الدين بهؤلاء وأحوالهم .. وهرته بصفة خاصة شخصية السهروردى الجديد ، فلزمه على الرغم من نصيحة شيخه ... ولبس عز الدين خرقة التصوف عاما أو بعض عام ملتصقا علم الحقيقة على يد السهروردى الجديد ، جتى إذا علم ماعنده ، عاد إلى أستاذه ابن عساكر يلمس عنده علوم الشريعة من جديد ..

وسمع عز الدين أن فى العراق شيئا عنده من علم الحديث ما ليس عند غيره فى دمشق فحمل متاعه وزاده وزواده وسافر إلى بغداد ، وجلس إلى ذلك الشيخ وحفظ عنه الحديث .. ثم عاد من جديد إلى دمشق .

كان صلاح الدين الأيوبي قد مات ، وترك دولة شاسعة تقاسمها أخوته وأبناءؤه وأبناء أخوته .. وماهى إلا سنوات حتى تقطعوا أمرهم ، ففترقوا وأصبح بأسهم بينهم شديدا .. وتمزقت دولة صلاح الدين إلى دويلات تناحرت فيما بينها ، مما أغرى التتار والصليبيين بالطمع فى الاستيلاء على بعض أجزاء هذه الدولة الإسلامية الكبرى .

وقد أسكت هؤلاء الحكام معارضهم إما بالأرهاب والقمع أو بإغراقهم فى المال أو بدفعهم إلى الزهد والتصوف على نحو لم يعرفه السلف الصالح من الزهاد والمتصوفين . وكان هؤلاء جميعا من العلماء والفقهاء الذين يؤثرون فى الأمة أبلغ تأثيرا

وعز الدين يرى كل هذا ، فيتقدم صفوف طلاب العلم تحت راية الإسلام وخلف قيادة بعض شيوخه من العلماء القلائل المقاومين .. وعرفه الشباب خطيبا يستثير الحمية .

وكان إلى هذا شديد الدأب على تحصيل العلم ، مما أثار إعجاب شيوخه به .

ولم يكند ينتهى من الدراسة على شيخه الفخر بن عساكر ، وغيره من الشيوخ فى جامع دمشق ، حتى أجازوه للتدريس .

وعين مدرسا بدمشق ، يقرئ صغار الطلاب القرآن ، ويعلمهم القراءة والكتابة .. ثم نقل الى مدرسة أعلى .. يعلم الطلاب الفقه وأصول الفقه على المذهب الشافعى .. وهو المذهب السائد إذ ذاك فى كل البلاد التى حكمها صلاح الدين .

وهيأت له مهنة التدريس أجرا طيبا أصلح به حاله ، فاستأجر بيتا لائقا وتزوج ..

وعرف الناس فى ندوات دمشق شيخا متوسط الطول ، يسخر مما يلقى ، مرحا ضاحك السن ، وعليه مع ذلك وقاره عذب الحديث ، خفيض الصوت اذا تكلم ، جهير الصوت إذا انفعل أو خطب ، نظيف الثوب ، لا يرد سائلا ، فإذا لم يجد ما يتصدق به أقطع جزءا من عمامته ودفع به الى سائله ؟

وكان نحيلا يقتحم بنظراته المجهول كأنه يفتش وراء الغيب عن شىء ما .. !

لم يقتنع بما نال من علم ، فتعود أن يقضى مكتبة الجامع الأموى يقرأ فيها كل ما يقع عليه من معارف ، وقد كشفت له تأملاته ودراساته فى آثار السلف أن كل المعارف الإنسانية تعين على فهم القرآن .. وكان يريد أن يفسر القرآن ، ولكنه شعر أن الوقت لم يحن بعد ، وأن عليه أن يستوعب الكثير من العلوم حتى يجسر على العمل بالتفسير وهو مطمئن الضمير !

ودرس خلافاً المتقدمين حول الفلسفة ، وكان الإمام الغزالى قد هاجم الفلسفة من قبل ، ولكن هذا لم يصرف كل العلماء عن دراسة الفلسفة ، فها هو ذا السهروردى المقتول الذى فتن عز الدين بآرائه قد خلف ميراثا سخيا من الفكر وفق فيه بين الفلسفة والدين .

واستوعب العز كل ماتركه السلف فى علم الكلام . العلم الذى يتكلم عن الله وصفاته وأسمائه . ومن السلف من هاجم هذا العلم ونبذوه واعتبره بدعة فاسدة ، ومنهم من عاجله وتعمق فيه وأضاف إليه ، واعتبره علم أصول الدين .

والخلاف بين العلماء حول هذا الأمر قديم يرجع إلى نهاية القرن الأول وأوائل القرن الثانى للهجرة ، حين ظهر المعتزلة وأخضعوا كل شىء للعقل ، وتحدثوا فى القضاء والقدر والجبر والاختيار وصفات الله تعالى ، واعتمدوا فى كل آرائهم على الأدلة العقلية . ونبذوهم أهل السنة ورفضوهم وأعتمدوا على ماتركه السلف منذ عصر النبى صلى عليه وسلم وعصر الصحابة ومن بعدهم عصر التابعين . وذهب

أهل السنة إلى رفض الكلام فى كل هذه الأمور، لأن أسلافهم لم يتكلموا فيها بل إن منهم من نهى عن الاقتراب منها .

واتهم أهل السنة مفكرى المعتزلة بالزيغ والضلال ، واتهمهم المعتزلة بالجمود وانعكس هذا على قواعد استنباط الأحكام وأصول الفقه ، فن تأثروا بالنظر العقلى اعتمدوا على رأى فى الاستنباط ، وتمسك آخرون بالنصوص ، وحدها ، ولم يعدلوا عنها إلى رأى إن لم يجدوا الحكم فى النصوص كما صنع أهل رأى ودعاة أعمال العقل ، بل آثروا الصمت . ومن أهل السنة من أخذ بظاهر النص وحده ، ومنهم من تأول النص ليستنبط الحكم ان لم يسعفه الظاهر .

وانتقلت كل هذه الأفكار بصراعاتها على أمواج الزمن من جيل الى جيل . حتى أتيح لأهل السنة مفكر كان من قبل من كبار مفكرى المعتزلة ثم هجرهم ، مستخدما أدواتهم فى التفكير والاستنباط ، فاعتمد على البراهين العقلية فى مناصرة آراء أهل السنة والنصوص .

حدث هذا فى القرن الرابع الهجرى .

وهذا الفقيه هو الأشعرى الذى ألف الكتب على مذاهب أهل السنة ورد على المعتزلة فى كل مقولات علم الكلام . « حتى دخلوا فى أقاع السمس » .

وكان المعتزلة قد ذهبوا إلى أن العقل هو أساس الحكم بالقبح والحسن ، وتبين الحلال والحرام ، وذهبوا فى تفسير الآية الكريمة وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا . الى أن الرسول ليس هو النبى الذى يرسله الله ، ولكنه العقل .

واتهمهم أهل السنة بالكفر، ورفضوا أن يتكلموا فى العقائد بالأدلة العقلية ، وهاجوا المنطق والفلسفة ، حتى جاء الأشعرى ، فاستعان بالمنطق والفلسفة فى الكلام عن العقائد ، ودافع عن السنة بأدلة المعتزلة . فلم يعتمد على النصوص وحدها فى كلامه عن العقائد ، وإنما أعمل العقل ، ليناور المعتزلة بأسلحتهم .

وقد أعجب العز بهذا كله ، واعتنق عقيدة الأشعرى ، كما اعتنقها من قبل أكثر المستنيرين من أهل السنة والرأى مهما تختلف مذاهبهم الفقهية .

أعجب العز عز الدين بمحاولات المعتزلة والأشاعرة وتوفير على دارستها فى مكتبة الجامع الأموى .

ولقد أعجبت به بصفة خاصة مناظرة بين الأشعرى والجبائى أحد أئمة المعتزلة ، « عن ثلاثة أخوة ماتوا : الأكبر منهم مؤمن برقى ، والأوسط كافر فاسق شقى ، والأصغر مات على الصغر لم يبلغ الحلم .

فقال الجبائى : أما الزاهد ففى الدرجات ، وأما الكافر ففى الدرجات — بناء على أن ثواب المطيع وعقاب العاصى واجب على الله تعالى عند المعتزلة — وأما الصغير فن أهل السلامة لا يثاب ولا يعاقب .

فقال الأشعرى : فإن طلب الصغير درجات أخيه الأكبر فى الجنة ؟

الجبائى : يقول الله تعالى الدرجات ثمرة الطاعات .

الأشعرى : فإن قال الصغير ليس منى النقص والتقصير .. فإنك إن أبقيتنى إلى أن أكبر لأطعمتك ودخلت الجنة .

الجبائى : يقول البارى تعالى قد كنت أعلم منك أنك لو بقيت لعصيت ودخلت فى درجات الجحيم . فإن الأصلح لك أن تموت صغيرا .

الأشعرى : فإن قال العاصى المقيم فى العذاب الأليم مناديا من بين درجات النار وأطباق الجحيم : يا إله العالمين ! يا أرحم الراحمين ! لم راعيت مصلحة أخى دونى وأنت تعلم أن الأصلح لى أن أموت صغيرا ولا أصير فى السعير أسيرا ؟ فاذا يقول الرب ؟

فهت الجبائى فى الحال وانقطع عن الجدال

وعن دور الأشعرى فى الفكر الدينى

كتب المغفور له الإمام الشيخ مصطفى عبد الرازق : أخذت الفلسفة توجه أهل الفرق إلى الاعتماد على العقل . فلما أخذ الأشعرى فى مناظرة المبتدعة بالعقل حفاظا للسنة ، جاء أنصار مذهبه من بعده يشبثون عقائدهم بالعقل تدعيا لها ومنعا لإثارة الشبهة حولها . ووضعوا الأدلة العقلية التى تتوقف عليها الأدلة والأنظار .

وإذن فذهب الأشعرى مقرر لمذاهب السلف ولكنه يناضل عنها بالأدلة العقلية لا بالنصوص وحدها . وهو رأى وسط بين مذهب المعتزلة الذين نفوا التجسيم عن الله تعالى ومذهب غلاة الحنابلة الذين آمنوا بالتجسيم كما يدل ظاهر النص .

ولقد شاعت عقيدة الأشعرى فاجتمع عليها الشافعية والمالكية والحنفية وفضلاء الحنابلة ... كما قال الشيخ عز الدين بن عبد السلام فيما بعد .

وكان صلاح الدين قد اعتنق المذهب الشافعى وعقيدة الأشعرى فألزم بها الناس .

غير أن الذين جاءوا من بعده تفرقوا : فظل بعضهم شافعيًا على رأى صلاح الدين ، واعتنق بعضهم غير ذلك من المذاهب ، وإن ظلوا جميعًا على رأى الأشعري إلا قليلًا !

وكان الملك الكامل حاكم مصر وهو ابن العادل شقيق صلاح الدين أوسعهم أفقا وأشدهم احتفالًا بالعلم والعلماء ، حتى لقد جلس وهو ملك مصر إلى الشيوخ ليتعلم منهم فى الحلقات ثم تقدم لنيل إجازة علمية كما يتقدم غيره من الطلاب ، ونجح فيها ! وتعود أن يعقد مجلسًا للعلماء فى مساء كل خميس ، وفتح المدارس والمكاتب وأغدق على أهل الفقه والعلم .. وكف عن اضطهاد أصحاب المذاهب الأخرى كما كان يصنع عمه صلاح الدين . وعين قضاة من كل المذاهب بدلًا من القاضى الشافعى الذى اكتفى به أبوه .. ولقد ناقسه فى تشجيع العلماء أخوه عيسى ، فكافأ المؤلفين حتى وضعوا فى عهد الملك الكامل كتابًا من أضخم كتب الفقه الحنفى وهو كتاب (التذكرة) .

وقد أرسل العزيز بن عبد السلام إلى الملك الكامل وأخيه عيسى كتاب شكر على ما يصنعان للعلم والعلماء ، فأرسل إليه ردا جميلا . وبعث الملك الكامل إلى أخيه صاحب دمشق — الملك الأشرف — يستوصيه خيرا بالعالم الشاب عز الدين بن عبد السلام .

وكان عز الدين قد جذب إليه عديدا من الطلاب أحبوا دروسه التى كان يرصعها بما حفظ من طرائف الحكمة وروائع الشعر مما كان ييسر على الطلاب صعوبة الفقه .

وقصده الناس يستفتونه فلم يبخل عليهم بالرأى ، ولم يعد يتقيد بالمذهب الشافعى الذى كان يعتنقه من قبل ، بل كان يبحث فى كل المذاهب عن إجابات لما يرد إليه من أسئلة ، فإن لم يجد حاول أن يجتهد رأيه .

وكان شديد الحرج فى فتياه . يفكر طويلا قبل الإجابة ، ويظل يفكر بعدها وينقب حتى يطمئن أنه على الصواب . ولقد أصدر فتيا ذات مرة ، ثم طفق يفكر بعدها فيما قال ، وعاد إلى كتب السلف عسى أن يجد فيها ما يسانده ، فاكشف أنه خطأ ، ولم يكن يعرف صاحب المسألة الذى أستفتاه ، فأطلق عددا من تلاميذه فى الأسواق والطرقات والمساجد ينادون فى الناس : « من صدرت له فتيا بالأمس من العزيز بن عبد السلام فلا يعمل بها فهى خطأ ، وليعد إلى الشيخ ليفتيه بالرأى من جديد بالصواب » .

شاع ذكر الشيخ فى أقطار المسلمين ، ولم يكن قد ألف كتابا بعد ، ولكن هاهو ذا شاب عالم فقيه زاهد أمين ، يتحرر من المذاهب الفقهية فى عصر شاع فيه التقليد للأئمة الأربعة ، كل جماعة تتعصب لمذهب ولا تعدوه حتى إن وجدت الجواب الصحيح عند غيره من المذاهب ، وكل حزب بما لديهم فرحون ! فإذا صدرت الفتيا من أحدهم فلا رجعة فيها حتى إن تبين الخطأ ..

وعز الدين لايتفرغ للعلم والتدريس والفتيا فحسب ، ولكنه يتحرك فى الأسواق يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر فى رحمة وحكمة وموعظة حسنة ، ويشدد النكير على الظالمين من التجار الذين يبخسون الناس أشياءهم ، وعلى جباة المكوس ، والمرتشين والجائرين ممن يلون أمرا من أمور المسلمين .

من أجل ذلك أحبه الناس : المظلومون والفقراء خاصة ، وطلاب العلم الذين يجاهدون من أجل مستقبل أفضل . وخافه الجائرون من الحكام ، أما العادلون منهم فقد حاولوا أن يقربوه ، ولكنه كان بطبعه لا يحب الاقتراب من السلطان ...

وضاق به بعض الفقهاء المقلدين ممن ينافقون الحكام .. ذلك أنه احتل مكانة لا يؤهلها له عمره فهو بعد فى الخمسين ، وأنه ليعتمد على مكانته هذه ، فيسلق المقلدين والجامدين والمرتشين والمرتزة الفقهاء بالسنة حداد ، ويطالب المسلمين ألا يتبعوهم حتى لا يفسدوا عليهم دينهم !

وفى أحد الدروس وجه أحد الطلاب إلى الشيخ عز الدين سؤالا عن حكم الدين فى العلماء الذين يسكتون عن الظلم ، وهم بعد ذاك يتصدرون بعض الحلقات فى الجامع الأموى يعلمون ويفتون ؟ !

فأقضى الشيخ عز الدين بأن السكوت عن المنكر منكر .. وعلماء المسلمين هم أولى الناس بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فإن تخلوا فما أطاعوا الله والرسول ، وإن كان سكوتهم طمعا . فى الأموال والمهدايا والمناصب أو حرصا فإثمهم مضاعف . وقد قال الله تعالى : « فلتكن منكم أمة يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر » . وهؤلاء هم العلماء ، فإن لم يفعلوا فهم العصاة والعياذ بالله ! ..

وسأل طالب آخر: ألمثل هؤلاء طاعة ؟! فقال الشيخ : لاطاعة لهم ...

ورأى ذلك الشفمر من العلماء فى كلام الشيخ عز الدين تحريضا للطلاب وللعمامة عليهم وعلى السلطان نفسه ! ..

وتوجه أحد طلاب الحلقات فى الجامع الأموى إلى شيخ حلقة يسأله عن حكم الدين فى العلماء الذين يتقاضون من الحكام أموالا وهدايا ثمنا لسكوتهم عن فساد هؤلاء الحكام ؟ .

وسأله طالب آخر عن رأى الدين فى العلماء الذين لا يأمرون بالمعروف ولا ينهون عن المنكر ! . وغضب الشيخ غضبا شديدا وسب الطالبين سبا عنيفا ، وطردهما من الحلقة طردا غليظا وحرّم عليهما دخول الجامع ، وذكر الشيخ عز الدين بن عبد السلام بالسوء وأندران يوقع به العقاب حتى لا يفتن الشباب !

فأعلن سائر الطلاب سخطهم لمقالة الشيخ وفعلته ، فسبهم جميعا ، وأنسحب من الحلقة وهو يصيح

أن ابن عبد السلام قد أفسد العامة والطلاب . !

وانصرف الرجل فاجتمع ببعض شيوخ الحلقات من المتصلين بالسلطان وذهبوا جميعا إليه ، فطالبوه أن يردع الشيخ عز الدين بن عبد السلام ، وأن ينزل به عقاب من يثير الفتنة ، ولكن الحاكم طيب خاطرهم ، وكساهم حللا فاخرة وأغدق عليهم الهدايا وصررا من المال ، وطلب منهم أن يمهله في أمر الشيخ عز الدين هذا .. !

ولكنهم عادوا يطالبون بأن يمنع عز الدين من الفتيا والتدريس والمشى فى الأسواق .

غير أن السلطان الأشرف لم يستجب لهم ، فالشيخ على أية حال لا يدرس فى الجامع الأموى ، ولكن فى مدرسة صغيرة قليلة الخطر! .. فليردوا هم فى الجامع الأموى على آرائه .

ولكنهم مازالوا بالحاكم يغرونه بالشيخ عز الدين حتى صرح لهم بأنه لا يستطيع أن يسىء إلى عز الدين ، فالملك الكامل مصر يحب عز الدين ، ويوصى به خيرا ، فإن نال من عز الدين سلطانهم فسيفض له الملك الكامل ولا طاقة له بغضب أخيه الأكبر!

ولم يهدأ كيد الخصوم عن الشيخ عز الدين ، وظلوا يترصدون به ..

وحاولوا أن يغروا به الطلاب والعامة وأن يسفهاهم آراءه ، ولكن حملتهم عليه وشدة عز الدين فى نقد ذلك النفر من العلماء ، مكنت له فى قلوب أهل دمشق ، وزادته مكانة فى قلب الملك الكامل . فأرسل الملك الكامل إلى أخيه الأشرف ، يطالبه بأن يحسن صلة الشيخ عز الدين ، وأن يعينه شيخ حلقة فى الجامع الأموى ، لتعم الفائدة من علمه .

أما الصلة فقد ردها الشيخ عز الدين شاكرا ، وأما منصبه فى الجامع الأموى ، فقد فرح به ، لأنه يتيح له الاتصال بعدد أكبر من الطلاب هم أنضج عقلا وأكبر سنا من طلاب المدرسة التى يعلم بها .

وكان منصب شيخ حلقة فى الجامع الأموى هو أكبر منصب علمى فى دمشق .

وتقدم الشيخ عز الدين ، بوجهه النحيل الباسم ، فى ثياب بسيطة نظيفة ، فاختار الزاوية الغزالية حيث كان الإمام الغزالى يعتكف منذ أجيال ، وبدأ يدرى للطلاب علوم الدين .. وتوافد عليه الطلاب حتى ضاقت بهم الحلقة ، وأقفر سائر الحلقات من طلابها . وكان يلقي أكثر من درس فى النهار والليل فى الحديث والفقه والأصول .. غير متقيد بمذهب من المذاهب الأربعة .

وشرع يفتى كلما استفتاه أحد ، و يشرح عقيدة الأشعرى فى أصول الدين ، وأدلته العقلية على

صححة مذهب أهل السنة . و يأخذ الطلاب بإتقان وعلوم اللغة ليفهموا نصوص الشريعة .

و غاظ التفاف الناس حوله وانصرافهم عن سواه ، كثيرا من خصومه ، فعادوا يحاولون الأيقاع به ، ولكنهم خشوا أن يردهم سلطان دمشق حرصا على إرضاء أخيه سلطان مصر !

أما الشيخ عز الدين فلم يكن ليبالى بهم ، بل مضى فى طريقة ، يقرأ و يدرس و يفتى ، وقد أطمأنت به الحياة فالراتب الذى يأخذه من المسجد الأموى راتب كبير يكفيه حياة موفورة .

وخاطبته زوجته فى أن يغير المسكن الضيق الذى كان قد أستأجره وهو مدرس فى مدرسة صغيرة ! .

لقد ضاق بهم المسكن بعد أن أنجب أولادا . وقال لها إنه يعرف أن المسكن الضيق هو الجحيم الأصغر كما قال الإمام على كرم الله وجهه ، وهو يتمنى أن يغيره ، ولكن لاسبيل ... ! وعادت الزوجة تلح عليه ، وكان حانيا عليها شديد البربها ، وتمنت لو أنه اشترى بيتا فسيحا يحيط به بستان جميل ، فهو بعد أستاذ وشيخ حلقة بالجامع الأموى ، و ينبغى أن يتخذ له سكنا مريحا يليق به ، و يتسع لأهله و بنيه ، ولضيوفه الذين يتوافدون عليه ملتجئين عنده العلم ، والفتيا بعد أن يفرغ من الحلقات ...

ووعدها خيرا ، غير أنه لم يستطع ، فقد كان ينفق عن سعة على أهل بيته ، ويحسن إكرام ضيوفه ، و يتصدق بما بقى ، ولا يدخر شيئا على الإطلاق .

ثم أصابت دمشق أزمة ، فهبطت الأسعار ، وقل المال ، أعنت الناس عنتا شديدا ... وصارت البيوت الواسعة بما حولها من البساتين تباع بثمان قليل .

فجاءته امرأته وطلبت منه مرة أخرى أن يشتري بيتا واسعا بحديقة وجمعت مصاغا لها وقالت :

— اشتر لنا بهذا بستانا .

فأخذ المصاغ وباعه ، وصدق بثمانه .

فلما عاد إلى زوجته استقبلته فرحة :

— ياسيدى .. اشتريت لنا بستانا !

— نعم ، بستانا فى الجنة . ! إنى وجدت الناس فى شدة فتصدقت بثمان المصاغ .

— جزاك الله خيرا —

وكان الناس يتسامعون بفضل الشيخ عز الدين فيزداد مكانة واحتراما ، ولقد علم الأشرف صاحب دمشق بكثرة صدقاته ، فطلبه ، وحاول أن يقدم إليه مالا ليتصدق به ولكنه رد السلطان ، وأفتاه أنه من الخير أن يتصدق السلطان نفسه بالمال ! ..

وقارن السلطان الأشرف بين هذا الرجل يرفض عطاياه الخفية ، وبين الآخرين الذين يرتشون ويجهرون بالإلحاح فى طلب المزيد من الهدايا والأموال والمناصب ! !

ودخل السلطان الأشرف إكبار خارق لعز الدين ، وأدرك أن أخاه الكامل ملك مصر على حق ، فثل هذا الشيخ جدير بالإحترام . وإن له هيبة !

ولاحظ السلطان الأشرف أن الشيخ عز الدين لا يطالب مقابلته على خلاف الآخرين ، وكانت سيطرة عز الدين على قلوب الشباب وسائر الناس تقوى يوما بعد يوم ، وهو لا ينفك يهاجم خصومه من الفقهاء لجمودهم وتمسحهم بأصحاب السلطان ، ولا يكف عن نقد أخطاء الحكام .

ورأى الأشرف أن من الحكمة أن يصطنع الشيخ لنفسه ويدنيه من القصر ، فأخذ يمدح الشيخ عز الدين فى كل مكان ، و يطلبه لمجالسته فيتناقل عنه الشيخ إلى حلقات الدرس ومجال الفتيا ، ولا يبادله مدحا بمدح .

وانتهز خصومه الفرصة ، فزعموا للسلطان الأشرف أن الشيخ عز الدين قد غره حب الناس له والتفاف الشباب حوله ، فسولت له نفسه الأمانة بالسوء أن يتعالى على الجميع حتى على السلطان نفسه !

وفى الحق أن السلطان الأشرف ، كان يشعر بحرج لموقف الشيخ عز الدين منه ، وكان يحس فى أغوار نفسه أن الشيخ لا يضمن له من الإحترام ما يجب على المحكوم للحاكم ! ! ! ..

وكان فى حاشية السلطان نفر من فقهاء الحنابلة المتشددى المضيقين ، وكان الشيخ عز الدين ينكر عليهم غلظتهم مع مخالفينهم ، ويتهمهم بالحق والجور وفساد الرأى ، وبالإساءة إلى صاحب المذهب الإمام أحمد بن حنبل ، الذى كان فقيها جليلا عميق النظر واسع الأفق رائع الحكمة .. والذى ترك تراثا عظيما يحمل كل طاقات التجديد .

ولكن هذا نفر من فقهاء الحنابلة ، كانوا قد خالطوا السلطان الأشرف منذ كان حدثا صغيرا ، وصاغوا عقله على رأيهم الجامد المتحجر حتى « أختلط هذا بلحم السلطان ودمه وصار يعتقد أن مخالفه كافر حلال دمه »

وقد أتاحت لهم منزلتهم عند السلطان . ونفوذهم عليه أن يصنعوا فى البلاد كما يشاءون ، فكانوا إذا خلوا بمخالفهم من الشافعية أو الأشعرية آذوهم وضربوهم !

وما كان ليغمض لهم جفن وهم يرون السلطان الأشرف يخطب ود الشيخ عز الدين بن عبد السلام .

وغدوا إلى السلطان ليقعوا بالشيخ عز الدين ، قبل أن يتقارب الرجلان ، فزعموا للسلطان أن عز الدين يخالف السلف ويقول فى القرآن قولاً عظيماً .. ويخطئ من يقول فى القرآن بالحرف والصوت ، وأنه يعتنق رأى الأشعرى : أن الخبز لا يشبع والماء لا يروى والنار لا تحرق !! .. وهذا كله كفر !!

وكان الأشرف قليل الحظ من الثقافة وعلوم الدين والاطلاع على آثار السلف .. فالتعلم إلا ما علمه ذلك نفر المحيطين به من أراذل فقهاء الحنابلة الذين ينافقونه !

ولم يصدق السلطان أول الأمر أن الشيخ عز الدين يقول هذا وهو العالم الورع العظيم التقوى .. وزجرهم السلطان .. ولكنهم وعدوا السلطان أن يقدموا له الدليل الحاسم .

وأجمعوا أمرهم ، وجاءوا عز الدين عبد السلام فقدموا إليه ورقة فيها فتياً بأن القرآن حرف وصوت ، وطلبوا من الشيخ أن يكتب رأيه فى هذه الفتيا ، وكان قد علم بكيدهم وهم لا يشعرون !

قال لهم الشيخ عز الدين : « هذه فتيا كتبت امتحاناً لى . والله لا أكتب فيها إلا ما هو الحق . »

وبدأ الكتابة بتسفيه الفتيا ، وتأكيده أن الإمام أحمد بن حنبل لا يعتقد أن القرآن حرف وصوت ، وقولهم هذا إنما هو جهل فاضح برأى الإمام أحمد .. واستطرد الشيخ عز الدين فكتب أن الإمام أحمد بن حنبل برىء من كل ما يدعون . وأن فضلاء الحنابلة أبرياء منهم . وكذلك سائر السلف : فهم لا يقولون بالحرف والصوت . فالإمام أحمد بن حنبل وغيره من فقهاء السلف الصالح . لا يعتقدون أن وصف الله القديم القائم بذاته هو عين لفظ اللافتين ومداد الكاتين . مع أن لفظ الله قديم ، وهذه الأشكال والألفاظ حادثة بضرورة العقل وصريح النقل . قال تعالى : ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث . والمعجب ممن يقول إن القرآن مركب من حرف وصوت ثم يزعم أنه فى المصحف !! وليس فى المصحف إلا حرف مجرد لا صوت معه !! وإنما أتى القوم من قبل جهلهم بكتاب الله وسنة رسوله وسخافة العقل وبلادة الذهن فإن لفظ القرآن يطلق فى الشرع واللسان على الوصف القديم ، ويطلق على القراءة الحادثة ، والقراءة غير المقروءة ، لأن القراءة حادثة والقرآن قديم وهؤلاء القوم يذمون الأشعرى لقوله أن الخبز لا يشبع والماء لا يروى والنار لا تحرق . وقول الأشعرى كلام أنزل الله معناه فى كتابه : فإن الشيع والرى والإحراق حوادث انفرد الرب بخلقها . فليس الخبز هو الذى يخلق الشيع ، ولم

يخلق الماء الرى ، ولم تخلق النار الإحراق ، وإن كانت أسبابا فى ذلك . فالخالق هو المسبب دون السبب كما قال تعالى : وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى « فقد نفى أن يكون رسوله خالقا للرعى وإن كان سببا فيه . » ...

وعندما ظفروا بجواب الشيخ تمايلوا من الفرح ، وأيقنوا أنها القاضية عليه !

وأوحوا إلى السلطان أن يدعو جميع الفقهاء والعلماء إلى سماعه على الإفطار . وكان الوقت رمضان . ففعل ، وذهبوا بها كتبه الشيخ عز الدين إلى السلطان الأشرف ، فانفجر سخطه على الشيخ .. ! سخط عنيف هائل ينبع من أعماق نفس امتلأت بالحُب والاكبار لشخص رفضت فيه كل الوشائيات والأقوايل ، ثم إذ بها تكتشف بغتة أن هذا الآخر ، كان يخدعها ويسخر منها ، ويظن بها الغفلة ! ! .. واختلط غضبه على الشيخ بضيقه المتراكم من سيرة الشيخ معه . فهو كلما أدناه ابتعد ، وكلما قرب هجر ، وكلما تألفه نفر .. !

وعلى سماع الإفطار ، ظلمت صيحة السلطان تندد بالشيخ عز الدين : « صح عندي ما قالوه عنه ! .. هذا رجل كنا نعتقه أنه متوحد فى زمانه فى العلم والدين ، فظهر بعد الاختبار أنه من الفجار .. لا .. بل من الكفار » ! .. !

ولم يستطع أحد من الفقهاء أو العلماء أن يرد على السلطان الأشرف .. وظل صوته يدوى بالوعيد فى بهو الطعام بقصره السلطانى . وضيوفه يصفون طعام الإفطار على مهل ، ويزددون المضض ، وقلوبهم تدق ! !

مامن صوت واحد يرتفع إلا أنفاس تلهث ، وصراخ السلطان يتصاعد كحيوان جريح يوشك أن ينقض ليفترس ، بكل ضراوة الألم والإهانة وغريرة البقاء ! !

وبعد لئى تجرأ أحد الفقهاء فقال فى تذلل : « السلطان أولى بالصفح والعفو ، ولا سيما فى مثل هذا الشهر ، شهر رمضان . فلم يرد السلطان ، وهمهم آخر ملتصقا مغفرة السلطان .. !

ولم يرد السلطان .. وانصرف الفقهاء والعلماء ، وكان معهم على مائدة الإفطار ، عدد من العلماء والفقهاء من كل الأقطار .

وتناقل العلماء والفقهاء ما حدث ، ولاموا أنفسهم على الصمت فى حضرة السلطان ، وهم يعلمون أنه على الباطل ، وأن الشيخ عز الدين على الحق الذى يؤمنون به هم أنفسهم ! .

وتحضر الطلاب والمعجبون !

ماعسى أن يصنع السلطان بشيخهم عز الدين ؟!

أيتهم السلطان الأشرف وهو جاهل بأصول الدين ، شيخهم العالم الورع التقى بالفجر والكفر؟! .. أترأه ينزل به عقاب الفجار والكفار وهم ينظرون!!

واشتعل التوتر فى دمشق . وأصبح الناس ومامن شيخ من الذين حضروا المأدبة بالأمس ، يستطيع أن يمشى فى الأسواق!

احتشد الطلاب حول باب الشيخ عز الدين ، وتعهدوا أن يمنعه إذا حاول السلطان أن ينزل به أى مكروه .

ولاذ أراذل شيوخ الحنابلة من حاشية السلطان بالقصر ، غير أن شيخ المالكية عمرو بن الحاجب عذبه صمته وصمت الفقهاء الآخرين أمام السلطان ، فركب بغلته وأخذ يطوف المدينة ، حتى جمع العلماء فى الجامع الأموى بعد صلاة العصر وانقض عليهم بعنفهم : « العجب أنكم كلكم على الحق وغيركم على الباطل ، وما فيكم من نطق بالحق . وسكتكم وما انتصرتم لله تعالى والشرعة المطهرة » .

ولما تكلم متكلم منكم قال : السلطان أولى بالعفو والصفح ولا سيما فى مثل هذا الشهر! ! وهذا غلط يوهم الذنب ، فإن العفو والصفح لا يكون إلا عن جرم وذنب ... أما كنتم سلكتم طريق التلطف بإعلام السلطان بأن ما قاله ابن عبد السلام مذهبكم ومذهب أهل الحق وأن جمهور السلف والخلف على ذلك ، ولم يخالفهم فيه إلا طائفة مخذولة يخفون مذهبهم ويدسونه على تخوف إلى من يستضعفون علمه وعقله ، ومنهم السلطان الأشرف ؟ ! لقد قال الله تعالى : « ولا تلبسوا الحق بالباطل وأنتم تعلمون » .

ولام ابن الحاجب لأنه سكت . ، وأعلن الندم والتوبة .. ثم اقترح عليهم أن يكتبوا فتيا بموافقة الشيخ عز الدين بن عبد السلام .

وكتبوا الفتيا ووقعوها ، وذهبوا الى بيت العز عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام ، وخاضوا اليه زحام الناس الذين رابطوا عند بيته .

وقبل أن يتدافع الناس لادانتهم على موقفهم أعلن ابن الحاجب ، أنهم جاءوا الشيخ بفتيا موقعة منهم توافق رأيه . وهذا هو اعتذارهم له عما فرط منهم أمام السلطان فى حق الشرعة وحق ابن عبد السلام .

وفرح الشيخ بموقف ابن الحاجب ومن معه من العلماء والفقهاء

فأرسل الشيخ إلى السلطان يعلمه بفتيا الشيوخ ، وأنهم « إذا كانوا قد سكتوا ولم يعلنوا رأيهم على سباط الإفطار بالأمس ، فما ذلك إلا لأن السلطان لم يمكنهم من الكلام لما ظهر من حدة غضبه » !

وأنهى رسالته طالبا من السلطان أن يعقد مجلسا للشافعية والحنابلة يحضره المالكية والحنفية وغيرهم من العلماء لتدور المناظرة أمام الجميع بينه وبين خصومه من فقهاء رجال الحاشية !

وأنهى رسالته إلى السلطان بقوله : « والذي نعتقده في السلطان أنه إذا ظهر له الحق رجع إليه ، وأنه يعاقب من موه بالباطل عليه ، وهو أولى الناس بموافقة والده السلطان الملك العادل . فإنه عزز جماعة من أعيان الحنابلة المبتدعة تعزيرا بليغا رادعا ، وبدع بهم وأهانهم . »

وذهب ابن الحاجب إلى السلطان وسلمه الرسالة ، ولم يقرأها السلطان أمامه ، ووعد السلطان خير وودعه خيرا وداع ..

وعندما خلا السلطان الأشرف إلى رجال حاشيته من الفقهاء الحنابلة وقرأوا الرسالة أوجسوا خيفة من مجلس المناظرة الذي اقترحه الشيخ عز الدين ، فما كانوا يطيقون مواجهته أمام سائر الفقهاء والعلماء . وخلصوا نجيا وأجمعوا على ألا تكون مناظرة ، ثم وسوسوا في صدر السلطان ألا يقبل عقد المناظرة ، فقد يهينه ابن عبد السلام !

وكتبوا ردا فوقعه السلطان . واستدعى رسولا يحمل الرسالة إلى الشيخ عز الدين ليأتى في الوقت برده .

وفض الشيخ رسالة السلطان وقرأها بصوت مرتفع لسمعها ضيوفه .

« بسم الله الرحمن الرحيم . وصل الى ما التمسه الفقيه ابن عبد السلام أصلحه الله من عقد مجلس وجمع المفتين والعلماء ، وقد وقفنا على خطه وما أفتى به ، وعلمنا من عقيدته ما أغنى عن الاجتماع به . ونحن نتبع ما عليه الخلفاء الراشدون الذين قال صلى الله عليه وسلم في حقهم : عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدى . وعقائد الأئمة الأربعة فيها كفاية لكل مسلم يغلب هواه ، ويتبع الحق ، ويتخلص من البدع ، اللهم إلا إن كنت تدعى الاجتهاد ، فعليك ان تثبت ليكون الجواب على قدر الدعوى ، ولتكون صاحب مذهب خامس . وأما ما ذكرته عن الذي جرى في أيام والدي تفعمده الله برحمته ، فذلك الحال أنا أعلم به منك ، وما كان له سببه إلا فتح باب السلامة لأمر ديني

وجرم جره سفهاء قوم

فحل بغير جانيه العذاب

ومع هذا لقد ورد فى الحديث : (الفتنة نائمة لعن الله مشيرها) . ومن تعرض إلى إثارتها قاتلناه مما يخلصنا من الله تعالى ، وما يعضده كتاب الله تعالى ، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم . »

وعندما فرغ الشيخ من قراءة الرسالة طواها وقال للرسول : « قد وصلت وقرأتها وفهمت ما فيها فاذهب بسلام . فرد الرسول : « لقد تقدمت الأوامر السلطانية بإحضار جوابها . »

والطلاب ومؤيدو الشيخ مازالوا خارج الدار ينتظرون ما يكون ، وقد استبد بهم التوتر والقلق منذ دخل رسول السلطان !

وفى داخل الدار يجلس مع الشيخ ابنه عبد اللطيف ، وبعض الأصدقاء ، وأحد العلماء الفضلاء ممن يغشون مجالس السلطان ، وقد أقبل يتوسط بين السلطان والشيخ .. ولكنه لم يكذب يسمع الرسالة حتى تغير لونه وأيقن أنه لاجدوى من وساطته ، ودخل فى نفسه أن الشيخ يعجز عن الجواب ، وأنه هالك لامحالة !

غير أن الشيخ كتب للسلطان مترسلا بلا توقف وهو يقرأ ما يكتبه : « بسم الله الرحمن الرحيم . فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون . أما بعد . هذا الله الذى جللت قدرته وعلت كلمته . فإن الله تعالى قال لأحب خلقه إليه وأكرمهم عليه : « وإن تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله إن يتبعون إلا الظن ، وإن هم إلا يخرصون » . وقد أنزل الله كتبه ورسله لنصائح خلقه . فالسعيد من قبل نصائحه وحفظ وصاياه . وأما طلب المجلس وجمع العلماء فاحملنى عليه إلا النصيح للسلطان وعامة المسلمين ، وقد أدبت ماعلى فى ذلك . والفتيا التى وقعت فى هذه القضية يوافق عليها علماء المسلمين من الشافعية والمالكية والحنفية والفضلاء من الحنابلة ، وما يخالف فى ذلك إلا رعاع لا يعبأ بهم ! وأما ما ذكر من أمر الاجتهاد والمذهب الخامس فأصول الدين ليس فيها مذاهب ، فإن الأصل واحد ، والخلاف فى الفروع . والحمد لله وحده . وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم .. »

وختم الرسالة بتوقيعه وطواها وسلمها رسول السلطان .

وقال له العالم الذى جاء للوساطة بينه وبين السلطان : لو أن هذه الرسالة التى وصلت اليك وصلت الى قس بن ساعدة لعجز عن الجواب ، وعدم الصواب ، ولكن هذا تأييد من الله .

وتليت الرسالة على السلطان ، فألقوا فى روعه أن الشيخ يتحداه محتما بالعامة والطلاب وسائر العلماء ! فليزل بالشيخ عقاب الفجار والكفار !

ولكن السلطان لم يستطع فقد وجد كل العلماء حتى فضلاء الحنابلة يؤيدون الشيخ ! فا يقف

السلطان إلا بعض رجال الحاشية من فقهاء الحنابلة وهم الذين أسماهم الشيخ فى رسالته : الرعاع ،
والجهال . واتهمهم بالبلادة والإساءة إلى الإمام أحمد بن حنبل !

وفكر السلطان مليا ، ثم استدعى وزيره واسمه خليل ليشاورة فى الأمر ، وكان الرجل من الذين
يحبون الشيخ عز الدين ويحترمونه . ومازال الوزير يحاور السلطان ويوضح له سوء عاقبة البطش بالشيخ
حتى هدا السلطان .

وذهب خليل وزير السلطان إلى الشيخ العزيز بقلعه أمر السلطان : « ألا لا يفتى ، وألا يجتمع بأحد ،
وأن يلزم بيته » .

وحاول الوزير خليل أن يهون على الشيخ عز الدين . فهذا العقاب أخف مما كان معدا له .

غير أن عز الدين ابتدره باسم : « ان هذا العقاب من نعم الله الجزيلة على ، الموجبة للشكر على
الدوام . . أما الفتيا فإنى كنت والله متبرما منها ، وأعتقد أن المفتى على شفير جهنم . ومن سعادتى
لنزومى لبيتى وتفرغى لعبادة ربى ، والسعيد من لزم بيته ، وبكى على خطئه ، واشتغل بطاعة الله . »
وأراد الشيخ أن يقدم هدية للرسول شكرا على هذه الرسالة السارة ، فلم يجد غير سجادة صغيرة :

ولما عاد خليل يروى للسلطان ما قاله الشيخ عز الدين قال السلطان محنقا : « قولوا لى ماأفعل
به ؟ ! .. هذا رجل يرى العقوبة نعمة . أتركوه . بيننا وبينه الله . »

على أن الذين أحاطوا بدار الشيخ العز عز الدين لحراسته أنكروا عليه طاعته لأمر السلطان ، وكلموه
فى ذلك فقال لهم إن مصلحة قيام الشرع تقتضى وجود السلطان ، ومتى وجد وجبت طاعته وإلا
تعطلت الأحكام ! ! ولكن لا طاعة للسلطان إذا خان عهد الله وأهدر مصالح المسلمين وأمر بمعصية
الخالق . أما فيما عدا ذلك فالطاعة واجبة .

وعجب له محبوه ،

فأمرهم بالحسنى أن ينصرفوا إلى شئونهم ويدعوه وشأنه ، فسيبتكف للعبادة .. أما وجودهم حول
الدار فسيستريح لأعدائه أن يتهموه بإثارة الفتنة !

غير أنهم انصرفوا إلى الزاوية الغزالية التى كان يدرس بها ، وأقسموا ألا يستمعوا لشيخ غيره . !

وجلسوا فى حلقة الفارغة متربصين ! ولم يحىء إليهم أستاذ غيره يعلمهم مكانه ! !

على أن سائر العلماء والفقهاء أضمرروا السخط على ماأصاب الشيخ ، ولكنهم رضوا به لأنهم كانوا

يتوقعون عقاباً أشد ودعوا الناس الى الصبر. وقضاء أخف من قضاء ! !

أما الشيخ جمال الدين الخضيرى شيخ الحنفية فما كان ليستطيع على ماجرى صبراً .. ! وكان عالماً ورعاً فاضلاً صاحب نفوذ على قلوب الناس جميعاً ، وكان السلطان يحسب له ألف حساب !

وماهى إلا ثلاثة أيام قضاها عز الدين فى بيته ، متمثلاً للأمر السلطانى ، ممتنعاً عن لقاء من سعوا إلى لقاءه ، حتى كان الشيخ الخضيرى يركب حماره إلى السلطان ، ومعه ابن الحاجب شيخ المالكية . ولم يكده السلطان يعلم أن الشيخ الخضيرى شيخ الحنفية قادم إليه حتى أمر كبير وزرائه وكبار حاشيته أن يستقبلوا الشيخ خارج القصر ، وأن يدخلوه القصر راكباً حماره تكريماً له .

ودخل الشيخ ساحة القصر ، فاستقبله السلطان وأنزله بنفسه عن حماره ، وأدخله القصر وأجلسه الى جواره وهش له ، وجلس ابن الحاجب وفى يده ورقة فيها توقيع العلماء على تأييد موقف الشيخ عز الدين ابن عبد السلام ..

وحين أذن لصلاة المغرب وبسطة المائدة للإفطار ، أم الشيخ الخضيرى السلطان والحاضرين فى الصلاة !

وبعد الصلاة دار الشراب عليهم وهم جلوس قبل أن ينتقلوا للمائدة الطعام . وكان الحاضرون هم حاشية السلطان من أراذل فقهاء الحنابلة أعداء العز بن عبد السلام ..

وقدم السلطان للشيخ قدح الشراب ، فنحاه بإشارة غاضبة قائلاً : « ماجئت إلى طعامك ولا إلى شرايك »

فقال السلطان . : « يرسم الشيخ ونحن نمتثل لمرسومه . »

الشيخ : إيش بينك وبين ابن عبد السلام ؟ .. هذا رجل لو كان فى الهند أو فى أقصى الدنيا كان ينبغى على السلطان أن يسعى فى حله فى بلاده ، ويفخر به على سائر الملوك . »

السلطان : عندى خطه باعتقاده فى فتيا ، وخطه أيضاً فى رقعة جواب رقعة سيرتها إليه . فيقف الشيخ عليها ويكون الحكم بينى وبينه .

فلما قرأ الشيخ الخضيرى رسالتى عز الدين بن عبد السلام رد الورقتين للسلطان وقال : « هذا اعتقاد المسلمين وشعار الصالحين ، وكل مافيهما صحيح ، ومن خالف مافيهما وذهب الى ما قاله الخصم من إثبات الحرف والصوت فهو حمار ! » . وهب الجميع فالشيخ يتهم السلطان بأنه حمار .. ويرى

السلطان من حدة الشيخ الخضيرى ، ونظر إلى أبى الحاجب المالكى وفقد إلى ورقه يؤيد فيها العلماء رأى ابن عبد السلام ! ونظر إلى الحاشية من فقهاء الحنابلة فوجدهم قد اسودت وجوههم وعراهم الأضطراب . فقال السلطان الأشرف : « نحن نستغفر الله مما جرى ، ونستدرك الفارط فى حقه ! .. والله لأجعلن ابن عبد السلام أغنى العلماء . »

وقاموا إلى الإفطار ، ثم أرسل السلطان إلى الشيخ عز الدين ، فترضاه وأجلسه إلى جواره وسأله أن يطلب ماشاء ترضية له ، فلم يطلب عز الدين شيئا . ولكن السلطان ظل يستعته ويسترضيه ، حتى رضى الشيخ وعاد إليه مرجه .. وانزوى الأراذل من خصومه ، وأذن للعشاء فأهمهم الشيخ عز الدين لصلاة العشاء استجابة لدعوة الخضيرى وأبى الحاجب .

وقبل أن ينفض المجلس أمر السلطان ألا يخوض أحد فى الكلام فى أمر الخلاف مرة أخرى .

وفى اليوم التالى عاد الشيخ عز الدين إلى الزاوية الغزالية بالجامع الأموى يدرس ويفتى ، وأستقبله محبه هاتفين .. « الله أكبر .. الله أكبر .. ظهر الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا . »

وعلم الملك الكامل سلطان مصر بما كان ، فأرسل يسأل العزو ويبدى استعداداه لنصرتة ، .. فشكره الشيخ ولم يحك له ماجرى .

وجاء الملك الكامل سلطان مصر ، لزيارة أخيه الملك الأشرف سلطان دمشق . وسأل الملك أخاه عما حدث من خلاف بين الشافعية وبعض الحنابلة فقال الأشرف أنه قد أمر الفريقين بأن يكفيا عن الكلام سداً لباب الخصام . فقال الملك الكامل ناهرا أخاه الأصغر : « والله مليح .. ! ما هذه إلا سياسة وسلطنة .. !! تساوى بين أهل الحق وأهل الباطل ، وتمنع أهل الحق من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ؟ كأن الطريق أن تمكن أهل السنة من أن يلحنوا بمحججهم ، وأن يظهر دين الله تعالى ، وأن تشنق من هؤلاء المبتدعة عشرين نفسا ليرتدع غيرهم ، وأن تمكن الموحدين من ارشاد المسلمين وأن يبينوا لهم طريق المؤمنين » . وذاب الملك الأشرف خجلا ، وظل يعتذر عما بدر منه . فاتهمه أخوه الأكبر بالجهل ، ونصحه أن يجلس إلى الشيخ عز الدين ليعلمه أصول الدين ، وما زال به حتى أقنعه بصحة رأى الأشعرية وفساد رأى حاشيته . وأوصاه بعز الدين خيرا فأرسل الأشرف فى استدعائه . وأخذ الملك الكامل يتلطف مع عز الدين أمام أخيه الملك الأشرف ، ويسأله أن يتمنى عليه مايشاء ، وعز الدين يشكره ويحمد الله إليه ولا يطلب شيئا ...

ووقع الأشرف مرسوما بتعيين الشيخ عز الدين خطيبا للجامع الأموى ليزيد النفع بعلمه .

وقال الأشرف لأخيه الكامل : لقد غلطنا فى حق الشيخ عز الدين بن عبد السلام غلطة عظيمة .

ولكنى أترضاه ولن أعمل إلا بفتاويه . »

أقتنى السلطان الأشرف رسالة كتبها الشيخ عن مقاصد الصلاة ، فكانت تقرأ عليه فى اليوم ثلاث مرات ، ولا يدخل عنده أحد إلا طلب منه أن يقرأها لينفعه الله بها . وكان يقول لبعض خاصته : « أنسخوها وطرزوا بها مجالسكم . »

إطمأن الكامل إلى أن أخاه الأشرف قد أصلح عقيدته ، وأبعد من حاشيته الفقهاء المتملقين المنافقين البلاء المرتشين من أراذل الخنايلة .

وأصبح له مجلس أسبوعى من فضلاء الخنايلة وعلماء المذاهب الأخرى يتدارسون فيه الفقه وأصول الدين .

وجاءه الشيخ عز الدين مستجيباً لدعوته ، وكان من قبل لا يجيبه ، فاقترح عز الدين أن يرفع السلطان الضرائب التى تثقل الصناع والتجار والفقراء ، وأن يعوضها بضرائب على الأغنياء ، وأقترح عليه أن يغلق المواخير والحانات ودور الفساد ، فاستجاب السلطان الأشرف من فوره لما طلبه الشيخ .

أشار الكامل على أخيه الأشرف أن يعين عز الدين قاضياً للقضاة ليصلح له أمور الرعية ، فتردد الأشرف ، على الرغم من أن إشارة أخيه الأكبر كانت أمراً بالقياس إليه . !

وقال الأشرف أنه يخشى من عناد عز الدين وشدة إذا هو تولى أمر القضاء وأصبحت أحكامه واجبة النفاذ ! ! . فضحك الملك الكامل ، وأمر أخاه ألا يثق بأحد من العلماء إلا هؤلاء الذين يأخذون الكتاب بقوة ، الأشداء الأتقياء الورعين الذين لا يخافون فى الله لومة لائم . لأن هؤلاء هم أعمدة الأمة ومنازل العدل ، وهم أخرى بأن يجعلوا السلطان قويا وقاضيا ومحبويا عند الرعية ، وهم على أية حال خير من الفقهاء والعلماء الضعاف المستخزين المنافقين طلاب المنافع الذين يذهبون بجلال الملك ويزورون بهيبة الدين ! !

وروى الكامل لأخيه قصته مع قاض مصرى ورع شديد فى الحق . ذلك أن الملك الكامل وهو الملك المهذب الصالح ، كان قد هفا قلبه إلى مغنية قاهرة بارعة الجمال ذات صوت لم يسمع أعذب منه اسمها عجيب . وكانت عجيبة تذهب إلى الملك ، فتغنى له ولخاصته حتى قبيل الفجر ، على قرع الدف ، ورنة عود تتقن العزف عليه . فعرضت أمام القاضى دعوى كان أحد طرفيها رجل من خاصة الملك يسمع معه إلى غناء عجيبة وجوارها . وأراد الملك أن يشهد فى تلك القضية . فرفض وقال للكامل : « السلطان يأمر ولا يشهد . » ولكن الملك الكامل لم يقتنع برأى القاضى ، وعاد يطلب منه أن يؤدى الشهادة ، وكرر القاضى الاعتذار ، وأدرك الكامل أن القاضى لا يقبل شهادته ، فسأله : « أر .

أن أشهد . أتقبلنى أم لا ! » فقال القاضى : لا . ما أقبلك . وعجبية المغنية تطلع إليك كل ليلة ، وتنزل
ثانى يوم بكرة تتمايل سكرًا على أيدي الجوارى . »

فغضب الكامل وقال له : يا كنواج « وهى شتمة فارسية » فقال القاضى : « مافى الشريعة
يا كنواج ! أشهدوا على أنى عزلت نفسى . » ومضى ينشد فى الناس :

وُلّيت القضاء وُلّيت القضاء لم يك شيئًا توليتهُ
وقد ساقنى للقضاء للقضاء وما كنت قبل تمنيته

وفكر الملك فيما عسى أن يقول الناس عن سبب عزل القاضى . فأرسل إليه يترضاه ، وعدل عن
طلب الشهادة . ولم يعد يستقبل المغنية ولا يقيم مجالس طرب . وسار فى رعيته منذ ذلك اليوم سيرة تقية
فاضلة ، وهكذا أصبح وعظه ورع قاض حازم عادل ، فأصبح الملك باتماظه مهابة محبوبا ..

ورى الملك الكامل لأخيه الأصغر الملك الأشرف هذه الحكاية ، وأقنعه أن وجود عالم فاضل عادل
قوى الى جوار الملك إنما هو أقوم للسلطان والرعية جميعا .

ولكن السلطان الأشرف وعد بتعيين الشيخ عز الدين قاضيا للقضاة ، ثم تراخى ،

وأراد الملك الكامل أن يؤكد لأخوية الأشرف والصالح اسماعيل ، مالى الشيخ العزم من مكانة
وتقدير . فدعاه فى حضورهما وبالع فى حسن استقباله ، وأجلسه الى جواره وأخذ يستفتيه . وكلما أفتى
الشيخ أبدى الملك أعجابه بالفتيا ، وسأله الرضى والدعاء . ثم قال له مشيرا الى اصغر الأخوة الصالح
اسماعيل : « إن هذا له غرام برمى البندق ، فهل يجوز له ذلك ؟ » فقال الشيخ : « بل يحرم عليه . فإن
رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عنه لأنه يفقأ العين ويكسر العظم ويحرم عليه » والبندق كور صغيرة
من الرصاص أو الحجر تستعمل فى الصيد .

وعاد الملك الكامل الى القاهرة ، ومرض الملك الأشرف ، فأتاب عنه ولى عهده الصالح
اسماعيل . وكان الشيخ عز الدين كما تعود من قبل لا يغشى مجالس السلطان ولا يزوره ، ولكنه عادة فى
المرض ، فبلغ التأثير من نفس السلطان اعظم مبلغ حتى بكى ، وسأل الشيخ أن يعفوا عنه لما فرط منه
فى حقه ، فدعا له الشيخ وأمر السلطان وأمر ولى عهده الصالح اسماعيل ألا يستفتى غير الشيخ عز
الدين وأن يستهدى بآرائه .

غير أن الصالح اسماعيل ، لم يقرب الشيخ ولم يدعه إليه .. ففتيا الشيخ بتحريم الرمى بالبندق آلمته !
على أنه أهدر هذه الفتيا منذ أصبح سلطانا ، وجمع حوله خصوم الشيخ من الأراذل والبلداء الذين

ينتحلون الفقه الحنبلى و يشوهونه !

وأقصى الصالح إسماعيل عنه الفضلاء من العلماء الحنابلة ، وانصرف إلى اللهو ، وأعاد ما أبطله أخوه من المنكرات : ففرض على التجار والصناع وأرباب الحرف والفقراء كثير من المكوث والضرائب التى كان أخوه الأشرف قد رفعها عنهم !

وأحاط به النخاسون الكبار وأغنياء تجار الرقيق ، فأعاد فتح الخانات والمواخير ! .

وأحيا كل المفاسد والبدع التى كان أخوه الأشرف قد أماتها استجابة لطلب الشيخ عز الدين .. !

وكان الصليبيون الفرنجة والتتار الطامعون فى الاستيلاء على أرض العرب قد عرفوا ولع الصالح اسماعيل بالنفائس وبالتحف الفاخرة والخمر الغالية والجوارى الحسن ، فطفقوا يقدمون إليه الهدايا النادرة ، حتى بادهم الهدايا ونشأت بينه وبينهم ألفه ومودة .. ولقد دسوا إليه من الجوارى الحسن أن أصبحن عيوناً عليه ، فكن لا يبرحن مجالسه فى هواؤجد ، و يطلعن على كل أسرار ، وهوبهن سعيد !

.. وفسد الأمر فى دمشق ، فأرسل أهل الغيرة فيها يشكون الملك الصالح اسماعيل إلى أخيه الأكبر الملك العادل سلطان مصر . فسار على رأس جيش إلى دمشق ، وأبطل المفاسد ورفع المكوس والضرائب الظالمة عن كاهل الصناع وأرباب الحرف والفقراء والتجار ، وعين الشيخ العز عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام قاضياً ، صونا للعدل ، وحفظاً للشريعة ، وضماناً لصلاح الأمر ، وأذن الأشرف لأمر أخيه الأكبر .

وكان على الشيخ عز الدين ، أن يضع على رأسه أكبر عمامة فى الدولة : عمامة قاضى القضاة ، صاحب أكبر منصب ونفوذ .. الرجل الذى يلزم بأحكامه كل أولياء الأمر حتى السلطان نفسه !

ورأى الشيخ عز الدين أن يتحلل من التقاليد ، فطرح العمامة كبيرها وصغيرها ، ووضع على رأسه طاقية من لباد مصر وهى غطاء الرأس الذى لا يستعمله إلا فقراء الناس فى مصر والشام . وكان من قبل عندما عين خطيباً للجامع الأموى ، قد طرح الرداء الأسود الذى ألف خطباء الجامع ارتدائه ، وعدل عن صعود المنبر بالسيف ، وعن ترصيع الخطبة بالسجع .

ها هو ذا الشيخ عز الدين ، يجمع كل وسائل النفوذ وأدواته : فهو خطيب الجامع الأموى ، وأكبر المفتين ، وهو شيخ حلقة ، يقنع الناس بوضوح الدليل ونصاعة البرهان وقوة الحجة ، ثم هو إلى كل ذلك قاضى القضاة ، فعلى رجال الدولة تنفيذ ما يقضى به ، وإلا أثموا شرعاً ، واختل ميزان الأمور ، فتهرأت الدولة !

والشيخ مجيد و يصطنع الاجتهاد فى دروس الفقه والأصول بالزاوية الغزالية فى الجامع الأموى ، وينشط فى قضائه وفتاويه لاستنباط الأحكام من القرآن والسنة وإجماع الصحابة ، والقياس الصحيح وتحجى مصالح الأمة التى هى مقصد الشريعة ، حتى لقد صح عند الشيخ ابن الحاجب المالكى وهو واحد من أفقه علماء دمشق أن يقول : « لم نعرف منذ الأئمة الأربعة من هو أفقه من الغزالى ، إلا الشيخ العزى عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام » .

وظل الشيخ عز الدين يعمل على إمامة البدع ، وإحياء السنن فى كل ما يصدر من أحكام ، وما يلتقى من دروس وخطب ، وما ينشئ من فتاوى . وقال : « طوبى لمن ولى أمرا من أمور المسلمين ، فأعان على إمامة البدع وإحياء السنن » .

وكان الصالح إسماعيل عندما أحس أن أخاه سيعزله ، قد لاذ بالشيخ عز الدين معلنا التوبة ، متعهدا بحسن السيرة إن هو بقى على عرش دمشق . وما زال بالشيخ يستعطفه ويستشفعه والشيخ يشترط عليه شروطا حتى قبل الشيخ أن يتوسط له ، وضمنه الشيخ عند الملك الكامل فأبقاه سلطانا على دمشق

ولكنه لم يكد يستقر على العرش حتى عزل الشيخ عز الدين عن منصب قاضى القضاة .. فقد مات الملك الكامل !! ...

وخلف الملك الكامل على ملك مصر أخ له ، ولكنه أساء السيرة فى الناس ، وخضع لحاشية من الجوارى والمماليك والعلماء ، وغلبه الضعف ، ولعبت به الأهواء ، فوثب عليه أخوه نجم الدين وهو رجل صارم وتولى ملك مصر باسم الملك الصالح نجم الدين أيوب .

ما برح التتار والصليبيون يراقبون فى يقظة كل مايجرى فى دولة صلاح الدين التى حولها ورثة من الأبناء وأبناء الأخوة ضياعا خاضا لهم ، فوهنت وتداعت وتمزقت ! فطمع التتار فى العراق ، وخطط الصليبيون للاستيلاء على مصر والشام وفلسطين ، وبصفة خاصة بيت المقدس ! .. واضمحلت برقة والجزيرة العربية ..

وحصن الملك الصالح نجم الدين أيوب أبواب مصر وسد ثغورها بعسكر كثيف ، ودعم فيها القلاع ، وأرسل إلى عمه الملك الصالح إسماعيل صاحب دمشق ، يطالبه بأخذ العدة لمواجهة ما عسى أن يفعله الصليبيون الفرنج ، ولكن إسماعيل كان مشغولا بمراسلتهم وتبادل الهدايا معهم ، والاستمتاع بأموالهم وجوارهم .. فأنفذ الملك الصالح نجم الدين أيوب حملة إلى الشام ليضمها إلى مصر .

وهرع إسماعيل سلطان دمشق إلى الفرنج ، فحالفهم وفتح لهم دمشق ليشتروا منها السلاح ، وكان

سلاح دمشق معروفًا بأنه أمضى سلاح — مضى إلى سائر أمراء الشام ليضمهم إلى حلفه ضد ابن أخيه ملك مصر ، فحالفه صاحب حصص ..

واضطرب الناس في دمشق مذ رأوا الصليبيين يدخلونها ويتجولون في أسواقها يشترون السلاح . وترك الشيخ عز الدين حلقة في الجامع الأموي ، ومضى يخوض في الشعب المتزاحم في الطرقات ويفتيهم أن بيع السلاح للفرنجية حرام ، وكل بيع لهم حرام . فن ارتكب من ذلك شيئاً فقد خان الله والرسول ولا ذمة ولا عهد له ، ودمه مهدر ، وماله مباح ! ..

ومضى الشيخ ابن الحاجب المالكي يفتي بمثل ذلك . وطلق الشيخان يحرضان التجار على الامتناع عن البيع للفرنجية ، ويحرضان الناس على قتال من يبيعهم السلاح فأصبح الفرنجية وهم لا يجدون من يتعامل معهم من تجار دمشق ، وحتى الذين تعاملوا معهم من قبل آثروا العافية ورفضوا التعامل بعد .. !

وغدت دمشق ذات صباح تتناقل أنباء ما صنعه سلطانها مع الفرنج ، فقد جيش معهم الجيوش ، وقرروا أن يسيروا معاً إلى مصر ليكسروا الحملة التي أنفذها الملك الصالح نجم الدين أيوب ، وأن يواصلوا الزحف فيستولوا على مصر كلها .

وفى مقابل مساعدة الفرنج لسلطان دمشق ، نزل لهم عن صيدا وقلعة الشقيف وبعض مدن فلسطين واقتسم معهم مدناً أخرى .. !!

وعندم تحققت هذه الأنباء ، وقف الشيخ عز الدين يخطب الجمعة فأعلن خيانة سلطان دمشق ومن والاه من أمراء الشام . وختم خطبته داعياً :

« اللهم أبرم لهم الأمة إبرام رشد تعز فيه أوليائك ، وتذل فيه أعداءك ، ويعمل فيه بطاعتك ويُنهى فيه عن معصيتك » .

وهدرت حناجر المصلين : « آمين .. آمين » .

والتقى الشيخ عز الدين بالشيخ ابن الحاجب ، فأصدرا فتياً بخيانة السلطان وبخلع طاعته

ولم يطلبوا من أحد التوقيع معها على الفتيا حفظاً لسائر العلماء من أن يؤذيه السلطان .. اذ كان قد أنذر مخالفه بعذاب عظيم ، ووعد مؤيديه بحسن الجائزة ووفرة المال وعلو الشأن . ! على أن الخطباء والعلماء امتنعوا عن الدعاء للسلطان من على المنابر بعد خطبة الجمعة . وهكذا تجاهلوا وجوده .. !

وأرسل بعض حاشية السلطان إليه وهو غائب عن دمشق بما كان من أمر الشيخ عز الدين والشيخ ابن الحاجب ، فأمر بسجنها وأمر حاشيته من أراذل الحنابلة باسقاط شأنها في عيون الرعية .

وسجن الشيخان ، وأصدر بعض هؤلاء الأراذل فتيا ضد الشيخين وأتهموا كليهما بإثارة الفتنة ، وطالبوا الرعية بإطاعة السلطان لأن معصيته خروج على الشرع ، وهو أدرى فيما يأخذ وما يدع بمصالح المسلمين . ! واتهموا الشيخين بالغرض والحسد وسوء النية والحقد على السلطان : فأما الشيخ عز الدين فلأن السلطان عزله عن منصب قاضى القضاة ، وأما الشيخ ابن الحاجب فلأنه طمع فى المنصب ولم ينله .. !! .. فكلاهما موقوف لأنّه حرم من المنصب الكبير والراتب الوفير .. !

ولم يكن أى الشيخين يملك الدفاع عن نفسه فهو السجن ، ولكن الناس لم يصدقوا ، واشتعل غضبهم على السلطان وحاشيته ، ومضوا يسألون فى الأمر شيوخهم ، فأيد الشيوخ بما فيهم الحنابلة ، رأى الشيخين ، لم يشذ عنهم أحد ، إلا البلغاء منتحلو الفقه الحنبلى من أراذل حاشية السلطان !

وعاد السلطان إلى دمشق بجيش كبير ، فوجد عددا ضخما من الناس يحيطون بالسجن ويحاولون تحرير العزواين الحاجب من وراء الأسوار ، فأمر بإطلاقهما ، وملاططقات دمشق وأسواقها بالعسكر ، وبث الجواسيس فى كل مكان حتى المساجد !

وهدأت الثورة عن السلطان ، فأمر بإقالة العز من كل مناصبه ، من التدريس والخطابة ، وأمره «بلازمة داره ، وألا يفتى ، ولا يجتمع بأحد البتة» .

وتقدم أحد العلماء من أصدقاء السلطان والعز معا فاستأذن للعز « فى صلاة الجمعة — وكان العز لا يترك صلاة الجمعة — وفى أن يعبر إليه طبيب أو مزين إذا احتاج إليها ، وأن يعبر إلى الحمام ، فأذن له السلطان »

وكان العز فى معتقله بداره يقرأ القرآن ويكرر تلاوة قوله تعالى : « ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها . »

فأرسل إلى السلطان صديقهما المشترك ، وهو ذات الصديق الذى حاول أن يصلح بينه وبين السلطان الأشرف خلال فتنة الحنابلة . أرسل العز هذا الصديق إلى السلطان ليأذن له بمغادرة دمشق ومملكته جميعا .

وأطربت السلطان فكرة الخلاص من الشيخ ، ولكنه لم يستجب لطلبه بسهولة ، وذهب الوسيط وعاد مرات فى ذات اليوم ، والسلطان يتشدد ويلين ويشترط ويتنازل ، حتى أذن آخر الليل للشيخ بالهجرة ، على أن ينهض من فوره فيكون خارج دمشق قبل الفجر !

ورشق السلطان جنوده وبث عيونهم فى كل الطرقات المؤدية إلى دار الشيخ وإلى خارج دمشق

تحرزا من معرفة الناس بهجرته والاحتشاد لوداعه .

وأحضر الصديق للشيخ بعض الدواب ، فحمل عليها أهله وكتبه ، وركب فى الطريق إلى القاهرة .

ولقى الشيخ فى سفره هذا نصبا وكثيرا من الخطوب . فقد مربلاد يحكمها حلفاء للسلطان من أمراء بنى أيوب ، وبلاد أخرى يحكمها أنصار الملك مصر نجم الدين أيوب

كابد الشيخ فى رحلته صنوفا من الإنكار والتهديد ، وألوانا من الحفاوة والترحيب . وهو لا يفتأ كلما اجتمع بأحد من الخصوم والأنصار قائما يدعو إلى الجهاد فى سبيل الله ضد الصليبيين الفرنج وحلفائهم من الأمراء المسلمين ، منكرا موقف صاحب دمشق ومن والاه من الأمراء ، ودور منتحلى الفقه ، مزييا بصمت الصامتين عن هذا كله ، متها إياهم بالبلادة والخور والنذالة !

و يصف ابنه الشيخ عبد اللطيف ما كان من أمر أبيه : « أنتزع منها » دمشق إلى بيت المقدس ، فوفاه الملك الناصر داود فى الفور فقطع عليه الطريق ، وأخذه وأقام عنده بنابلس مدة ، وجرت له معه خطوب ، ثم انتقل إلى بيت المقدس حيث أقام مدة . ثم جاء الملك الصالح اسماعيل والملك المنصور صاحب حمص — حليف اسماعيل ضد نجم الدين أيوب — ، وملوك الفرنجة بعساكرهم وجيوشهم إلى بيت المقدس ، يقصدون الديار المصرية ، فسير الصالح اسماعيل بعض خواصه إلى الشيخ بمنديله وقال له : تدفع منديلى إلى الشيخ ، وتلطف به غاية التلطف ، وتستنزله وتعهده بالعودة إلى مناصبه على أحسن حال ، فإن وافقك فتدخل به على ، وإن خالفك فاعتقله فى خيمة إلى جانب خيمتى ، فلما اجتمع الرسول بالشيخ شرع فى مسايسته وملاينته ثم قال له : « بينك وبين أن تعود إلى مناصبك ما كنت عليه وزيادة أن تنكسر للسلطان وتقبل يده لا غير » . فقال الشيخ : « والله يا مسكين ما أرضاه أن يقبل يدي فضلا عن أن أقبل يده .. ! » يا قوم أنتم فى واد وأنا فى واد . والحمد لله الذى عافانى مما ابتلاكم به ، فقال : قد رسم لى أن توافق على ما يطلب منك وإلا اعتقلتك . فقال الشيخ : افعلوا ما بدا لكم . فأخذه وأعتقله فى خيمة إلى جانب خيمة السلطان . وكان الشيخ يقرأ القرآن والسلطان يسمعه فقال يوما لملوك الفرنج : « تسمعون هذا الشيخ الذى يقرأ القرآن » . قالوا : « نعم ، قال هذا أكبر قسوس المسلمين ، وقد حبسته لإنكاره تسليمى لكم حصون المسلمين ، وعزلته عن الخطابه بدمشق وعن مناصبه ، ثم أخرجه فجاء إلى القدس ، وقد جددت حبسه واعتقاله لأجلكم . فقالت ملوك الفرنج : « لو كان هذا قسيسنا لغسلنا رجله وشربنا مرقها » .

ثم جاءت العساكر المصرية ، ونصر الله الأمة المحمدية ، وقتلوا عساكر الفرنج .

أطلق سراح الشيخ ، فانطلق فى طريقه إلى القاهرة فبلغها عام ٦٣٩ هـ بعد عام كامل من الأهوال والخطوب فى الطريق إليها .

كان مقدم الشيخ عز الدين إلى القاهرة يوما من أيام الزينة . فقد احتشد الناس الذين سمعوا به فى أبهى ملابسهم ، وأمر السلطان أمراءه وقادة الجيش أن يرتدوا حلل العيد ، وخرج فى أبهى على رأسهم يستقبلون الشيخ على الباب الشرقى للقاهرة ، وقد أعدوا له الخيل المطهمة ليمتطيها هو وأهله وأبنائه بدل المطايا المنهكة .

وعجب الناس للشيخ عز الدين : فهذا العالم الذى تحدى أمراء بنى أيوب وملأ أطباق الأرض بآرائه وفتاواه ، ليس ضحكا ولا غيفا بل هو نجيل خشن الثوب ، وما على رأسه عمامة الفقهاء والعلماء بل اللبدة التى يرتديها العامة والفلاحون فى مصر ! إنه لشديد الحياء خفيف الصوت .. !

وسار الموكب يزف الشيخ بالتهليل والتكبير ، والسلطان إلى جواره ومن خلفه أمراء الدولة والأعيان والعلماء .

وانتهى الموكب إلى حديقة واسعة غناء فيحاء تتوسطها دار فسيحة .

وودعه السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب قائلا : « هذه هى دارك يا شيخ عز الدين بن عبد السلام . وهى ليست هبة منى ولا من بيت المال ، ولكن أهل مصر اشتروها لك نفعهم الله بك ، ونفع بك الإسلام والمسلمين أيها الإمام . »

وتجولت الزوجة فى الدار وهى لا تستطيع أن تغالب فرحها . !! .. أخيرا هاهو ذا البستان التى حلمت أن تغيث فيه .. ولكنه أجل مما حلمت به وأفسح . وهو بعد يقع على النيل !! ..

وفرح الجميع بالأثاث الفاخر ، ورقائق الزجاج الملون ، والمصابيح الجميلة المتناثرة .

وشعر الشيخ أن هذا المكان الهادئ ، يمكن أن يمنحه من صفاء الذهن وراحة البال ما يتيح له كتابة ما لم يستطع أن يكتبه فى دمشق .

أستراح فى البيت يوما وليلة .. ثم بدأ يستقبل الزوار .

وتعرف على علماء مصر وفقهائها وشيوخها ، وتبادلوا الرأى

وجاءه رسول السلطان يبشره بصدور الأمر بتعيينه إماما وخطيبا لجامع عمرو . فأثنى الحاضرون على قرار السلطان . وكان جامع عمرو قد أصبح منذ عهد صلاح الدين بديلا للأزهر الذى عطل صلاح

الدين التدريس فيه في حربه على الشيعة الذين بنوا الأزهر.

ونخلال زيارة رسول السلطان للشيخ العز بحضور عدد من الفقهاء والعلماء منهم شيخ المذاهب الأربعة قال الشيخ المنذرى مفتى مصر للحاضرين : « كنا نفتى قبل حضور الشيخ عز الدين ، وأما بعد حضوره فالفقه متعين فيه ولا يفتى أحد وهو بيننا » .. وهكذا أصبح الشيخ عز الدين مفتى مصر .

وأراد السلطان أن يعينه قاضيا للقضاة على أن يختار الشيخ نوابا له . فطلب الشيخ أن يمهله بعض الوقت حتى يحسن التعرف على العلماء والقضاة وأحوال الناس في مصر . ولكن السلطان كان يلح عليه . وبعد فترة وجيزة قبل الشيخ منصب قاضى القضاة وعين نوابه بنفسه .

ولم يكفد يتولى المنصب حتى لاحظ أن أمراء البلاد وقادة الجيش ليسوا من أهل مصر ، وليسوا أحرارا على الإطلاق ، بل هم مجلوبون ، اشتراهم السلطان من بيت المال وهم صغار فتعلموا اللغة العربية وعلوم الدين ، وفنون الفروسية والحرب والرياضيات ، وعندما شبوا عينهم فى مناصبهم . فهم أمراء ممالك أرقاء إذن ، وليس لهم حقوق الأحرار . ولهذا فليس لهم أن يتزوجوا بحرائر النساء وكانوا قد تزوجوا من حرائر نساء مصر ، وليس لهم أن يبيعوا أو يشتروا أو يتصرفوا إلا كما يتصرف العبيد ! .

وبدأ قاضى القضاة يطبق عليهم من أحكام الشريعة ما يطبق على العبيد !

وهبت الملك مما صنعه الشيخ ، فذهب إليه يسأله أن يعدل عما أخذ فيه ، فطلب منه الشيخ ألا يتدخل فى القضاء فليس هذا للسلطان ، فإن شاء أن يتدخل فالشيخ يقل نفسه . !

وكان السلطان رجلا قوى الشكيمة ، ولكنه لم يعرف ماذا يفعل بالأمر ! ..

لقد أبطل الشيخ كل ما أبرمه الأمراء المماليك من عقود : عقود البيع والإجارة .. وحتى عقود الزواج !

واضطرب الأمر بالمماليك : فالزوجات يهجرن فراش الزوجية ، ويعاملن أزواجهن كالغرباء ، والتجار يعودون فى الصفقات ، والصبية يطاردون الأمراء المماليك بكل هيبتهم ويعيرونهم بأنهم عبيد ! .. وكان الناس يذوقون الأهوال من صلف الأمراء !! .

وصف السيوطى « فى حسن المحاضرة » تلك الحال بقوله : « تصدى - الشيخ عز الدين - لبيع أمراء الدولة من الأتراك ، وذكر أنه لم يثبت عنده أنهم أحرار وأن حكم الرق مستصحب عليهم لبيت مال المسلمين ، فعظم الخطب عندهم ، والشيخ مصمم لا يصحح لهم بيعا ولا شراء ولا نكاحاً (زواجا) ، وتمعلت مصالحهم لذلك ، وكان من جلته نائب السلطنة ، فاستثار غضبا ، فاجتمعوا وأرسلوا إليه

فقال الشيخ : « نعقد لكم مجلسا وننادى عليكم (بالبيع) لبيت مال المسلمين ، فرفعوا الأمر الى السلطان ، فبعث إليه فلم يرجع ، فأرسل إليه نائب السلطنة بالملاطفة فلم يفد فيه ، فانزعج النائب وقال : (كيف ينادى علينا هذا الشيخ ، ونحن ملوك الأرض ! والله لأضربنه بسيفى هذا ، فركب بنفسه فى جماعته ، وجاء إلى بيت الشيخ والسيف مسلول فى يده ، فطرق الباب ، فخرج له ولد الشيخ فرأى من نائب السلطان مارأى ، وشرح له الحال ، فما اكرث لذلك ، وقال : « يا ولدى . أبوك أقل من أن يقتل فى سبيل الله » ، ثم خرج فحين وقع بصره على النائب ، يبست يد النائب ، وسقط السياف منها ، وأرعدت مفاصله ، فبكى وسأل الشيخ أن يدعو له .

وقال : « ياسيدى إيش تعمل » ؟ .

— أنادى عليكم وأبيعكم ويحصل عتقكم بطريق شرعي .

— فيم تصرف ثمننا ؟

— فى مصالح المسلمين .

— من يقبضه ؟

— أنا .

انصرف نائب السلطنة إلى السلطان حيث كان جميع الأمراء قد اجتمعوا عنده ، فروى لهم نائب السلطان ما كان بينه وبين الشيخ .

ولم يذعن السلطان ، فأرسل إلى الشيخ من يتلطف له ويحاول صرفه عن بيع الأمراء ، وأخبره الرسول بعد حوار طويل أن السلطان لن يسمح ببيع الأمراء ، وأمر السلطان واجب ، وهو فوق قضاء الشيخ عز الدين ! وعلى أية حال فليس للشيخ أن يدخل فى أمور الدولة فشئون الأمراء لا تتعلق به . بل بالسلطان وحده !! .

وأنكر الشيخ تدخل السلطان فى القضاء وقام فجمع أمتعته ووضعها على حمار ، ووضع أهله على حمار أخرى ، وساق الحمير ماشيا ! ..

إلى أين يا شيخ ! ؟ ...

قال : ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ؟ ! ..

فيم المقام بأرض يستضعف فيها أهل الشريعة ، ويعتدى فيها على القضاء ؟ !

وتجتمع الناس وراءه .. وكلما سار فى طريق تراحم الناس عليه يحاولون منعه من الهجرة ، فهو

أملهم فى مواجهة مظالم الأمراء المماليك ، فلکم عانى التجار والصناع وسائر الناس من صلفهم ، وهامهم أولاء يرون فيهم يوما من أيام الانكسار على يد هذا الشيخ الجليل عز الدين بن عبد السلام ! .. فلماذا يتركهم الشيخ ؟ ! .. ولمن يكلهم ؟ ! .. إلى هؤلاء الأفراد العبيد المتغترسين من جديد ؟ !

أحاط الناس بموكب الشيخ وهم يتوسلون باكين ألا يتركهم ، فقد عرفوا فى قضائه قوة الانتصار للمظلوم ، وهيبة العدالة ، خلال تلك الأشهر القلائل التى ولى فيها المنصب ..

ولكن الشيخ مضى فى طريقه لا يبالى ..

سار الشيخ أميالا خارج القاهرة والناس من ورائه يرجون ملحين ساخطين حتى امتلأت بهم الأرض الفضاء إذ لم يتخلف عن اللحاق به « امرأة ولا صبي ولا رجل ولا سوا العلماء والصلحاء والتجار وأمثالهم . »

وبدأ أن هذه الجموع ستذهب فى تحدى السلطان إلى أبعد مدى ! .. ولئن هى رجعت بغير الشيخ ليتثرن الدنيا على السلطات حتى الذين هم تحت التراب !

وعلم السلطان بما يجرى ، وقال له أحد ناصحيه : « تدارك ملكك وإلا هب بذهاب الشيخ »

فأسرع السلطان إلى فرس سريع فامتطاه على عجل وانطلق حتى أدرك الشيخ عز الدين ، وشهد الناس من حوله وعابن سخطهم ، فنزل عن فرسه ، وتقدم متلطفا معتذرا إلى الشيخ عز الدين ، وقال له : « لا تفارقنا . عد يا أمام واصنع ما بدالك . » .. وقدم للشيخ فرسا فامتطاه وعاد الشيخ .

وعاد الشيخ والناس يهللون من حوله ومن خلفه .

وجمع السلطان كل الأمراء فى القلعة بأمر الشيخ ، ثم عرضوا فى مزاد ونادى الشيخ عليهم وغالى فى ثمنهم . حتى إذا امتنع الحاضرون عن المزايدة فى الثمن لارتفاعه الفاحش ، تقدم السلطان فدفع ثمنا أزيد من ماله الخاص لا من بيت المال ، حتى اشترى جميع الأمراء المماليك وأعتقهم لوجه الله ، فأصبحوا أحرارا .

وصحح الشيخ عقودهم بما فيها عقود الزواج .

أما ما قبضه الشيخ الفاحش من ثمنهم فقد وزعه على الفقراء وأصحاب الحاجات وبصفة خاصة أهل العلم وطلابه ، وأقام به مكاتب لتعليم القرآن والخط وعلوم اللغة .

وازدادت مكانة الشيخ فى قلوب الناس ، وتزاحوا عليه وما كانوا يتركونه بعد صلاة الجمعة فى

جامع عمرو حتى يؤذن لصلاة العصر .

أما السلطان ، فقد أضمر أن يتخلص من الشيخ ، فقد خافه على ملكه ! .

إن هذا الشيخ الخجول النحيل ليستطيع أن يحرك الناس ضده كيفما يشاء !

على أن أمراء المماليك لم يعودوا بعد لصلفهم واستبدادهم بالناس كما كانوا من قبل بيعهم فى

المزاد !

واستمر عز الدين فى القضاء حازما حاسبا لا يخشى إلا الله ولا يأبه إلا بالحق ، ولا يراعى إلا مصلحة الأمة . لقد تأتبه الدعوى من أحد الأفراد على أحد خواص السلطان ، فیسوى بينهما فى المجلس ، و يتحرى العدل وحده .. ولكم أدان خواص السلطان ! ..

لم يعد السلطان يتوقع منه مجاملة ، وتمنى أن يزججه من مكانه ، ولكنه خشى غضب الناس !

كان الملك الصالح نجم الدين أيوب ، سلطانا قويا واسع الحيلة ، ولكنه وجد نفسه مع الشيخ عز

الدين بلا حيلة !

وفى الحق أن الشيخ عز الدين ، لم يجهر بعداء السلطان ، ولا حتى بنقده ، ولكنه مضى فى طريقه : يفتى ، ويخطب الجمعة فى جامع عمرو ، و يقضى بما يهديه إليه فهمه لنصوص الشريعة أو اجتهاده إن لم يجد حكما فى النصوص ، ثم يخلص إلى بيته ليكتب .. ولكنه على انفساح بيته وهدوئه وجماله لم يكن يجد الوقت الكافى للكتابة ، فالتاس يتزاحون حيث يكون ، ومنهم من لح عليه بالزيارة .. !

ولم يشأ أن يتخذ حاجبا يمنع عنه الناس ، كما كان يصنع الفقهاء من قبله حين يخلون إلى

الكتابة ..

وكان كثير الصدقات ينفق معظم رواتبه خفية على أصحاب الحاجات ، فكان كثير من أصحاب

الحاجات يطرقون بابه .

وكان يلح بالدعوة إلى المعروف والنهى عن المنكر ، و يعتبر القيام بها واجبا شرعيا يأثم تاركه ،

فيأتيه الناس يستفتونه فى المعروف والمنكر .

ووجد بعض الأقرباء الظالمين يغتصبون حقوق المستضعفين ، فأفتى أن من واجب المستضعفين أن

ينتزعوا ما اغتصب منهم ، ولا عقاب عليهم ، فهذا حقهم الشرعى

فإن هم وجدوا السلطان عاجزا عن رد أموالهم المغتصبة ، فعليهم استردادها بأنفسهم ، وإلا أثمنوا شرعا !

وأثارت هذه الفتيا عددا من الأمراء الذين ألفوا أن يستضعفوا! بعض التجار والصناع والحرف ، ويغصبون منهم خفية بعض البضائع أو الأجور! !

وكان يعتبر من الحقوق المغصوبة إنقاص أجر العامل ، أو قهر البائع أو تخويفه فيبيع بثمن أقل من الثمن المعروف ! ثمن المثل !

وسخط السلطان نفسه عليه ، فقد رآه فى أحكامه وفتاويه يفرض أوامره على الشرطة ، وليس هذا لأحد غير السلطان ، فإن لم تستجب الشرطة حرض الناس على الدولة ! !

ثم اضطدم الشيخ عز الدين بأقرب أعوان السلطان وأعزهم عليه . وهو أستاذار أو أستاذ دار السلطان : الرجل الذى يتولى شئون مساكن السلطان وسائر حوائجه الخاصة .

ذلك أن « الأستاذار » فخر الدين بن شيخ الشيوخ كان مولعا بالغناء والرقص ، فعمد إلى مسجد وسط حديقة واسعة مطلة على النيل ، فصعد إلى سطح المسجد فاقتن بجمال المنظر ، فبنى فوق المسجد « طبلخانة » أى خانة أو دارا للطبل والغناء ، وتعود السهر فيها مع صحبه يسمعون إلى الجوارى المغنيات الراقصات .. !

ولم يجرؤ أحد على أن يشكوا الأستاذار إلى قاضى القضاة ، ولكنه ذهب حتى تحقق مما سمع ، فعاد وعقد مجلس القضاء ، وأصدر الحكم بإزالة البناء .

غير أن الشرطة لم تنزل الملهى من على سطح المسجد ، فنهض الشيخ عز الدين يقود أبنائه وبعض الشباب من مريديه ، وأخذوا المعاول والفؤوس ، وأزالوا البناء ... ثم أعلن الشيخ أنه يقلب نفسه من منصب قاضى القضاة ، فاعاد يطبق أن يقضى بقضاء فتتظر الشرطة إذن رئيس الشرطة أو السلطان لتنفيذ الأحكام ، وقد لا تنفذها .. !

ولم يكذ السلطان يسمع بما حدث من الشيخ حتى اضطرم غيظا ، ثم جاءه من يخبره بأن الشيخ قد أقال نفسه ، فصفق السلطان طربا ، وحمد الله لأن الشيخ أعفاه من حرج كبير ، فأقال نفسه بنفسه ! وأرسل السلطان رسولا إلى الشيخ بموافقة على استقالته ، وفرح الشيخ ، وحمل سجادة من على أرض بيته وأهداها رسول السلطان تعبيرا عن الفرح ، معذرا إليه بأن لا يجد هدية أثمن منها .. !

ها هو ذا عبء ثقيل انزاح عن قلب الشيخ !

صمم الشيخ على أن يخصص أكثر وقته للتأليف ، ضاع منه عمر طويل وما كتب بعد شيئا . ! غير أن السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب زاره وطلب منه أن يدرس الفقه الشافعى فى المدرسة الجديدة التى أقامها السلطان الفقه على المذاهب الأربعة فقبل الشيخ ونهض بتدريس الفقه ، والتفسير . وكان هو أول من ألقى دروسا فى التفسير بمصر منذ عهد بعيد . ولقد قام الشيخ بتدريس الفقه الشافعى فى هذه المدرسة .

وخطط دروسه لكى تكون كتباً ينتفع بها الناس ، فدرس أصول الفقه والتصوف ، بهذه المدرسة الجديدة التى أسماها السلطان باسمه .. المدرسة الصالحية .. وحزن الناس لأن الشيخ ترك القضاء وما عرفوا فى زمانهم قاضيا أكثر حسما وأعمق نظرا ولا أنهض منه للأمر ، ولا أشد تقى وورعا وروعة من هذا الشيخ العزيز بن عبد العزيز بن عبد السلام !

وعبر عن ذلك شاعرهم الجزار:

سار عبد العزيز فى الحكم سيرا
لم يسره سوى بن عبد العزيز « يعنى عمر بن عبد العزيز »
عُمنّا حكمه بعدل وسيط
شامل للسورى بلفظ وجيز

لقد أراح الشيخ واستراح . ولكن حكمه على « الاستادار » قد وصم الرجل فى مصر وسائر بلاد الإسلام . فقد جاء فى كتاب « حسن المحاضرة » بعد الحديث عن حكم الشيخ فى أمر الملهى ، كما جاء فى تاريخ ابن إياس وظن فخر الدين وغيره أن هذا الحكم لا يتأثر به فى الخارج ، فاتفق أن جهز السلطان رسولا من عنده إلى الخليفة المستعصم ببغداد ، فلما وصل الرسول إلى الديوان ، ووقف بين يدى الخليفة ، وأدى الرسالة له ، خرج إليه ، وسأله :

— هل سمعت هذه الرسالة من السلطان ؟

— فقال الخليفة لا . ولكن حملنيها عن السلطان فخر الدين بن شيخ الشيوخ استاداره .

— فقال الخليفة : إن المذكور أسقطه ابن عبد السلام . فنحن لا نقبل روايته .

فرجع الرسول إلى السلطان حتى شافه بالرسالة ، ثم عاد إلى بغداد ، وأداها .

استقر الشيخ فى داره ، يؤلف الكتب ، مستفيدا من كل ما مر به : ألف نحو أربعين كتابا فى

الفقه والتفسير وأصول الفقه والتصوف حصاد تجاربه وقراءاته وتأملاته وفتاويه

على أن الشيخ لم يكد يسيطر على وقته وينظمه ، و يستقر في داره ليكتب ، حتى هاجمه جماعة من الأشقياء ذات ليلة مظلمة فتسوروا عليه الحديقة ، وتقدموا إلى باب الدار يحاولون كسره ، والشيخ مستغرق في عمله لا يشعر بهم .. !

وهب أهل الدار من نومهم فزعين ، خاف كل من في الدار إلا الشيخ !

وحاول أحد أبنائه أن يخرج من باب خلفي فيستدعي العسس ، ولكن الشيخ رفض وتقدم نحو الباب الذي حاول اللصوص اقتحامه ، فتأخروا إلى الحديقة ، وتقدم هو إليهم قائلا : « أهلا بضيوفنا » .

وعلى ضوء النجوم تبين الشيخ أنهم جماعة من الفتنك من كان يستأجرهم بعض أمراء المماليك للفتك بأعدائهم ! ! وتعرف على رئيسهم ، وتذكر أنه وثيق الصلة بأمر كان يصرخ ويبكى ويتوعد الشيخ عندما نادى على الأمراء في المزاد ! .. وكانت تقلت من الأمير حركات أنثوية !

وكان هذا الفتنك يدلف إلى الأمير ويهون عليه .. فأبدى من آيات المودة والتعاطف المريب ما أثار سخرية الذين شهدوا المزاد ! ! .

مثل أمامه هذا الفتنك فيما بعد متها في نهب المتجر ، وشهد الأمير له زورا ، وأثنى عليه في رقة .. فحكم الشيخ عز الدين على الأمير بغرامة لشهادة الزور ، وبمبلغ من المال تعويضا للتاجر المعتدى عليه ، وحكم على الناهب بالسجن . غير أن الشرطة لم تسجنه وزعمت أنه فر إلى جبل في صعيد مصر !

إن الشيخ يعرف أن هذا الأمير وغيره يتخذون من بعض السوق ضعاف العقول أشداء الأجسام ، عصابات يؤدبون بها من يرفض لهم طلبا ، فإذا سقط أحدهم فهو مصرى اعتدى على مصرى ولا شأن للأمراء المماليك بالأمر كله !

وطلب الشيخ عز الدين عشاء لضيوفه ، فالضيف ينبغي أن يكرم في أى وقت جاء . وذهل رجال العصابة .. ! ثم أخذ يعظهم ، حتى ألقوا تحت قدميه ما أخفوه وراء العباءات من أسلحة . وفاض الدمع من أحدهم فاعترف من خلال الدمع أن ذلك الأمير المختلث الشرس حرضهم على قتل الشيخ ونهب بيته ووعدهم بأموال طائلة ، وقد أقسم ألا يبقى الشيخ على وجه الأرض ، بعد أن نادى على الأمراء المماليك في المزاد العلن وهم ملوك الأرض كما ينادى على الجوارى والعبيد ! !

فدعا الشيخ لضيوفه وللأمير بالهداية بعد الضلال . وقام الفتاك ، فقبلوا يد الشيخ ، وظلوا يقبلونها حتى غسلوها بدموع الندم ! .. وطلبوا منه الدعاء ، فطلب منهم أن يتوضأوا ليصلى بهم . وحين فرغوا من الموضوع أمهم الشيخ في صلاة توبة على خضرة الأرض ، تحت شعاع النجوم ! .. وطلب أبناء الشيخ منه أن يبلغ السلطان ، فأبى .

حتى إذا جاء يوم العيد ، وخرج السلطان في أبهة الملك إلى القلعة ، وحوله الأمراء يتشახون . وفيهم ذلك الأمير . واجه الشيخ سلطانهم بما روع الأمراء وألقى الهيبة من الشيخ في قلوبهم . ويصف السبكي ذلك المشهد في طبقات الشافعية : « طلع شيخنا عز الدين مرة إلى السلطان في يوم عيد إلى القلعة ، فشاهد المسكر مصطفين بين يديه ومجلس المملكة وما السلطان عليه يوم العيد من الأبهة ، وقد خرج على قومه في زينة على عادة سلاطين الديار المصرية ، وأخذت الأمراء تقبل الأرض بين يدي السلطان فالتفت الشيخ إلى السلطان وناداه :

(ياأيوب . ماحجتك عند الله إذا قال لك ألم أبوء لك ملك مصر ثم تبيع الخمر ؟)

فقال السلطان : « هل جرى ذلك ؟ »

قال : « نعم الحانة الفلانية تبيع الخمر وغيرها من المنكرات وأنت تتقلب في نعمة هذه المملكة . »

وأخذ الشيخ يناديه كذلك بأعلى صوته والعساكر واقفون :

فقال السلطان : « ياسيدي هذا أنا ما عملته . هذا من زمان أبى . »

فقال الشيخ : « أنت من الذين يقولون أنا وجدنا آباءنا على أمة ؟ ! »

فأمر السلطان باغلاق الحانة .

وبعد أن انصرف سأل أحد تلاميذه عما فعله فقال الشيخ :

— رأيت في تلك العظمة فأردت أن أهينه لكيلا تكبر نفسه فتؤذى .

فقال التلميذ :

— أما خفته ؟

قال الشيخ :

— «والله يابنى لقد استحضرت هيبة الله تعالى فصار السلطان أمامى كالقط .»

وكان هذا التلميذ هو تاج الدين الذى أصبح فيما بعد .

وعاد الشيخ من القلعة ، فطاف ببيوت بعض أصدقائه وتلاميذه يهنئهم بالعيد ، ثم عاد إلى بيته يستقبل المهنيين .

اهتم الشيخ عز الدين بوضع أصول للفقه ، فألف كتابه قواعد «الأحكام فى مصالح الأنام» وقد ضمنه كثيرا من القواعد الفقهية . وقال فى أوله : «الشرعة كلها إما درء مفسد أو جلب مصالح . فإذا سمعت الله تعالى يقول : بأيتها الذين آمنوا فلا تجدوا إلّا خيرا يحثك عليه أو شرا يزجرك عنه أو جمعا بين الحث والزجر . وقد أبان الله تعالى ما فى بعض الأحكام من المفسد فحث على اجتناب المفسد وما فى بعض الأحكام من المصالح فحث على إتيان المصالح .»

ثم يقول : أما مصالح الدارين «الدنيا والآخرة» وأسبابها ومفاسدها وأسبابها فلا تعرف إلا بالشرع . فإن خفى طلب بأدلة الشرع وهى الكتاب والسنة والإجماع والقياس والاستدلال الصحيح . أما مصالح الدنيا وأسبابها ومقاصدها فعروفة بالضرورات والتجارب والعادات والظنون المعتررات . فإن خفى شئ من ذلك طلب من أدلته . ومن أراد أن يعرف المصالح والمفاسد فليعرضها على العقل

فهو يدعو إلى أعمال العقل فى استنباط الأحكام ، وفى التعرف على المصالح . وهو يرى ان الأحكام إن لم يمكن استنباطها من الكتاب أو السنة أو الإجماع أو القياس ، فيجب استنباطها بما يحقق مصلحة ويدرأ مفسدة . والعقل هو أداة هذا الاستنباط .

ويقول : «إن الطب كالشرع وضع لجلب مصالح السلامة والعافية ولدرء معاطب الأسقام . والذى وضع الشرع هو الذى وضع الطب فإن كل واحد منها موضوع لجلب مصالح العباد ودرء مفسدهم .»

وتأسيسا على هذا النظر ، استنبط كثيرا من الأحكام :

— فنهى عن تعمد المشقة فى العبادات والمعاملات . فلا مصلحة فى المشقة : «قد علمنا من موارد الشرع ومصادره أن مطلوب الشرع هو مصالح العباد فى دينهم ودنياهم . وليست المشقة مصلحة ، بل الأمر بما يستلزم المشقة بمثابة أمر الطبيب باستعمال الدواء المر البشع . فإنه ليس غرضه إلا الشفاء ، ولو قال قائل كان غرض الطبيب أن يوجد مشقة ألم مرارة الدواء لما حسن ذلك فيمن يقصد الأصلح

وقيل فى بعض كتب الله : « بعينى ما يتحمل المتحملون من أجلى » .. فلا يصح التقرب بالمشاق .

ومن آرائه أنه من الممكن تأخير بعض المصالح لما لتأخيرها من مفسد فقد أخر الله إيجاب الصلاة والصيام ، « ولو عجل بها لنفروا من الدخول فى الإسلام » .

— فى تحصيل المصالح يراعى الأفضل فالأفضل لقوله تعالى : « فبشر عبادى الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه » . وقوله « واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم » .

وعلى ذلك :

— فإنقاذ الغرقى مقدم على أداء الصلوات لأنه أفضل عند الله من أداة الصلاة والجمع بين المصلحتين ممكن بأن ينقذ الغريق ثم يقضى الصلاة . ومعلوم أن ما فات من أداء الصلاة لا يقارب إنقاذ نفس مسلمة من الهلاك .

— لورأى الصائم فى رمضان غريقا لا يتمكن من تخليصه إلا بالتقوى بالفطر فإنه يفطر وينقذه . لأن فى النفوس حقا لله تعالى وحقا لصاحب النفس ، فقدم ذلك على أداء الصوم .

— لا يتقدم فى ولاية الحرب إلا أشجع الناس وأعرفهم بمكائد الحرب والقتال ، وقد جاء فى الحديث الشريف : « من ولى من أمر المسلمين شيئا ثم لم يجهد لهم ولم ينصح فالجنة عليه حرام . »

— الأئمة « الحكام » البغاة لا ولاية لهم . وإنما نفذت تصرفاتهم وتولييتهم لضرورة مصلحة الرعايا ، وأنه مع غلبة الفجور عليهم لا انفكاك للناس منهم . وأما أخذهم الزكاة فإن صرفوها فى مصارفها أجزأت ، وإن صرفوها فى غير مصارفها لم يبرأ الأغنياء منها . ومصالح الفقراء أولى من مصالح الأغنياء لأنهم يتضررون بعدم أخذ نصيبهم من الزكاة ، ولا يتضرر به الأغنياء من تشية الزكاة .

— دفع المشقة واجب فيجوز لبس المخيط فى الحج وكذلك الطيب والذهن وقلم الأظفار .

— يجوز التيمم للمشقة كالخوف من حدوث المرض من ماء الوضوء أو خوف إبطاء الشفاء . أو إذا غلا ثمن الماء وأصبح الحصول عليه مشقة أو إذا احتاج الإنسان إلى ثمنه فى سفر أو نحوه .

— يجوز للمرأة أن تتيمم بدلا من الوضوء بالماء إذا كان الماء يؤذى جمال وجهها . كأن يظهر عليه من أثر الوضوء فى الشتاء ما يشين هذا إذا كان الوضوء يؤثر على جمال المرأة فى وجهها أجاز لها الشافعى أن تتيمم وهذا

— من أطلق لفظا لا يعرف معناه لا يؤخذ بمقتضاه كمن لفظ بكلمة الخلع أو الطلاق وهو لا يعرف

أحكامها فلا يترتب حكم على ما قال .

— لو عم الحرام الأرض بحيث لا يوجد فيها حلال ، جاز أن يستعمل من ذلك ما تدعو إليه الحاجة ، ولا يقف تحليل ذلك على الضرورات لأنه لو وقف عليها لأدى ضعف العبد واستيلاء أهل الكفر والعناد على بلاد الإسلام ... ويقتصر على ما تمس إليه الحاجات دون أكل الطيبات وشرب المستلذات وشرب الناعمات .. « ولودعت ضرورة واحدا إلى غضب أموال الناس لجاز له ذلك بل يجب عليه إذا خاف الهلاك لجوع أو برد ، وإذا وجب هذا لإحياء نفس واحدة ، فما الظن بإحياء النفوس . فتورة المغصوبين على الغاصب واجبة . »

— إذا سرق إنسان مالا سرقة موجبة لقطع اليد لم يجب عليه الإعلام أى الاعتراف بالسرقة ، بل يغير مالك المسروق بأن له عليه مالا ، ويرده إليه أو يعرضه عنه إن كان قد تلف . ولا يتعرض لذكر السرقة فإن رد السارق المال أو عوضه أبرأه منه المسروق فقد برئ السارق ، وإلا وجب قطع يده فهو حد من حدود الله .

— الوسائل تسقط بسقوط المقاصد . فلا يجوز ضرب الصبي للصلاة إذا لم يثمر الضرب . فهذا الضرب ينفره من الصلاة

إذا اختلف الزوجان فى متاع البيت فادعاه كل منهما ، أو ادعى أحدهما الاشتراك فى الجميع فإن الشافعى يسوى بينهما نظرا إلى الظاهر . وبعض العلماء يخص كل منهما بما يليق به نظرا إلى العادة الغالبة . وهذا أصوب فإذا كان الزوج جنديا وادعت الزوجة ملكية السلاح والخيل أو ادعى هو ملكية أدوات زينتها ، فإن ما يختص بالرجال يصير للزوج وما يختص بالنساء لا يصير للمرأة . على خلاف ما يقول الشافعى .

— إذا اختلف الزوجان فى النفقة فالشافعى يجعل القول قول المرأة لأن الأصل عدم قبضها ، ومالك يجعل القول للزوج لأنه الغالب فى العادة وقول مالك أحسن .

— الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر . فهي تحقق مصلحة للأمة ، والصلاة التى لا تحقق هذه المصلحة لا جدوى منها ولا يقبلها الله . فالصلاة أمر بالسيرة الحسنة ومكارم الأخلاق .

— الكذب حرام ولكنه جائز لتحقيق مصلحة .. كالإصلاح بين الناس أو الكذب على الزوجة لتقومها .

ولاحظ الشيخ أن بعض المشعوذين ينسبون أنفسهم إلى الزهد والتصوف ويسيئون إلى الشريعة

ذلك أنهم اقترفوا المنكرات ولبسوا المرقعات ، وادعوا أنهم قد سقطت التكالييف عنهم فليس عليهم صلاة ولا صيام ولا زكاة ولا حج ..

وتصدى لهم فسفه سلوكهم ، ومدح الأقطاب الكبار من أئمة الصوفية ، وكانت له صلوات مودة أو معرفة بآراء بعضهم كالشاذلى والعباس المرسى وإبراهيم الدسوقي والسيد أحمد البدوى .

وكان يحترم هؤلاء ويحضر تلاميذه على الأفادة منهم فيقول : « اسمعوا كلامهم فهو قريب العهد بنسب الحقيقة . » وكانوا هم يقولون عنه : « مامن مجلس فى الفقه أبهى من مجلس الشيخ عز الدين عبد السلام . »

وشرع وهو يعلم تلاميذه أن الزهد ليس هو ما يفعله عامة الصوفية الذين يسيثون إلى التصوف : لاهو تعذيب النفس ولا لبس المرقعات . « وليس الزهد هو خلو اليد من المال ولكن هو خلو القلب من التعلق بالمال . فليس الغنى بمناف للزهد » . وقد كان عبد الله بن المبارك والليث بن سعد وهما من أغنى الأغنياء من أزهد الناس .

وسمى التصوف علم الحقيقة وهى معرفة أحوال الباطن ، والشرعية تستغرقه لأنها تتناول الظاهر والباطن جميعا . « فكل حقيقة لاشريعة لها فهى عاطلة ، وكل حقيقة لاشريعة لها فهى باطلة . وليست الحقيقة خارجة من الشريعة بل الشريعة طافحة بإصلاح القلوب بالمعارف والأحوال . فعرفة أحكام الظواهر معرفة لجل الشرع ومعرفة أحكام البواطن معرفة لبعض الشرع ولا ينكر ذلك كافر أو فاجر .

وهكذا أحسن التوفيق والمزاوجة بين الغصون والشرعية والتصوف . وقال : الشريعة مجاهدة والحقيقة مشاهدة ولا تباين بينهما إذ الطريق إلى الله سبحانه وتعالى لها ظاهر وباطن . فظاهرها الشريعة وباطنها الحقيقة .. والحقيقة والشرعية يجمعهما كلمتان هو قوله : إياك نعبد وإياك نستعين فإياك نعبد شريعة وإياك نستعين حقيقة . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « العلم علما علم باللسان وعلم بالقلب . »

وفرق بين الإسلام والإيمان : « فالإسلام هو قيام البدن بوظائف الأحكام ، والإيمان هو قيام القلب بوظائف الأستسلام . والإحسان أن تعبد الله كأنما تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك فتكون قائما بوظائف العبودية مع شهوده إياك . »

وكتب عن المحبة الألهية شعرا جاء فيه :

نار المحبة أحرقت أحشائى
ومدامعى تنهل كالأنواء
فأنا الحريق بأضلعى وأنا الغريق بأدمعى ،
يامنقذ الغرقاء !

ومن العجائب أن نار تحرقى
فالنار والماء القراح تأكفا

تزداد وقدأ عند فرط بكائي !
هذا لعمري أعجب الأشياء !

فالمحبة تكمن فى ذات المحب وتسلبها صفاتها كما تكن النار فى ذاتية الماء الحار فأنت تظنه فى الصورة ماء يغرق وهو فى الحقيقة نار تحرق ، فإن قلت أن المحرق هو النار فأين الماء ؟ ! وإن قلت المغرق هو الماء فأين النار ؟ !

وللشيخ سبحات صوفية عديدة أودعها كتابه « حل الرموز ومفاتيح الكنوز » . وقد عنى فيها بشرح الغامض من أقوال شيوخ الزهد والتصوف . واستشهد ببعض أقوال الإمام على كرم الله وجهه وهو إمام الزاهدين : « سئل على رضى الله عنه هل عرفت الله بمحمد أو عرفت محمدا بالله ؟ فأجاب لو عرفت الله بمحمد ما عبدته ولكن محمدا أوثق فى نفسى من الله . ولو عرفت محمدا بالله لما احتججت إلى رسول الله . ولكن عرفنى نفسه بلا كيف كما شاء وبعث محمدا صلى الله عليه وسلم بتبليغ أحكام القرآن وبيان معضلات الإسلام والإيمان وإثبات الحجة وتقوم الناس على منهج الإخلاص فصدقت بما جاء به . »

و يعلق الشيخ على هذا : « يستحيل الوصول إلى شىء من معرفة الله بغير الله ولا سبيل إلى معرفة الله إلا بالله . »

و يكتب دروسه فى التفسير ، فتحس فيها آثار الفكر الأشراقى الذى تعلمه فى صباه عن السهروردى .. ومثال ذلك تفسيره للآية الكريمة : « الله نور السماوات والأرض . » قال الشيخ : جاء فى الحديث الشريف إن الله خلقهم من ظلمة ثم رش عليهم النور فن أصابه ذلك النور اهتدى ، ومن أخطأه ضل . ويضيف الشيخ : معرفة العبد لربه هو نور الله الذى يقذفه فى قلب عبده فيدرك بذلك أسرار ملكه و يشاهد غيب ملكوته و يلاحظ صفات جبروته ثم تنزل قوة إدراكه على مقدار ما أفيض عليه من ذلك النور .

ثم يفسر سورة العصر بظاهرها فالناس خاسرون إلا فى اجتماع فيه أربع أوصاف : الإيمان ، والعمل الصالح ، والتواصى بالحق ، والتواصى بالصبر .

وقال إن الصحابة كانوا إذا اجتمعوا لم يفتروا حتى يقرءوا : « والعصر . إن الإنسان لفى خسر ، إلا الذين آمنوا ، وعملوا الصالحات ، وتواصوا بالحق ، وتواصوا بالصبر . »

وتحدث فى التفسير عن أنواع المجاز فى القرآن من مجاز الحذف كحذف القسم أو المبتدأ أو الخبر أو بعض حروف الجر ثم أنواع المجاز المعروفة فى علوم البلاغة والبيان ، ثم تحدث عن الكناية فى القرآن .

وضرب لكل ذلك أمثلة بآيات القرآن مرتبة حسب المصحف . وضمن ذلك كتابه « الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز » .

وقد ذهب بعض مؤرخي المتصوفة إلى أن العز تصوف ، ولكن الأستاذ محمد حسن عبد الله ينفي ذلك عنه ويذهب إلى أن التصوف يخالف طبيعة الشيخ عز الدين .. وهذا حق فقد كان بعض التصوف في عصر الشيخ هروبا من الواقع ، وكان الشيخ من أشد الناس جسارة في مواجهة الواقع ، وأنشطهم إلى تغييره . فقد ظل يواجه عصره ويقاوم مفسده ويصك المجتمع بمواقف رائعة ، وكان إلى كل ذلك زاهدا من أولئك الزهاد العظام الذين يفرضون بالقول والموقف والسيرة قيما شريفة فاضلة على مجتمع تمتن فيه الفضائل ويشقى به الشرفاء !

ومهما يكن من أمر الشيخ فقد كتب في التصوف وشرح أحوال الصادقين من المتصوفة ، ودافع في شعره عن سماع الأذكار وأناشيد الصوفية في حلقات الذكر ..

وما كان يمكنه أن يتجاهل تيارا يحتاج العصر ، ولكنه رد التصوف إلى أصوله النبيلة في مجاهدة النفس لتتطهر من الهوى فلا تمتلئ إلا بالحقيقة ونور الحق ، وتناضل في سبيل الخير وتعمر الدنيا بالحب والعدل والجمال والحرية .

وللشيخ في التصوف شعر حسن

من ذلك قوله :

أيا العاشق معنى حسنا	مهرنا غال لمن يطلبنا
جسد مضنى وروح فى العنا	وجفون لا تذوق الوسنا
وفؤاد ليس فيه غيرنا	فإذا ماشئت أذ الثمنا
فافن إن شئت فناء سرمدا	فالفنا يقضى إلى ذاك الغنى
وأخلق النعلين إن جئت إلى	ذلك الحى ففيه قد سنا
وعن الكونين كن منخلعا	وأزل ما بيننا من بيننا
وإذا قيل من تهوى فقل	أنا من أهوى ومن أهوى أنا

ومن ذلك قوله فى تجلّى الله على قلب عبده المؤمن « يشاهده بعين يقينه ، ويجليه ببصر بصيرته من غير حلول ولا تحيز ولا انفصال ولا اتصال » :

وأشهدنى ذاك الجمال المعظما

ولما تجلّى من أحب تكرما

تعرف لى حتى تيقنت أننى
وفى كل حال أجتليه ولم يزل
وما هو فى وصلى بمتصل ولا

أراه بعينى جهرة لا توها
على طور قلبى حيث كنت مكلما
بمنفصل عنى وحاشاء منها

ومن شعره فى العشق الألهى :
شربت حيا حبكم مذعرفتكم
فلا مورد للعالمين كموردى
فلى رتبة تعلق على كل رتبة

على ظمأ منى فزاد تلهيى
ولا مشرب للعاشقين كمشرى
ولى منصب يسمو على كل منصب

وهو يعنى رتبته من الزهد ، وانشغال قلبه بغير الدنيا ، مما جعله فوق الطمع والرغبة فى الدنيا ، فما يخاف ولا يخاف ولا يرجو إلا الله تعالى ، وهذا هو منصبه الدينى وهو أعلى من كل منصب دنيوى .
وقال :

حبه راحتى وروح حياتى
وإذا ما مرضت فهو طبيبى
وإذا ما ضللت أو ضل ركب
يا عذيرى فكن عليه عذيرى
إن تلمنى أولا تلمنى فإنى
وقال :

وكذا ذكره بلاغى وزادى
كلما عادنى بلغت اعتمادى
عن حماه فوجهه لى هادى
أوقل لى ما حيلتى واعتمادى
حبه مذهبى وحسن اعتقادى

فلو شاهدوا معنى جالك مثلما
خلعت عذارى فى هواك ولم يكن
ومزقت أثواب الوقار تهتكاً
فما فى الهوى شكوى ولو فرق الحشا
وكم كنت من خوف الهوى أتقى الهوى
وقال من قصيدة طويلة :

شهدت بعين القلب ما أنكروا الدعوى
خليع عذار سره فى الهوى نجوى
عليك وطابت فى محبتك البلوى
وعار على العشاق أن يعلنوا الشكوى
ولكننا حكم الهوى غلب التقوى

لئن كان جزؤك جزءاً صغيراً
وقال يلوم الذين أساءوا إلى التصوف فى عصره ،
ليس التصوف عكازاً ومسبحة
وأن تروح وتغدو فى مرقعة
وتظهر الزهد فى الدنيا وأنت على
ففيك انطوى العالم الأكبر
من لابسى المرقعات ومرتكبى المنكرات :
وكلا ولا
وتحتها موبقات الكبر والسرف
عكوفها كمكوف الكلب فى الجيف

وقال فيهم ، وفي المخلصين من أهل التصوف :

ذهب الرجال وحال دون مجاهم	زمر من الأوباش والأنذال
زعموا بأنهم على آثارهم	ساروا ولكن سيرة البطال
قطعوا طريق السالكين وأظلموا	سبل الهدى بجهالة وضلال
عمروا ظواهرهم بأثواب التقى	وحشوا بواطنهم من الأدغال
إن قلت قال الله قال رسوله	همزوك همز المنتهى المتغالى
تركوا الشرائع والحقائق واقتدوا	بطرائق الجهال والضلال
وترصدوا أكل الحرام تخادعا	كتخاذع المتلصص المحتال
فهناك طاب المخلصون وأصبحوا	متسترين بصورة الأشكال
عملوا بما علموا وجاءوا بالذى	وجدوا وما بخلوا بفضل نوال
وعيونهم تجرى بفيض دموعهم	مثل انهمال الوابل الهطال
تاهوا على كل الملوك وإنهم	لهم الملوك بعزة الإقبال
بوجوههم أثر السجود لرهم	وبها أشعة نوره المتلالى
لا ينظرون إلى سوى محبوبهم	شغلوا به عن سائر الأشغال
واخية الآمال إن أقصيتنى	عن قصدهم ياخية الآمال
فهم إليك وسيلتى ياسيدى	هلا وصلت حباهم بحبالى

كان الشيخ يكتب الكتب بخطه أو يملئها على تلاميذه . وقد جاءه فى مصر عدد كبير من علمائها وسمعوا دروسه ، ولازموه معجبين بعلمه ومواقفه وغيرته للحق ، ودفاعه عن الشريعة وأحكامها لاييالى فى ذلك بشىء ولا يريد إلا وجه الله فأطلق عليه أحد علماء مصر ومتصوفها وهو ابن دقيق العيد . « سلطان العلماء » . وقال عنه لقد تحرر من سلطان الفقهاء السابقين ، وقاوم سلاطين الزمان فهو السلطان . ! .. وسماه آخرون شيخ الإسلام .

وتمر السنوات بالشيخ وهو فى عمله مطمئن البال آمن السرب يدرس ويخطب و يكتب .. ولكن قارعة تنزل ، فتتزع الشيخ من كل هذا .. فقد أنتشرت فى القاهرة أخبار غزوة صليبية تتجه إلى دمياط . بقيادة لويس التاسع . فوقف الشيخ تاركا كل أعماله ليدعو كل أفراد الأمة إلى الجهاد .

ولم يعد صوت يرتفع من على منابر المساجد إلا بالدعوة إلى الجهاد .. وهجر الشيخ كتبهم وحلقاتهم وذهبوا جميعا إلى دمياط للاشتراك فى الجهاد المقدس ، وانتقل السلطان إلى المنصورة ليكون قريبا من ميدان المعركة .. وزحف الفرنج إلى المنصورة وهناك انتصر المصريون على الصليبيين الفرنج

وأُسروا قائدهم لويس التاسع ملك فرنسا .

ومات السلطان فى المنصورة ثم تولى مكانه ابنه طوران شاه ، فقتله ممالك أبيه حرقا وغرقا . وتولت شجرة الدر ، وقتلت ، وتوالى أمراء الممالك بعد سقوط بنى أيوب كل يقتل صاحبه ويتولى مكانه !

وعاد الشيخ إلى القاهرة وعاد الشيوخ إلى حلقاتهم والجميع يطالبون ملوك المسلمين فى كل البلاد بأن يتحدوا ليواجهوا خطر الفرنج وخطر التتار ، ولكن بلا جدوى ! فإكان يشغل الملوك المسلمين غير ذهو السلطان وأبهة الملك !

وذاآ صباح روعت الدنيا باستيلاء التتار على بغداد عاصمة الخلافة الإسلامية وألقوا بمكتبتها العامرة فى ماء دجلة لتختلط الكتب بأشلاء العلماء والفقهاء وآلاف الضحايا الذين قتلهم التتار فى وحشية لم يعرف لها التاريخ مثيلا من قبل .

ومن جديد يطلق الشيخ عز الدين صيحته إلى الملوك والأمراء العرب والمسلمين أن يتفقوا فإاستباح التتار أرضهم وأعراضهم فى العراق إلا لأنهم تفرقوا .. !

وذهبت النداءات المخلصة أدراج الرياح .. فزحف التتار إلى الشام واستولوا على حلب فى طريقهم إلى مصر !

وكان السلطان قطز على عرش مصر ، فجمع الأمراء والأعيان والعلماء ليتشاوروا فى أمر غزو التتار . ورأى قطز أن الحرب تقتضى مالا كثيرا وخزانة الدولة خاوية ، فلا بد من فرض ضرائب جديدة على الرعية لتجهيز جيش قوى يصد زحف التتار .

ووافق الأمراء الممالك على فرض ضرائب جديدة . إلا أن المعز بن عبد السلام قال : « إذا طرق العدو بلاد الإسلام وجب قتالهم . وجز أن لا يبقى فى بيت المال شىء من السلاح والسروج الذهبية والفضية والمزركشات ... وأن تبيعوا مآلكم من الحوائص « أحزمة الخيل » الذهبية والآلات الفضية . ويقتصر كل الجند على سلاحه ، ومركوبه ويتساوا هم والعامه .. وأما أخذ الأموال من العامة مع إبقاء الأموال والآلات الفاخرة فى أيدي الجند ، فلا » .

واقتنع السلطان بهذا الكلام فكان الأمر كما قال الشيخ ، ولم يقرر السلطان ضرائب جديدة ، وبيعت الأشياء الثمينة التى يمتلكها الأمراء والجند الممالك وجهاز بثمانى جيشا ضخما .

كان الشيخ فى الثمانين ، مضى من مقارعة الخطوب والمكاره ومن السن ، فلم يستطع أن يخرج مع الجيش كما خرج إلى دمياط ، ولكن شباب العلماء والقادرين خرجوا مع الجيش ، والتقى الجمعان فى

عين جالوت فأوقع الجيش المصرى بقيادة قطز بالتار هزيمة منكرة لم تقم لهم بعدها قائمة !

وفى طريق العودة وثب الظاهر بيبرس على قطز فقتله وتولى مكانه ، واستأثر هو بكل ما منحته الجباهير لقائد الجيش المنتصر من إعجاب وترحاب .. !

عاد الظاهر بيبرس إلى مصر يتلقى البيعة ، فلم يبايعه الشيخ عز الدين بل قال له : « ما أعرفك حرا لأبايعك . وما أعرفك إلا مملوكا للبندقدار . (والبندقدار هو الذى يحمل كيس البندق للسلطان أثناء الصيد) . فأنت عبد لا تصلح لتولى الأمر . فالشرط أن يكون ولى الأمر حرا » .

وأثبت الظاهر بيبرس أنه أعتق وأنه قد أصبح حرا ، فبايعه الشيخ آخر الأمر بعد أن تأكد بكل الطرق الشرعية أن السلطان حر ..

لم يستقر الظاهر بيبرس على عرشه إلا بعد أن بايعه الشيخ العز عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام وهو يقترب من الثالثة والثمانين ، وقد كبر أبنائه وأحفاده وأصبح ابنه عبد اللطيف أحد علماء مصر .

ها هو ذا الشيخ يخطو وثيدا إلى الثالثة والثمانين ، وقد تخرج على يده أئمة ، وأرسى تقاليد للقضاة والفقهاء والعلماء ، وترك ميراثا عظيما من جسارة المواقف .

ومهما يكن حظه من الفقه ، فقد كان داعية إلى التجديد ، عدوا للتقليد يعيب على أتباع المذاهب تجمدهم عند مذاهبهم حتى حين يبدو لهم الخطأ فى بعض الفروع أو الأصول .. وكان يقول لهم : إننا لم نؤمر بتقليد الصحابة فكيف نقلد الأئمة أصحاب المذاهب ؟ ..

وكان هو نفسه شافعيًا ولكنه لم يتقيد بالمذهب الشافعى ، وخالفه وأخذ بغيره أو اجتهد رأيه بقدر ما استطاع ، وبقدر ما سمحت له ظروف عصره .

وفى الحق أن دعوته أثمرت فعدل بعض المقلدين عن التقليد ..

وإنه الآن ليطلق أبواب الثالثة والثمانين .. لكم مربه من أهوال فى قراع الباطل ، ومصاولة البغى ، وفى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ! ! ..

وأن للشيخ أن يستريح .

مرض وغلبه الوهن ، فأدرك كل من عرفوه أنه مفارقهم ، وحدثهم أنه سيفارقهم إلى جوار الله عندما يبلغ الثالثة والثمانين ، كما تنبأ لنفسه من قبل .

وعاده السلطان الظاهر بيبرس فى مرضه ، ورآه يشرف على التلف ، فاستأذنه فى أن يعين أبناءه مكانه فى مناصبه ، فقال له الشيخ : « ما فيهم من يصلح ، والمدرسة الصالحية للقاضى تاج الدين . » وكانت أخبار كراماته قد ذاعت ، وكان هو يكذب أن له كرامات .

فحين أشرف الشيخ على الموت أذاعوا عنه أنه عندما قدم الصليبيون دمياط بقيادة الملك لويس التاسع ، وهبت الريح لصالح سفائن الفرنج ، دعا الشيخ ربه أن يغير اتجاه الريح ، فتغيرت لصالح المسلمين وكان هذا هو سبب الانتصار .. !!

وحكوا أن صديقا من ريف مصر اسمه البتاجى تعود أن يهديه هدايا من خيرات الفلاحين ، فأهداه حل جل من الهدايا وكان فيها إناء جبن ، فسقط فى الطريق فانكسر ففسد الجبن ، وأخذ حامل الهدية يصرخ ، فجاءه رجل رومى فسأله فحكى له أن الجبن قد فسد ، فقال له الرومى أنا أعطيك خيرا منه ، وأعطاه إناء جبن . وعندما وصلت الهدايا إلى الشيخ تقبلها ورد إناء الجبن قائلا أنه عرف فيه ريح الخنزير فقد صنعت امرأة رومية متنجسة

وكان الشيخ وهو على فراشه يسمع حكايات أخرى عن كرامته ، فيغضب وينكر ما يسمع ، ويستغفر الله لنفسه وللرواة ، ويطالب الناس ألا يبالغوا فيما يحكون عنه فما هو إلا عبد فقير لله عمل جهده ليفيد الناس و يقيم الشريعة و يدافع عن السنة ويميت البدعة و يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر .. وبلغ الثالثة والثمانين ، فطلب إلى أبنائه أن يسندوه إلى المدرسة الصالحية التى تعود أن يدرس فيها .. وكان شديد الضعف من المرض ، فحاولوا أن يشنوه ولكنه صمم .. !

وساندوه إلى المدرسة ، فألقى الدرس ..

وكان درسه الأخير ، فقد مات فى المدرسة وهو يفسر الآية الكريمة : الله نور السموات والأرض .

فاضت روحه .. لتعود إلى نور السموات والأرض ، التى نعمت من فيضه طوال الحياة

وشيعته مصر كلها برجالها وأطفالها ونسائها .. وأمر السلطان الأمراء أن يحملوا نعش الشيخ ، واشترك معهم السلطان نفسه فى حمل النعش .

وأقيمت له فى دمشق جنازة ضخمة وصلوا عليه صلاة الغائب .

وحين استقر جثمان الشيخ آخر الدهر تحت سفح المقطم ، وعاد السلطان الظاهر بيبرس إلى قصر ملكه تنفس الصعداء وقال : « الآن استقر أمرى فى الملك لأن هذا الشيخ لو كان يقول للناس : أخرجوا عليه لانتزعوا الملك منى »

لقد صدق الظاهر بيبرس !!

فقد كان الشيخ سلطانا فوق السلاطين ! . كان سلطان العلماء !

رقم الإيداع : ١٩٩٠/٩٦٦٦
التقديم الدولي : ١ - ١٠٧٨ - ٠٩ - ٩٧٧

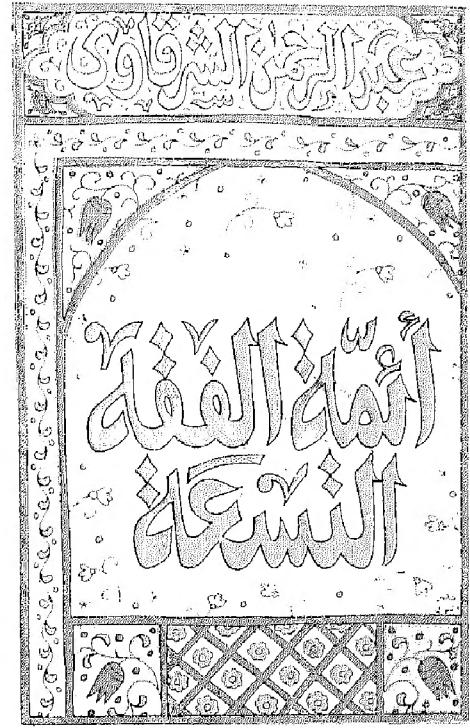
مطابع الشروقة

المتاحف: ١٦ شارع جرّاد حسي - هاتف : ٣٩٣٤٥٧٨ - ٣٩٣٤٨١٤
بيروت: ص ب : ٨٠٦٤ - هاتف ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣

لمستحدثات الأمور ، متأثرين بالبيئات
الجديدة محترمين الأعراف والعادات السائدة
عندما لا تتعارض مع نصوص الشريعة
الإسلامية أو روحها السمحة .

وقد نشأ من أهل البلاد المفتوحة علماء
وفقهاء أثري بهم الفقه الإسلامى .

وهامى صفحات من نضال هؤلاء العلماء
والفقهاء تتقصى مواقفهم من الحياة والناس ،
وترسم صوراً لهم ، عسى أن نجد فيها المثال
الحى وأن تثير همّة المسلمين في هذا العصر
علمهم ينهضون ببعض ما نهض به السلف
الصالح .



أثر الإسلام على نحو ما ، في جميع الذين
يعيشون على أرض الإسلام ، فهو ميراثهم
العظيم مهما تكن دياناتهم .. فقد ترسبت
قيمته الفاضلة في نفوسنا وشكلت عدالته
مجتمعات كثيرة عبر التاريخ .

وقد زحف الفرسان الأوائل ليحرروا
الشعوب المستعبدة في الامبراطوريات القديمة
ورأوا رعايا تلك الامبراطوريات يدخلون في
دين الله أفواجا ، تخلصا للنفس من الهوان ،
وذلل الاستعباد ، وآلام الظلم .

وكان أولئك الفرسان المسلمون محاربين
بواسل وكانوا أيضا دعاة عدل وحضارة
وحرية ، وكانوا علماء وما فتحوا البلاد
باحثين عن مغنم ، ولكن محررين ورعين
وحملة مبادئ نشرها بين الناس . وكان هذا
كله ميلاد لعصر جديد . وجاء من بعدهم
خلف عظيم ، من أهل الجزيرة العربية أو من
أهل البلاد المفتوحة ، أحسنوا نشر التعاليم
وسرعوا في استنباط الأحكام الشرعية

دار الشريعة

القاهرة : ١٦ شارع جواد حسنى - هاتف : ٣٩٣٤٥٧٨ - ٣٩٣٤٨١٤
بيروت : ص . ب : ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٩١٣